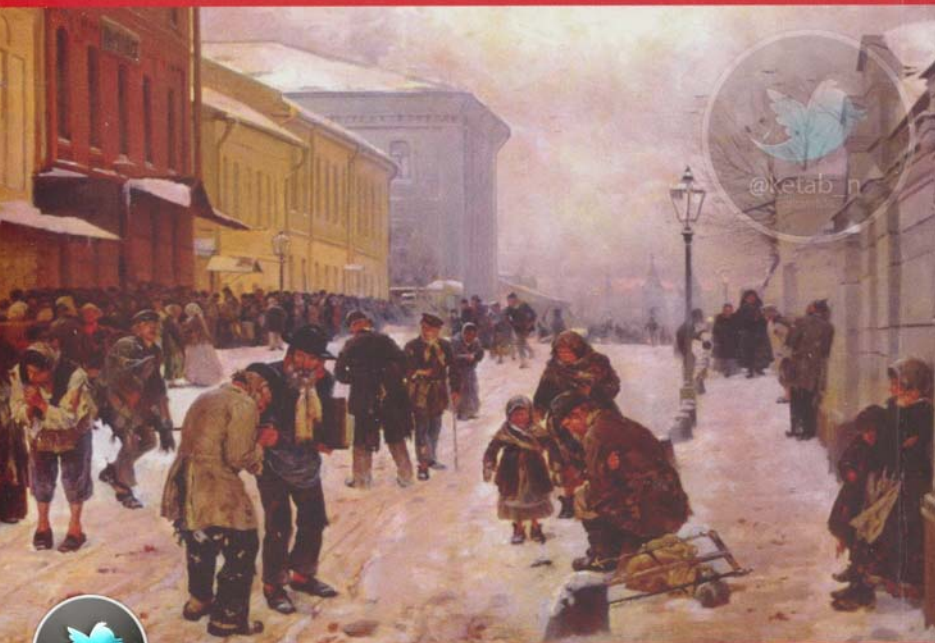


إيفان تورغينيف



المؤلفات المختارة

20.4.2015

• الآباء والبنون • في العشيّة

ترجمة

غائب طعمة فرمان - خيرى الضامن



إيفات تورغنيف

الآباء والبنون
في العشية

ترجمة غائب طعمة فرمان

ترجمة

غائب طعمة فرمان- خيري الضامن



الأباء والبنون في العشية

Author: Ivan Turgenev
Title: Fathers and Sons
 On the Eve
Translator: Gaeb Tohme Faraman
 Khairi Al Damen
Cover designed by: Majed AlMajedy
P.C. : Al-Mada
First Edition: 2014

المؤلف: إيفان تورغينيف
عنوان الكتاب: الآباء والبنون
 في العشية
ترجمة: غائب طعمة فرمان
 خير الضامن
تصميم الغلاف: ماجد الماجدي
الناشر: دار المدى
الطبعة الأولى: 2014

copyright©Al-Mada

جميع الحقوق محفوظة



للإعلام والثقافة والفنون

Al-mada for media, culture and arts

+ 964 (0) 770 2799 999 + 964 (0) 770 8080 800 + 964 (0) 790 1919 290	بغداد : حي ابو نؤاس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141 Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141 www.almada-group.com email: info@almada-group.com
+ 961 175 2616 + 961 175 2617	بيروت: الحمرا- شارع ليون- بناية منصور- الطابق الاول www.daralmada.com info@daralmada.com
+ 963 11 232 2276 + 963 11 232 2275 + 963 11 232 2289	دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 آبار ص.ب: 8272

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced or stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means; electronic, mechanical, photocopying, recoding or otherwise, without the prior permission in writing of the publisher.

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو تخزين أي مادة بطريقة الاسترجاع، أو نقله، على أي نحو، أو بأي طريقة سواء كانت الكترونية أو ميكانيكية، أو بالتصوير، أو بالتسجيل أو خلاف ذلك، إلا بموافقة كتابية من الناشر مقدماً.

في العشيّة

ترجمة غائب طعمة فرمان

في يوم من أشد الأيام قيظاً من صيف ١٨٥٣ كان شابان يستلقيان على العشب في ظل شجرة زيزافون عالية على شاطئ نهر موسكو، غير بعيد عن كونتسوفو. كان أحدهما، وهو شاب طويل القامة، أسمر البشرة، أسود الشعر، ذو انف حاد معوج بعض الشيء، وجبين عال، في نحو الثالثة والعشرين كما يدل مظهره، مستلقياً على ظهره، ينظر إلى البعيد في استغراق، وقد قلص قليلاً عينيه الرماديتين الصغيرتين، ورسم على شفثيه العريضتين ابتسامة متحفظة. وكان الثاني يرقد على صدره، وقد أسند رأسه الأشقر الشعر، والأجعد على يديه كليهما، متطلعاً أيضاً إلى البعيد. كان أكبر سناً من رفيقه بثلاث سنوات، ولكنه يلوح أصغر منه بكثير، وقد طر شارباه أو كادا، وعلى ذقنه زغب خفيف. وكان في القسمات الدقيقة لوجهه المدور الغض، وفي عينيه البنيتين العسليتين، وشفثيه الجميلتين البارزتين، ويديه البيضاءين شيء طفولي حلو، شيء رشيق على نحو جذاب. وكان كل شيء فيه يفوح بمرح العافية السعيد، يفوح بالفتوة - بخلو البال، وبالثقة بالنفس، والدلال، بسحر الشباب. كان يقلب عينيه، ويتسمم، ويسند رأسه، وكل ذلك على طريقة الصبيان الذين يعرفون ان الابصار تتطلع إليهم بلطف. كان يرتدي معطفاً أبيض فضفاضاً أشبه بالبلوزة، ويلف على رقبته النحيلة منديلاً أزرق، وقد انظرحت قبعة قش مدعوكة على العشب، بالقرب منه.

كان رفيقه، بالقياس إليه، يبدو عجوزاً، وما كان لأحد أن يظن، وهو ينظر إلى شكله النافر، بأنه هو الآخر كان يستمتع، ويحس بالارتياح. كان يرقد في وضع غير مريح، ورأسه الكبير العريض من الأعلى، والضيق إلى

الاسفل، يستقر على رقبته الطويلة بطريقة خرقاء. وكان الثاقل يبدو حتى في وضعية يديه، وفي جذعه المشدود بأحكام بسترة سوداء قصيرة، ورجليه الطويلتين بركبتها المرفوعتين، الشبيهتين بقائمتي الجندب الخلفيتين. ومع كل هذه الاوصاف لا يفوت المرء أن يرى فيه رجلاً حسن التربية، فأن طابع «الاستقامة» كان يبدو في كل كيانه المتخلخل، كما أن وجهه غير الوسيم، بل والمضحك بعض الشيء، كان ينم عن تعوده على التأمل، وعن الطيبة. كان يدعى اندريه بيتر وفيتش بيرسينيف. وكان اسم رفيقه الشاب الاشقر الشعر بافل ياكوفليتش شوبين.

ابتدر شوبين يقول:

- لماذا لا تستلقي على صدرك، مثلما استلقي أنا؟ ذلك احسن بكثير. لا سيما حين ترفع ساقيك، وتضرب كعبيك أحدهما بالآخر. هكذا. والعشب قرب انفك. وحين تمل من التطلع إلى المنظر الطبيعي انظر إلى حشرة منتفخة البطن، كيف تدب على العشب، أو إلى غملة، وكيف تروح وتجيء. حقاً، ذلك أفضل. وإلا فها أنت الآن قد اتخذت وضعاً كلاسيكياً مزيفاً، تماماً كراقصة الباليه، حين ترتفق على طُنف كارتوني. تذكر أن لك الآن كامل الحق في الاستراحة. فليس مزاجاً أن تحصل على درجة علمية وتصبح مرشحاً ثالثاً. استرح، سير. وكف عن التصلب. ارخ اطرافك!

نطق شوبين بكل هذا الكلام بخُنة، في شبه تكاسل، وفي شبه مزاح (الأطفال المدللون يتكلمون بهذا الشكل مع أصدقاء العائلة الذين يجلبون لهم الحلوى)، واستطرد قائلاً، دون أن ينتظر رد صاحبه:

- أكثر ما يبهرنني في النمل والخنافس وغيرها من السادات الحشرات جديتها المدهشة. أنها تركض رواحاً ومجياً وفي مظهرها عظيمة وأهمية وكأن لحياتها معنى ما! حقاً فإن الإنسان، ملك الكائنات، المخلوق الاسمي، يتطلع إليها باهتمام، فلا يبدو عليها اكتراث به. والأكثر من ذلك

أن بعوضة ما تحط على أنف ملك الكائنات هذا، وتستخدمه طعاماً لها. هذا شيء مهين. ومن ناحية أخرى: بأي شيء تقصر حياتها عن حياتنا؟ ولماذا لا تبختر، إذا كنا نحن نسمح لأنفسنا بالتبخر؟ طيب، يا فيلسوف، حلّ هذه المسألة لي! لماذا أنت ساكت؟ ها؟

انتفض بيرسينيف وقال:

- ماذا؟

- ماذا! - كرر شوبين - أن صديقك يطرح أمامك أفكاراً عميقة، بينما أنت لا تستمتع له.

- كنت استمتع بالمنظر. انظر إلى هذه الحقول، كيف تلمع ساكنة في الشمس! (كان بيرسينيف يلفظ حرف السين بدلاً من حرف الشين).

قال شوبين:

- الوان عظيمة زاخرة. الطبيعة، بكلمة واحدة.

هز بيرسينيف رأسه.

- كان ينبغي أن تعجب بذلك أكثر مني. هذا ميدانك. فأنت فنان.

- لاء! هذا ليس ميداني - اعترض شوبين، وليس قبعته على قفاه - أنا لحام. وشغلي اللحم. تشكيل اللحم، الاكتاف، والاقدام، الايدي. وهنا لا يوجد شكل، ولا إكمال. أنفرط على كل الجوانب... ولا تستطيع أن تجمعها!

قال بيرسينيف مذكراً:

- ولكن هنا الجمال أيضاً. بالمناسبة، هل انتهيت من لوحتك المحفورة؟

- أي لوحة؟

- الطفل والعنز.

- إلى جهنم! إلى جهنم! إلى جهنم! - هتف شويين بصوت - ممطوط نظرت إلى أعمال الفنانين القدامى الحقيقيين، إلى الفن القديم، فحطمت لوحتي التافهة. أنت تشير علي إلى الطبيعة، وتقول: «هنا الجمال أيضاً». الجمال، بالطبع، في كل شيء، الجمال حتى في أنفك، ولكنك لا تستطيع أن تتسقط كل جمال. حتى القدامى لم يحاولوا أن يتسقطوه. بل هو انصب في خليقتهم من تلقاء نفسه، والله يعلم من أين أو لعله من السماء. كان العالم كله ملكاً لهم. ولكنه يعز علينا أن نحيط به على سعة. فاليد قصيرة. نحن نلقي الشص على نقطة واحدة صغيرة، ونتنظر، فإذا علق به شيء، فمرحى بك، وإذا لا يعلق...

واخرج شويين لسانه.

اعترض بيرسينيف قائلاً:

- على مهلك، على مهلك. هذه معاضلة. إذا كنت لا تتجاوب مع الجمال، ولا تحبه في أي مكان تلتقيه، فلن يظهر في فنك أيضاً. وإذا كان المنظر الجميل، والموسيقى الجميلة لا يقولان شيئاً لروحك، أريد أن أقول إذا أنت لا تتجاوب معهما...

- آخ، يا متجاوب! - قال شويين فجأة، وضحكك نفسه من كلمته المبتكرة، بينما غرق بيرسينيف في افكاره. ومضى شويين يقول: - لا، يا اخ، أنت ذكي، فيلسوف، مرشح ثالث في جامعة موسكو، من الفظاعة الجدال معك، لا سيما بالنسبة لي، أنا الطالب الذي لم يكمل دراسته. ولكنني أقول لك: ما عدا فني، لا أحب الجمال إلا في النساء... في الفتيات، وحتى هذا لم يكن إلا منذ بعض الوقت...

وانقلب على ظهره، ووضع يديه تحت رأسه.

مضت بضعة لحظات في صمت. كان سكون قيظ الظهرية يجثم على الأرض اللامعة الغافية.

وعاد شوبين يقول:

- بمناسبة النساء، كيف لا يستطيع أحد أن يسيطر على ستاخوف؟ هل رأته في موسكو؟
- لا.

- فقد عقله تماماً، العجوز هذا. يقضي أياماً كاملة قاعداً عند صاحبه افغوستينا خريستيانوفنا، ويسأم كثيراً، ولكنه يظل قاعداً. يحقد احدهما في الآخر، شيء سخيف... بل من المقرف النظر إليهما. عجيب! أن الله من على هذا الرجل بعائلة طيبة، فلا يقنع، ويريد افغوستينا خريستيانوفنا! أنا لا اعرف امقت من بوزها الوزي! قبل أيام، شكلت له صورة كاريكاتورية، على طريقة دانتان. فطلعت لا بأس بها تماماً. سأريك اياها...
فسأل بيرسينيف:

- ومثال يلينا نيقولايفنا النصفي؟ هل يتقدم في يدك؟

- لا، يا اخ، لا يتقدم. أن هذا الوجه يمكن أن يسلمك إلى القنوط. فأنت ترى أمامك خطوطاً صافية، حادة، مستقيمة. فتتصور أن التقاط الشبه ليس بالأمر الصعب ولكن ليس الأمر كذلك... لن تظفر به، مثل كنز. هل لاحظت كيف تصغي هي؟ لا تتحرك قسمة واحدة من قسما وجوها، سوى أن تعبير نظراتها يتغير باستمرار، وبسببها تتغير صورتها كلها. فماذا يمكن أن يفعل نحات في هذه الحال، ولا سيما إذا كان سيئاً؟ مخلوقة مدهشة... مخلوقة عجيبة.

اضاف ذلك بعد صمت قصير. فكرر بيرسينيف في اثره:

- نعم، أنها فتاة مدهشة.

- بينما هي ابنة نيقولاي ارتميفيتش ستاخوف! وبعد ذلك حاول أن تتناقش عن الدم، وعن الطبيعة.. الطريف أنها ابنته بالضبط، تشبهه،

وتشبه أمها، أنا فاسيليفنا. أنا احترم أنا فاسيليفنا من كل قلبي، فهي راعيتي. ولكنها بلهاء كالدجاجة. فمن أين اخذت يلينا طبيعتها؟ من اشعل هذه الجذوة؟ هذه مسألة أخرى، عليك أن تحلها، يا فيلسوف!

ولكن «الفيلسوف» كالسابق لم يجب بشيء! كان بيرسينيف، بشكل عام، لا يحب الكلام الكثير، وحين كان يتكلم، كان يتكلم بابتسار، وبلعثمات، وبتلويح زائد من يديه، أما في هذه المرة، فقد لفت روحه سكونة غير اعتيادية، اشبه بالتعب، والحزن، كان قبل وقت قصير قد انتقل إلى السكن في بيت خارج المدينة، بعد عمل طويل شاق، كان يرضيه خلال بضع ساعات في اليوم. وكان الاسترخاء وطيب الهواء ونقاوته، والوعي بادراك المرام، والحديث المتقلب الطليق مع صديقه، وصورة المخلوق الحبيب تبرز في خياله فجأة، كل هذه الانطباعات المختلفة والمتواشجة لسبب ما، انصببت فيه بشعور شامل واحد كان يهدئه، ويقلقه، ويستل قوته في وقت واحد... لقد كان شاباً شديداً متأثر جداً.

كان الظل تحت شجرة الزيزفون ندياً ساكناً، وكان الذباب والنحل الحائم تحتها يبدو وكأنما خفف من طنينه. وكان العشب الصغير النظيف، بلون الزمرد، لا يتمايل ولا تمازج فيه التلاوين الذهبية. كانت الانصال الطويلة تقف جامدة كالمسحورة، وعناقيد الازاهير الصغيرة الصفرة تتدلى جامدة على أغصان الزيزفون السفلي. كانت الرائحة الحلوة تنفذ إلى أعماق الصدر مع كل شهيق، ولكن صدرك كان يستنشقه بارتياح. وفي البعيد، وراء النهر، وحتى انطباق السماء كان كل شيء يلتمع، كل شيء يتألق، ومن حين لآخر كانت نسمة تهب هناك، وتخرق اللمعان وتزيد حدته، وكان الاغباش المشع يتماوج فوق الارض. والطيور لا يسمع لها صوت، فهي لا تغرد في ساعات القيقظ، ولكن الجنادب كانت تشقشق في كل مكان، وكان لطيفاً سماع صوت الحياة الحار هذا، وأنت في مكان ندي، والسكون يهدد إليك سنة من النوم، مثيراً فيك الاحلام.

وفجأة قال بيرسينيف معيناً لسانه بحركات يديه:

- هل لاحظت أي شعور غريب تثيره الطبيعة فينا؟ كل شيء فيها على درجة عالية من الامتلاء والصفاء، وأريد أن أقول، الاكتفاء بالنفس، ونحن ندرك ذلك، ونستمتع به، والطبيعة في الوقت ذاته، على الأقل بالنسبة لي، تثير دائماً قلقاً، فزعاً، بل وشجنأ. ما يعني هذا؟ اعني أننا، حين نقف أمامها، ونجابهها، نعي أكثر بعدم امتلائنا، وغموضنا، أم لا يكفيننا ما يُشعرها هي بالاكتفاء، في حين الشيء الآخر، وأريد أن أقول، الشيء الذي نحتاجه لا نجدّه فيها؟

قال شوبين:

- حم. سأقول لك، يا اندريه بيتروفيتش، ما مبعث هذا كله. لقد وصفت أنت أحاسيس إنسان وحيد لا يعيش، بل ينظر فقط، ويصيبه الانبهار. فما فائدة النظر؟ عش حياتك، وستكون نعم الفتى. مهما طرقت باب الطبيعة، فلن ترد عليك بكلمة مفهومة، لأنها لا تنطق. سترن وتتن كالوتر، فلا تنتظر منها غناء. النفس الحية هي التي ترد، والنفس النسائية في الغالب الأعم. ولهذا، انصحك، أيها الصديق النبيل، أن توفر صديقة لقلبك، وستختفي أحاسيسك الشجية على الفور. هذا «ما نحتاجه» على حد تعبيرك. ذلك لأن هذا الفرع، هذا الشجن، ما هو إلا جوع من نوع خاص. قدم للمعدة طعاماً حقيقياً، وسيكون كل شيء على ما يرام. احتلّ موضعك من العالم، كن جسماً، يا اخي. ثم ما هي الطبيعة، وما شأنها هنا؟ أعزّ اذنك واسمع: الحب... أية كلمة قوية، حارة! الطبيعة... أي تعبير بارد، مدرسي للتلاميذ! ولهذا (وأخذ شوبين يغني) «تحيا ماريا بيتروفنا!» أو، لا - اضافة قاتلاً - ليس ماريا بيتروفنا، ولكن لا فرق! فومي كومبرنيه

رفع بيرسينيف جسمه قليلاً، واسند ذقنه على ذراعيه المطويتين. وقال
دون أن ينظر إلى صاحبه:

- ما الحاجة إلى التهكم، ما الحاجة إلى السخرية؟ ولكنك على حق.
الحب كلمة عظيمة، عاطفة عظيمة... ولكن عن أي حب تتحدث؟
رفع شوبين جسمه قليلاً أيضاً.

- عن أي حب؟ عن أي حب تشاء، فقط أن يكون موجوداً. واعترف
لك بأنني لا أظن أن هناك أنواعاً مختلفة من الحب. إذا أحببت...
فابتدر بيرسينيف قائلاً:

- من كل قلبي.

- نعم، هذا طبيعي، فالقلب ليس تفاحة ليقسم. فإذا أحببت، فأنت
على حق. ولكن لم يخطر في بالي أن استهزئ. فأن في قلبي الآن من
الرقعة ما يجعله ناعماً... أردت فقط أن أوضح لك، لماذا تؤثر الطبيعة فينا
هذا التأثير، حسب رأيك. لأنها تثير فينا الحاجة إلى الحب، دون أن تقدر
هي على تليتها. أنها تدفعنا بهدوء إلى أحضان أخرى حية، بينما نحن لا
نفهمها، ومنتظر منها شيئاً. آه، اندريه، اندريه، رائعة هذه الشمس، وهذه
السماء، ورائع كل ما حولنا، بينما أنت تحزن. ولكن لو أمسكت بيدك،
في هذه اللحظة، يد امرأة تحبها، ولو أن هذه اليد، وتلك المرأة كلها كانتا
ملكاً لك، بل ولو كنت تنظر بعينيها، وتشعر بعاطفتها، وليس بعاطفتك
الوحيدة، لما أثارته هذه الطبيعة فيك شجناً، يا اندريه، ولا فرحاً، ولما
صرت تلاحظ جمالها. ولا تهجت الطبيعة نفسها وغنت، وكأنما تردد
نغمك، لأنك، عند ذلك، كنت ستجعل لها، لهذه العاجزة عن النطق،
لساناً ينطق!

وثب شوبين على قدميه، ومشى مرتين أو نحوهما جيئة وذهاباً، بينما
احنى بيرسينيف رأسه، وغشيت وجهه حمرة خفيفة. قال:

- لست متفقاً معك تماماً. الطبيعة لا توحى لنا دائماً... بالحب (لم ينطق بهذه الكلمة رأساً). أنها تهددنا أيضاً. تذكرنا بالأسرار المخيفة، أجل، الاسرار التي لا تُنال. أليست هي التي ينبغي أن تبتلعنا، والتي تبتلعنا باستمرار؟ فيها الحياة والموت. وللموت صوت عال فيها، كما للحياة.

قاطعهُ شوبين قائلاً:

- وفي الحب أيضاً حياة وموت.

فمضى بيرسينيف يقول:

- ثم، مثلاً، حين أقف في الربيع، في غابة، في حرش اخضر، ويخيل اليّ أنني اسمع أنغاماً رومانسية لبوق اوبيرون. (اعتري بيرسينيف بعض الخجل، وهو ينطق هذه الكلمات). - أمعقول أن هذا أيضاً...

فأسرع شوبين يقول:

- ظمناً للحب، ظمناً للسعادة، ولا أكثر! أنا اعرف هذه الانغام أيضاً، واعرف أيضاً ذلك الحنان والتوقع اللذين يغمران النفس وهي في حمى الغابة، في أحضانها، أو عند المساء، في الحقول المكشوفة، حين تغرب الشمس، والنهر تتصاعد انفاسه وراء الاجمات. ولكنني أتوقع، وأريد السعادة من الغابة، ومن النهر، ومن الأرض، ومن السماء، ومن كل غيمة. ومن كل عشبة، وأحس في كل شيء باقترابها، واسمع نداءها! («ربي منير وبهيج!») بهذا بدأت احدى قصائدي. ولا بد أن تقر بأنه مطلع رائع، ولكن لم استطع أن اثّيه. السعادة! السعادة! ما دامت الحياة لم تنقض، وما دامت كل أعضائنا تحت سيطرتنا، ما دمنا نصعد التل، لا أن ننحدر منه! أوه، اللعنة! - مضى شوبين يقول في اندفاع فجائي - نحن شبان، ولسنا ذوي عاهة، ولا بلهأ. سنكسب السعادة لأنفسنا.

وهزّ خصلات شعره، ونظر إلى فوق، إلى السماء، بثقة في النفس، وبتحد تقريباً. رفع بيرسينيف إليه بصره. وقال بخفوت:

– كأنما لا شيء ارفع من السعادة، هيه؟

سأل شويين:

– مثلاً؟

– خذ هذا مثلاً، ها نحن، أنا وأنت شابان، كما تقول، ولنفرض أننا طيبان، وكل واحد منا ينتظر لنفسه السعادة... ولكن هذه الكلمة «السعادة» هي التي يمكن أن توحدنا، وتلهبنا نحن الاثنين، وتجعل أحدنا يمد يده للآخر؟ أليست أناية هذه الكلمة، أقصد أليست كلمة مفرقة؟

– وأنت هل تعرف الكلمات التي توحد؟

– نعم، وهي ليست قليلة، وأنت أيضاً تعرفها.

– حقاً؟ ما هي هذه الكلمات؟

– الفن، على الاقل، ما دمت فناناً، والوطن، والعلم، والحرية، والعدالة.

فسأل شويين:

– والحب؟

– الحب كلمة موحدة، ولكن ليس الحب الذي تتعطش أنت اليه الآن. ليس الحب – المتعة، الحب الضحية.

تعبس شويين.

– هذ جيد للامان. ولكنني أريد الحب لنفسسي، أريد أن أكون الرقم الأول.

كرر بيرسينيف:

– الرقم الأول. أما أنا فاعتقد أن كل هدف حياتنا هو في أن نجعل أنفسنا الرقم الثاني.

قال شوبين بتعبية شاكية:

- إذا كان الجميع سيتصرفون كما تقول أنت فلن يأكل أحد على الأرض أنا ناساً، لأن الجميع سيقدمونه للآخرين.

- اذن، لا حاجة إلى الاناناس. وعلى أية حال لا تخف، فلن نعدم أبداً أناساً هواة حتى في انتزاع الخبز من افواه الآخرين.

وصمت الصديقان كلاهما. ثم قال بيرسينيف:

- قبل أيام التقيت مرة أخرى باينساروف. دعوته إلى بيتي، أريد، من كل بد، أن اعرفه بك... وبافراد عائلة ستاخوف.

- من اينساروف هذا؟ آه، تذكرت، أهو الصربي أو البلغاري الذي كنت تحدثني عنه؟ أهو هذا المناضل؟ العلة هو الذي أوحى لك بكل هذه الافكار الفلسفية؟

- ربما.

- اتراه شخصاً فريداً؟

- نعم.

- ذكي؟ موهوب؟

- ذكي؟.. نعم. موهوب؟ لا ادري. لا أظن.

- لا؟ فماذا فيه ملفت للنظر؟

- ستراه. والآن، اعتقد أن علينا أن نذهب. آنا فاسيليفنا في انتظارنا،

على ما اظن، كم الساعة؟

- الثالثة. لنذهب. ما اكنم الهواة! أن هذا الحديث أجحج كل دمي. كما

أنسك تجليت أيضاً... وليس دون طائل أنني فنان. الحظ كل شيء. أعترف بأن امرأة تشغلك، أليس كذلك؟

واراد شوبين أن ينظر إلى وجه بيرسينيف، إلا أن هذا اشاح بوجهه، وخرج من تحت شجرة الزيزفون. تبعه شوبين. منقلأ قدميه الصغيرتين بتراخ ورشاقة. كان بيرسينيف يمشي مشية ثقيلة، يرفع كتفيه عالياً أثناء سيره، ويمد رقبتة، ومع ذلك فقد بدا أكثر «استقامة» من شوبين، وكان من الممكن أن نقول أكثر جنتلمانية، لو لم تتنذل هذه الكلمة عندنا كثيراً.

٢

نزل الشابان إلى نهر موسكو، وسارا بمحاذاة الشاطئ. كانت الندادة تهب من النهر، وطرطشة الامواج الصغيرة تداعب السمع. انشأ شوبين يقول:

- كنت ساسبح مرة أخرى، ولكني أخشى أن أتأخر. انظر إلى النهر، فكأنه يغمز لنا غاويأ. لو أن الاغريق القدمامى كانوا هنا لرأوا فيه حورية، ولكننا لسنا اغريقاً، يا حورية! نحن سكيفيون غلاظ الجلود.

قال بيرسينيف:

- عندنا ما يقابلها... حورية الماء.

- اف منك ومن حورياتك! ما الذي تجديني، أنا النحات، هذه، سعالى^(١) الخيال المذعور البارد، هذه الأطياف المولودة في كوخ ريفي مكتوم الهواء، في عتمة ليالي الشتاء؟ أنا بحاجة إلى النور، إلى الرحابة... اوه، يا الهي، متى سأسافر إلى ايطاليا؟ متى...

- يعني تريد أن تقول إلى اوكرانيا؟

- أخجل من نفسك، يا اندريه بيتروفيتش على تعبيرى بحماقة طائشة،

(١) السعلاة: حيوان خرافي يثر الفزع. المترجم.

أنا بدون ذلك نادم عليها ندامة مرة. حسناً، لقد تصرفت كالأحمق. حين اعطتني أنا فاسيلينا الفاتكة الطيبة نقوداً لأسافر إلى إيطاليا، فسافرت إلى الاوكرانيين، لأكل اللقم الاوكرانية و...

قاطعته بيرسينيف:

- لا تكمل كلامك، أرجوك.

- ولكني أقول أن هذه النقود لم تنفق هباء. فقد رأيت هناك نماذج من الناس، ولا سيما من النساء... بالطبع، أنا أعرف أن لا خلاص خارج إيطاليا.

قال بيرسينيف دون أن يلتفت إليه:

- تذهب إلى إيطاليا، ولا تقوم بشيء. مجرد أن تخفق بجناحك، ولا تطير. نحن نعرفك!

- ستافاسير طار... وليس هو الوحيد في ذلك... إذا كنت لا أظير، فأنا بطريق بحري، بلا أجنحة - ثم مضى قائلاً - أنا اختنق هنا، أريد أن اسافر إلى إيطاليا. فهناك الشمس، هناك الجمال...

في تلك اللحظة ظهرت في الدرب الذي يسيران فيه فتاة في مقتبل العمر، ترتدي قبعة عريضة من القش، وعلى كتفها مظلة وردية.

هتف شوبين فجأة، وهو يلوح بقبعته في حركة مسرحية:

- أوه، ماذا أرى؟ وهنا أيضاً يأتي الجمال للقيانا. تحية فنان خاشع للفتاة زويا.

توقفت الفتاة التي خاطبها بهذه الكلمات، وهددته باصبعها، وتركت كلا الصديقين يقتربان منها. وقالت بصوت صدادح مع شيء من اللثغة:

- لماذا لا تأتيان إلى الغداء، يا سادة، المائدة جاهزة.

قال شوبين ثانياً ذراعيه:

- ما هذا الذي اسمعه؟ هل معقول أنك، زويسا الفاتنة، عزمت على الخروج في مثل هذا الحر لتبحثي عنا؟ أهكذا يجب أن أفهم معنى كلامك؟ قولي، معقول؟ أو، لا، الأفضل أن لا تنطقي بهذه الكلمة. ستقتلني الندامة في الحال.

قالت الفتاة دون أن يخلو كلامها من الضيق:

- أوه، كف عن ذلك، بافل ياكوفليفيتش. لماذا لا تتحدث معي بجدية أبداً؟ سأزعل.

أضافت بحركة عنجة من جسمها، ومطت شفيتها.

- لا ترعلي علي، يا زويسا نيكيثينا المثلى. فأنت لا تريدين أن ترميني في الهاوية الكثيبة من اليأس المسعور. أما الكلام الجدي فلا أجيده، لأنني لست رجلاً جدياً.

هزت الفتاة كتفيها، وتوجهت إلى بيرسينيف قائلة:

- أنه دائماً بهذا الشكل. يعاملني كما يعامل طفلاً، بينما تخطيت أنا الثامنة عشرة. أنا الآن كبيرة.

- أه، يا الهي!

توجع شوبين، مقلّباً عينيه إلى الأعلى. وكشر بيرسينيف عن ابتسامة قصيرة في صمت.

ضربت الفتاة الارض بقدمها. ومضت تقول:

- بافل ياكوفليفيتش! سأزعل! ارادت Helène أن تذهب معي، ولكنها بقيت في الحديقة. خافت من الحر، ولكنني لم أخف منه. هيا لنذهب.

وسارت في الدرب في المقدمة، تمس قليلاً بقدها المشقوق في كل خطوة، وتزيح عن وجهها خصلات شعرها الناعمة الطويلة بيدها الحلوة المقفزة بقفاز غير مصبّع.

سار الصديقان في اثرها (كان شوبين تارة يضغط يديه على قلبه

بصمت، وتارة يرفعهما أعلى من رأسه). وبعد لحظات وجدا أنفسهما أمام أحد البيوت الريفية العديدة المحيطة بكونتسوفو. كان هذا البيت الخشبي الصغير ذو العلية والمطلي بالطلاء الوردي يقع وسط حديقة، ويطل من وراء خضرة الأشجار في شيء من السداجة. كانت زويا أول من فتح باب الحديقة. ركضت في الحديقة، وراحت تصيح: "جئت بالأفاقين!". نهضت من مسطبة قرب الممر فتاة في ريعان الشباب ذات وجه شاحب معبر، وظهرت على عتبة البيت امرأة في ثوب حريري ليلقي، ورفعت منديلاً مطرزاً من القماش القطني فوق رأسها إتقاء الشمس، وابتسمت بوني وفتور.

٣

كانت أنا فاسيليفنا ستاخوفا (الملقبة بشوبينا، قبل زواجها) قد تيمت من والديها، وهي في السابعة من العمر، وورثت ضيعة على قدر كاف من السعة. وكان لها اقارب أثرياء جداً، وفقراء جداً. الفقراء من ابوها، والاغنياء من أمها: الشيخ فولغين، وامراء آل تشيكوراسوف. وقد وضعها الأمير ارداليون تشيكوراسوف الذي صار وصياً عليها، في أحسن مدرسة داخلية في موسكو، وبعد تخرجها من المدرسة، أخذها لتعيش في بيته. وكان يعيش حياة غير مغلقة، وقيم حفلات راقصة في الشتاء. وقد استمالها نيقولاي ارتيميفيتش ستاخوف، زوجها المقبل، في واحدة من هذه الحفلات، حين كانت "في ثوب وردي فاتن بغطاء الرأس من الورود الصغيرة". وقد احتفظت بهذا الغطاء... ونيقولاي ارتيميفيتش ستاخوف هو ابن رائد متقاعد جرح في عام ١٨١٢، وحصل على وظيفة مريحة في بطرسبورغ. وقد دخل الابن، وهو في السادسة عشرة، في مدرسة عسكرية، وتخرج ضابط حرس. كان وسيم الطلعة، حسن البنيان، يكاد

يكون الفارس الأول في حفلات الطبقة المتوسطة التي كان يشهدها في الغالب. أما المجتمع الراقي فلم يكن له سبيل إليه. وكانت له امتيتان منذ شبابه: أن يكون ضابط حاشية، وأن يتزوج زوجاً مريحاً. وسرعان ما تخلى عن امتيته الأولى، إلا أنه تشبث أكثر في امتيته الثانية. وتبعاً لذلك كان يسافر في كل شتاء إلى موسكو. كان نيقولاي ارتيميفيتش يتكلم الفرنسية بشكل لا بأس به، واشتهر بأنه فيلسوف، لأنه لم يكن يشترك في موائد الخمر، وصار، وهو ما يزال برتبة ملازم، يحب أن يجادل بحماس، مثلاً، هل في استطاعة الإنسان، أن يطوف الكرة الأرضية خلال عمره كله، وهل يقدر أن يعرف ماذا يجري في قاع البحر. وكان دائماً يجيب بالنفي.

كان نيقولاي ارتيميفيتش قد تخطى الخامسة والعشرين حين "تعلق" بآنا فاسيليفنا. وقد تقاعد عن الخدمة، وسافر إلى الريف ليدير شؤون الضيعة. وسرعان ما سئم حياة القرية، فأعطى الضيعة إلى الفلاحين باللزمة، وأقام في موسكو، في بيت زوجته. في صباه لم يكن قد اشترك في لعبة ورق، ولكن ولع في موسكو باليانصيب، وحين ألغى اليانصيب، اغرم بلعبة الورق. وكان يسأم في البيت، وصارت له علاقة مع امرأة من اصل الماني، وصار يقضي معها أوقاته كلها تقريباً. وفي صيف ١٨٥٣ لم ينتقل إلى كونتسوفو، بل بقي في موسكو، ليتعاطى المياه المعدنية، على حد زعمه، بينما اراد، في الحقيقة، أن يظل مع صاحبتة الارملة. وعلى أية حال، كان يتكلم قليلاً معها أيضاً، ويجادل أكثر عما إذا كان في استطاع الإنسان أن يتنبأ بالطقس إلى غير ذلك. وذات مرة سماه أحد الناس Frondeur^(٢)، فراق له هذا اللقب كثيراً. كان يفكر مُرخياً طرفي

(٢) الوجود المعترض (بالفرنسية أصلاً).

شفتيه في رضى عن النفس هازاً جذعه: ”نعم، ليس من السهل ارضائي، ولا سبيل إلى خداعي“. وكان اعتراض نيقولاي ارتيميفيتش يتمثل في أنه إذا سمع، على سبيل المثال، كلمة ”أعصاب“، فإنه سيقول: ”أي شيء هذه الأعصاب؟“ وإذا ذكر أحد في حضوره نجاحات الفلك، قال: ”وهل تصدقون بالفلك؟“. وحين كان يريد دحر الخصم كلياً كان يقول: ”كل هذه مجرد اقوال“. ولا بد من الاعتراف بأن الكثيرين كانوا (وما يزالون حتى الآن) يرون هذا اللون من الاعتراض لا يمكن أن يدحض. ولكن نيقولاي ارتيميفيتش لم يكن يظن أن افغوستينا خريستيانوفنا كانت تسميه في رسائلها إلى ابنة عمها فيودولندا بترزبيلوس بـ ”Mein Pinselchen“^(٣).

كانت أنا فاسيليفنا، زوجة نيقولاي ارتيميفيتش امرأة صغيرة الجسم نحيلة دقيقة القسما، ميالة إلى الانفعال والاكتئاب. كانت في المدرسة الداخلية تدرس الموسيقى، وتقرأ الروايات، ثم تركت كل ذلك. وصارت تتأنق في ملابسها، وحتى هذا تركته، وانشغلت بتربية ابنتها، إلا أنها وهنت، فسلمتها إلى يدي مربية وانتهى بها المطاف إلى أن تنقطع إلى الاكتئاب والانفعال الهادئ، ولا شيء آخر. اضرت ولادتها ليلينا نيقولاييفنا بصحتها، ولم تعد قادرة على انجاب أولاد آخرين. وكان نيقولاي ارتيميفيتش يلمح إلى ذلك مبرراً لعلاقته بافغوستينا خريستيانوفنا. كانت خيانة الزوج تحزن أنا فاسيليفنا كثيراً، وقد ألمها بشكل خاص أنه اهدى، ذات مرة، لصاحبتة الألمانية بالخديجة حصانين رماديين من حظيرتها، حظيرة أنا فاسيليفنا. لم تكن تعاتبه وجهاً لوجه قط، ولكنها كانت تشكوه، خفية، إلى أهل بيتها واحداً واحداً، وحتى لابنتها. وكانت

(٣) احمقي (بالألمانية في الأصل).

آنا فاسيليفنا لا تحب الخروج من البيت، وكان يطيب لها أن يكون لديها ضيف يروي لها شيئاً، وكانت الوحدة تسلمها إلى المرض في الحال. كان قلبها رقيقاً يحب الناس كثيراً، ولكن الحياة سرعان ما طحنتها.

كان بافل ياكوفليفيتش شوبين ابن عمها الأكبر. وكان أبوه يعمل في وظيفة في موسكو، واخواه يدرسان في مدرسة عسكرية، وكان هو اصغرهم، والمفضل لدى امه، وكان هزيل البنية، فبقي في البيت. وكان الاهل يودون لو يدخل إلى الجامعة، ويجدون عسراً في توفير متطلبات دراسته الثانوية. وكان قد أظهر، منذ صغره، ميلاً إلى النحت. وذات مرة، رأى الشيخ فولغين، الضخم البنية، ممثلاً صغيراً لدى عمته (كان آنذاك في السادسة عشرة) فأعلن أنه ينوي أن يشمل هذا النابغ الشاب برعايته. وقد غيّرت وفاة ابي شوبين المفاجئة كل مستقبل ابنه الشاب أو كادت. اهدى له الشيخ راعي المواهب، ممثلاً نصفياً من الجبس لهوميروس، ولا أكثر. ولكن آنا فاسيليفنا أعانتته بالنقود، فدبر، على نحو ما، أمر دخوله إلى كلية الطب، في الجامعة وهو في التاسعة عشرة. وكان بافل لا يحس أي ميل إلى الطب، ولكن كان من المستحيل حسب عدد الطلاب الموجود آنذاك التحاقه في كلية أخرى، وفي الوقت ذاته كان يأمل بأن يدرس التشريح. ولكنه لم يتعلم التشريح، ولم ينجح إلى السنة الثانية، وخرج من الجامعة دون أن ينتظر الامتحان، يتفرغ كلياً إلى مهمته. فعمل بدأب، ولكن على فترات. وراح يتجول في ضواحي موسكو، ويصيغ ويرسم الصور الشخصية للفلاحات الشابات، ويلتقي بأناس مختلفين، شباناً وشيوخاً من ذوي المراتب العالية والواطنة ومع المقولبين الايطاليين، والفنانين الروس، وكان يرفض الاكاديمية، ولا يعترف بأي استاذ. وكان لا يخلو من موهبة، فصار الناس يعرفونه في موسكو. وكانت أمه، وهي امرأة طيبة ذكية وباريسية المولد من عائلة معتبرة، قد علمته اللغة الفرنسية، واهتمت به، وأخذت ترعاه ليل نهار، وتفتخر به، ولدى احتضارها، وهي لم تودع

الشباب بعد، متأثرة بمرض السل رجعت أنا فاسيليفنا أن تضمه إليها وتأخذ بزمامه. وكان هو آنذاك في الحادية والعشرين. ونفذت أنا فاسيليفنا رغبة الأم الأخيرة. فصار بافل يحتل غرفة صغيرة في ملحق بيتها الريفي.

٤

قالت ربة البيت بصوت مشفق:

- لنذهب الى الغداء، لنذهب - واتجه الجميع الى غرفة الطعام، ومضت أنا فاسيليفنا تقول - اجلسي بقربي Zoé، أما أنت يا Helène فداري الضيف، وأنت يا Paul، أرجوك لا تشاكس، ولا تناكد Zoé. رأسي يوجعني اليوم.

قلّب شوبين عينيه صوب السماء ثانية، فردت عليه Zoé بشبه ابتسامة. و Zoé هذه، أو بعبارة أصح، زويا نيكييتشنا ميولر فتاة روسية، المانية الاصل حلوة، حواء قليلاً، ذات انف صغير عريض المنخرين، وشفتين صغيرتين حمراوين، شقراء الشعر، ممتلئة الجسم. كانت تغني أغاني الرومانس الروسية بطريقة لا بأس بها، وتعزف على البيانو بسلامة معزوفات مختلفة مرحة تارة، ومؤثرة تارة أخرى. وكانت تختار ملابسها بذوق، ولكن بشيء من الطفولية، وبعناية مفرطة. اخذتها أنا فاسيليفنا كمرافقة لابنتها، وابتقتها قريبة إلى نفسها على الدوام تقريباً. ولم تتشك يلينا من ذلك. وحين يصدف أن تخلو إلى زويا كانت لا تعرف قطعاً عم تتحدث معها.

استمر الغداء وقتاً طويلاً، وصار بيرسينيف يتحدث مع يلينا عن الحياة الجامعية، وعن نواياه وآماله. وكان شوبين يستمع، ويلازم الصمت، ويأكل بنهم مبالغ فيه، ملقياً، من حين لآخر نظرات جزعة بشكل فكاهي، إلى زويا التي كانت ترد عليه بنفس الابتسامة الفاترة. وبعد الغداء خرجت

يلينا مع بيرسينيف وشوبين إلى الحقيقة. شيعتهم زويا بنظراتها، وقد هزّت كنفها قليلاً، وجلست إلى البيانو. أخذت أنا فاسيليفنا تقول: ”لماذا لا تمشين أنت أيضاً؟“ إلا أنها اضافت، دون أن تنتظر الجواب: ”اعزفي لي شيئاً مشجياً...“.

سألت زويا: “La dernière pensée – de Weber?”^(٤)

– آه، نعم فير.

قالت أنا فاسيليفنا، وقعدت على الكرسي، واطلت الدمعة على رموشها.

وخلال ذلك قادت يلينا الصديقين إلى تعريشة من الاقاصيا تتوسطها طاولة خشبية حولها مساطب. تلفت شوبين فيما حوله، وقفز عدة مرات، وقال همساً: ”انتظرا قليلاً“، وركض إلى حجرته، وجاء بقطعة من الطين، وأخذ يعجن ممثلاً لزويا، وهو يهز رأسه، ويغمغم، ويضحك. – عاد إلى مزحه القديمة.

قالت يلينا، بعد أن نظرت إلى ما يفعله، مخاطبة بيرسينيف الذي كانت تتابع معه الحديث الذي بدئ على مائدة الغداء.

كرر شوبين:

– مزحه القديمة. موضوع لا ينضب أبداً. اليوم بشكل خاص تحرق الاعصاب.

سألت يلينا:

– ولماذا؟ كأنك تتكلم عن عجوز مزعجة خبيثة. إنها فتاة حلوة في ريعان الشباب...

(٤) «الفكرة الأخيرة» لفير؟ (بالفرنسية في الأصل).

قاطعها شوبين:

- حلوة، بالطبع، وحلوة جداً. أنا واثق من أن أي عابر سبيل ينظر إليها، لا بد أن يفكر: هذه هي الفتاة التي تحلو معها... رقصة "البولكا". كما أنني واثق من أنها تعرف ذلك، وتستلذ به... لم هذه الحركات المخجلة، هذا التواضع الزائف؟ طيب، أنتم تعرفان ما أريد أن أقوله. - اضافة من خلل أسنانه - على العموم أنتم الآن مشغولان بشيء آخر.

خرب شوبين تمثال زويا، وأخذ يعجن الطين ويدعكه بعجالة، وكان ذلك عن انزعاج.

سألت يلينا بيرسينيف:

- اذن، فأنت تود أن تكون استاذاً؟

- نعم - ردّ هذا، ضاغطاً يديه الحمر اوين بين ركبتيه - هذه أمنيته المفضلة. بالطبع أنا أعرف جيداً كل ما ينقصني لاستجيب لمتطلبات هذا المرام الرفيع... اريد أن أقول أنا قليل التأهل للغاية، ولكن آمل في الحصول على السماح بالسفر للخارج. واقيم هناك ثلاث أو أربع سنوات، إذا اقتضى الأمر، وعندئذ...

وتوقف، واطرق ببصره، ثم رفع عينيه بسرعة، وعدل شعره، مبتسماً بحراجة. وكان بيرسينيف حين يتكلم مع امرأة، يصير كلامه أبطأ من ذي قبل، وأكثر تلفظاً بحرف السين.

سألت يلينا:

- أتريد أن تكون استاذ التاريخ؟

- نعم، أو الفلسفة - اضافة مخفضاً صوته - إذا كان ذلك ممكناً.

- أنه منذ الآن قوي في الفلسفة، كالشيطان - قال شوبين، وهو يحز خطوطاً عميقة في الطين بأظفره - فما حاجته إلى السفر للخارج؟

سألت يلينا، وقد ارتفعت على كوعها، وراحت تنظر في وجهه:

- وستكون راضياً تماماً عن وضعك؟

- تماماً، يلينا نيقولايفنا، تماماً. فأى شيء يمكن أن يكون ارفع من هذه الرسالة؟ السير على خطا تيموفي نيقولايفيتش... مجرد التفكير في مثل هذه الممارسة يملؤني حبوراً وخجلاً، - نعم... خجلاً من ادراكي لصغر قابلياتي. أبي المرحوم باركني على هذا الأمر... أنا لن أنسى أبداً كلماته الأخيرة.

- أبوك توفي في شتاء هذا العام؟

- نعم، يلينا نيقولايفنا، في شباط.

فمضت يلينا تقول:

- يقال أنه ترك مخطوطة مؤلف عظيم، أهذا صحيح؟

- نعم، صحيح. لقد كان رجلاً رائعاً، كنت ستحبينه لو كنت تعرفينه، يلينا نيقولايفنا.

- أنا واثقة من ذلك، وما هو محتوى هذا المؤلف؟

- هناك بعض الصعوبة في تقديم محتوى هذا المؤلف لك بكلمات قليلة. كان أبي رجلاً متعلماً جداً من اتباع شيلينغ. وكان يستخدم تعابير ليست واضحة دائماً...

قاطعته يلينا:

- اندريه بيتروفيتش، اعذرني على جهلي: ما معنى من اتباع شيلينغ؟

ابتسم بيرسينيف ابتسامة خفيفة.

- الفيلسوف الألماني شيلينغ، وكانت تعاليم شيلينغ...

وفجأة هتف شوبين:

- اندريه بيتروفيتش! إكراماً للرب ذاته! يعني تريد أن تلقي محاضرة على يلينا نيقولايفنا عن شيلينغ؟ رحماك!

تمتم بيرسينف واحمر:

- ليست محاضرة اطلاقاً، بل اردت...

فأسرعت يلينا تستدرکه:

- ولماذا لا محاضرة؟ أنا وأنت محتاجان إلى محاضرات، بافل ياكوفليفيتش.

تفرس شوبين فيها، وقهقهه فجأة.

استفهمت ببرود، وبحدة تقريباً:

- ولم تضحك؟

سكت شوبين. وبعد برهة قال:

- طيب، يكفي. لا تزعلي. أنا المقصر. ولكن مع ذلك، ما الحاجة إلى الكلام عن الفلسفة الآن، في مثل هذا الطقس، وتحت هذه الأشجار؟ الأفضل أن نتحدث عن البابل، عن الورد، عن العيون الغضة، والبسمات.

فاستطردت يلينا قائلة:

- نعم، وعن الروايات الفرنسية، وعن الملابس النسائية.

فرد شوبين:

- وليكن عن الملابس النسائية، إذا كانت جميلة.

- ممكن، ولكن إذا كنا لا نريد أن نتحدث عن الملابس؟ أنت تعتبر نفسك فناناً حراً، فلماذا تعتدي على حرية الآخرين؟ ثم اسمح لي أن أسألك لماذا تهاجم زويا إذا كنت تفكر بهذه الطريقة؟ الحديث عن الملابس وعن الورد يناسبها بشكل خاص.

احتدم شوبين فجأة، ووثب من على المسبطة. وراح يقول بصوت متهدج:

- هكذا اذن؟ أنا فاهم تلميحك. أنت تريدني أن تعيدني إليها، يلينا نيقولايفنا. يعني أنا زائد هنا، بعبارة أخرى؟

- لم أفكر في ابعادك عن هنا.

فتابع شوبين يقول محتد المزاج:

- أنت تريدني أن تقولي أنا لا استاهل صحبة أخرى، وأنتي لا أصلح إلا لها، فأنا فارغ وسخيف، وتافه، كتلك الالمانية المعسولة. أليس كذلك؟

قطبت يلينا حاجبيها. وقالت:

- لم يكن لك فيه هذا الرأي دائماً، يا بافل ياكوفليفيتش.

صاح شوبين:

- اها! توبيخ! توبيخ هذه المرة! طيب، نعم، كانت هناك لحظة، أنا لا انكر، لحظة واحدة فقط، حين كان ذلك الخندان الطريان، المبتذلان... ولكن لو كنت اريد أن ابادلك التوبيخ، واذكرك... وداعاً - اضاف فجأة - أنا مستعد أن اتخبط في الكذب.

وضرب بيده الرأس الذي صاغه من الطين، وخرج راكضاً من التعريشة، ولاذ في حجرته.

قالت يلينا، وهي تشيعه بنظرها:

- طفل.

قال بيرسينيف بابتسامة خفيفة:

- فنان. كل الفنانين بهذا الشكل. يجب أن يسامحوا على نزاوتهم.

هذا من حقهم.

قالت يلينا:

- نعم. ولكن بافل لم يأت حتى الآن بشيء يثبت له هذا الحق. ماذا صنع حتى الآن؟ هات يدك، ولتتمشى في الدرب المعرش. قطع بافل علينا حديثنا. كنا نتحدث عن مؤلف والدك.

تناول بيرسينيف يد يلينا، وسار وراءها في الحديقة، ولكن الحديث الذي استهل لم يستأنف، بعد أن قطع مبكراً جداً. عاد بيرسينيف يطرح من جديد تصوراته عن لقب الاستاذية، وعن نشاطه المقبل. كان يسير جنب يلينا ببطء، وبخطوات مرتبكة، وبمسك بيدها غير متمالك حر كاته، يصددها بكتفه أحياناً، ولم ينظر إليها قط. ولكن كلامه كان يجري بخفة وبطلاقة تامة تقريباً، وكان يعبر ببساطة وثقة. وكانت عيناه المطوفتان ببطء في جذوع الأشجار، ورمل الدرب والعشب، تشعان بالرقعة الهادئة للمشاعر النبيلة، وصوته المطمئن يفصح عن فرحة إنسان يدرك أن التوفيق يحالفه في الاعراب عن نفسه أمام شخص آخر عزيز عليه. وكانت يلينا تصغي إليه بانتباه، وقد ادارت جسمها نحوه نصف استدارة، ولم تصرف بصرها عن وجهه الشاحب قليلاً، وعن عينيه الودودتين الوديعتين، المتحاشيتين في الوقت ذاته، الالتقاء بعينيها. وكانت روحها تتفتح، وتشعر بشيء رقيق عادل وطيب ينصب في قلبها، أو يتنامى فيه.

٥

ظل شوبين معتكفاً في حجرته حتى الليل. احلوك الظلام تماماً. وكان الهلال عالياً في السماء. وكانت المجرة قد طلعت، والنجوم شرعت تتواضع، حين ودّع بيرسينيف آنا فاسيليفنا، ويلينا، وزويا، وتقدم من باب حجرة صديقه. وجد الباب مغلقاً، فأخذ يطرقه. فصدر صوت شوبين:

- من هناك؟

اجاب بيرسينيف:

- أنا.

- ماذا تريد؟

- بافل، دعني ادخل، لاتشاكس. كيف لا تخجل؟

- أنا لا أشاكس. أنا نائم واحلم بزويا.

- كفي، ارجوك. لست طفلاً. دعني ادخل، اريد أن اتحدث إليك.

- ألم تشبع بعدُ حديثاً مع يلينا؟

- يكفي، يكفي، دعني ادخل!

رد شوبين بشخير مصطنع. هزَّ بيرسينيف كتفيه، وسار إلى البيت.

كانت الليلة دافئة وساكنة سكوناً غير عادي وكان كل ما فيها يتسمع ويتربص. وكان بيرسينيف الذي شمله الظلام الساكن يتوقف دون ارادته ويتسمع ويتربص. وكان الحفيف الخافت الشبيه برفيف ثوب نسائي يرتفع من حين إلى آخر في ذرى الاشجار القريبة، ويثير في نفس بيرسينيف احساساً حلواً ومتوجساً، احساساً في منتصف الطريق إلى الرهبة. سرى ديبب القشعريرة على خديه، وتلَّجت عيناه بدمعة خاطفة. فقد كان يود لو أنه يسير بلا صوت تماماً، يتخبأ، ينسل انسلالاً. مرَّت خفقة ريح حادة على جنبه، فكاد يجفل، وجمد في مكانه. وقعت خنفساء ناعسة من على غصن، وارتطمت في الطريق. صاح بيرسينيف بخفوت: "ها!" وتوقف مرة أخرى. ولكنه شرع يفكر في يلينا، فاخفتت كل هذه الاحاسيس العابرة دفعة واحدة. ولم يبق إلا الوقع المنعش لطراوة الليل، لنزهة ليلية. وامتلات روحه كلها بصورة الفتاة. سار بيرسينيف مطرق الرأس، وراح يسترجع في ذاكرته كلماتها واسئلتها. وخيل إليه أنه يسمع وقع خطوات سريعة خلفه. ارهف سمعه. كان شخص يجري، ليلحق به. ترددت انفاس

متلاحقة، وفجأة طلع شوبين امامه من دائرة الظل السوداء لشجرة كبيرة، حاسر الرأس، منفوش الشعر، ممقعاً بكليته في ضوء القمر. وراح يقول بصعوبة:

- أنا مسرور لأنك سلكت هذا الطريق. لو لم الحق بك لبقيت مسهداً طوال الليل. اعطني يدك. أنت ذاهب إلى البيت، أليس كذلك؟

- نعم.

- سأرافك.

- ولكن كيف تسير حاسر الرأس؟

- لا بأس. وخلعت ربطة عنقي أيضاً. الجو دافئ الآن.

قطع الصديقان عدة خطوات. وسأل شوبين فجأة:

- كنتُ اليوم شديد الحماقة. أليس صحيحاً؟

- نعم، بصريح العبارة. لم استطع أن افهمك. أنا لم ارك بهذا الشكل

قط. يا الله، ما الذي جعلك تغضب! من أجل مثل هذه التوافه؟

غمغم شوبين:

- حم. هذه طريقتك في التعبير، ولكن هذه ليست توافه بالنسبة لي.

اسمع - اضاف قائلاً - يجب أن انبهك إلى اني... أني... ولك ان تظن بي ما تشاء... أنا... أي، نعم.. أنا مغرم بيلينا.

- مغرم بيلينا!

كرر بيرسينيف، وتوقف. فمضى شوبين يقول متصنعاً عدم المبالاة:

- نعم. وهل يدهشك ذلك؟ سأقول لك أكثر من هذا. أنني، حتى هذا

المساء، كنت آمل بأنها ستحبني، هي الأخرى، مع مرور الزمن. ولكن اليوم اقتنعت بأن امنياتى خائبة، إذ أنها أحبت شخصاً آخر.

- شخصاً آخر؟ من هو؟

- مَنْ؟ احبتك أنت!

صاح شوبين، وضرب بيرسينيف على كتفه.

- احبتي!

كرر شوبين:

- احبتك.

ترجع بيرسينيف خطوة. وجمد بلا حراك. امعن شوبين النظر فيه بحدّة.

- ويدهشك هذا، أيضاً؟ أنت فتى متواضع. ولكنها تحبك. وفي وسعك أن تطمئن بهذا الخصوص.

قال بيرسينيف أخيراً في ضيق:

- اي هراء تقول!

- لا، ليس هراء. على العموم، لماذا نحن واقفان؟ لنواصل السير. المشيء اخف عن النفس. أنا أعرفها منذ زمان، واعرفه بشكل جيد. ولا يمكن أن اخطأ. وقعت في قلبها موقعاً حسناً. في وقت ما كانت معجبة بي، ولكنني أولاً شاب طائش جداً بالنسبة لها بينما أنت مخلوق جدي، أنت شخصية نظيفة خلقياً وجسدياً، أنت... انتظر، أنا لم أكمل. أنت متحمس معتدل نقسي الضمير ممثل حقيقي لكهنة العلم الذين تفخر بهم عن حق طبقة النبلاء الروس المتوسطي الحال! وثانياً، رأيتي يلينا، قبل أيام، اقبل يد زويا.

- يد زويا؟

- نعم، يد زويا. فماذا تأمر أن افعل؟ كتفاها جميلتان.



- كفافها؟

- نعم، كفافها، يداها، هل هناك فرق؟ وجددتني يلينا وسط هذه الممارسات الحرة بعد الغداء، بينما كنت قبل الغداء اشتهم زويا بحضورها. ويلينا، مع الاسف، لا تفهم كل مثل هذه التناقضات الطبيعية. وإذا بك تظهر هنا، أنت مثالي وتؤمن... على فكرة، بأي شيء تؤمن؟.. تحمر، وترتبك، وتحدث عن شيللر، عن شيلينغ (وهي دائماً تبحث عن الناس المرموقين) فصار النصر حليفك، بينما أنا، التعيس، احاول أن امزح... و... في غضون ذلك...

وانفجر شوبين بالبكاء فجأة، وانتحى جانباً، وجلس على الارض، وانشب اصابعه في شعره.

اقرب بيرسينيف منه. وقال:

- بافل. ما هذه الطفولية؟ رحماك! ماذا بك اليوم؟ الله يعلم أية سخافة دارت في رأسك، وتبكي أيضاً. في الحقيقة يبدو لي أنك تتظاهر. رفع شوبين رأسه. والمتعت الدموع على خديه في ضوء القمر، ولكن وجهه كان يتسم. قال:

- اندريه بيتروفيتش، تستطيع أن تظن بي ما تشاء. بل ويمكن أن اوافق على انني الآن في حالة هستيريا، ولكنني اعشق يلينا، قسماً بالله، ويلينا تحبك. على العموم، وعدتك بأن ارافقك إلى البيت، وسأفي بوعدتي. ونهض.

- ما اروع الليل! فضياً، داجياً، فتياً! ما اطيب الوقت الآن للمحبوبين! وما ابهج سهرهم! هل ستنام، يا اندريه بيتروفيتش؟

لم يجب بيرسينيف، وغد خطاه. ومضى شوبين يقول:

- إلى اين تستعجل؟ صدق بكلامي، لن تتكرر مثل هذه الليلة في

حياتك، بينما ليس في انتظارك في البيت غير شيلينغ. حقاً أنه قدم لك خدمة اليوم، ولكن لا تستعجل، على أية حال. غنّ، إذا كنت تحسن الغناء، وغنّ بصوت أعلى، إذا كنت لا تحسنه؛ اخلع قبعتك، وادفع رأسك إلى الوراء، وابتسم للنجوم. أنها جميعاً تصوب انظارها إليك، وإليك وحدك. النجوم لا تفعل شيئاً غير النظر إلى العشاق، ولهذا السبب نراها بهذه الفتنة. أنت عاشق، يا اندريه بيتروفيتش، أليس كذلك؟ لا تجيبي... لماذا لا تجيبي؟ - وعاد شوبين يقول - أوه، لو كنت تشعر بأنك سعيد، فاصمت، اصمت! أنا اثرثر، لأنني عاثر الحظ، غير محبوب، حاوٍ، ممثل، بهلوان، ولكن اي سرور صامت كنت سأشعر به في هذه النسائم الليلية، تحت هذه النجوم، تحت احجار الالماس هذه، لو كنت أعرف أنني محبوب!.. بيرسينيف، هل أنت سعيد؟

ظل بيرسينيف على صمته، يسير بسرعة في الطريق المستوية. وإلى الأمام كانت انوار القرية التي يعيش فيها تتوامض من خلل الاشجار. وكانت القرية كلها مoulفة من عشرة بيوت ريفية صغيرة. وفي بداية القرية تماماً، إلى يمين الطريق، تحت شجرتي البتولا كثيرتي الفروع كان الحانوت الصغير قد اغلق كل نوافذه، ولكن شريطاً عريضاً من النور كان يرتمي كالمروحة من بابه المفتوح، على العشب المسحوق بالاقدام، ويسقط في الأعلى على الشجرتين، مضيئاً بقوة بطون اوراقهما المتكاثفة الضاربة إلى بياض. وكان ثمة فتاة، خادمة كما يدل مظهرها، تقف في الحانوت مديرة ظهرها إلى العتبة، مماكس صاحب الحانوت. وكان خدها المدور وعنقها الرقيق لا يكادان يبدوان من تحت المنديل الاحمر الذي القته على رأسها، واسنذته بيدها العارية عند الذقن. دخل الشابان شريط الضوء. نظر شوبين داخل الحانوت، وتوقف، وهتف: "أنوشكا!" التفتت الفتاة بخفة، ولاح وجه حلواً المحيياً عريضاً قليلاً، ولكنه غض ذو عينين بنيتين مرحتين، وحاجبين اسودين. كرر شوبين: "أنوشكا!" امعنت الفتاة النظر

فيه، وارتعبت، وعلاها الخفر، ونزلت من درجات مدخل الحانوت، دون أن تكمل شراءها، وانسلت مارة بهما بخفة، وعبرت الطريق إلى اليسار، متلفتة قليلاً. تنحنح الحانوتي، وتثأب في أثرها. وكان رجلاً مترهلاً لا يكثرث لأي شيء في الدنيا، مثل جميع أصحاب الحوانيت الصغار في الضواحي. بينما خاطب شوبين بيرسينيف بهذه الكلمات: ”ها... ها أنت ترى... عندي عائلة اعرفها هنا... كما هو عندهم... لا يذهب بك الظن...“ وركض وراء الفتاة المبتعدة دون أن يكمل كلامه.

صاح بيرسينيف في اثره:

- امسح دموعك، على الأقل.

ولم يستطع أن يكبح ضحكته. ولكنه، حين عاد إلى بيته، لم يكن على وجهه أثر للمرح. ولم يضحك بعد. لم يصدق لحظة واحدة بما قاله شوبين له، ولكن الكلمة التي نطق بها نفذت عميقاً في قلبه، وفكر مع نفسه: ”بافل يستغفني... ولكنها ستحب في وقت ما... فمن ستحب؟“.

كان في حجرة بيرسينيف بيانو غير كبير ولا جديد، ولكن له نبرة ناعمة ولطيفة، وأن لم تكن صافية تماماً. جلس بيرسينيف إليه، وأخذ يضرب على مفاتيحه. وكان مثل جميع النبلاء الروس قد تعلم الموسيقى منذ الصغر، ومثل جميع النبلاء الروس تقريباً كان سيئاً في عزفه إلى درجة كبيرة، ولكنه كان كثير الولوج بالموسيقى. في الواقع كان لا يحب في الموسيقى الفن، ولا تلك الاشكال التي تعبر بها (كانت السيمفونيا والسوناتا بل حتى الاوبرا تسلمه إلى الضجر)، بل كان يحب عفويتها، يحب تلك الاحاسيس المبهمة واللذيذة، الهائمة والشمولية التي يثيرها في النفس تآلف الاصوات وتنقلها من درجة إلى أخرى. ظل أكثر من ساعة ملازماً البيانو، مكرراً عدة مرات نفس النغمات، باحثاً عن نغمات جديدة في غير اتقان، متوقفاً وجامداً على السباعيات المصغرة. وكان قلبه يئن، وعينه تمتلئان بالدموع

غير مرة، ولم يخجل منها. فقد كان يسكبها في الظلام. ويفكر مع نفسه: "بافل على حق. أنا أشعر أن هذا المساء لن يتكرر". وأخيراً وقف، واشعل الشمعة، والقى الروب على كتفيه، وتناول من الرف المجلد الثاني لكتاب "تاريخ أسرة هوغينشتاوفين" لراومر، وزفر مرتين أو نحوهما، وانكب على القراءة بدأب.

٦

وفي أثناء ذلك كانت يلينا قد عادت إلى غرفتها، وجلست أمام النافذة المفتوحة، واسندت رأسها على يديها. صارت لها عادة الجلوس إلى نافذة غرفتها زهاء ربع ساعة كل مساء. كانت تتحدث مع نفسها في هذا الوقت، وتراجع ما حصل في اليوم الجاري. قبل حين ائمت العشرين من عمرها. كانت طويلة القامة، شاحبة الوجه بسمرة، وعيناها الوسيعتان الرماديتان تحت حاجبين مستديرين كانتا محاطتين بنمش صغير، وانفها وجبينها مستقيمين تماماً، وفمها مطبقاً، وذقنها مستدقاً بدرجة معتبرة. وكانت ضفيريها الذهبية الداكنة تسرح إلى الاسفل من جيدها الرقيق. وكان في كيانها كله، في تعبير وجهها المنتبه المرتعب قليلاً، وفي نظرتها الصافية والمتقلبة في الوقت ذاته، وفي ابتسامتها المتوترة، كما تبدو، وفي صوتها الهادئ، غير المستوى في نبراته، شيء عصبي، منفعل، شيء مندفع عجول، وباختصار، شيء لا يروق لكل الناس، بل ينفر بعضهم. وكانت يداها ضيقتين، ورديتين، ذواتي اصابع طويلة وكانت قدماها ضيقتين أيضاً. وكانت مشيتها سريعة، مندفعة تقريباً، في شيء من الميلان إلى الامام. وقد نشأت نشأة غريبة جداً. في البداية كانت تعبد أباهما، وبعد ذلك تعلقت بامها بهيام، ثم برد شعورها نحوهما كليهما، لا سيما نحو الأب. وفي المدة الأخيرة كانت تعامل أمها، وكأنها جدتها

المریضة. وصار أبوها الذي كان یفتخر بها، حين كانوا یعتبرونها طفلة غیر اعتیادیة، یخشاها حين كبرت. وراح یقول عنها أنها جمہوریة متحمسة، والله یعلم على من طلعت! كان الضعف یضايقها، والحماقة تغضبها، والكذب لن تغفره لأحد "ابد الآبدین". وكانت متطلباتها لا تراجع أمام أي شيء، وحتى الصلوات كانت ممزجها أحياناً بالتقریر. وحالما یفقد الإنسان احترامها - وكانت تكون رأیها بسرعة، وفي أحيان كثيرة، بسرعة شديدة جداً - حتى یكف عن الوجود بالنسبة لها.. وكانت كل الانطباعات تلتصق بقلبها بقوة. فالحیة لیست سهلة علیها. كانت المریبة التي عهدت أنا فاسیلیفنا إلیها اكمال تریبة ابنتها - وهذه التریبة، ونضعها بین القوسین، لم تبدأها السیدة الضجرة أمها أبداً - من الروسیات، ابنة مرثش قد افلس، وخریجة معهد، مخلوقة شديدة الحساسة، طیبة، كاذبة. كانت تعشق من حين لآخر، حتى انتهى بها الأمر إلى أن تتزوج ١٨٥٠ (حين دخلت یلینا سنتها الثامنة عشرة) ضابطاً، هجرها في الحال. وكانت هذه المریبة شغوفة جداً بالأدب، تقوم بنظم الشعر، وهي التي حببت القراءة إلى یلینا، ولكن القراءة لوحدها لم تكن ترضی یلینا، فقد كانت تتعطش إلى العمل والبر منذ الطفولة، وكان المتسولون والجیاع والمرضى یشغلون بالها، ویثرون قلقها ویسلمونها إلى العذاب. كانت تراهم في احلامها، وتسال عنهم كل معارفها، وتقدم الاعانات باهتمام، وبعظمة لا إرادیة، وبانفعال تقریباً. وكان جمیع حیوانات المنبوذة وکلاب الحراسة النحاف، والقطط المحكومة بالموت، والعصافیر الساقطة من اعشاشها، وحتى الحشرات والزواحف تجدد عند یلینا الرعاية والحماية. كانت تطعمها بنفسها، ولا تقرف منها. وكانت امها لا تمنعها، بينما كان أبوها یزعل علی ابنته بسبب عاطفتها المبتذلة، علی حد قوله، ویؤكد أن البیت مملوء بالکلاب والقطط، ولا

محط لقدم فيه. وكان يصيح عليها أحياناً: "لينوتشكا^(٥)، هذا عنكبوت يتلع ذبابة، فتعال بسرعة، وانفذي الذبابة البائسة!" فكانت لينوتشكا تجري مذعورة تماماً وتحمر الذبابة من شرak العنكبوت وتنظف قوائمها. وكان أبوها يقول متهكماً: "والآن، دعها تلسعك، إذا كنت بهذه الطيبة". ولكنها لم تكن تصغي إليه. وعندما كانت في العاشرة تعرفت بفتاة متسولة تدعى كاتيا كانت تذهب للقائها في الحديقة سراً، تجلب لها الاطايب، وتهدي لها المناديل، والقطع النقدية من فئة العشرة كوبيكات، لأن كاتيا لم تكن تأخذ اللعب. كانت تجلس إلى جانبها على الأرض الصلبة، في مكان منعزل. وراء اجمة القراض، وتأكل خبزها الناشف بشعور الفرح المستكين، وتستمتع إلى حكاياتها. وكانت لكاتيا عمه، هي عجوز حقود، كثيراً ما كانت تضربها. وكانت كاتيا تكرهها، ولا تفتأ تقول أنها ستهرب منها، وتعيش طليقة في أرض الله الواسعة وكانت يلينا تنصت باحترام خفي وذعر في تلك الكلمات الجديدة التي لم تعدها من قبل، وتفرس في كاتيا، وعند ذاك كان كل شيء فيها، عيناها السوداء وان السريعتان مثل عيني وحش صغير، ويدها الملوحتان، وصوتها النحيل الكامد، وحتى ثوبها الممزق يبدو ليلينا غير عادي وله لون خاص ويكاد أن يكون مقدساً. وكانت يلينا تعود إلى البيت، وتفكر طويلاً، بعد ذلك، في المتسولين، في أرض الله الواسعة، وتفكر كيف ستقطع لها عصا من شجرة جوز، وتضع جرابها على كتفها، وتهرب مع كاتيا، وكيف ستضرب في الطرقات، وعلى رأسها اكليل من القنطريون العنبري، مثل ذلك الذي رآته على كاتيا ذات مرة. وكان إذا دخل أحد من أهلها غرفتها، في ذلك الوقت، كانت تنكمش، وتتعبس. وذات مرة هرعت للقيا كاتيا، والمطر منهمر، فتوسخ ثوبها، ورآها أبوها، وعيرها

(٥) صيغة تدليل من اسم يلينا. المترجم.

بأنها بنت قذرة، فلاحه. فصعد الدم إلى وجهها، وجثم على قلبها شعور بالرعب والهناءة. كانت كاتيا كثيراً ما تغني أغنية خشنة من اغاني الجنود. وقد تعلمتها يلينا منها... سمعتها أنا فاسيليفنا تغنيها، فاستولى عليها الغيظ. وسألتها:

— من أين جئت بهذه الوضاعة؟

فاكتفت يلينا بالنظر إلى امها، ولم تحر جواباً. فقد أحست بأن تقطيعها ارباً اهنون عليها من البوح بسرها، وعاد إلى قلبها الشعور بالرهبة والعدوبة معاً. وعلى أية حال، لم تستمر صحبتها لكاتيا طويلاً. فقد اصابت الحمى هذه الفتاة المسكينة، وتوفيت بعد بضعة أيام.

وعندما سمعت يلينا بوفاة كاتيا افتقدتها كثيراً وتأرق كثيراً في الليل. وظلت آخر كلمات المتسولة ترن في اذنيها بلا انقطاع، بل وكان يخيل إليها أنها تسمع صوتاً يناديها...

وتتابعنا الاعوام، ومرّ صبا يلينا سريعاً وغير ملحوظ كالمياه تحت طبقة الجليد، خاملاً من الخارج، بينما هو في صراع واضطراب في الداخل. ولم تكن لها صديقات، فهي لم تصادق واحدة من جميع الفتيات اللاتي كن يترددن على بيت آل ستاخوف. ولم تنقل سلطة الوالدين على يلينا قط، حتى أنها اصبحت، وهي في السادسة عشرة، في كامل الاستقلال تقريباً فعاشت حياتها الخاصة لكنها حياة وحيدة. وكانت نفسها تهفو وتخمد وحيدة. كانت قلقة مثل طائر في القفص وأن لم يكن للقفص وجود، ولم يمنعها أحد، ولكنها كانت تتحرق شوقاً، وتتعذب. ولم تكن هي نفسها تفهم أحياناً ذاتها، بل كانت تخاف منها. كان كل شيء يحيط بها يبدو لها فاقد المعنى أو غير مفهوم. وكانت تفكر: "كيف سأعيش بدون حب؟ ولكن لا أحد أحبه!" فترعبها هذه الافكار، هذه الاحاسيس. وكادت حمى خبيثة أن تودي بها، وهي في

الثامنة عشرة، وظل كيائها يصراع زمناً طويلاً، وإن كان معافى وقوياً بطبيعته، ولكنه هزّ من الاساس. وأخيراً اختفت عقابيل الداء. ولكن أباهما ما زال يتحدث عن أعصابها بشيء من الخنق. أحياناً كان يخطر في ذهنها أنها تريد شيئاً لا يريدُه أحد ولا يفكر فيه في كل روسيا. ثم هدأت، بل وضحكت من نفسها، وراحت تقضي الأيام خلية البال، ولكن شيئاً قوياً لا اسم له، صار فجأة يغلي في داخلها، دون أن تقدر على مقاومته، حتى ليكاد يطفح إلى الخارج. ومرّت العاصفة، وارتخى جناحها بتعب قبل أن يطيرا بها، ولكن هذه العواصف خلفت أثراً فيها. ومهما حاولت أن تخفي ما كان يجري في داخلها فقد كان الاضطراب والوحشة المعتمة في صدرها تظهر حتى في هدوئها الظاهري، وكان أهلها غالباً ما كانوا على حق، حين يهزون اكتافهم، في دهشة، غير فاهمين سرّ ”غرابة اطوارها“.

في اليوم الذي بدأت فيه قصتنا ظلت يلينا ملازمة النافذة أطول من المعتاد. فكرت طويلاً في بيرسينيف، وفي حديثها معه. لقد راق لها. صدّقت بدفء مشاعره، ونقاء مقاصده. وكان من قبل لم يتحدث إليها قط كما تحدث في ذلك المساء. تذكرت تعبير عينيه المتهيتين، وابتسامته، وكانت هي الأخرى تبتسم، وتستغرق في التفكير، ولكنها لم تعد تفكر فيه. اخذت تمدق ”في الليل“ من خلال النافذة المفتوحة. وحدثت طويلاً في السماء القائمة الواطئة. ثم نهضت، وازاحت شعرها عن وجهها بحركة من رأسها، ودون أن تعرف السبب، مدّت إلى هذه السماء ذراعيها العاريتين المتجمدتين، ثم اسبلتتهما، وركعت على ركبتيها أمام سريرها، وضغطت وجهها على الوسادة، وراحت تبكي بدموع غريبة محيرة لكنها حارقة رغم كل جهودها لكبت العاطفة المسيطرة عليها.

في نحو الساعة الثانية عشرة من اليوم التالي اتخذ بيرسينيف العربية العائدة إلى موسكو. فقد كان بحاجة إلى تسلم نقود من البريد، وشراء بعض الكتب، كما كان يريد أن ينتهز الفرصة، ويلتقي باينساروف، ويتحدث إليه. فقد عنَّ له، أثناء حديثه الأخير مع شوبين، أن يدعو اينساروف إلى بيته الريفي. إلا أنه لم يعثر عليه بسرعة، فقد انتقل اينساروف من شقته القديمة إلى شقة لم يكن الوصول إليها سهلاً. كانت تقع في فناء خلفي لبيت آجري قبيح، شُيد على الطراز البطرسبورغي بين ارباب وشارع بوفارسكيا. راح بيرسينيف ينتقل بدون جدوى من مدخل بيت قذر إلى آخر، ويستفهم عبثاً من بواب تارة، ومن "مستطرق" تارة أخرى. في بطرسبورغ يحاول البوابون تحاشي نظرات الزائرين، إلا أنهم في موسكو أكثر تحاشياً. لم يستجب أحد لبيرسينيف، سوى خياط فضولي ليس عليه غير صدار، وشلة من الخيوط الرمادية متدلّية من كتفه، اطل صامتاً من فتحة شباكه العالية، بوجهه الكابي غير الحليق وعينه المكدومة، وسوى ماعز اسود بلاقرون التفت إليه، وهو فوق كومة من الزباله، وارسل نغاء شاكياً، وصار يجتر طعامه أسرع من ذي قبل. وأخيراً اشفقت على بيرسينيف امرأة في معطف قديم وحذاء بال، و اشارت له إلى شقة اينساروف. وجده بيرسينيف في البيت. وكان اينساروف يستأجر غرفة من نفس الخياط الذي نظر من فتحة الشباك في كثير من اللامبالاة إلى ورطة رجل ضائع، وهي غرفة كبيرة تكاد تكون فارغة، ذات جدران خضراء داكنة، وثلاث نوافذ مريعة، فيها سرير صغير موضوع في ركن، واريكة جلدية في ركن آخر، وقفص ضخّم متدلّ قرب السقف ممّاماً، كان مأوى لبلبل في وقت ما. وحالما اجتاز بيرسينيف عتبة الباب، حتى اقبل اينساروف للقائه، ولكنه لم يهتف: "أها، هذا أنت!" أو: "اوه، يا إلهي! أية مصادفة؟" بل لم يقل

حتى ”مرحبا“، بل شد على يده فقط، وقاده إلى المقعد الوحيد الموجود في الغرفة. وقال له:

- اجلس.

وجلس هو على حافة الطاولة. و اضاف اينساروف وهو يشير إلى تل من الاوراق والكتب على الأرض:

- ها أنت ترى ما تزال هناك فوضى، ولم ارتب اموري، كما ينبغي.

لم يتح لي الوقت.

كان اينساروف يتكلم الروسية بطريقة سليمة جداً، ناطقاً، كل كلمة بقوة و صفاء، ولكن صوته الحنجري، واللطيف في الوقت ذاته فيه رنة غير روسية. وكان اصله الاجنبي (كان بلغاري المولد) يظهر بوضوح أكثر في مظهره الخارجي. كان شاباً في نحو الخامسة والعشرين، نحيفاً ومعروفاً، ذا صدر غائص، ويدين معقدتين، وقسمات وجه حادة، وانف معكوف، وشعر سبط أسود فاحم، وجبهة صغيرة، وعينين صغيرتين غائصتين متفرستين، وحاجبين كثيفين، وكانت أسنانه البيضاء الجميلة تلوح للحظة، حين يتنسم، من بين شفثيه النحيلتين القاسيتين المرسومتين بدقة بالغة. وكان يلبس سترة قديمة، ونظيفة مزررة إلى الرقبة.

سأله بيرسينيف:

- لماذا انتقلت من منزلك السابق؟

- هذا ا رخص، واقرب إلى الجامعة.

- ولكن الآن عطلة... ثم ما هذه الرغبة في العيش في المدينة صيفاً!

كان الاخرى بك أن تستأجر بيتا ريفياً، ما دمت قد عزمت على الانتقال.

لم يرد اينساروف بشيء على هذه الملاحظة، وقدم لبيرسينيف غليونه

قائلاً: ”ارجو المذدرة، لعدم توفر السيكاثر والسيغار لدي“.

اشعل بير سينيف الغليون. ومضى يقول:

- ها أنا قد اجرت بيتاً صغيراً قرب كونتسوفو. رخيص، ومريح جداً.
بل عندي حجرة زائدة في الأعلى.

ومرة أخرى لم يرد اينساروف بشيء.

مصّب بير سينيف نفساً من غليونه، وعاد يقول نافثاً خيطاً ربيعاً من
الدخان.

- بل قلت لنفسي: ما الطف لو رغب أحد من الناس... أنت مثلاً كما
دار في ذهني... لو وافق أن يسكن في تلك الحجرة في الأعلى. ما رأيك،
يا دميتري نيكانوريتش؟

رمقه اينساروف بعينه الصغيرتين.

- أقترح عليّ أن أعيش معك في البيت الريفي؟

- نعم، عندي في الأعلى حجرة زائدة.

- أنا شاكر لك كثيراً، يا اندريه بيتروفيتش، ولكن اعتقد أن مواردني
لا تسمح لي بذلك.

- كيف هذا، لا تسمح؟

- لا تسمح بأن أعيش في بيت ريفي في الضواحي. من المستحيل أن
ادفع أجرة مسكين.

- ولكنني... - شرع بير سينيف يقول وتوقف، ثم مضى يقول - لن
يكلفك ذلك أي مصرف زائد. لنقل ستظل هذه الحجرة مؤجرة لك، وفي
المقابل سيكون كل شيء رخيصاً جداً في الريف. بل يمكن أن نعد طعامنا
سوية، على سبيل المثال.

صمت اينساروف. وشعر بير سينيف بالحرجة. وبعد برهة شرع يقول:

- على الأقل زرنى في أحد الاوقات . على مقربة دانية منى تقيم عائلة كم أود أن اعرفك بها. لبيتك تعرف يا اينساروف، أية فتاة رائعة في هذه العائلة! ثم هناك صديق قريب اليّ، إنسان ذو موهبة كبيرة، وأنا واثق من أنك ستصادفه. (الروسي يعرض عليك معارفه، إذا لم يكن لديه ما يضيفك عليه) تعال، حقاً. والافضل من ذلك أن تنتقل إلينا. حقاً. اذن، لاستطعنا أن نعمل سوية ونقرأ سوية.. أنت تعرف أنني ادرس التاريخ والفلسفة. وأنت تهتم بكل ذلك. ثم أن لدي كتباً كثيرة.

نهض اينساروف، وصار يذرع الغرفة. وأخيراً سأل:

- هل لي أن اعرف كم تدفع ايجاراً لبيتك الريفى؟

- مائة روبل فضي.

- وكم غرفة فيه؟

- خمس.

- يعنى حسابياً كل غرفة بعشرين روبلاً؟

- حسابياً... ولكنني لا احتاج إليها اطلاقاً. وستظل فارغة.

- ربما، ولكن اسمع - اضاف اينساروف بحركة من رأسه قاطعة، وسمححة في الوقت ذاته - لا أستطيع أن اقبل اقتراحك، إلا إذا قبلت أنت أن تأخذ النقود منى وفق الحساب. في مقدوري أن ادفع عشرين روبلاً، لا سيما أنني سأقتصد فيما عدا ذلك، حسب اقوالك.

- بالطبع. ولكنني، في الحقيقة، خجلان.

- وإلا لا يجوز، يا اندريه بيتروفيتش.

- حسب ما تشاء. ولكن كم أنت متصلب!

ومرة أخرى لم يرد اينساروف بشيء.

واتفق الشابان على اليوم الذي ينبغي أن ينتقل اينساروف فيه. واستدعيا صاحب البيت، إلا أن هذا اكتفى، في البداية، بارسال إبنته، وهي صبية في نحو السابعة من العمر، تضع على رأسها منديلاً زاهياً كبيراً. استمعت إلى كل ما قاله اينساروف بانتباه، وبشيء من الفزع، وخرجت صامتة. وعلى أثرها ظهرت امها، وهي حامل في شهرها الأخير، تضع على رأسها منديلاً أيضاً، ولكنه صغير جداً. ووضح لها اينساروف أنه سينتقل إلى بيت ريفي قرب كونتسوفو، ولكنه سيبقي الغرفة على حسابه، ويأتمنها على كل اغراضه، وبدا الفزع على زوجة الخياط أيضاً، وانصرفت أخيراً جاء صاحب البيت، وبدا أنه فهم كل شيء في أول الأمر، سوى أنه قال في سهوم: "قرب كونتسوفو؟"، ثم فتح الباب فجأة، وراح يصرخ: "الغرفة تبقى على حسابك؟" وهدأه اينساروف فكرر الخياط بحدة: "لأنني اريد أن اعرف"، وانصرف.

عاد بيرسينيف إلى بيته راضياً جداً على نجاح اقتراحه. رافقه اينساروف إلى الباب بلطف وادب قل أن يؤدي في روسيا، وحين بقي وحده، خلع سترته بحرص، وأخذ يصف اوراقه.

٨

في مساء ذلك اليوم جلست آنا فاسيليفنا في حجرة الجلوس في بيتها، وهي توشك أن تبكي. وكان في الحجرة، فيما عداها، زوجها، وشخص يدعى اوفار ايفانوفيتش ستاخوف، هو أحد اقارب زوجها البعيدين، ضابط متقاعد في الستين من العمر، سمين إلى حد الجمود، ذو عينين ناعستين صفراوين، وشفنتين سميكتين بلا لون في وجهه منتفخ اصفر. وكان منذ تقاعده يعيش دائماً في موسكو من فوائد رأسمال صغير خلفته له زوجته، وهي من عائلة تجار. وكان لا يفعل شيئاً، ومن المستبعد أنه كان

يفكر، وحتى إذا فكر، فقد كان يحتفظ بأفكاره في سره. مرة واحدة فقط انفعل في حياته، وابدئ نشاطاً، أي أنه قرأ في الجرائد نبأ عن آلة موسيقية جديدة في معرض لندن الدولي تدعى "كونتروبوومباردون" ورغب أن يوصي عليها، بل وراح يسأل إلى أين يرسل النقود، وبوساطة أية دائرة؟ وكان اوفار ايفانوفيتش يرتدي سترة فضفاضة بلون التبغ، ومنديلاً أبيض حول رقبتة، وكان يأكل مرات عديدة وبكميات كبيرة، وفي الحالات الحرجة فقط، أي حين يتعين عليه أن يبدي رأياً، كان يحرك اصابع يده اليمنى في الهواء بارتعاص - ابتداء من الابهام حتى الخنصر، وبعد ذلك من الخنصر حتى الابهام، قائلاً بتعسر: "بالاحرى... على نحو ما، ذاك...".

كان اوفار ايفانوفيتش جالساً في مقعد وثير قرب النافذة يتنفس بضيق. وكان نيقولاى ارتيميفيتش يذرع الحجره بخطى كبيرة، وقد حشر يديه في جيبه، وارتسم على وجهه عدم الرضى.

وأخيراً توقف، وهز رأسه. وقال:

- أجل، في زماننا كانت تربية الشبان تختلف. ولم يكونوا يبيحون لانفسهم الاستهانة بالشيوخ (لفظ التون من انفه على طريقة الفرنسيين). والآن انظر فيما حولي، ولا يسعني إلا أن اندهش. ربما لست على صواب، وهم الذين على صواب، ربما. ومع ذلك فإن لي نظرتي الخاصة إلى الاشياء. فلست اهل بالولادة. ما رأيك في هذا، يا اوفار ايفانوفيتش؟

اكتفى اوفار ايفانوفيتش بأن نظر إليه، وحرك اصابعه. ومضى نيقولاى ارتيميفيتش يقول:

- يلينا نيقولايفنا، مثلاً، لا افهمها تماماً. فأنا بالنسبة لها لست على درجة كافية من السمو. وقلبها من السعة بحيث يحتضن الطبيعة كلها، إلى أصغر صرصار أو ضفدعة، وباختصار، يحتضن كل شيء باستثناء ايها الذي انجبهها. طيب، رائع، أنا اعرف ذلك، ولا احشر نفسي. لأن

في ذلك اعصاباً، ودرجة عالية من التعلم، وافكاراً سامية. وكل ذلك ليس من اختصاصي. ولكن السيد شوبين، وليكن فناً مدهشاً غير اعتيادي، فليس ذلك موضع جدالي، إلا أنه يستهين بمن هو أكبر سناً منه، ويمكن أن يقال أيضاً، بمن يدين له بالكثير، على أية حال. وهذا ما لا يستطيع أن اسمح به ^(٦) dans mon gros bon sens و اعترف بذلك. ولست متصلاً في طبيعتي. ولكن لكل شيء حده.

دقت أنا فاسيليفنا الجرس بانفعال، فدخل الصبي الخادم. قالت:

— لماذا لا يأتي بافل ياكوفليفيتش؟ يعني، لماذا لا يأتي وقد استدعيته؟
هز نيقولاي ارتيميفيتش كتفيه.

— ولكن لماذا تريدان استدعاءه؟ أنا لا اطلب ذلك مطلقاً، بل ولا ارجب فيه.

— كيف لماذا، نيقولاي ارتيميفيتش؟ هو الذي ضايقتك، ولربما اعاق دورة علاجك. اريد أن استوضحه. اريد أن اعرف بم استطاع أن يثير غضبك؟

— اكرر لك أنني لا اطلب ذلك. ما هذا الهوس... devant les domestiques^(٧)

احمرت أنا فاسيليفنا قليلاً.

— عبثاً أن تقول ذلك، يا نيقولاي ارتيميفيتش. أنا مستحيل... devant... les domestiques..... اذهب، فيديوشكا، وأتِ بافل ياكوفليفيتش إلى هنا، حالاً...

(٦) مع كل ما املك من الادراك السليم (بالفرنسية في الاصل).

(٧) أمام الخدم (بالفرنسية في الاصل).

خرج الصبي الخادم.

- لا حاجة إلى كل ذلك مطلقاً - قال نيقولاى ارتيميفيتش من خلال اسنانه، وعاد يذرع الحجرة - لم يكن هذا غرضي من كلامي.

- وكيف. يجب أن يعتذر Paul امامك.

- لا، وما حاجتي إلى اعتذاراته؟ ثم ما هي الاعتذارات؟ كلها اقوال.

- وكيف ما الحاجة؟ يجب أن نرده إلى الصواب.

- رديه أنت إلى الصواب. فهو يطيعك أكثر. أما أنا فليس لي عتب عليه.

- لا، يا نيقولاى ارتيميفيتش، أنت اليوم متعكر المزاج منذ قدومك.

بل اراك تحف في المدة الأخيرة. اخشى أن دورة علاجك لا تساعدك.

قال نيقولاى ارتيميفيتش:

- دورة العلاج ضرورية لي. كبدي ليست على ما يرام.

وفي تلك اللحظة دخل شوبين. وكل يبدو متعباً. وكانت ابتسامة

خفيفة وساخرة بعض الشيء، ترف على شفثيه قال:

- هل طلبت مجيئي، يا آنا فاسيليفنا؟

- نعم، طلبت، طبعاً. لا، يا Paul، هذه فظاعة. أنا مستاءة منك كثيراً.

كيف يمكنك أن تستهين بنيقولاى ارتيميفيتش؟

- وهل تشكى لك نيقولاى ارتيميفيتش مني؟

سأل شوبين ذلك، ونظر إلى ستاخوف بنفس تلك الابتسامة الساخرة.

استدار هذا، واطرق ببصره.

- نعم، اشتكى. أنا لا اعرف بم اذنبت في حقه، ولكنك يجب أن

تعتذر حالاً، لأن صحته منحرفة جداً الآن، وأخيراً، يجب علينا جميعاً،

ونحن في سن الشباب، أن نحترم اصحاب الافضال علينا.

”آه، يا للمنطق!“ - فكر شوبين، ووجه كلامه إلى ستاخوف.

- أنا مستعد للاعتذار إليك، نيقولاي ارتيميفيتش - قال بانحناءة

احترام خفيفة - إذا كنت قد اساءت إليك بشيء حقاً.

- أنا اطلاقاً... لست - رد نيقولاي ارتيميفيتش، وهو يتحاشى النظر

إلى شوبين كالسابق - على العموم، اسامحك بطيب خاطر، لأنني، كما

تعلم، لست إنساناً متصلباً.

قال شوبين:

- اوه، هذا ليس موضع شك مطلقاً. ولكن اسمح لي أن استفسر: هل

تعرف أنا فاسيليفنا ما يشكل ذنبي ازاءك؟

قالت أنا فاسيليفنا:

- لا، أنا لا اعرف شيئاً.

واشرأت بعنفها. فاسرع نيقولاي ارتيميفيتش يهتف:

- اوه، ياربي! كم مرة ترجيت، وتوسلت، كم مرة قلت: ما ابغض

كل هذه الايضاحات والتمثيلات على نفسي! مرة في العمر يأتي الإنسان

إلى بيته، ويريد أن يستريح - والناس تقول محيط عائلي،^(٨) interieur،

والإنسان يجب أن يكون وسط عائلته - ويجد أمامه التمثيلات

والمنغصات. ولا لحظة راحة. فالإنسان مضطر إلى أن يذهب إلى النادي...

أو إلى مكان آخر. والإنسان كائن حي، ولكيانه العضوي مطالب، بينما

هنا...

(٨) المقصود هنا جو راحة في البيت (بالفرنسية في الأصل).

ولم يتم نيقولاوي ارتيميفيتش كلامه، وخرج بسرعة وصفق الباب.
وراقبته أنا فاسيليفنا، وهو يخرج. وهمست بمرارة:

- إلى النادي؟ أنت لا تذهب إلى هناك، أيها الطائش! لا أحد في
النادي تهدي إليه الخيول من مجموعتي، وخيول رمادية فضلاً عن ذلك!
اللون المفضل لدي. نعم، نعم، أيها الرجل المستخف - اضافت بعد أن
رفعت صوتها - أنت لا تذهب إلى النادي. أما أنت، يا Paul - قالت
ذلك واقفة - كيف لا تخجل من نفسك؟ لا اظنك طفلاً صغيراً. والآن
صار رأسي يوجعني. هل تعرف أين زويا؟

- يبدو أنها في حجرتها في الأعلى. الثعلبة الحصيصة الصغيرة تلك تلوذ
دائماً في جحرها، في مثل هذا الطقس.

- طيب، ارجوك، ارجوك - وراحت أنا فاسيليفنا تبحث فيما حولها
- هل رأيت القدح الذي اضع فيه الفجل الحار المدقوق؟ Paul، اعمل
معروفاً، ولا تجعلني اغضب في المستقبل.

- كيف يمكن أن اغضبك، يا عمة؟ اعطيني يدك لاقبلها. أما فجلك
الحار فقد رأيت على المنضدة الصغيرة في غرفة مكتبك.
- داريا دائماً تنساه في مكان ما.

قالت أنا فاسيليفنا، وخرجت مع حفيف ثوبها الحريري.
اراد شوبين أن يتبعها، ولكنه توقف، بعد أن سمع وراءه صوت اوفار
ايفانوفيتش البطيء.

قال الضابط المتقاعد مباعداً بين الكلمات:

- ما كان... تعامل... هكذا... يا رضيع.

اقترب شوبين منه.

- على أي شيء أعامل، يا اوفار ايفانوفيتش المحمود الخصال؟

- على أي شيء؟ أنت شاب. يعني إحترم. نعم.

- احترم مَنْ؟

- مَنْ؟ معروف من. لا تكشر، هيه.

صالب شوبين ذراعيه على صدره. وهتف:

- آه منك، يا ممثل مبدأ المشاعة الفلاحية. أنت قوة الأرض السوداء،

أساس الصرح الاجتماعي!

شرع اوفار ايفانوفيتش يحرك اصابعه.

- كفى، يا اخ، لا تثيرني.

ومضى شوبين يقول:

- هذا نبيل تخطى سن الشباب، على ما يبدو، ولكن أي إيمان طفولي

سعيد ما يزال يكمن فيه! احترم! ولكن هل تعرف، أيها الرجل العاطفي،

السبب في غضب نيقولاي ارتيميفيتش علي؟ لأنني قضيت معه صباح

اليوم كله عند صاحبتة الالمانية، واليوم غنينا، ثلاثنا: "لا تتعدي عني".

فليتك سمعتنا. يبدو أن ذلك يؤثر فيك. غنينا، يا سيدي، غنينا. ولكن

شعرت بالوحشة، بعد ذلك، إذ رأيت الأمر ليس على ما يرام، والعواطف

الريقة أكثر من اللازم. فاخذت اناكدهما كليهما. وكانت النتيجة جيدة.

في البداية غضبت الالمانية علي، وبعد ذلك عليه، وبعدها غضب هو

عليها، وقال لها إنه سعيد في بيته فقط، وأن الجنة هناك، في بيته. فقالت له

أنه بلا خلق، فقلت لها: "آخ" بالالمانية. وخرج هو، وبقيت أنا. وجاء إلى

هنا، اقصد، إلى الجنة، وإذا به يقرف من الجنة. وهكذا أخذ يتذمر.. طيب،

والآن، من المذنب، في رأيك؟

قال اوفار ايفانوفيتش:

- أنت، بالطبع.

تفرس شوبين فيه. وشرع يقول بصوت متذلل:

– هل لي أن أتجرأ واسألك، أيها الفارس المحترم: هل هاتان الكلمتان الغريبتان اللتان تكرمت بقولهما كانتا نتيجة لفعل قابليتك على التفكير، أم استجابة غريزية لحاجة فجائية في أن تنطق بشيء يهز الهواء يسمى صوتاً؟
قال اوفار ايفانوفيتش كالمثاوه:

– قلت... لا تثيرني...

أخذ شوبين يضحك، وخرج مسرعاً.

– أي – نطق اوفار ايفانوفيتش بعد ربع ساعة – هات... قدح فودكا.

جلب الصبي الخادم الفودكا والمزة على صينية. تناول اوفار ايفانوفيتش قدح الفودكا من الصينية بهدوء. ونظر إليه باهتمام مشدد، ولمدة طويلة، وكأنه لا يفهم بشكل واضح ماذا في يده. ثم نظر إلى الصبي الخادم، وسأله هل اسمه فاسكا؟ ثم اتخذ سمت المغموم، وشرب الفودكا، وتمزز، ودس يده في جيبه ليخرج المنديل. ولكن الصبي الخادم كان قد عاد بالصينية والقارورة إلى مكانهما منذ وقت طويل، ولحق أن يأكل الرنجة المتبقية من المزة، وأن يغط في سنة من النوم ساندأ ظهره إلى معاطف اسياده، واوفار ايفانوفيتش ما زال ممسكاً بمنديله أمامه، على اصابعه المتباعدة، ينظر في النافذة تارة، وإلى أرض الحجره وجدرانها في نفس الاهتمام المشدد.

٩

عاد شوبين إلى مسكنه في ملحق البيت، وفتح كتاباً. دخل خادم نيقولا اريميميفيتش الشخصي إلى غرفته بحذر، وقدم له مذكرة صغيرة ثلاثية الشكل محتومة بختم ضخم. مثل شعار العائلة. وقد جاء في هذه المذكرة: ”أمل بأنك، كرجل نزيه، لن تبيع لنفسك التلميح، حتى بكلمة

واحدة، إلى السند النقدي الذي اشير إليه اليوم صباحاً. فأنت تعرف علاقاتي، والقواعد التي اتبعها، وضآلة المبلغ نفسه، وغير ذلك من الظروف. وأخيراً، هناك اسرار عائلية يجب احترامها، والطمأنينة العائلية شيء مقدس لا يذكره إلا ^(٩) "êtres sans coeur"، وليس لي سبب في أن اعدك منهم (ارجو أن تعيد لي هذه المذكرة) ن.س.س.

كتب شوبين بقلم الرصاص في الاسفل: "لا تقلق، فأنا ما ازال لا استل المناديل من الجيوب" وأعاد المذكرة إلى الخادم، واستمر في قراءته. ولكن الكتاب سرعان ما انزلت بين يديه. نظر إلى السماء الآخذة بالتوهج بحمرة المساء، وإلى شجرتي الصنوبر الفتيتين الضخمتين المنتصبتين بمعزل عن الاشجار الأخرى، وفكر مع نفسه: "أشجار الصنوبر ضاربة إلى الزرقة في النهار، ولكنها بهذه الخضرة الرائعة في المساء"، وخرج إلى الحديقة، بأمل خفي في أن يلتقي يلينا. ولم يخدعه أمله. فقد لاح فستانها في الطريق إلى الامام بين الاجمات. لحق بها، ولما حاذاها، قال:

- لا تنظري في ناحيتي. فأنا لا استحق.

القت عليه نظرة خاطفة، وابتسمت ابتسامة خاطفة، وواصلت سيرها في أعماق الحديقة. فمضى شوبين في أعقابها. وقال:

- ارجوك أن لا تنظري إليّ. ومع ذلك فأنا أتحدث إليك. وتلك هي ظاهرة متناقضة تماماً! ولكن هذا لا يهم. ليست هذه أول مرة يحدث لي ذلك. تذكرت هذه اللحظة أنني، حتى الآن، لم اسألك صفحاً، كما ينبغي، عن تصرفي الاحمق يوم أمس. الست غاضبة عليّ، يا يلينا نيقولايفنا؟

توقفت، ولكنها لم تجبه على الفور، لا لأنها غاضبة، بل لأن أفكارها

(٩) الذين لا قلب لهم (بالفرنسية في الأصل).

كانت بعيدة عنه. وأخيراً قالت:

- لا، لست غاضبة، البتة.

عض شويين على شفته. وغمغم:

- اي وجه مستغرق لامبال - ثم مضى يقول رافعاً صوته - يلينا نيقولايفنا، اسمحي لي بأن اقص عليك حادثة صغيرة. كان لي صديق، وكان لهذا الصديق صديق أيضاً. كان في بادئ الأمر، يتصرف كما يجدر بإنسان معتبر، وبعد ذلك صار يسرف في الشرب. وفي صباح باكر من أحد الايام التقاه صديقي في الشارع (وكانت علاقتهما قد انقطعت ولاحظني ذلك)، التقاه وراه سكران، فصدد صديقي عنه. ولكن الرجل دنا منه وقال: "ما كنت سأزعل لو لم تسلّم عليّ، ولكن لماذا تصد عني؟ ربما سكرت لأنني في ضائقة. ويتغمديني الله برحمته!".

وصمت شويين. فسالت يلينا:

- هذا فقط؟

- فقط.

- أنا لا افهمك. إلى أي شيء تغمز؟ قبل لحظة كنت تقول لي لا تنظري في ناحتي.

- نعم، وقلت لك الآن: الصدد غير لطيف.

فشرعت يلينا تقول:

- ولكن هل معقول أنني...

- غير معقول؟

احمرت يلينا قليلاً، ومدت يدها لشويين، فصافحها بقوة. قالت يلينا:

- كأنما ضبطتني بشعور سيء أزاءك. ولكنك غير منصف في ارتيابك.

لم يخطر في بالي أن اتجنّبك.

- وليكن، وليكن. ولكن يجب أن تقري بأن آلفاً من الافكار تدور في رأسك الآن، فلا تأمّنيني على أي واحد منها. ها؟ أأست اقول الحقيقة؟
- ربما.

- ولمِ ذاك؟ لمِ؟

قالت يلينا:

- افكاري ليست واضحة حتى لي.

فاهتلها فرصة ليقول:

- ولهذا بالذات يجب أن تأمّنيها لأحد. ولكن سأقول لك لماذا لا تفعلين ذلك. إن لك فكرة سيئة عني.
- أنا؟

- نعم، أنت. تتصورين أن نصف ما في نفسي مصطنع، لأنني فنان، وأنسي غير مقتدر ليس فقط على أي عمل - ولربما أنت على حق في ذلك - بل وعلى أية عاطفة عميقة حقيقية. وأنسي لا أستطيع حتى أن ابكي بصدق، وأنني ثرثار وناشر أقاويل. كل ذلك لأنني فنان. هل نحن بعد هذا، أناس بؤساء نحن مغضوب عليهم من قبل الرب، أنت، مثلاً، وأنا مستعد إلى أن أقسم، لا تصدقين بندامتي.

- لا، يا بافل ياكوفليفيتش، أنا مصدقة بندامتك، واصلق بدموعك. ولكن يبدو لي أن ندامتك بحد ذاتها ودموعك أيضاً تلذ لك.
جفل شوبين.

- أوه، احسب أن هذه حسب تعبير الاطباء، حالة مستعصية casus incurabilis. عندئذ لا يبقى أمامي غير أن احني رأسي، واذعن. ومع ذلك، آه، يا إلهي! هل من الممكن حقاً، هل من الممكن أن انشغل طوال الوقت بنفسي، بينما تعيش إلى جانبي مثل هذه النفس؟ وأنا أعرف

أنني لن أستطيع أبداً أن انفذ إليها، ولا أن أرى ما يحزنها ويفرحها، وما يطوف في ذهنها، وماذا تريد وإلى أين تسير... خبريني - قال بعد برهة من الصمت - اتظنين أنك لن تحبي فناناً أبداً، ومهما تكن الظروف والدوافع؟

حدقت يلينا في عينيه تماماً.

- لا، بافل ياكوفليفيتش، لا.

قال شوبين بجزع هزلي:

- وهذا ما اقتضى البرهنة عليه. اذن، كان من الأليق، على ما اظن، لا اعرقل نزهتك الانفرادية. لو كنت معلماً لسألتك: على أساس أية معطيات قلت: لا؟ ولكنني لست معلماً. أنا طفل، حسب مفاهيمك، ولكن الناس لا يصدون عن الاطفال، تذكري هذا. وداعاً. وليتغمدي الله برحمته!

ارادت يلينا أن توقفه، ولكنها فكرت قليلاً، ثم قالت أيضاً:

- وداعاً.

خرج شوبين من الفناء، والتقاه بيرسينيف على مسافة قصيرة من بيت آل ستاخوف الريفى. كان يسير بخطى نشيطة، وقد احنى رأسه، ودفع قبعته على علبائه.

هتف شوبين:

اندرية بتروفيتش!

توقف هذا. فمضى شوبين يقول:

- سرفى طريقك، سر. لا شيء. لم يكن في نيتي أن اوقفك. اذهب قدماً إلى الحديقة، وستجد يلينا هناك. اظنها تنتظرك. على أية حال أنها تنتظر أحداً... أنت تفهم قوة هاتين الكلمتين: أنها تنتظر! اتعرف يا أخ

أي ملابس مدهشة؟ تصور أنني أعيش معها، منذ سنتين، في بيت واحد واعشقها، ولكن الآن فقط، في هذه اللحظة رأيتها لأول مرة، ولا أقول فهمتها لأول مرة، رأيتها، وبسطت ذراعي باندهاش. ارجوك لا تنظر إليّ بهذه الابتسامة الزائفة السخرية التي لا تناسب ملاحك الرصينة. افهم أنك تريد أن تذكرني بأنوشكا. ثم ماذا؟ أنا لا ارفض. انوشكا تناسب مقامي. فلتعش الانوشكات والزويات، وحتى الافغوستينات الخريستينوفات انفسهن! اذهب إلى يلينا، الآن، وأنا ذاهب، فهل تظنني ذاهباً إلى أنوشكا؟ لا، يا اخ، بل اسوأ، إنا ذاهب إلى الأمير تشيكوراسوف. هناك راعي فنون بهذا الاسم، من تر قازان، مثل فولغين. هل ترى رسالة الدعوة هذه، وهذه الحروف R.S.V.P.^(١٠)؟ لا راحة لي في القرية أيضاً. Addio^(١١).

استمع بيرسينيف إلى خطبة شوبين الرنانة في صمت، وكأما يأخذه شيء من الارتباك نيابة عنه، ثم دخل فناء بيت ستاخوف. أما شوبين فقد ذهب بالفعل، إلى الأمير تشيكوراسوف وصار يحدثه بالكثير من أوقح العبارات، بأكثر الطرق تهديماً. وقد ضحك راعي الفنون هذا، من تر قازان، وضحك ضيوفه، دون أي مرح من جانب احدهم، وتفرقوا، مغتاظين جميعاً مثل سيدين التقيا، في شارع نيفسكي، واحدهما قليل المعرفة بالآخر، فإذا بهما يكثران عن أسنانهما بابتسامة، ويحركان عيونهما وانفيهما وخديهما بعذوبة مفتعلة، وحالما يتعد احدهما عن الآخر يتخذان عدم اكترأتهما السابق، أو سمتهما الوعق البواسيري في أغلب الأحيان.

(١٠) الحروف الأولى من جملة فرنسية معناها: الرجاء اعلامنا بالجواب (بالفرنسية في الأصل).

(١١) وداعاً (بالإيطالية في الاصل).

استقبلت يلينا بيرسينيف بود، ولكن ليس في الحديقة، بل في حجرة الجلوس، واستأنفت حديث الأمس حالاً، وفي شيء من نفاذ الصبر. وكانت وحدها. فقد انسل نيقولاي ارتيميفيتش بهدوء إلى حيث لا تعلم. بينما كانت أنا فاسيليفنا منطرحة في الأعلى، وعلى رأسها عصابة مبللة. وكانت زويا جالسة إلى جانبها، وقد عدّلت تنورتها باعتناء، وطوت يديها على كرتيها. وكان اوفار ايفانوفيتش يأخذ غفوة في العلية على اريكة عريضة مريحة اطلق عليها ”جالبة النوم“. عاد بيرسينيف إلى تذكر أبيه من جديد، فقد كان يحمل له ذكرى قدسية. فلنذكر نحن بعض الكلمات عنه.

كان والد بيرسينيف يملك اثنين وثمانين قناً اعتقهم قبيل وفاته، وكان من المنورين ومن طلاب جامعة غوتينغين القدامى، وله مؤلف مخطوط عن ”تجليات أو تحولات الروح في العالم“ هو خليط فريد من فلسفة شيلينغ وسفيدينبورغ والنزعة الجمهورية. وقد أخذ ابنه إلى موسكو، وهو صبي، بعد وفاة امه مباشرة، وتولى تربيته بنفسه. وكان يتهاى لكل درس، ويجتهد بنقاء ضمير غير اعتيادي، وبدون توفيق على الاطلاق. لأنه كان حالمًا وكُتبياً، وصوفياً، ويتكلم بلعثة، وبصوت كامد، ويستخدم كلمات مبهمة ومنمقة، وبتشابهه، على الاغلب، وكان ينكمش حتى من ابنه، الذي كان متعلقاً به كثيراً. فلا غرابة في أن الابن كان لا يفتأ يحملق بعينه خلال دروسه، ولا يتقدم في الدراسة اطلاقاً. وأخيراً حدس العجوز (كان في نحو الخمسين من العمر، فقد تزوج متأخراً جداً) أن الأمور

لا تسير على ما يرام، فأدخل ابنه "اندريوشا"^(١٢) في مدرسة داخلية. وصار اندريوشا يتعلم، ولكنه لم يخرج من رقابة ابيه. فكان ابوه يزوره باستمرار، مضجراً صاحب المدرسة بمواعظه واحاديثه، كما أن الضيف غير المدعو اثقل على المراقبين أيضاً، إذ كان من حين لآخر يحمل لهم كتباً في التربية معقدة جداً على حد تعبيرهم. وحتى تلامذة المدرسة صاروا يتحرجون لدى رؤيتهم وجه العجوز الأسمر المجذور وجسده الضامر في سترة فراك رمادية مدبية الذيل يرتديها دائماً. وكانوا لا يحسدون قط في أن هذا السيد الجهم الذي لم تلح الابتسامة على شفثيه قط، بأنفه الطويل ومشيته الشبيهة بمشية الغرائق كان يأسو بقلبه على كل واحد منهم، ويشفق تماماً تقريباً كما يأسو ويشفق على ابنه من صلبه. وذات مرة عنّ له أن يتحادث معهم عن واشنطن. وخاطبهم قائلاً "يا تلامذتي الصغار" ولكن تلامذته الصغار انفضوا من حوله حالما سمعوا الرنات الأولى من صوته الغريب. لم يكن طريق خريج جامعة غوتينغن النزيه هذا مفروشاً بالورود. كان دائماً مسحوقاً بسير التاريخ، وبمختلف ضروب الاسئلة والتخيلات. وحين دخل بيرسينيف الابن إلى الجامعة. كان الأب يذهب معه إلى المحاضرات، ولكن صحته اخذت تخونه. وهزته احداث ١٨٤٨ من الاساس (وكان عليه أن يغير الكتاب كله) غير أنه توفي شتاء ٥٣ قبل تخرج ابنه من الجامعة، إلا أنه قد هنأه مسبقاً بدرجة علمية وباركه لخدمة العلم. وقال له قبل ساعتين من وفاته: "أقدم المشعل لك، فقد حملته أنا طوال ما كنت قادراً على حمله، فلا تتخل أنت عنه إلى آخر العمر".

تحدث بيرسينيف ليلينا طويلاً عن ابيه. واختفى الارتباك الذي كان

(١٢) صيغة تدليل من اسم اندريه. المترجم.

يحسه في وجودها، ولم يعد يلفظ السين شيئاً كثيراً. وانتقل الحديث إلى الجامعة. فسألته يلينا:

- قل لي هل كان بين رفاقك أناس مرموقون؟
وتذكر بيرسينيف كلام شوبين.

- لا، يلينا نيقولايفنا، الحق أقول لك، لم يكن بيننا رجل واحد مرموق. ومن أين يأتي! يقال أن جامعة موسكو مرت بعهد طيب، ولكن ليس الآن. هي الآن مدرسة وليست جامعة. كنت أجد صعوبة مع رفاقي. اضف ذلك مخفضاً صوته. همست يلينا:
- صعوبة؟

فمضى بيرسينيف يقول:

- على أية حال، لا بد أن اذكر أنني اعرف طالباً - لم يكن في فصلي في الحقيقة، وهو بالفعل إنسان مرموق.
سألت يلينا بحماس:

- وما اسمه؟

- ابتساروف، دميتري نيكانوريتش، وهو بلغاري.

- ليس روسياً؟

- لا، ليس روسياً.

- ولماذا يعيش في موسكو، اذن؟

- جاء إليها للدراسة. وهل تعرفين لأي هدف يدرس؟ هناك فكرة واحدة تشغله؛ هي تحرير بلاده. وسيرته أيضاً غير اعتيادية. فقد كان أبوه تاجراً ميسوراً جداً، من مواليد تيرنوف. وتيرنوف الآن بلدة صغيرة، بينما كانت في ماضيها عاصمة بلغاريا، عندما كانت بلغاريا مملكة

مستقلة. وكانت تجارته في صوفيا، وله علاقات مع روسيا. وشقيقته، عمة اينساروف، ما تزال تعيش في كييف، وقد تزوجت معلماً أقدم للتاريخ في مدرسة ثانوية هناك. وفي عام ١٨٣٥، أي قبل ثمانية عشر عاماً، وقعت حادثة نكراء، إذ اختفت أم اينساروف فجأة، وبعد اسبوع وجدت مذبوحة.

ارتعدت يلينا، فتوقف بيرسينيف، ولكنها قالت:

- واصل، واصل.

- وأشيع أن احد الاغوات الاتراك اختطفها وقتلها. ولما عرف والد اينساروف بالحقيقة أراد أن ينتقم، ولكنه تمكن من جرح التركي بخنجر لا غير... وقد قُتل رمية بالرصاص.

- قُتل؟ بدون محاكمة؟

- نعم، وكان اينساروف في ذلك الحين في سنه الثامنة فبقي بين ايدي الجيران. وعرفت الأخت بما حدث لعائلة اخيها، فاعلنت رغبتها في احتضان ابن اخيها. فأرسل إلى اوديسا، ومن هناك إلى كييف. وقضى في كييف اثني عشرة سنة كاملة، ولهذا يتكلم الروسية جيداً.

- يتكلم الروسية؟

- مثلك ومثلي. وحين اتم العشرين من العمر (وكان ذلك في بداية ١٨٤٨) رغب في السفر إلى بلاده. وزار صوفيا وتيرنوف، وجاب بلغاريا كلها طولاً وعرضاً، وقضى فيها سنتين تعلم فيها لغته القومية من جديد. ولاحقته الحكومة التركية، ومن المحتمل أنه تعرض، في هاتين السنتين، إلى مخاطر كبيرة. فقد رأيت على رقبتة ذات مرة ندبة عريضة، لا بد أنها كانت اثر الجرح. ولكنه لم يكن يحب الكلام عن ذلك. فهو صموت أيضاً بطبعه. كنت احاول الاستفسار منه ولكنني لم اظفر بطائل. فهو يرد بعبارات شائعة، أنه عنود جداً. وفي عام ١٨٥٠ عاد من جديد إلى روسيا،



إلى موسكو بنية إكمال تعليمه كلياً، والاختلاط بالروس، وفيما بعد، حين يتخرج في الجامعة...

قاطعه يلينا:

— ماذا فيما بعد؟

— ما يقضي به الله. فمن الصعب التنبؤ بالمستقبل.

ظلت عينا يلينا معلقتين ببيرسينيف وقتاً طويلاً. ثم قالت:

— أثرت اهتمامي الشديد بقصتك. كيف شكل صاحبك هذا الذي

سميته... اينساروف؟

— كيف أقول لك؟ ليس قبيحاً، على ما اظن. حسناً، سترينه بنفسك.

— وكيف؟

— سأتي به إليك، هنا. بعد غد سينتقل إلى قريتنا، ليعيش معي في

مسكن واحد.

— صحيح؟ ولكن هل سيقبل بزيارتنا؟

— دون شك! سيكون مسروراً جداً.

— وهل هو فخور؟

— هو؟ لا، البتة. يعني إذا اردت الحقيقة، فهو فخور، ولكن ليس في

المعنى الذي تقصدين. فهو مثلاً لا يستدين الفلوس من أحد.

— وهل هو فقير؟

— نعم، ليس غنياً. عندما سافر إلى بلغاريا جمع ما تيسر له من مخلفات

ابيه الصغيرة، كما تساعده عمته. ولكن كل ذلك ضئيل تافه.

فلاحظت يلينا قائلة:

— لعل له الكثير من ضبط النفس.

- نعم. أنه رجل من حديد. وفيه، في الوقت ذاته، وسترين ذلك بنفسك، شيء طفولي منزّه، مع كل تمرّزه وصرامته وحتى تكّمه. والحق أن نزاهته ليست نزاهتنا التافهة، نزاهة الذين ليس لهم ما يخفونه... ولكن انتظري، سأتي به إليك.

سألت يلينا مرة أخرى:

- وهل هو خجول؟

- لا، ليس خجولاً. المغرورون وحدهم خجولون.

- وهل أنت مغرور؟

ارتبك بيرسينيف، وبسط ذراعيه بحيرة. فمضت يلينا تقول:

- أنت تثير فضولي. طيب، قل لي الم يثار من الاغا التركي؟

ابتسم بيرسينيف:

- الثأر يوجد في الروايات فقط، يلينا نيقولايفنا. فضلاً عن أن هذا الاغا ربما كان قد مات في غضون الاثنتي عشرة سنة هذه.

- على أية حال، ألم يقل السيد اينساروف لك شيئاً عن هذا؟

- لم يقل شيئاً.

- فلماذا سافر إلى صوفيا؟

- كان أبوه يعيش هناك.

غرقت يلينا في تفكير، ثم قالت:

- يحرر وطنه! حتى النطق بهذه الكلمتين رهيب، لعظمتهما...

وفي تلك اللحظة دخلت الغرفة أنا فاسيليفنا، فانقطع الحديث. عندما كان بيرسينيف في طريق عودته إلى البيت هذا المساء اتابته أحاسيس غريبة. لم يندم على نيته في تعريف يلينا باينساروف. ورأى من الطبيعي جداً أن

تخلف احاديثه عن البلغاري الشاب ذلك التأثير العميق لدى يلينا... كما أنه هو نفسه حاول أن يقوي ذلك التأثير! ولكن شعوراً مبهماً ومعتماً تسلل خفية إلى قلبه. فإكتأب إكتئاباً مسموماً. إلا أن هذا الاكتئاب لم يعقه عن الانكباب على "تاريخ اسرة غوغينشتاوفين"، وبدأ يقرأه من الصفحة التي توقف عندها مساء اليوم الفائت.

١١

بعد يومين وصل اينساروف إلى مسكن بيرسينيف مع متاعه، بما عاهد به بيرسينيف، لم يكن لديه خادم، إلا أنه نظم غرفته، ورُتب الاثاث، ومسح الغبار، وكنس الارضية دون أية مساعدة. وامضى وقتاً طويلاً جداً في وضع منضدة الكتابة في المكان الذي أبا أن يستوعبها، ولكن اينساروف بما جبل عليه من اصرار صموت، حقق ما يريد. ولما هياً حجرته، رجا بيرسينيف أن يتقبل منه عشرة روبلات كمقدمة، وأخذ عصا غليظة، وخرج يتفقد ما يحيط بمنزله الجديد. وعاد بعد حوالي ثلاث ساعات فدعاه بيرسينيف إلى أن يشاركه طعامه، فاجابه أنه لا يمانع في تناول الغداء معه اليوم، ولكنه قد تفاوض مع ربة البيت بالفعل، وسيتلقى طعامه منها. اعترض بيرسينيف قائلاً:

- رحماك! ستطعمك بشكل سيء. أن هذه المرأة لا تجيد الطبخ نهائياً. فلماذا لا تريد أن تشاركني طعامي؟ سنقتسم المصروفات بالمناصفة.

أجاب اينساروف بابتسامة هادئة:

- امكانياتي لا تساعدني أن آكل مثلما تأكل.

وكان في ابتسامته تلك شيء لا يبيح أية مقاومة. فلم يضيف بيرسينيف كلمة. وبعد الغداء عرض بيرسينيف عليه أن يأخذه إلى آل ستاخوف، إلا

أن اينساروف رد بأنه يريد أن يكرس كل المساء للكتابة إلى أصحابه البلغار، ولهذا يرجو أن تؤجل زيارة آل ستاخوف إلى يوم غد. وكان بيرسينيف يعرف من قبل صلابة اينساروف فيما يريد، ولكنه الآن فقط، وهو معه تحت سقف واحد، استطاع أن يقتنع كلياً بأن اينساروف لم يغير قط قراراً كان قد اتخذه، مثلما لم يؤجل قط تنفيذ وعد كان قد قطعه. في البداية كان هذا الضبط الأكثر شدة من الضبط الألماني يبدو لبيرسينيف، الروسي القح، غريباً بعض الشيء، بل ومضحكاً قليلاً. ولكنه سرعان ما ألفه، وأخيراً صار يجده مريحاً جداً، على أقل تقدير، أن لم يكن أهلاً للاحترام.

في اليوم الثاني من وصول اينساروف استيقظ في الرابعة صباحاً، وطاف طوافاً سريعاً في كل كونتسوفو تقريباً، وسبح في النهر، وشرب كوباً من الحليب البارد، وجلس يعمل. ولم يكن عمله قليلاً، فقد كان يدرس التاريخ الروسي، والقانون، والاقتصاد السياسي، وكان يترجم الاغاني والمدونات التاريخية البلغارية، ويجمع المواد عن المسألة الشرقية، ويضع كتاباً في النحو الروسي للبلغار، وكتاباً في النحو البلغاري للروس. جاءه بيرسينيف، وتحدث معه عن فورباخ. استمع اينساروف إليه بانتباه، ولم يعترض إلا نادراً، ولكن باقتدار، وكان واضحاً من اعتراضاته أنه كان يحاول أن يحدد لنفسه مساراً، فأما إلى دراسة فورباخ، وأما إلى امكانية الاستغناء عنه. وبعد ذلك ساق بيرسينيف الحديث إلى دراساته، وسأله هل سيربه شيئاً منها؟ فقرأ اينساروف له اغنيتين أو ثلاثاً من الاغاني البلغارية التي ترجمها، ورغب في أن يسمع رأيه فيها. فرأى بيرسينيف أن الترجمة صحيحة، وأن كان ينقصها القدر الكافي من التدفق. فأخذ اينساروف ملاحظته بعين الاعتبار. وانتقل بيرسينيف من الأغاني إلى وضع بلغاريا الراهن، فلحظ، لأول مرة، التغيير الكبير الذي ظهر على اينساروف، بمجرد ذكر اسم وطنه: لم يتوهج وجهه أو يرتفع صوته، لا، أبداً! بل أن كيانه كله، بدا كما لو صبت فيه صلابة واندفاع، ولاحت خطوط

شفتيه اكثر حدة واصراراً، واشتعلت في اغوار عينيه نار صماء اقوى من أن تخمد. لم يكن اينساروف يحب الافاضة في الحديث عن سفرته إلى وطنه، ولكنه كان يتحدث عن بلغاريا عموماً بطواعية مع كل إنسان. كان يتحدث بتؤدة، عن الاتراك وعن مظالمهم، وعن محن ورزايا أهل وطنه، وعن امانهم، وكانت كل كلمة من كلماته تنطق بهوى وحيد طالما تروى فيه وركز تفكيره عليه من زمان.

وكان بيرسينيف في غضون ذلك يفكر مع نفسه: "اغلب الظن أن الاغا التركي دفع ثمن قتله لابييه وأمه".

وما كاد اينساروف يسكت حتى فتح الباب، وظهر شوبين على العتبة. دخل الحجره مسترخياً. وبيرسينيف الذي كان يعرفه جيداً، ادرك على الفور أنه مقتاظ من شيء ما.

ابتدر يقول، وقد انطلقت اسارير وجهه واشترقت:

- لا قدم نفسي، بلا كلفة. أدعى شوبين، وأنا صديق هذا الشاب (اشار إلى بيرسينيف) أظن أنك السيد اينساروف، أليس كذلك؟
- نعم، اينساروف.

- اذن، هات يدك، ولنتعارف. لا اعرف هل حدثك بيرسينيف عني، ولكنه حدثني الشيء الكثير عنك. هل نزلت هنا؟ ممتاز! لا تغضب عليّ، إذا كنت اتفرس فيك بهذا الشكل. أنا، بالحرفه، نحات، واتنبأ بأنني، عن قريب، سأتقدم لك بطلب السماح لي بأن انحت رأسك.

قال اينساروف:

- رأسي في خدمتك.

- ماذا سنفعل اليوم؟ ها؟ - قال شوبين وقد جلس فجأة على مقعد واطي، واسند كلتا يديه على ركبتيه المنفرجتين كثيراً - يا اندريه

بيتروفيتش، هل لسيادتك خطة ما لهذا اليوم؟ الطقس رائع. وفي الجو رائحة تبّين وعليق جاف حتى... كأنك تحتسي شاياً بالنعناع. حبذا لو نقوم بشيء خارق. فزري ساكن كونتسوفو الجديد كل مفاتها العديدة. (ومضى بيرسينيف يفكر مع نفسه: "هو مغيب") طيب، مالك صامت، يا صديقي هارتسيو؟ افتح فمك النبوي. هل نقوم بشيء خارق، أم لا؟
قال بيرسينيف:

- لا اعرف ما رأي اينساروف. اظن أنه يتهيأ لعمل.

استدار شوبين على مقعده، وسأل في خنّة:

- أتريد أن تعمل؟

قال هذا؟

- لا. في امكاني أن اكرس اليوم لنزهة.

فقال:

- آه! رائع حقاً. هيا، يا صديقي اندريه بيتروفيتش، وغط رأسك الحكيم بقبعة، ولنذهب إلى حيث تمتد ابصارنا. وابصارنا فتية، وستمند بعيداً. أنا اعرف حانة صغيرة، نفيسة في رداءتها، سيقدمون لنا فيها طعاماً فاتقاً في سماجته، ولكننا سنكون مبتهجين كثيراً. فلنذهب.

بعد نصف ساعة كان الثلاثة يسرون على شاطئ نهر موسكو. كان اينساروف يرتدي قبعة غريبة الشكل مرتخية الحاشية من الجانبين جعلت شوبين في بهجة غير طبيعية تماماً. كان اينساروف يسير على مهل، ويتطلع، ويستنشق الهواء، ويتكلم ويتسمم بهدوء. فقد وهب يومه هذا للاستمتاع، فكان يتلذذ به تماماً. أسر شوبين في اذن بيرسينيف: "بهذا الشكل يتنزه الأولاد المهذبون في أيام الآحاد". وكان شوبين نفسه يتصرف بخفة، يركض إلى الامام، يتوقف متخذاً اوضاع مائيل

معروفة، يتقلب على العشب. فأن رصانة اينساروف لم تكن تغيظه، بل كانت تجعله يتصرف كالبهلول. وقد نبهه بيرسينيف مرة أو مرتين: ”ما هذه العفرتة، يا فرنسي! فكان شوبين يرد عليه: ”اجل، أنا فرنسي، نصف فرنسي! أما أنت فابق في منتصف المسافة بين الهزل والجد، كما كان يقول لي نادل حانة“. استدار الشبان مبتعدين عن النهر، وساروا في احدود ضيق عميق بين حائطين تشكلهما سنابل الجودار الذهبي العالي، وقد القى عليهم أحد هذين الحائطين ظلاً مزرقاً. وبدا وكأن الشمس المشرقة تنزلق على اعالي السنابل، والقُـمـرات تصدح، وطيور السماني تهدل، والعشب مخضوضر في كل مكان. وكانت نسمة دافئة تنوس، وترفع انصاله، وتهز تويجات الزهور. ووصل الشبان إلى الحانة ”النفيسة في رداءتها“ بعد جولات طويلة واستراحات واحاديث قيل وقال (بل أن شوبين حاول حتى أن يلعب القفازية مع ريفي عابر تساقطت أسنانه كان يضحك باستمرار من الاعيب السادة معه). كاد النادل يوقع كل واحد منهم أرضاً، وقدم لهم بالفعل طعاماً سمجاً جداً ونبیذاً رديئاً، إلا أن ذلك، على العموم، لم يمنعهم من ان يمرحوا بكل قلوبهم، كما تنبأ شوبين. وكان شوبين نفسه اضجهم مرحاً، واقلهم نصيباً منه في الوقت ذاته. شرب في صحة فينيلين الغامض والعظيم أيضاً وفي صحة ملك بلغاري يدعى كروم او خروم يعود تاريخه إلى عهد آدم تقريباً.

صحح له اينساروف:

- إلى القرن التاسع.

فهتف شوبين:

- إلى القرن التاسع؟ آوه، يا للسعادة!

لاحظ بيرسينيف أن شوبين مع كل الاعيبه ونزواته ونكاته، كان يبدو

كمن يمتحن اينساروف، ويتحسسه، ويقلق في دخيلة نفسه. بينما ظل اينساروف على هدوئه وصفاته.

وأخيراً عادوا إلى كونتسوفو، وغيروا ملابسهم، ولكي يحافظوا على المزاج الذي شملهم منذ الصباح عزموا على زيارة آل ستاخوف في المساء. وهرع شوبين في المقدمة ليعلن عن هذه الزيارة.

١٢

هتف بلهجة خطابية، وهو يدخل حجرة الجلوس في بيت آل ستاخوف، حيث لم يكن فيها، في تلك اللحظة، غير يلينا وزويا:
- البطل اينساروف سيشرق الآن هنا.

فسألت زويا بالالمانية:

- Wer^(١٣) .

وكانت حين تؤخذ على غرة تعبر بلغتها القومية دائماً. رفعت يلينا جذعها. نظر شوبين إليها وعلى شفثيه ابتسامة لعوب، أحست بالضيق. ولكنها لم تقل شيئاً.

وكرر قائلاً:

- سمعت؟ السيد اينساروف قادم إلى هنا.

قالت:

- سمعت. وسمعت كيف سميته. أنا مندهشة منك حقاً. السيد اينساروف لم يطأ بعد بقدمه هذا البيت، ومع ذلك ترى من الضروري أن تتهازل.

(١٣) من؟ (بالالمانية في الاصل).

استرخی شوبین فجأة. وغمغم:

- أنت على حق، أنت دائماً على حق، يلينا نيقولايفنا. ولكنني لا اقصد شيئاً من كلامي. والله. لقد تنزهنا النهار كله سوية، واؤكد لك أنه رجل ممتاز.

- لم أكن أسألك عن هذا.

قالت يلينا ذلك، ونهضت.

فسألت زويا:

- هل السيد اينساروف شاب؟

اجاب شوبين في ضيق:

- عمره مائة واربعة واربعون عاماً.

أعلن الصبي الخادم وصول الصديقين. فدخلا. قدم بيرسينيف اينساروف. دعتهما يلينا إلى الجلوس، وجلست هي. وذهبت زويا إلى الطابق العلوي، لتبلغ آنا فاسيليفنا. وبدأ حديث عادي جداً، مثل كل الاحاديث في اللقاء الأول. وكان شوبين يراقب من ركن في صمت، وأن لم يكن ما يستدعي المراقبة. وكان يلحظ في يلينا ضيقاً مكبوتاً منه، ولا شيء آخر. وكان ينظر إلى بيرسينيف وإلى اينساروف، ويقارن بين وجهيهما كمنحنيات. وكان يفكر مع نفسه: "كلاهما غير جميل. للبلغاري وجه مميز الملامح، يستجيب للنحت. والآن توضح بشكل جيد. وجه الروسي يصلح للرسم أكثر. الخطوط غائبة، والسمة موجودة. واظن كليهما يمكن أن يعشق. وهي لا تحب الآن، ولكنها ستحب بيرسينيف". انتهى إلى ذلك مع نفسه. ودخلت آنا فاسيليفنا حجرة الجلوس، واتخذت الحديث طابع الحديث الذي يجري بين مستأجري البيوت الريفية بالذات، لا حديث الريف. أي أنه كان حديثاً متنوعاً جداً في وفرة المواضيع المتناولة، إلا أن

وقفات قصيرة متعبة جداً كانت تقطعه كل ثلاث دقائق. وفي احدى تلك الوقفات التفتت أنا فاسيليفنا نحو زويا. وفهم شوبين إيماءتها الصامتة، فتلوت اساريره في زعل. جلست زويا إلى البيانو، وانشأت تعزف، وتغني كل ما كانت تعرفه من اغان. ولاح اوفار ايفانوفيتش من وراء الباب، إلا أنه حرك اصابعه، واختفى ثانية. وخرج الجميع ليتزوهوا في الحديقة بعد أن شربوا الشاي. وهبط الظلام وراء النافذة، فانصرف الضيوف.

لقد ترك اينساروف في نفس يلينا، بالفعل، انطباعاً أقل مما كانت تتوقع هي نفسها، أو بعبارة ادق، لم يترك في نفسها الانطباع الذي كانت تتوقعه. اعجبتها صراحته وعفويته، كما راق لها وجهه، ولكن اينساروف بشخصيته الركيئة بهدوء، والبسيطة بشكل غير ملفت للنظر لم ينسجم، على نحو ما، مع الصورة التي خلفتها في ذهنها احاديث بيرسينيف. كانت يلينا تنتظر شيئاً أكثر "غرابة" دون أن تفكر في ذلك. وكانت تقول لنفسها: "ولكنه اليوم لم يتكلم إلا قليلاً. وأنا الملومة، إذ لم الح عليه بالاستسلة، فلننتظر حتى المرة القادمة... غير أن عينيه معبرتان، نقيتان". لم تشعر بالرغبة في احناء قامتها امامه باعجاب، بل في تقديم يدها إليه بود. وكانت في حيرة من أمرها، فقد كانت تتصور الناس "الابطال" من أمثال اينساروف في صورة غير الصورة التي ظهر فيها. وذكرت كلمة "بطل" بشوبين، فاحمرت، وهي ترقد في سريرها، واستبد بها الغضب.

في طريق العودة سأل بيرسينيف اينساروف:

- ما رأيك في المعارف الجدد؟

اجاب اينساروف:

- اعجبوني كثيراً، ولا سيما الابنة. لا بد أنها فتاة طيبة. كانت بادية القلق، ولكن قلقها جميل.

فقال بيرسينيف:

- يجب أن نكثر من زيارتهم.

- نعم، يجب.

قال اينساروف، ولم يقل شيئاً آخر حتى وصوله إلى البيت. وعندما وصل أسرع إلى الاعتكاف في غرفته حالاً غالقاً الباب عليه، إلا أن الشمعة ظلت مشتعلة فيها إلى ما بعد منتصف الليل بوقت طويل.

أما بيرسينيف فما كاد يقرأ صفحة واحدة من راوهر، حتى اصابت حفنة من الرمل الدقيق زجاج نافذته. جفل مباحثاً. وفتح النافذة، ورأى شوبين شاحب الوجه بلون الكتان المبيض.

بادره بيرسينيف قائلاً:

- يا لك من همام، يا فراشة الليل!

قاطعته شوبين:

- همس! جئتك خفية، مثلما جاء ماكس إلى اغاثا. عندي كلمتان اريد أن احدثك بهما من دون بد، على انفراد.

- ولكن ادخل الغرفة.

- لا، لا حاجة - اعترض شوبين، واتكأ بمرفقيه على افريز النافذة - هنا أمرح، وأكثر شياً بما يجري في اسبانيا. أولاً، اهنتك. اسهمك رجحت. ورجلك الخارق المحمود الخصال سقط. واستطيع أن اضمن ذلك. ولكي اثبت لك عدم تحيزي هاك اسمع مواصفات السيد اينساروف. لا مواهب. ولا شاعرية، وقدرات على العمل هائلة؛ وذاكرة كبيرة، وعقل غير متعدد الجوانب، وغير عميق، ولكنه سليم ونشيط. جفاف وقوة، بل وحتى موهبة في الكلمات، حين يدور الحديث حول بلغاريا الكئيبة، بيني وبينك. اذن؟ هل ستقول أنني غير منصف؟ وهناك ملاحظة أخرى. لا اعتقد أنك ستخاطبه بضمير المفرد ولا أحد فعل ذلك من قبل. وأنا

كفنان، ممقوت له، وأنا فخور بذلك. جاف، جاف، ولكنه يستطيع أن يطحننا جميعاً. أنه مرتبط بأرضه. وليس مثل قَرِينَا الفارغة التي تتودد للشعب قائلة: يا ماء الحياة، انصبّ فينا! ومهمته، إلى جانب ذلك، سهلة، ويسر على الفهم: التخلص من الترك، ولا أكثر! ولكن هذه الخصال كلها، والحمد لله، لا تروق للنساء. أنه بلا جاذبية، بلا شارم^(١٤)، أي بدون ما لدينا أنت وأنا.

غمغم بير سينيف:

- وما شأني أنا في هذا؟ ثم أنك في البقية أيضاً غير محق. فهو لا يملك البتة. وهو يخاطب أبناء وطنه بضمير المفرد... أنا اعرف ذلك.

- هذا شيء آخر! أنه، بالنسبة لهم، بطل. واعترف لك أن لي فكرة مغايرة عن الابطال. البطل يجب أن لا يجيد الكلام، البطل يجار، كالثور، إلا أنه إذا ضرب بقرنه انهارت الجدران. ولا ينبغي له أن يعرف لماذا يستخدم قرنيه، ولكنه يستخدمهما. ثم ربما زماننا يحتاج إلى ابطال من عيار آخر.

سأل بير سينيف:

- لماذا يشغل اينساروف بالك إلى هذه الدرجة؟ هل معقول انك جئت راكضاً الي لغرض واحد، هو أن تصف لي خصاله؟
قال شوبين:

- جئت إليك، لأنني احسست بكآبة شديدة في بيتي.

- هكذا اذن! لعلك تريد أن تبكي مرة أخرى؟

- لك أن تضحك مني! لقد جئت إلى هنا لأنني مستعد أن انتف

شعري، لأن اليأس والضيق والغيرة تعذبني.

(١٤) كلمة فرنسية charme تعني فتنة. المترجم.

- الغيرة؟ الغيرة ممن؟

- منك، ومنه، ومن الجميع. يعذبني حين افكر مع نفسي، آه لو كنت فهمتها من قبل. لو استطعت أن ادبر الأمر بحذق... ولكن لا جدوى من الكلام! في النهاية سأظل اضحك، واتحاقق، واتهازل كما تقول هي، وبعد ذلك سأشئق نفسي.

قال بيرسينيف:

- كل شيء تفعل إلا الشئق.

- لا بالطبع، في مثل هذه الليلة. ولكن ممهل حتى حلول الخريف. الناس أيضاً في مثل هذه الليلة لا يموتون إلا من السعادة. آه، السعادة! كل ظل من شجرة ملقى عبر الطريق يبدو وكأنه يهمس الآن: "أنا اعرف أين السعادة... هل تريد أن ادلك؟" وددت لو ادعوك إلى النزهة، ولكنك الآن تحت تأثير النثر، نم، عسى أن تحلم بالمعادلات الحسابية! أما أنا فروحى تفيض. انتم، أيها السادة، حين ترون أحداً يضحك تتصورون أن الحياة سهلة عليه. وتستطيعون أن تثبتوا له أنه يناقض نفسه، يعني أنه لا يعاني. عفا الله عنكم!

ابتعد شوبين عن النافذة بسرعة. اراد بيرسينيف أن يصيح في اثره: "انوشكا!" ولكنه امسك نفسه. لقد كان شوبين شاحب الوجه حقاً. حتى أن بيرسينيف بعد دقيقتين، تصور أنه يسمع نشجات. فنهض، وفتح النافذة، ولم يسمع شيئاً. وفي البعيد فقط، كان ريفي، عابر سبيل ربما، يعني، "يا سهب موزدوك"^(١٥).

(١٥) أغنية شعبية روسية. الناشر.

لم يزر اينساروف آل ستاخوف أكثر من أربع أو خمس مرات خلال الاسبوعين الاولين من اقامته بجوار كوتسوفو. وكان بيرسينيف يزورهم بين يوم ويوم. وكانت يلينا تُسر به دائماً، وينعقد بينهما حديث طريف حيوي على الدوام، ومع ذلك فقد كان في الغالب يعود إلى البيت مكتئب الوجه. وانقطع شوبين عن الزيارة كلياً تقريباً. فقد انغمر في فنه كالمحموم، فكان تارة يغلق عليه حجرته، ويخرج من هناك فجأة في بلوزة، وقد تلطخ كله بالطين، وتارة يقضي أياماً في الاستوديو الذي اتخذه في موسكو، حيث كان يستقبل الموديلات والمقولين الايطاليين، واصدقاؤه واساتذته. ولم تتح ليلينا مرة واحدة فرصة للتحدث إلى اينساروف كما تهوى. كانت في غيابه تنهياً لسؤاله عن اشياء كثيرة، ولكنها كانت تخجل من استعداداتها، حين كان يأتي. وكانت رصانة اينساروف بالذات تربكها، فيخيل إليها أنها غير محقة في حمله على أن يفصح عن مكنون صدره، فقررت أن تترث. ومع كل هذا كانت تشعر بأنه كان يجذبها إليه أكثر فأكثر، مع كل زيارة يقوم به، ومهما كانت الكلمات المتبادلة قليلة الاهمية، ولكن لم تسنح لها فرصة الخلو به، بينما الدنو من شخص يقتضي التحدث إليه على انفراد، مرة واحدة على الأقل. وكانت تتحدث عنه إلى بيرسينيف كثيراً. وكان بيرسينيف يدرك أن اينساروف اثار خيال يلينا، فكان يتهج بأن صديقه لم يسقط، كما كان شوبين يؤكد. فكان يحدثها بحرارة وبأدق التفاصيل عن كل ما كان يعرفه عنه (نحن في الغالب، حين نريد أن نثير اعجاب شخص نظري في احاديثنا معه اصدقاءنا وفي الوقت ذاته لا يكاد يخطر على بالنا أننا بذلك نظري أنفسنا أيضاً). وأحياناً فقط، كانت تعمل في قلبه تلك الكآبة غير اللطيفة المعروفة له، حين كانت وجنتا يلينا الشاحبتان تكتسيان حمرة خفيفة، وعيناها تتألقان وتتسعان.

ذات مرة جاء بيرسينيف إلى آل ستاخوف في غير الوقت المعتاد، في نحو الحادية عشرة صباحاً. وخرجت يلينا إليه في القاعة.

أنشأ يقول بابتسامة متكلفة:

- تصوري أن صاجنا اينساروف اختفى.

قالت يلينا:

- كيف اختفى؟

- اختفى. خرج في مساء أمس الأول، ولم يعد حتى الآن.

- ألم يقل إلى أين ذهب؟

- لا.

حطت يلينا على مقعد.

- أغلب الظن أنه ذهب إلى موسكو.

قالت ذلك، وهي تحاول أن تبدو غير مكترثة، ويدهشها في الوقت

ذاته أنها تحاول أن تبدو غير مكترثة. اعترض بيرسينيف قائلاً:

- لا أظن. لم يخرج وحده.

- مع مَنْ؟

- يوم أمس الأول جاء إليه، قبيل الغداء، شخصان لا بد أنهما من أبناء

وطنه.

- بلغاريان؟ لماذا تتصور ذلك؟

- لأنهم، إذا لم يخني سمعي، كانوا يتكلمون لغة لا افهمها، ولكنها

سلافية... وأنت، يا يلينا نيقولايفنا، لا تجدين في شخصية اينساروف غير

القليل من الغموض. فأى شيء أكثر غموضاً من هذه الزيارة؟ فتصوري.

جاء إليه وراحا يصيحان ويتجادلان، وبكثير من الوحشية والحنق...

وكان هو أيضاً يصرخ.

- هو أيضاً؟

- نعم، كان يصرخ بهما. يبدو أن أحدهما يشكو من الآخر له.
لبتك نظرت إلى هذين الزائرين! الوجهان اسمران عريضاً الوجنان.
بأنفين كأنوف الصقور، وقد تخطى كل واحد منهما الأربعين من العمر.
وثياهما رديئة مغبرة مبللة بالعرق، وهما من حيث المظهر ليسا حرفيين
ولا من السادة... الله يعلم أي رجلين هما.

- وخرج معهما؟

- نعم، أطعمهما، وخرج معهما. وقد اخبرتني ربة البيت بأن الاثنين
أكلا سلطانية ضخمة مملوءة بالعصيدة. حسب قولها كانا يتسابقان بالتهام
الطعام كذئبين.

ابتسمت يلينا ابتسامة مقتضية خفيفة. وقالت:

- سترى أن كل ذلك سيتكشف عن شيء اعتيادي جداً.

- عسى أن يكون! ولكن ما كان عليك أن تستخدمي هذه الكلمة.
ليس في اينساروف شيء اعتيادي، رغم أن شوبين يؤكد...

- شوبين! - قاطعته يلينا، وهزت كتفيها - ولكن يجب أن تقرأ بأن
دينك السيدين الملتهمين العصيدة...

فلاحظ بيرسينيف مبتسماً:

- ثيمستوكليس أكل أيضاً في عشية معركة سالومي.

- صحيح. ولكن في اليوم التالي حدثت معركة. وعلى أية حال
اعلمني حين يعود.

اضافت يلينا، وحاولت تغيير الحديث، ولكن الحديث انفرط.

جاءت زويا، واخذت تسير في الحجرة على اطراف اصابعها، ملمحة
بذلك أن آنا فاسيليفنا لم تستيقظ بعد.

انصرف بيرسينيف.

وفي مساء ذلك اليوم ارسل تذكرة إلى يلينا يقول فيها: ”عاد ملوحاً مغبراً حتى حاجبيه. ولكنني لا أعرف سبب رحيله والمكان الذي رحل إليه. فهل ستعرفين أنت؟“.

همست يلينا:

- هل ستعرفين أنت؟ وهل هو يتحدث الي؟

١٤

في نحو الساعة الثانية من اليوم التالي كانت يلينا واقفة في الحديقة أمام وجار صغير يضم جروين. (وجدهما البستاني مرميين عند السياج، فحملهما إليها، بعد أن اسرت له الغسالات أن السيدة الشابة تشفق على كل أنواع الحيوانات. ولم يخطأ في تقديره. فقد اعطته يلينا خمسة وعشرين كوبيكا) نظرت في الوجار، وتيقنت من أن الجروين سلمان معافيان، وأن قشاً طرياً قد فرّش لهما، واستدارت، وكادت تند منها صيحة، حين رأت اينساروف مقبلاً عليها وحده عبر الدرب المعرش.

- مرحباً - قال وهو يقترب منها، رافعاً قبعته عن رأسه. وقد لاحظت أيضاً أن بشرته قد تلوحت كثيراً بالفعل في الايام الثلاثة الأخيرة - أردت أن اجسيء مع اندريه بيتروفيتش، ولكنه تأخر في تحضير نفسه، فجئت بدونه. لا أحداً عندكم في البيت. أما نائمون، أو يتنزهون، فجئت إلى هنا.

ردت يلينا:

- كان في كلامك نبرة اعتذار. لا حاجة إلى هذا اطلاقاً. نحن جميعاً نسر كثيراً في رؤيتك. تفضل اجلس هنا، على المسطبة، في الظل.

وجلست هي، وجلس اينساروف إلى جانبها.

قالت:

- اظن أنك لم تكن في البيت في المدة الأخيرة؟

أجاب:

- نعم. سافرت... هل اخبرك اندريه بيتروفيتش بذلك؟

ونظر اينساروف اليها، وابتسم، وأخذ يلعب بقبعته. وكان، وهو يتسم، يرمش بسرعة، ويمط شفثيه، مما اضفى عليه مظهراً سمحاً جداً.

وقال، وهو ما يزال يتسم:

- اغلب الظن أن اندريه بيتروفيتش اخبرك أنني سافرت مع شخصين

زريين.

ارتبكت يلينا قليلاً، ولكنها شعرت فوراً بضرورة قول الصدق مع

اينساروف دائماً.

قالت بحزم:

- نعم.

فإذا به يسألها فجأة:

- وماذا فكرت في؟

رفعت يلينا بصرها إليه، وقالت:

- فكرت، فكرت أنك دائماً تعرف ما تفعل، وأنتك غير قادر على أن

تفعل شيئاً غير محمود.

- طيب، وشكراً لك على ذلك. المسألة، يا يلينا نيقولايفنا - بدأ قوله

مقرباً منها في وثوق - لدينا هنا جماعة صغيرة من رجالنا. وبيننا أناس

قليلو التعليم، ولكن الجميع أوفياء للقضية العامة وفاء قوياً. ومن سوء الحظ

أن الأمر لا يمضي دون مشاحنات. ولكن الجميع يعرفونني، ويثقون بي، ولهذا دعوني إلى البت في إحدى المشاحنات. فسافرت.

- إلى مكان بعيد؟

- إلى ترويتسكي باساد، على بعد ستين فرسخاً، فإن لنا رجالنا في الدير أيضاً. ولم تذهب جهود عثاً، على أقل تقدير. فقد سويت الأمر.

- وواجهت صعوبة؟

- نعم. ظل أحدهم متصلباً طوال الوقت. لا يريد أن يعيد النقود.

- كيف؟ كان الشجار بسبب النقود؟

- نعم، كما أنها ليست كثيرة. وأنت، ماذا كنت تظنين؟

- وتقطع ستين فرسخاً من أجل هذه التوافه؟ تضيع ثلاثة أيام؟

- ليست هذه توافه، يا يلينا نيقولايفنا، إذا كان أبناء وطني متورطين. فالرفض هنا غير معذور. ها أنا أراك لا تحجبين عونك حتى عن الجراء. ولك مني الشاء على ذلك. لا ضير في أن اضيع الوقت. وبعد ذلك اعوضه. وقتنا ليس ملكاً لنا.

- ملك مَنْ، إذن؟

- ملك كل مَنْ بحاجة إلينا. وأنا أعرب لك عن كل هذا، فجأة، لأنني اعتر برأيك. واتخيل كيف ادهشك اندريه بيتروفيتش.

قالت يلينا بصوت خافت:

- ولماذا تعتر برأيي؟

ابتسم اينساروف مرة أخرى.

- لأنك فتاة طيبة، ولست ارسقراطية. وهذا كل ما في الأمر.

وساد صمت قصير.

قالت يلينا:

- هل تدري، يا دميتري نيكانوروفيتش، أنك لأول مرة بمثل هذه الصراحة معي؟

- وكيف ذاك؟ اتصور أنني دائماً كنت احدثك بكل ما افكر فيه.

- لا، هذه هي المرة الأولى. وأنا مسرورة جداً بذلك. وأنا أيضاً أحب أن أكون صريحة معك. فهل هذا ممكن؟

ضحك اينساروف وقال:

- ممكن.

- احذرک من أنني فضولية جداً.

- لا بأس، تقضلي.

- حدثني اندريك بيتروفيتش بالكثير من القصص عن حياتك، وعن شبابك. وأنا اعرف حقيقة واحدة، حقيقة مريعة... اعرف أنك سافرت إلى بلادك فيما بعد... ارجوك، لا ترد عليّ، إذا كان سؤالي يبدو لك غير لائق، ولكن فكرة معينة تعذبني... خبرني، هل التقيت بذلك الرجل...

وتقطعت انفاس يلينا. فقد اخذها الخجل والارتعاب من جسارتها. وكان اينساروف يتفرس فيها، مقلصاً عينيه قليلاً، جاساً ذقنه باصابعه.

وأخيراً شرع يقول بصوت اوطأ من صوته الاعتيادي، فكاد ذلك يفزع يلينا:

- يلينا نيقولايفنا. أنا اعرف إلى من تشيرين بالرجل الذي ذكرته الآن. لا، لم التق به، والحمد لله! لم ابحت عنه. لم ابحت عنه، لا لأنني لم اعتبر نفسي محقاً في قتله - كان من الممكن أن اقتله بهدوء أعصاب - ولكن لأن الثأر الشخصي لا يجدي شيئاً، حين يتعلق الأمر بانتقام شعبي جماعي.. أو، لا، هذه الكلمة لا تفني بالغرض... حين يتعلق الأمر بتحرير

الشعب. عندئذ سيكون الأول منافياً للآخر. وحتى ذاك سيأتي وقته...
سيأتي وقته.

كرر الجملة الأخيرة، هازأ رأسه.

نظرت يلينا إليه من جنب، وقالت بتهيب:

- أتحب وطنك كثيراً؟

أجاب:

- هذا غير معروف الآن. ولكن حين يموت احدنا في سبيله، عندئذ
يمكن القول أنه كان يحب وطنه.

فتابعت يلينا قولها:

- اذن، لو مُنعت من العودة إلى بلغاريا لضقت من العيش في روسيا؟

اطرق اينساروف برأسه. ثم قال:

- يبدو لي أن ذلك لن اتململه.

وعادت يلينا تقول:

- قل لي: هل من الصعب تعلم اللغة البلغارية؟

- لا، قطعاً. من العيب على الروسي أن لا يعرف البلغارية. الروسي
يجب أن يعرف كل اللغات السلافية. هل تريد أن اجلب لك كتباً
بلغارية؟ وسترين كم ذلك سهلاً. وأية اغان لنا! ليست اسوأ من الأغاني
الصربية. دعيني اترجم لك واحدة منها. أنها تتحدث عن... ولكن هل
تعرفين شيئاً من تاريخنا؟

أجابت يلينا:

- لا، لا اعرف شيئاً.

- انتظري، وساجلب لك كتاباً. على الأقل ستعرفين منه حقائق

رئيسية. اذن، اسمعي الاغنية... على العموم من الأفضل أن اجلب لك ترجمة مكتوبة. أنا واثق من أنك ستحبيننا. فأنت تحبين جميع المضطهدين. آه، لو تعرفين كم هو موفور اقليمنا! ومع ذلك يداس، ويعذب - اضاف بحركة لا إرادية من يده، واكتسى وجهه دُكنة - سلبونا كل شيء. سلبوا كنائسنا، وحقوقنا، وارضينا، والاتراك الملاعين يسوقوننا سوق القطيع، ويذبحوننا...

وهتفت يلينا:

- دميتري نيكانوروفيتش!

توقف.

- اعذريني. أنا لا استطيع أن اتكلم عن ذلك ببرودة أعصاب. ولكنك قبل لحظات كنت تسأليني: هل أحب وطني؟ وأي شيء غيره يمكن أن يحب الإنسان في الدنيا؟ ما هو الوحيد الثابت، الاعلى من كل الشكوك، والذي يأتي الايمان به بعد الايمان بالله؟ وحين يكون هذا الوطن بحاجة إليك... لاحظي أن أشد الفلاحين فقراً، أكثر البائسين مسغبة في بلغاريا وانا نجمعنا الرغبة في شيء واحد، للجميع هدف واحد. فتصوري روح الثقة والصلابة التي يقدمها هذا!

صمت اينساروف لحظة، ثم عاد يتحدث عن بلغاريا. واصغت يلينا له بانتباه متلهف عميق وحزين أيضاً. وعندما انتهى عن كلامه سألته ثانية:

- اذن، لن تبقى في روسيا، مهما يكن من شيء؟

وحينما انصرف ظلت تحديق في أثره وقتاً طويلاً. في ذلك اليوم صار، بالنسبة لها، إنساناً آخر. ودعته إنساناً آخر، غير الذي استقبلته قبل ساعتين.

ومنذ ذلك اليوم صار اينساروف يتردد أكثر فأكثر، وبيرسينيف أقل

فأقل. ونشأ بين الصديقين شيء غريب كان كلاهما يحسه جيداً، ولكنه لا يستطيع تسميته، ويخشى من توضيحه. وانقضى شهر على هذا المنوال.

١٥

كانت أنا فاسيليفنا تحب البقاء في البيت، كما يعرف القارئ، إلا أن رغبة قاهرة كانت تستولي عليها أحياناً، بشكل مفاجئ تماماً، في شيء غير اعتيادي، في partie de plaisir^(١٦) مذهلة، وكلما كانت هذه الـ partie de plaisir أصعب على التحقيق، تتطلب أعداداً وتحضيرات أكثر وقلقاً أشد لأننا فاسيليفنا نفسها كانت تطيب لها أكثر. فإذا اعترتها هذه النزوة شتاء أمرت بأن تحجز مقصورتان أو ثلاث مقصورات متجاورة، وجمعت كل معارفها وذهبت إلى المسرح وحتى إلى حفلة تنكرية. أما إذا جاءتها صيفاً طلعت إلى خارج المدينة، إلى أبعد ما تستطيع. وفي اليوم التالي كانت تشكو صداعاً، وتأوه، وتلازم الفراش، وبعد شهرين أو نحوهما تتأجج في نفسها نفس الرغبة في شيء غير اعتيادي“ مرة أخرى. وهذا ما حصل الآن أيضاً. فقد ذكر أحد في حضورها محاسن تساريتسينو، فأعلنت بغتة أنها تنوي السفر إلى تساريتسينو بعد غد. وحدث جيشان في البيت. وهرع رسول إلى موسكو يطلب نيقولاي اريميفيتش الزوج، وذهب كبير الخدم معه لشراء النبيذ أو معجون الطيور ومختلف المأكولات. وعهد إلى شوبين باستئجار عربة ركوب (لأن مركبة البيت وحدها لا تكفي) والحصول على خيول إضافية. وذهب صبي خادم مرتين إلى بيرسينيف واينساروف، حاملاً معه مذكرتي دعوة كتبتا أولاً بالروسية، وبعد ذلك كتبتها زويا بالفرنسية. واهتمت أنا فاسيليفنا نفسها بأعداد لوازم السفر للآنستين. وفي غضون ذلك كادت partie de

(١٦) نزهة مبهجة (بالفرنسية في الاصل).

plaisir أن تقسد، فقد عاد نيقولاي ار تيميفيتش من موسكو كدر المزاج وعقاً متدمراً (كان لا يزال يغضب على افغوستينا خريستيانوفنا) ولما عرف جليلة الأمر اعلن بحزم أنه لن يسافر، وأن من الحمق الانتقال من كونتسوفو إلى موسكو، ومن موسكو إلى تساريتسينو، ومن تساريتسينو مرة أخرى إلى موسكو، ومن موسكو مرة أخرى إلى كونتسوفو. واطاف أخيراً: ليثبوا لي أولاً أن هذه النقطة من الكرة الارضية أكثر بهجة من تلك فأسافر. بالطبع، ما كان في وسع احدهم أن يثبت له ذلك. فقد كانت أنا فاسيليفنا مستعدة لالغاء partie de plaisir بسبب افتقارها إلى مرافق معتبر، ولكنها تذكرت اوفار ايفانوفيتش، ومن شدة الضيق ارسلت من يطلبه في غرفته، قائلة: "الغريق يتشبث بالقشة". ووقف اوفار ايفانوفيتش من نومه، فنزل إلى الاسفل، واستمع إلى عرض أنا فاسيليفنا صامتاً، وحرك اصابعه قليلاً، ووافق، وسط دهشة الجميع. قبلته أنا فاسيليفنا من خده، وقالت له أنه لطيف جداً. ابتسم نيقولاي ار تيميفيتش بازديء، وقال ^(١٧) "Quelle bourde". (وكان عند سنوح الفرصة يجب أن يستعمل الكلمات الفرنسية "الانيقة"). وفي الساعة السابعة من صباح اليوم التالي خرجت من فناء منزل آل ستاخوف المركبة والعربة المستأجرة محمليتين إلى فوق. وفي المركبة جلست السيدات وخادمة وبيرسينيف، وجلس اينساروف إلى جانب الحوذي، بينما جلس في العربة المستأجرة اوفار ايفانوفيتش وشوين. وكان اوفار ايفانوفيتش نفسه قد دعا شوبين باشارة من اصبعه، وكان يعرف أن شوبين سيناكده أثناء الطريق، إلا أن "قوة الارض السوداء" والفنان الشاب كانا مشدودين برابطة غريبة وصراحة مناكفة. وعلى أية حال، لم يتحرش شوبين بصديقه البدين هذه المرة، وتركه بسلام. فقد كان ميالاً إلى الصمت شارداً الفكرة، ناعماً.

(١٧) أية سخافة (بالفرنسية في الاصل).

كانت الشمس قد ارتفعت عالياً في السماء اللازوردية الصافية، حين كانت العربتان تدنوان من اطلال قلعة تساريتسينو، الكثيبة الجهماء حتى في الظهيرة. نزل جمع المسافرين بكليته إلى العشب، وسار، في الحال، إلى الحديقة. كانت يلينا وزويا واينساروف في المقدمة، وسارت آنا فاسيليفنا وراءهم وعلى وجهها سيماء السعادة التامة، متأبطة ذراع اوفار ايفانوفيتش. وكان هذا يلهث ويسير مثاقلاً وقبعة القش الجديدة تنغرز في جبينه، وقدماه تلتظيان في الحذاء الطويل الرقبة، ولكنه كان يحس بمتعة أيضاً. وكان شوبين وبيرسينيف آخر الموكب. همس شوبين لبيرسينيف: "سكون، يا أخ، في الاحتياط كقدامى المحاربين" ثم اضاف، وهو يشير بحاجبيه إلى يلينا: "هناك بلغاريا الآن".

كان الطقس رائعاً، وكل شيء حولهم يزهر ويطنّ ويشدو. ومن بعيد كانت مياه الغدران تتلأأ، والنفس يغمرها احساس وضاء بالحبور. وكانت آنا فاسيليفنا لا تفتأ تردد "آه، ما الطف ذلك، ما الطف!"، وكان اوفار ايفانوفيتش يهز رأسه بتأييد، وهو يرد على تعجبها المتهلل، بل ونبس ذات مرة: "من غير كلام!". وكانت يلينا تتبادل مع اينساروف الكلمات من حين لآخر. وكانت زويا تمسك حافة قبعتها العريضة باصبعين، وتحرك، بغنج، من تحت ثوبها الوردي الشفاف، قدميها الصغيرتين في حذاء رمادي فاتح مدورّ البوز، وتنظر تارة إلى الجنب، وتارة إلى الخلف. هتف شوبين فجأة بصوت خفيض: "اها! زويا نيكييتشنا تلتفت كما يبدو. فلا ذهب أنا إليها. يلينا نيقولايفنا تزدريني الآن، وتحترمك أنت، يا اندريه بيتروفيتش، والأمر سيان، لاذهب. كفاي فتوراً. أما أنت يا صديقي، فانصحك بأن تدرس النباتات، فذلك في وضعك احسن ما تستطيع أن تفكر فيه. فهو نافع من الناحية العلمية أيضاً. مع السلامة!"

وأسرع شوبين نحو زويا، وقدم لها ذراعاً معكوفة قائلاً: ^(١٨) "Ihre Hand، Madame" وامسكها، وانطلق معها إلى الامام. توقفت يلينا، ونادت بيرسينيف، وتأبطت ذراعه أيضاً، ولكنها استمرت في حديثها مع اينساروف. كانت تسأله ماذا تسمى في لغته زنبقة الوادي، والقيقب، والبلوط، والزيزفون... (وكان اندريه بيتروفيتش المسكين يقول في سره: "بلغاريا!").

وفجأة صدرت صيحة من الامام. رفع الجميع رؤوسهم. طارت علبة سيكائر شوبين ووقعت في أجمة، بعد أن قذفتها يد زويا. صاح: "انتظري، وسأحاسبك على هذا!". وانسل إلى الاجمة، وعثر فيها على علبة السيكائر، وعاد إلى زويا. ولكن ما كاد يقترب منها حتى طارت علبة السيكائر مرة أخرى عبر الطريق. وتكررت هذه المزحة حوالي خمس مرات، فكان يضحك في كل مرة، ويهدد، أما زويا فكانت تبسم في سرها، وتتكور كالقطة، وأخيراً قبض على اصابعها، وعصرها عصراً جعلها تومض، وتنفخ على يدها وقتاً طويلاً، بعد ذلك، وتظاهر بالزعل، بينما كان يسر هو في اذنها شيئاً.

قالت أنا فاسيليفنا إلى اوفار ايفانوفيتش.مرح:

- مشاكسون، الشباب.

فلاعب هذا اصابعه.

وقال بيرسينيف ليلينا:

- هل ترين ما تفعل زويا نيكييتشنا؟

فردت عليه:

- وشوبين؟

١٨ - اعطيني يدك، يا سيدة (بالألمانية في الاصل).

وخلال ذلك وصل الجمع كله إلى تعريشة الحسناء ميلوفيدوفا، وتوقف
 ليستمتع بمنظر برك تساريتسينو. وكانت تمتد عدة فرسات واحدة بعد
 الأخرى، ومن ورائها كانت الغابات الكثيفة تبدو سوداء. وكان العشب
 البارض الذي يكسو منحدر التل كله حتى البركة الرئيسية يضيء على الماء
 لونا زمردياً يانعاً على نحو فذ. وما من موجة تسري حتى عند الشاطئ، وما
 من زبد، بل ولا رفرقة تدب في سطح الماء الصقيل. وبدأ وكان كتلة زجاج
 متجمدة قد استقرت في جرن ضخمة ثقيلة وضاءة، وغطست السماء فيها
 إلى القعر، وراحت الأشجار الفرعاء تحديق ساكنة في أعماقها الشفافة. ظل
 الجميع يمتعون ابصارهم في المنظر بصمت ولوقت طويل، وحتى شوبين
 هدأ، وزويا غرقت في سهوم. وأخيراً رغب الجميع بالاجماع في ركوب
 متن الماء. ركض شوبين واينساروف وبيرسينيف متسابقين على العشب
 إلى الاسفل. وعرثوا على قارب كبير مصبوغ، ووجدوا مجذفين، ودعوا
 السيدات. نزلت السيدات إليهم. وهبط اوفار ايفانوفيتش خلفهن بحذر.
 وبينما كان ينزل إلى القارب، ويتخذ مكانه فيه ارتفع ضحك كثير. قال
 احد المجذفين، وهو شاب افطس في قميص قطني أحمر مخطط: ”حذار،
 يا سيد، أن تغرقنا“ فرد اوفار ايفانوفيتش: ”هس، هس، يا عربيد!“
 وتحرك القارب. وتناول الشباب المجاذيف، ولكن اينساروف وحده كان
 يحسن التجديف. اقترح شوبين أن يغنوا جميعاً أغنية روسية، وشرع هو
 يغني: ”بانحذار الفولغا الام...“ وانضم إليه بيرسينيف وزويا، وحتى
 آنا فاسيليفنا (كان اينساروف لا يحسن الغناء) ولكن الاصوات تنافرت،
 وتشربك المغنون في البيت الثالث من الاغنية، وبيرسينيف وحده حاول أن
 يمضي بالاغنية بصوته الواطئ: ”لا شيء يرى في الامواج“ ولكنه سرعان
 ما ارتبك هو الآخر. وتغامز المجذفان، وكشرا عن اسنانهما بصمت.
 قال لهم شوبين: ”ها؟ الظاهر أن السادة لا يعرفون كيف يغنون؟“ اكتفى
 الشاب ذو القميص الاحمر المخطط بهز رأسه. قال شوبين: ”على مهلك،

اذن، يا افطس. سنريك، يا زويا نيكيتشنا، غني لنا: "Le lac" لنيدر ميير. اتركوا التجذيف!" ارتفعت المجاذيف المبللة في الهواء، كالاجنحة، وجمدت في مكانها، تفطر قطرات ترن في سقوطها في الماء. انساب القارب قليلاً، ثم وقف، ودار قليلاً في الماء كالبحجة. تمنعت زويا، فقالت آنا فاسيليفنا بلطف: (١٩) "Allon!". خلعت زويا قبعتها، وغنت: "O ...lac! l'année à peine a fini sa carrière" (٢٠).

وانطلق صوتها الصافي، وأن كان ضعيفاً، منداحاً على مرآة البركة. وكانت كل كلمة ترجع صدى بعيداً في الغابات، حيث كان ثمة مَنْ يغني بصوت صداح وغامض، ولكنه لا إنساني ولا يمت بصلة إلى المكان. وحين فرغت زويا من الغناء ترددت "برافو" عالية من احدى التعريشات على الشاطئ، وطلع منها بعض الالمان الحمر الوجوه الذين جاءوا إلى تساريتسينو للهو والسمر. وكان بعضهم قد خلعوا سترهم واربطه العنق، وحتى الصدارات، وظلوا يصيحون "bis!" بالحاف، حتى أن آنا فاسيليفنا امرت بالتحول إلى طرف البركة الآخر باسرع وقت. ولكن قبل أن يرسو القارب إلى الشاطئ لحق اوفار ايفانوفيتش أن يدهش أصحابه مرة أخرى. فقد لاحظ أن الصدى في مكان معين من الغابة كان يرجع كل كلمة بوضوح مميز، فراح فجأة يصيح بصوت السمّان. في بادئ الأمر جفل الجميع، ولكنهم شعروا على الفور بارتياح حقيقي، لا سيما وأن اوفار ايفانوفيتش كان يصيح بمهارة شديدة وشبه كبير بالسمّان. وقد شجعه هذا الأمر، فحاول أن يموء كما تموء القطعة، ولكن مواءه لم يكن موفقاً كثيراً. فأطلق صياح السمّان، ونظر إلى الجميع وصمت. اندفع شوبين يقبله

(١٩) هيا! (بالفرنسية في الاصل).

(٢٠) ايه، ايتها البحيرة! ما كاد العام يقطع شوطه (بالفرنسية في الاصل).

فدفعه عنه. وفي تلك اللحظة رسا القارب، وهبط الجميع إلى الشاطئ.

وخلال ذلك كان الحوذي والخادم والخادمة قد جلبوا السلال من المركبة، واعدوا الغداء على العشب، تحت أشجار الزيزفون المعمرة. وجلس الجميع متحلقين حول الخوان المفروش على العشب، وشرعوا يأكلون معجون الطيور والاطياب الاخرى. وكانت شهية الجميع ممتازة، وكانت آنا فاسيليفنا من حين لآخر ترجو ضيوفها أن يتذوقوا الاطعمة، وتحنثهم على أن يأكلوا أكثر، مؤكدة أن الاكل في الهواء الطلق صحة وعافية. وكانت تتوجه بمثل هذه الجمل إلى اوفار ايفانوفيتش، فكان هذا يتمم من فم مملوء: "كوني مطمئنة". وكانت هي تؤكد باستمرار: "حمداً للرب على هذا اليوم الرائع!" وقد تغيرت كثيراً، فكانها ارتدت إلى الشباب عشرين عاماً. ذكر بيرسينيف ذلك لها فقالت: "نعم، نعم. كنت في زماني مبرزة، إذا عدت عشر من النساء كنت واحدة منهن". وانضم شوبين إلى زويا، وراح يصب لها النبيذ دون انقطاع، فكانت ترفض، فيلح في استضافتها، حتى انتهى به الأمر إلى أن يشرب هو القدر كله، ثم عاد يستضيفها من جديد. كما كان يؤكد لها أنه يود أن يسند رأسه إلى ركبتيها، ولم تردهي أن تبيح له "مثل هذه الفتلة الكبيرة". وكانت يلينا أكثر الجميع جدية، ولكن قلبها كان تغمره سكينه عجيبة لم تذوقها منذ زمان. وكانت تشعر بأنها طيبة إلى ما لا حد له، فتود أن يرافقها بيرسينيف أيضاً، لا اينساروف وحده... وكان اندريه بيتروفيتش يدرك على نحو مبهم ما معنى ذلك، ويرسل الزفرات خلصة.

انقضت الساعات سراعاً، واقترب المساء. وفجأة لاح القلق على آنا فاسيليفنا، فقالت: "آه، ياربي، الوقت متأخر. أكلتم وشربتم، يا سادة. والآن حان وقت الانصراف". واستعجلت، واستعجل الجميع معها، ونهضوا، وساروا باتجاه القلعة، حيث تقف العربتان. ولما مروا بالبرك وقفوا جميعاً ليمتعوا انظارهم في تساريتسينو للمرة الأخيرة. كانت الوان

ما قبيل المساء تتوهج ساطعة في كل مكان. توردت السماء، والتمتعت اوراق الشجر متماوجة الالوان، مستثارة بهبوب النسيم. وكانت المياه البعيدة تشع كالذهب المذاب. وكانت الابراج الضاربة إلى الحمرة والتعريشات المتناثرة في الحديقة تبرز حادة المعالم من بين خضرة الاشجار القمحة. قالت آنا فاسيليفنا: ”وداعاً، يا تساريتسينو، لن ننسى أبداً رحلة اليوم!“ وفي تلك اللحظة وقع حادث غريب ليس من السهل نسيانه بالفعل، وكان في حدوثه تأكيداً على قولها.

وهذا ما حدث: ما كادت آنا فاسيليفنا ترسل تحية الوداع إلى تساريتسينو حتى ترددت فجأة، من وراء أجمة ليلق عالية، على بعد عدة خطوات منها، هتافات وضحكات، وصيحات متنافرة، وطلعت إلى الدرب عصبية من الرجال الشعث، هم نفس هواة الغناء الذين صفقوا لزويا بحماس. وكان السادة الهواة هؤلاء في سكر شديد. توقفوا عند مرأى السيدات، إلا أن احدهم، وهو مديد القامة ذو رقبة كرقبة الثور، وعينين حمراوين كعيني الثور أيضاً، انفصل عن رفاقه، وتقدم من آنا فاسيليفنا التي سمرها الفرع، منحنيًا بحركة خرقاء، متمائلاً في مشيته. وقال بصوت اجش:

– بونجور، مدام. كيف صحتك؟

تراجعت آنا فاسيليفنا قليلاً فمضى العملاق يقول بلغة روسية ركيكة:

– لماذا لم تريدي أن تعيدي الغناء، عندما كانت جماعتنا تصيح ”

bis!“ وبرافو وفورو؟

فترددت اصوات من جماعته:

– نعم، نعم، لماذا؟

تقدم اينساروف إلى الامام، إلا أن شوبين اوقفه، وحجب بنفسه آنا

فاسيليفنا قائلاً:

- اسمح لي، أيها الغريب المحترم، أن اعرب لك عن الدهشة الصادقة التي تثيرها تصرفاتك فينا جميعاً. أنت، بقدر ما يسعفني حكمي، من الفرع الساكسوني لقبيلة القفقاس، وبالتالي نفترض فيك الاطلاع على آداب السلوك الراقية، بينما أنت تتكلم مع سيدة ليست لك معها سابق معرفة. تأكد أنني في ظرف غير هذا الظرف ساكون بشكل خاص مسروراً جداً للتعرف عليك، لأنني الحظ فيك تطوراً جباراً في عضلات، biceps، triceps، deltoïdeus، مما سأعتبره شرفاً حقيقياً لي، كمنحاة، أن اتخذك مودياً. ولكن في هذه المرة اتركنا وشأننا.

اصغى "الغريب المحترم" إلى خطبة شوبين كلها مميلاً رأسه جانباً بازدياء، متخوفاً بيديه. وأخيراً قال:

- أنا يعرف لا شيء مما يقول أنت. ربما أنت يحسب أنا اسكافاً أو اوسطه ساعات؟ أي! أنا ضابط، أنا موظف نعم.
قال شوبين:

- أنا لا أشك في ذلك.

- الذي اقله - مضى الغريب يقول مزيحاً اياه بيده الجبارة كما يزاح غصن من الطريق - اقول لماذا لم تغن bis، لما صحنا bis؟ والآن سأنصرف في هذه اللحظة لو أن هذه الفراولايين، وليست تلك المدام، لا حاجة لي بها، لو أن هذه أو تلك (واشار إلى يلينا وإلى زويا) اعطتني einen kuss، كما تقول بالالمانية، بوسه. نعم. ها؟ هذا لا شيء.

وترددت أصوات في صفوف الجمع مرة أخرى:

- لا شيء، einen kuss، هذا لا شيء.

قال الماني مغرور للغاية محتقناً بضحكته:

– Ach! Der Sakramenter! ^(٢١)

امسكت زوييا بيد اينساروف، إلا أنه انفلت منها، وصار امام العملاق
الوقح وجهاً لوجه. وقال له بصوت حاد وأن لم يكن عالياً:

– تفضل، انصرف.

فهبه الالمانى بثقل.

– كيف انصرف؟ أنا أحب هذه أيضاً! يعني لا استطيع أنا أيضاً أن

اتزه؟ كيف انصرف؟ ولماذا انصرف؟

– لأنك تجاسرت على ازعاج سيدة – قال اينساروف، وشحب لونه

فجأة – لأنك سكران.

– كيف؟ أنا سكران؟ سامعون؟ ^(٢٢) Hören Sie das، Herr

Provisor أنا ضابط، وهو يجسر... الآن اطالب ^(٢٣) Satisfaction!

!Einen Kuss will ieh

قال اينساروف:

– لو خطوات خطوة أخرى...

– طيب؟ ماذا سيكون؟

– ساقذفك في الماء.

– في الماء؟ Herr Je !! ^(٢٤) فقط؟ طيب، لئر، هذا طريف جداً، كيف

هذا في الماء...

(٢١) آه، الملعون (بالالمانية في الاصل).

(٢٢) هل تسمع هذا، أيها السيد الصيدلي؟ (بالالمانية في الاصل).

(٢٣) تعويضاً اريد قبله (بالالمانية في الأصل).

(٢٤) أيها السيد المسيح (بالالمانية في الأصل).

ورفع السيد الضابط ذراعيه، وتقدم إلى الامام. ولكن شيئاً غير اعتيادي حصل فجأة. تأوه، وترنح جسده الضخم كله، وارتفع في الأرض، ورفست رجلاه في الهواء، وقبل أن تلحق السيدات على الصباح، وقبل أن يعي أحد كيف حصل ذلك انقذف السيد الضابط في البركة بكل جرمه مثيراً رشاشاً ثقيلاً، واختفى في الحال، تحت الماء الجياش.

زعت السيدات في صوت واحد:

- آي!

وتردد من الجانب الآخر:

- Mein Gott! (٢٥)

وانقضت دقيقة... وظهر من تحت الماء رأس مدور وشعره المبلل ملتصق به، والفقاعات خارجة منه. وتخبط ذراعان بارتعاص قرب الشفتين مماماً...

صاحت آنا فاسيليفنا باينساروف:

- أنه يفرق، انقذه، انقذه!

وكان اينساروف يقف على الشاطئ منفرج الساقين، ثقيل الانفاس. فقال بلا مبالاة قاسية ومزدرية:

- سيخرج سباحة - ثم اضاف، وهو يمسك بيد آنا فاسيليفنا - لنذهب، لنذهب، يا اوفار ايفانوفيتش، يلينا نيقولايفنا.

وفي تلك اللحظة صدرت صيحة:

- آ... آ... أو... أو...

(٢٥) يا الهي (بالألمانية في الأصل).

رددتها ذلك الالمانى التعيس، وقد استطاع أن يتشبث بقصب قرب الشاطئ.

وسار الجميع في اثر اينساروف، وكان على الجميع أن يمروا بـ "الجماعة" ذاتها، وقد خسرت رئيسها، فهدأت ولم تنبس بكلمة، سوى أن أحد افرادها، وهو أكثر جرأة، تمتم، وهو يهز رأسه: "أوه، هذا.. على أية حال... الله يعلم ماذا... بعد هذا". بل أن آخر رفع قبعته. لقد بدا اينساروف لهم رهيباً جداً، وعن صدق فقد ارتسم على وجهه شيء منذر، شيء خطير. هرع الالمان ليخرجوا رفيقهم، وما كاد هذا يقف على أرض صلبة حتى أخذ يشتم بعبرة، ويصرخ في أثر هؤلاء "المحتالين الروس" بأنه سيرفع شكوى، وسيذهب إلى سيادة الكونت فون - كيزيرتس نفسه...

إلا أن "المحتالين الروس" لم يعبروا الصياحاته الثقاتاً، وساروا نحو القلعة بأسرع ما يستطيعون. التزم الجميع الصمت، حين كانوا يسرون في الحديقة، إلا أن آنا فاسيليفنا كانت تتأوه بخفوت. ولكنهم ما كادوا يقتربون من العربتين، وتوقفوا، حتى ارتفع منهم ضحك متواصل لا يكبح، مثل ضحك الآلهة لدى هوميروس. في البداية انفجر شوبين في ضحك موصول، كالمجنون، وتبعه بيرسينيف، في ضحك مكركر، ثم لحقته زويا في ضحك ناعم، وانفجرت آنا فاسيليفنا هي الأخرى فجأة، وحتى يلينا لم تستطع أن تكبح بسمتها وتلاشت مقاومة اينساروف أخيراً، فضحك. ولكن اوفار ايفانوفيتش كان اعلاهم ضحكاً واطولهم فيه، واكثرهم حماساً. ضحك حتى وخزته خاصرته، وسعل، واختنقت انفاسه. وكان يهدأ قليلاً، ليقول والدموع في عينيه: "فكرت... ما هذا... يلبط...؟ فهذا... هو... مبطوح...". وكانت الكلمة الاخيرة المرعوضة تكتمها نوبة ضحك اخرى تهز كيانه كله. وكانت زويا تحضه أكثر قائلة: "رأيت... رجلاه في الهواء...". فيقول اوفار ايفانوفيتش: "نعم، نعم، رجلان، رجلان... ومب! فهذا هو... مبطوح...!" - فتسأل زويا:

”وكيف تحايل عليه.. والالماني أكبر منه بثلاث مرات؟“ فيقول اوفار ايفانوفيتش، وهو يمسح الدموع من عينيه: ”سأقول لك. رأيت بعيني. طوّقه بيد، ووضع قدماً أمامه فتشقلب! سمعت الصوت. ما هذا؟!.. فإذا هو مبطوح...“.

ولم يهدأ اوفار ايفانوفيتش حتى بعد أن تحركت العربتان، واختفت قلعة تساريتسينو عن الانظار. وكان شوبين يجلس معه في طريق العودة أيضاً، فأخذ يعيب عليه ليسكت.

وكان اينساروف يشعر بالخجل. كان يجلس في المركبة قبالة يلينا لانذا بالصمت (كان بيرسينيف يجلس إلى جانب الحوذي) وكانت يلينا صامتة أيضاً. كان اينساروف يفكر في أنها تدينه، ولم تكن هي تدينه. كانت قد فزعت فزعاً شديداً في الوهلة الأولى، ثم اذهلها التعبير الذي كان مرتماً على وجهه، وبعد ذلك ظلت تفكر. ولم يكن واضحاً لها تماماً ما كانت تفكر فيه. لقد اختفى الشعور الذي كانت تحس به خلال النهار، وكانت تعي ذلك، إلا أن شعوراً آخر لم تكن تفهمه بعد قد حل محله. لقد استمرت partie de plaisir وقتاً أطول من اللازم، وتحول المساء إلى ليل دون أن يلحظ. وكانت المركبة تنطلق مسرعة خلال حقول محاصيل ناضجة، حيث الهواء كثيف وأرج، وفواح برائحة الخبز، ثم خلال مروج واسعة تمر نداوتها المفاجئة على الوجوه مثل موجة خفيفة. وكانت السماء تبدو داخنة في حوافيها. وأخيراً انساب القمر احمر شاحباً. كانت آنا فاسيليفنا تهوم ناعسة، وزويا تطل برأسها من النافذة، تتطلع إلى الطريق. خطر في بال يلينا أخيراً أنها لم تتحدث مع اينساروف منذ أكثر من ساعة. فتوجهت إليه بسؤال بسيط، فاجابها على الفور بفرح. وسرت في الهواء اصوات مبهمه، حتى لكان آلاف الاصوات تتكلم في مكان بعيد: صارت موسكو تقرب مندفعة نحوهم. وتوامضت اضواء إلى الامام، ظلت تكثر وتكثر، واخيرا صارت احجار الطرق المرصوفة ترن تحت العجلات. استيقظت



آنا فاسيليفنا، وأخذ جميع مَنْ في المركبة يتكلمون، رغم أن أي واحد منهم لم يستطع أن يلتقط كلمات الحديث، بسبب القرقة الشديدة التي كانت ترسلها العربتان واثنان وثلاثون حافراً على الطريق المبلط. وبدأ الطريق من موسكو إلى كوتتسوفو طويلاً ومضجراً. نام الجميع أو لاذوا بالصمت، متكئين برؤوسهم إلى زوايا مختلفة.. ويليها وحدها لم تغمض عينيها. فقد كانت تصوبهما إلى شبح اينساروف المعتم. وجثمت الكأبة على شوبين. كانت الريح تهب في عينيه، وتضايقه، لف رأسه في ياقة معطفه، وكاد أن ينفجر باكياً. وكان اوفار ايفانوفيتش يشخر في هناءة مترنحاً يميناً وشمالاً. وأخيراً توقفت العربتان. اخرج خادمان آنا فاسيليفنا من المركبة. فقد خرجت قواها كلياً، واعلنت، وهي تودّع المسافرين معها، أنها تكاد تموت أعياء، صاروا يشكرونها، بينما ظلت هي تردد ”أكاد اموت“. صافحت يلينا (للمرة الأولى) يد اينساروف، وبقيت جالسة إلى النافذة وقتاً طويلاً دون أن تخلع ملابسها. وسنحت لشوبين الفرصة ليهمس لبيرسينيف أثناء خروجه:

- بطل، بالطبع. يقذف الالمان السكارى في الماء.

- أما أنت فلم تقدم حتى على هذا.

ردّ بيرسينيف عليه، واتجه إلى البيت بصحبة اينساروف.

وعندما عاد الصديقان إلى بيتهما كان الفجر يتراءى في المساء. والشمس لم تنهض بعد، وفي الجو شيء من برودة الليل، والندى الفضي يغطي العشب، والقُتْرات الأولى تصدح عالياً في الغور الهوائي الغاسق، حيث نجمة الليل الكبيرة الاخيرة تطل من هناك مثل عين وحيدة.

كانت يلينا، بعد وقت قصير، من تعرفها على اينساروف قد شرعت تكتب يوميات (للمرة الخامسة أو السادسة). وهذه مقتطفات من هذه اليوميات:

... حزينان، يجلب اندريه بيتروفيتش لي كتباً، ولكنني لا استطيع قراءتها. وأنا اخجل من الاعتراف له بذلك، ولا ارغب في رد الكتب إليه قائلة إليه كاذبة: لقد قرأتها.. اظن ذلك سيكدره. أنه يلحظ كل شيء يخصني، يبدو أنه متعلق بي جداً. اندريه بيتروفيتش رجل لطيف جداً.

... ماذا اريد؟ ولماذا قلبي مثقل ومنقبض بهذا الشكل؟ ولماذا انظر إلى الطيور العابرة بحسد؟ يبدو أنني اتمنى أن اطير معها، اطير، ولا ادري إلى أين، فقط أن اطير بعيداً، بعيداً، عن هنا. اوليست هذه رغبة آثمة؟ أن لي، هنا، أما وأباً وعائلة. اولست احبهم؟ لا، لست احبهم الحب الذي اهوى. ويرعيني أن اقول ذلك. ولكنه حق. فلعلي آثمة كبيرة، ولربما لهذا السبب احس بهذه الكتابة، وافقر إلى سكينه النفس. أن يداً تهبط عليّ، وتسحقني. وكأنني في سجن، وجدرانها ستنهار عليّ بين لحظة وأخرى. لماذا لا يشعر الآخرون شعوري هذا؟ ومنْ سأحب، إذا كنت باردة الاحساس مع أهلي؟ يبدو أن أبي على حق، حين يؤنبني بأنني لا أحب غير الكلاب والقطط. يجب أن افكر في ذلك. أنا قليلة الصلاة، يجب أن اصلي... يبدو أنني قادرة على أن أحب، على أية حال!

... أنا ما ازال اتعجب من السيد اينساروف، ولا اعرف السبب، لا اظنني صغيرة جداً، أنه رجل بسيط وطيب. ووجهه، في بعض الأحيان، رزين جداً. ولعل في ذهنه ما يشغله عنا. وأنا اشعر بذلك، واخجل، على ما يبدو، من أن انتزع منه وقته. واندريه بيتروفيتش شيء مختلف. وأنا مستعدة لأن اترثر معه النهار بطوله، إذا اردت. ولكنه هو الآخر يحدثني

دائماً عن اينساروف. وبأية تفاصيل مرعبة! الليلة حلمت به، والخنجر في يده، وهو يقول لي: "سأقتلك، واقتل نفسي". اية سخافات!

... آه، لو أن احداً قال لي: هذا ما ينبغي أن تفعله! قليل أن يكون الإنسان خيراً. المهم أن يفعل الخير. أجل، ذلك هو الاساسي في الحياة. ولكن كيف يفعل الخير؟ آه، لو كنت تستطيع أن امسك بزمام نفسي! أنا لا ادري لماذا افكر في السيد اينساروف، وبهذه الكثرة. حين يأتي إلينا، ويجلس، ويصغي بانتباه، دون أن يبدو عليه تكلف أو اجهاد، اصدق فيه، واحس بارتياح، ولكن لا شيء آخر. غير أنه حين ينصرف اظن ا تذكر كل كلماته، واضيق من نفسي، بل وانفعل... ولا اعرف لماذا. (أنه يتكلم الفرنسية بطريقة سيئة، ولكنه لا يخجل من ذلك، وهذا ما يعجبني منه) وعلى العموم أنا دائماً افكر كثيراً في الوجوه الجديدة. عندما كنت اتحدث معه تذكرت فجأة ساقينا فاسيلي الذي اخرج عجوزاً مبتور القدمين من كوخ يحترق، وكاد يُؤذي بحياته. وقد نعته أبي بالشاطر، واعطته أمي خمسة روبلات، بينما اردت أنا أن انحني أمامه. أن له أيضاً وجهاً بسيطاً، بل وبيداً، ثم صار، بعد ذلك، سكيراً.

... اليوم اعطيت قرشاً للشحاذة. ولكنها قالت لي: لماذا انت حزينة بهذا الشكل؟ أنا لا احس أن لي مظهراً حزيناً. اظن أن ذلك راجع إلى أنني وحيدة، طوال الوقت وحيدة، مع كل طيبيتي، ومع كل شري. لا أحد أمد له يدي. لا اريد من يتقرب الي... بل اريد من يتخاطبني.

... لا ادري ماذا بي اليوم. رأسي غائم. أنا مستعدة إلى ان اركع على ركبتي، واطلب واستجدي الرأفة. يخيل الي أنني أقتل، لا اعرف كيف، ولا من يقتلني، واصرخ في سري واحنق. ابكي، ولا تستطيع أن اصمت... يا الهي! يا الهي! إكبح في هذه السورات! فأنت وحدك قادر على ذلك. ولا شيء غيرك. لا شيء يستطيع أن يسعفني، لا حسناتي الصغيرة، ولا

اشغالي، لا شيء. ليتني أخرج لاخدم في أحد البيوت، حقاً، فإن ذلك سيخفف مما أقاسي.

ما جدوى الشباب، ما جدوى أن أعيش، ولم لي روح، لم كل هذا؟

... اينساروف، السيد اينساروف - لا اعرف كيف اسميه - ماض في الاستحواذ على انتباهي. اود لو اعرف ماذا يجري في قلبه. وهو يبدو لي صريحاً جداً، وميسراً على الفهم، ومع ذلك لا انفذ إلى شيء. أحياناً ينظر اليّ بعينين سابرتين... أم ذلك ما اتصوره لا غير؟ بول لا يزال يناكدني وأنا غاضبة عليه. ماذا يريد؟ أنه يعشقني، ولكنني لست بحاجة إلى هذا العشق. وهو يعشق زويا أيضاً. أنا لست منصفة معه. قال لي يوم أمس أنني لا أستطيع أن اكون غير منصفة إلى النصف... هذا صحيح. هذا سيء جداً.

آه، أنا احس بأن الانسان يحتاج إلى بلية أو شقاء أو إلى مرض. وإلا فإنه يشمخ.

... لماذا حدثني اندريه بيروفيتش اليوم عن هذين البلغاريين! يبدو أنه تقصد ذلك. وما شأنى بالسيد اينساروف؟ أنا غاضبة على اندريه بيروفيتش.

... أمسك الريشة، ولا اعرف كيف ابدأ. يا لها من مفاجأة حديثه اليوم معي في الحديقة! كم كان ودوداً وواثقاً! وكيف حصل هذا بهذه السرعة! وكأننا صديقان قديمان، قديمان، والآن فقط عرف احدهما الآخر. كيف لم استطع أن افهمه حتى الآن! وما اقربه اليّ الآن. والشيء المذهل انني الآن صرت اهدأ بكثير. يضحكني أنني غضبت يوم أمس على اندريه بيروفيتش، وعليه، بل ناديته السيد اينساروف. أما اليوم... عثرت أخيراً على إنسان صادق يمكن الاعتماد عليه. أنه لا يكذب، أنه أول إنسان التقيه، لا يكذب. الآخرون جميعاً يكذبون، كل شيء كذب. يا عزيزي،

اندرية بتروفيتش، الطيب لماذا تراني أجور عليك؟ لا! ربما اندرية بتروفيتش أكثر منه علماً، بل ولربما أكثر ذكاء... ولكن يبدو أمامه صغيراً جداً، ولست ادري لماذا. وحين يتكلم ذاك عن وطنه ينمو وينمو ويكنسي وجهه رونقاً، وصوته كالفلوئاذ، فيبدو لي، آنذاك، أن ما من إنسان في العالم يمكن أن ينكس بصره أمامه. وهو لا يتكلم فقط، بل هو يعمل ويعمل. سأكثر من سؤاله... وإذا به يستدير الي، ويتسسم لي!.. الاخوة فقط يتسمون بهذا الشكل. آه، كم أنا راضية! عندما جاءنا في المرة الأولى لم اكن اتصور قط أن احدنا سيقرب من الآخر. مثل هذه السرعة. بل يعجبني الآن أنني بقيت في المرة الأولى غير مبالية... غير مبالية! وهل معقول أنني مبالية الآن؟

... منذ زمان لم اشعر. مثل هذه السكينة. هادئة نفسي، هادئة جداً. وليس لي ما ادونه. غالباً ما اراه، وهذا كل ما في الأمر. فماذا ادون أكثر؟ ... صار بول يعتكف مع نفسه، وقلت زيارات اندرية بتروفيتش... مسكين! يبدو لي أنه... على العموم هذا غير ممكن. أنا أحب التحدث إلى اندرية بتروفيتش. لم يتحدث بكلمة عن نفسه قط، دائماً عن شيء جدي ونافع. وليس مثل شوبين المتأنق كالفراشة، ويعجب بقيافته. وهو شيء لا تفعله الفرشات. وشوبين واندريه بتروفيتش كلاهما، على أية حال... أنا اعرف ماذا اريد أن اقول.

... أنه يرتاح لزيارتنا، ويمكنني أن ارى ذلك. ولكن لماذا؟ وما وجد في؟ حقاً أن ذوقينا متشابهان، وكلانا، - هو وأنا - لا يحب الشعر، فكلانا ليس عليمًا في الفن. ولكنه أفضل مني بكثير! أنه هادئ، وأنا في اضطراب دائم. أنه له طريقاً، هدفاً، وأنا إلى أين اذهب؟ أين عشي؟ أنه هادئ، ولكن كل افكاره تخلق في البعيد. سيأتي وقت، وسيتركنا إلى الأبد، يرحل إلى وطنه، وراء البحر، هناك. وما في ذلك؟ مع عون الله! على أية حال سأكون مسرورة لأنني عرفته، حين كان هنا.

ولماذا هو غير روسي؟ لا، ما كان من الممكن أن يكون روسياً.

أمي تحبه، وتقول أنه رجل متواضع. أمي طيبة! أنها لا تفهمه. وبول صامت، حدس أن تلميحاته لا تعجبني. ولكنه يغار منه. صبي خبيث! وهل له حق في ذلك؟ هل كنت يوماً ما...

كل هذه توافه! ولم يدور كل هذا في ذهني؟

... ولكن من الغريب، على أية حال، أنني حتى الآن، وأنا في العشرين من العمر لم أحب أحداً يبدو لي أن صفاء قلب د (ساسميه د، فان اسمه "دميتري" يعجبني) أن صفاء قلبه بهذا الشكل عائد إلى أنه وهب نفسه كلها لقضيته، لامنته. وما الداعي إلى أن يقلق؟ أن كل مَنْ وهب نفسه كلها... كلها... كلها لا يضطرب، ولا يأبه لشيء. لست أنا التي تريد بل ذلك يريد. بالمناسبة، أنا وهو نحب نفس الزهور. اليوم اقتطفت وردة. سقط تويج فرفعه... قدمت له وردتي.

حلمت منذ بعض الوقت احلاماً غريبة. فما معنى هذا؟

... د يتردد علينا كثيراً. يوم أمس قضى المساء كله عندنا، أنه يريد أن يُعلمني اللغة البلغارية، وأنا أحس بارتياح معه، وكأنما بين أهلي، بل احسن.

... الأيام ممر سراعاً... وأنا أحس بارتياح، وخوف لسبب ما، واريده أن احمد الله، والعبرات توشك أن تطفر من عيني. آه، أيتها الايام الدافئة الوضيئة!

.... ما زلت احس بانسراح، كالسابق، ولكن شيئاً من الحزن ينتابني من حين لآخر. أنا سعيدة. هل أنا سعيدة؟

.... سأظل طويلاً أتذكر رحلة يوم أمس. أية انطباعات غريبة، جديدة، مخيفة! عندما رفع ذلك العملاق فجأة، والقاء في الماء، كما تلقى كرة، لم

ارتعب... ولكن هو الذي ارعيني. رأيت وجهه بعد ذلك منذراً بالشووم، يكاد أن يكون فظاً! كيف عبّر عند ذلك: سيخرج سباحة! أثر فيّ هذا جداً. يعني أنا لم افهمه. وفيما بعد، اخذ الجميع يضحكون، وحضكت أنا أيضاً، تأملت له! شعر بالخجل. هذا ما احسسته. خجل مني. وقد قال لي ذلك، فيما بعد، حينما كنا في المركبة، في الظلام، حين كنت اتقرس فيه، واخشاه. اجل، لا مجال للمزاح معه، وهو يجيد الدفاع. ولكن لم هذا الغيظ، هاتان الشفتان المرتعشتان، هذا السم في العينين؟ أم لعل هذا لا بد منه؟ ولا يجوز أن تكون رجلاً، مناضلاً، وتظل وديعاً ناعماً في الوقت ذاته؟ قبل حين قال لي الحياة فظة. وقد كررت هذه الكلمة على اندريه بيتروفيتش، فلم يتفق مع د. فأيهما على حق؟ ثم ما اروع ما ابتدأنا به النهار! وما اهتأني وأنا اسير إلى جانبه، ولو نصمت... ولكنني مسرورة بما حدث. الظاهر أن هذا ما كان ينبغي.

... القلق مرة أخرى... لست في حالة صحية جيدة.

... خلال هذه الايام كلها لم اكتب شيئاً في هذا الدفتر، لأنني لم اجد في نفسي الرغبة في الكتابة. شعرت بأنني مهما كتبت لن اعبر عما في قلبي... ولكن ماذا في قلبي؟ جرى بينه وبينني حديث طويل كشف لي الكثير. حدثني عن مشاريعه (بالمناسبة أنا اعرف الآن سبب الجرح على رقبة... يا ربي! حين رحت افكر بأنه قد حكم بالاعدام، وما كاد ينجو، وأنه قد جرح...). وهو يستشعر بوقوع الحرب، ويفرح بها، ومع كل هذا لم اره قط حزناً بهذا الشكل... ما الذي يمكن أن يحزنه هو؟ عاد بابا من المدينة، ووجدنا جالسين سوياً، فنظر إلينا نظرة غريبة. زارنا اندريه بيتروفيتش، فلاحظت أنه قد نحف كثيراً وشحب لونه. وعاتبني زاعماً أنني أعامل شوبين ببرود شديد وباهمال. ولكنني نسيت بول هذا تماماً. إذا رأيته سأحاول أن اصلح ذات البين. لي ما يشغلني عنه الآن، وعن أي شخص آخر في الدنيا. كان اندريه بيتروفيتش يتكلم معي بشيء من

الأسف. فما يعني كل هذا؟ لم اشعر بالظلام حولي، وفي داخل نفسي؟ يبدو لي أن ما يحدث حولي وفي داخلي مُلغز، وأنا احتاج إلى العثور على الكلمة المعبرة عنه...

... لم اتم الليل. رأسي يؤلمني. ولم اكتب؟ اليوم انصرف بسرعة، وكنت في شوق إلى أن اتحدث إليه... يبدو وكأنه يتحاشاني. نعم، أنه يتحاشاني.
... وجدت الكلمة. غمرني ضوء! يا الهي، ارحمني... أنا عاشقة!

١٧

في نفس اليوم الذي كانت يلينا فيه تسجل تلك الكلمة الفُضّل في يومياتها، كان اينساروف جالساً في حجرة بيرسينيف، وكان بيرسينيف يقف أمامه والحيرة مرسمة على وجهه. وكان اينساروف قد ابلغه لتوه عن نيته في الانتقال في اليوم التالي إلى موسكو، هتف بيرسينيف:

— رحماك! الآن سيبدأ اجمل وقت هنا. فما الذي تفعله في موسكو؟ أي قرار فجائي هذا! أم لعلك تلقيت خبراً معيناً؟

قال اينساروف:

— لم اتلق أي خبر. ولكن لا يجوز أن ابقى هنا، حسب ما ارى.

— ولكن كيف يمكن هذا...!

قال اينساروف:

— اندريه بيتروفيتش، اعمل معروفاً، ولا تلح. ارجوك. أنا نفسي يعز عليّ أن افارقك. ولكن لا بد مما ليس منه بد.

تقرس بيرسينيف فيه. ثم قال أخيراً:

— أنا اعرف أنه لا يمكن اقناعك. يعني قرارك نهائي؟

- نهائي تماماً.

رد اينساروف، ونهض وانصرف.

ذرع بيرسينيف حجرته ذهاباً ومجيئة، ثم تناول قبعته، وذهب إلى آل ستاخوف.

قالت له يلينا حين بقيا وحيدين:

- لديك ما تخبرني به.

- نعم، وكيف حدثت؟

- هذا لا يهم. قل لي ماذا وراءك؟

واخبرها بيرسينيف بعزم اينساروف.

شُحبت يلينا. ونطقت بعسر:

- ماذا يعني هذا؟

قال بيرسينيف:

- أنت تعرفين أن دميتري نيكانوروفيتش لا يحب الكشف عما وراء تصرفاته. ولكنني اعتقد... لنجلس، يلينا نيقولايفنا، يبدو عليك التوعك... أظن أنني استطيع أن احدث السبب الحقيقي لسفره المفاجئ.

- ما هو السبب الحقيقي؟

كررت يلينا، وهي تعصر بقوة يد بيرسينيف في يدها الباردة، دون أن تلاحظ ذلك.

شرع بيرسينيف يقول بابتسامة حزينة:

- وكيف اشرح لك ذلك؟ يتعين عليّ أن أعود إلى الربيع الماضي، إلى الوقت الذي تعرفت باينساروف عن كئيب. التقيته، آنذاك، في بيت أحد اقاربي. وكانت لقريبي هذا ابنة، مليحة جداً، وكان يخيل الي أن

اينساروف شغوف بها، وقلت له ذلك. ضحك واجاب بأنني مخطئ، وأن قلبه سليم، وأن ذلك لو حصل له فسيرحل على الفور، لأنه لا يرغب في أن يخون قضيته وواجهه من أجل اشباع عاطفة شخصية. وكانت هذه كلماته بالذات وقال: ”أنا بلغاري، ولا حاجة بي إلى حب روسي...“.

- طيب... وماذا... الآن أنت...

همست يلينا مشيحة رأسها لا ارادياً، كمن يتوقع صفة، ولكنها بقيت تمسك بيد بيرسينيف.

قال بيرسينيف:

- اظن - ثم خفض صوته وكرر - اظن أن ما كنت اخمنه من قبل بدون موجب، قد تحقق الآن.

ندت من يلينا فجأة:

- يعني.... أنت تظن... لا تعذبني....

أسرع بيرسينيف ليقول:

- اظن أن اينساروف الآن قد احب فتاة روسية، فعزم على الفرار، وفاء بعهده.

زادت يلينا من ضغطها على يد بيرسينيف، وطأطأت رأسها أكثر، وكأنها تريد أن تخفي عن بصر الغريب حمرة الخجل التي ضربت فجأة وجهها وعنقها. قالت:

- أنت، يا اندريه بيتروفيتش، طاهر كملاك. ولكن إلا يأتي ليودعنا؟

- نعم، هذا ما اظن. سيأتي بالتأكيد، لأنه غير راغب في الرحيل...

- قل له، قل...

ولكن هذه الفتاة المسكينة لم تسيطر على مشاعرها في هذه اللحظة، فقد تفرقت الدموع في عينيها، فركضت خارجة من الحجرة.

صار بيرسينيف يفكر، وهو يعود إلى بيته بطيئ الخطى: "إذن، فهي تحبه بهذه الصورة. لم أكن أتوقع ذلك، لم أكن أتوقع أن ذلك قوي إلى هذه الدرجة - ومضى في افكاره - تقول أنني طاهر النفس. فمن يدري أية مشاعر وبواعث دفعتني إلى أن أخبر يلينا بكل ذلك؟ كل شيء إلا طهارة النفس، إلا طهارة النفس. بل مجرد الرغبة اللعينة في أن اقتنع بأن النصل قد نفذ إلى الجرح بالفعل؟ يجب أن أكون راضياً. احدهما يحب الآخر، وقد ساعدتهما على ذلك. شوبين يدعوني بـ "الوسيط المقبل بين العلم والجمهور الروسي". والظاهر أن القدر كتب عليّ منذ الولادة أن أكون وسيطاً. ولكن ماذا لو كنت على خطأ؟ لا، لست على خطأ...".

وكان اندريه بيتروفيتش يحس بالمرارة. ولم يفكر في قراءة "راومر".

في نحو الساعة الثانية من اليوم التالي وصل اينساروف إلى بيت آل ستاخوف. ومن نكد الطالع أن آنا فاسيليفنا كانت تستضيف في حجرة الجلوس، في ذلك الوقت، جارة، زوجة قس، وهي امرأة طيبة ومحترمة، ولكن مشكلة صغيرة كانت قد حصلت لها مع الشرطة، حين خطر في ذهنها أن تسبح في اوج الحر، في بركة قرب طريق كان كثيراً ما تسلكه عائلة جنرال ذي شأن. في بادئ الأمر كانت يلينا مرتاحة بوجود الضيفة الغريبة، وقد غاض الدم من وجهها حالما سمعت وقع اقدام اينساروف، ولكن قلبها تقلص، حين فكرت في أنه قد ينصرف مودعاً، دون أن يتكلم معها على انفراد. أما اينساروف فقد بدا مرتبكاً، وقد تحاشى نظراتها. كانت يلينا تفكر: "معقول أنه سيودع الآن؟" وبالفعل توجه اينساروف نحو آنا فاسيليفنا. اسرعت يلينا بالنهوض، وانتحت به جانباً، قرب النافذة. دهشت زوجة القس، وحاولت أن تلتفت، ولكنها كانت

مضغوطة جداً، حتى أن مشد الوسط كان يصر عند كل حركة. فبقيت جامدة في موضعها. اسرعت يلينا تقول:

- اسمع. أنا اعرف لماذا جننت. فقد ابلغني اندريه بيتروفيتش بنيتك، ولكنني ارجوك، اتوسل إليك أن لا تودعنا اليوم، بل تعال غداً في وقت مبكر، في نحو الحادية عشرة. فأنا اريد أن اقول لك كلمتين.

احنى اينساروف رأسه صامتاً.

- لن أوخرك... فهل تعديني؟

انحنى اينساروف ثانية، ولكنه لم يقل شيئاً.

قالت أنا فاسيليفنا:

- لينوتشكا، تعالي هنا. وانظري أية محفظة يدوية رائعة هذه.

قالت زوجة القس:

- طرزتها بيدي.

ابتعدت يلينا عن النافذة.

قضى اينساروف لدى آل ستاخوف ما لا يزيد عن ربع ساعة. كانت يلينا تراقبه خلسة. كان يراوح في مكانه، ولا يعرف، على عهده السابق، إلى أين يصوب بصره، وانصرف على نحو غريب وخطفاً، وكأنه تلاشى.

انقضى ذلك اليوم ببطء، بالنسبة ليلينا، والليل الطويل تراخى أكثر بطئاً. كانت أحياناً تجلس على السرير محتضنة ركبتيها بيديها، واضعة رأسها عليهما، وأحياناً تقترب من النافذة، ملقية جبينها الحار على زجاجها البارد، وتظل تفكر وتفكر بنفس الافكار إلى حد الاعياء. وكان قلبها يصير كالحجارة تارة أو يخفتي من صدرها، فلا تحس به، ولكن العروق في رأسها كانت تدق متوترة، وشعرها يلسعها، وشفاتها تتيبسان. كانت تقول لنفسها: "سيأتي... إذ لم يودع أمي... وهو لن يخدع..."

هل معقول أن اندريه بيتر وفيتش كان صادقاً في قوله؟ غير ممكن... لم يعد بلسانه أنه سيأتي. معقول أنني فارقته إلى الأبد؟“ ولم تغب هذه الافكار عن ذهنها، لم تغب بالضبط، لم تأت ولم تعد - ظلت تطوف فيها كالضباب دون انقطاع. وفجأة توهج “أنه يجنني!“ في كيانها كله فحدقت متفرسة في الظلمة، وافترت شفتها عن ابتسامه سرية لا يراها أحد... ولكنها هزت رأسها على الفور، ورفعت إلى علبائها أصابع يديها المعقودة، ومن جديد طافت الافكار السابقة في رأسها كالضباب... وقبيل الصباح خلعت ملابسها، واستلقت على الفراش، ولكنها لم تستطع أن تغفو. وقعت شعاعات الشمس النارية الأولى في حجرتها، فهتفت فجأة: “آه، لو كان يجنني“، وبسطت ذراعيها دون أن تخجل من الضوء الذي اضاءها...

نهضت، وارتدت ملابسها، ونزلت إلى الاسفل. لم يكن أحد في البيت قد استيقظ بعد، فخرجت إلى الحديقة، ولكنها احست بالرهبة مما حولها من سكون وخضرة ونداوة، ومن الطيور تصدح بثقة، ومن الزهور تتفتح ببهجة. وفكرت: “آه! لو كان ذلك صحيحاً، لكنت اسعد من كل عشب، ولكن هل هذا صحيح؟“ وعادت إلى حجرتها، واخذت تعير ثوبها تزجية للوقت. ولكن كل شيء كان يفلت وينزلق من بين يديها، وكانت ما تزال جالسة أمام مرآة الزينة دون أن تكمل ملابسها، حين نادوها لتنزل وتشرب الشاي. نزلت. فلاحظت أمها شحوبها، ولكنها لم تقل سوى: “أنت اليوم جذابة جداً“، والقمت نظرة إليها من رأسها حتى اخمص قدميها، وازافت: “هذا الثوب لائق لك كثيراً فالبسبه دائماً، كلما اردت أن تثيري اعجاب أحد“. لم ترد يلينا بشيء، وجلست في ركن. وخلال ذلك دقت الساعة معلنة التاسعة، ما تزال هناك ساعتان حتى تحل الحادية عشرة. اخذت يلينا كتاباً، ثم انتقلت إلى الخياطة، وبعد ذلك عادت إلى الكتاب، ثم آلت على نفسها بأن تقطع درباً معرشاً واحداً

مائة مرة، وقطعته، ثم راقبت لوقت طويل كيف تفرش أنا فاسيليفنا الورق في لعبة الصبر^(٢٦)... ثم نظرت في الساعة. لم تصل إلى العاشرة بعد... دخل شوبين إلى حجرة الجلوس. حاولت أن تتحدث معه، واعتذرت له عن شيء هي نفسها لا تعرف ما هو... وكانت كل كلمة تنطقها لا تكلفها جهداً، بل تثير في نفسها حيرة. مال شوبين نحوها، فتوقعت سخرية. رفعت بصرها فرأت أمامها وجهاً حزيناً ودوداً... ابتسمت لهذا الوجه. ابتسم شوبين لها أيضاً في صمت، وخرج بهدوء. ارادت أن توقفه، ولكنها تريت و لم تتذكر على الفور لتناديه. وأخيراً دقت الحادية عشرة. راحت تنتظر، وتنتظر، وتنتظر، وترهف سمعها، وتعذر عليها أن تفعل أي شيء، بل وكفت عن التفكير. وسرت الحوية في قلبها فصار يدق اقوى فأقوى. والغريب أن الوقت بدأ وكأنه يمر أسرع من ذي قبل. مرور ساعة، مرور نصف ساعة، مرت بضع دقائق آخر، حسب تصورها، وفجأة ارتعدت يلينا. دقت الساعة لا الثانية عشرة، بل الواحدة: "لن يأتي، سيرحل دون أن يودّع... " واندفعت هذه الفكرة مع الدم إلى رأسها. واحست بأن انفاسها تنقطع، وأنها على وشك أن تبكي... ركضت إلى حجرتها، وارتمت على الفراش، ووجهها على ذراعيها المطويتين.

استقلت نصف ساعة بلا حراك، وقد انهمرت الدموع من خلال اصابعها على المخدة. وفجأة، رفعت جسمها، وجلست، فأن شيئاً غريباً قد حدث في داخلها. تغير وجهها، وجفت عيناها الدامعتان تلقائياً، فأخذتا تلمعان، وانعقد حاجباها، وانطبقت شفتاها. مرور نصف ساعة آخر. وارهفت يلينا سمعها للمرة الأخيرة، لعلها تلتقط صوته الاليف. ثم نهضت، ولبست قبعتها وقفازيها، والققت العباءة على كتفيها، وانسلت

(٢٦) نوع من لعب الورق. الناشر.

من البيت دون أن تلاحظ، وسارت بخطى سريعة في الطريق المؤدي إلى مسكن بيرسينيف.

١٨

سارت يلينا مطرقة الرأس، مصوبة بصرها إلى الامام. لم تكن تخاف شيئاً، ولم تكن تعي شيئاً، كانت تريد أن ترى اينساروف مرة أخرى. سارت دون أن تظن إلى أن الشمس قد غابت منذ وقت طويل محجوبة بسحب سوداء ثقيلة، وأن عصفات الريح تهدر في الاشجار، وتنفخ ثوبها، وأن الغبار قد ارتفع فجأة وتطاير اعمدة في الطريق... أخذ المطر ينزل بقطرات كبيرة، وحتى هذا لم تلاحظه. ولكن المطر ظل يهطل متزايداً قوياً، وومض البرق، وهدر الرعد. توقفت يلينا تنظر فيما حولها... ومن حسن حظها انها رأت، صومعة متداعية مهجورة فوق خرائب بئر غير بعيد عن المكان الذي داهمها الرعد فيه. ركضت إليها، ودخلت في كنفها الواطئ. انهمر المطر جداول، وتلبدت السماء كلها. نظرت يلينا بقنوط اخرس إلى الشبكة الكثيفة التي تصنعها قطرات المطر المنهمرة بسرعة. واختفى آخر أمل في الالتقاء باينساروف. دخلت الصومعة عجوز، ونفضت قطرات المطر عن ثيابها، وقالت بانحناءة: "احتمي من المطر، يا عزيزتي" وجلست على نتوء قرب البئر، وهي تتأوه وتتوجع. دست يلينا يدها في جيبيها، ولحظت العجوز هذه الحركة، وسرت الحياة في وجهها المتغضن الاصفر الذي كان جميلاً في يوم ما. وقالت: "شكراً لك أيتها المحسنة العزيزة". لم تجد يلينا محفظة النقود في جيبيها، بينما كانت العجوز قد مدت يدها. قالت يلينا:

- ليس عندي نقود، يا جدة. خذي هذه لعله ينفعك في شيء.

واعطتها مندليها. فقالت المتسولة:

- اوي، يا حسناي. وما نفع مندليك لي؟ إلا إذا اهديته لحفيدتي عندما تتزوج. جازاك الله على طيبتك!

انفجر خزيم رعد. ومتمت المتسولة:

- أيها السيد، عيسى المسيح - ورسمت علامة الصليب ثلاثاً. واضافت بعد هنيهة - يبدو لي أنني رأيتك. ربما اعطيتي صدقة ذات مرة؟
تمعت يلينا في العجوز، وعرفتها. اجابت:

- نعم، يا جدة. قد سألتني: لماذا أنا حزينة بهذا الشكل؟

- نعم، يا عزيزتي، نعم. ولذلك عرفتك في الحال. الآن أيضاً يبدو عليك الغم. والمنديل مبلل، يعني من الدموع. آه، يا بنات، كلكن في هم وغم مقيم!

- أي هم، يا جدة؟

- أي هم؟ أوه، يا ابنتي الطيبة، لا تتحالي علي، أنا العجوز. أنا اعرف لماذا تغمين. ليس غمك غم اليتيم. عندما كنت شابة، يا عزيزتي، ذقت هذه العذابات أيضاً. أجل. وسأقول لك جزءاً على احسانك: إذا صادفك رجل طيب، لا يعبث، فتمسكي به وتشبثي تشبث الموت. فأن حصل هذا حصل، وأن لم يحصل، فتلك مشيئة الله. أجل. ولكن لماذا تنظرين إليّ مندهشة؟ أنا قارئة فآل. هل تريدين أن آخذ مع مندليك كل بلواك؟ آخذها، وينتهي الأمر. ها أنت ترين أن المطر قد خفّ. انتظري قليلاً هنا، أما أنا فذهابه. تعودت على بلل المطر. تذكرني، يا عزيزتي: كان حزن، وولّي، وانقضى الآن. يا الهي، رحمتك!

ورفعت المتسولة جسمها من التواء، وخرجت من الصومعة، وسارت بجر جرة قدميها. نظرت يلينا في أثرها مذهولة، ووجدت نفسها تهمس لا ارادياً: "ما يعني هذا؟"

صار المطر اخف فأخف، ولاحت الشمس للحظة، وتهيأت يلينا لتخرج من ملجئها... وفجأة رأت اينساروف، على بعد عشر خطوات من الصومعة. كان يسير ملفعاً، معطفه في نفس الطريق الذي كانت يلينا تسلكه.. كان يبدو في عجالة للوصول إلى بيته.

اسندت يدها على الدرايزين المتداعي عند مدخل الصومعة، وارادت أن تناديه، ولكن صوتها خانها... مر اينساروف بها، دون أن يرفع بصره... وأخيراً نطقت:

- دميتري نيكانوروفيتش!

توقف اينساروف فجأة، والتفت... في الوهلة الأولى لم يتعرف على يلينا، إلا أنه تقدم منها على الفور. وهتف:

- أنت! أنت هنا!

تراجعت إلى الصومعة صامتة. وتبعها اينساروف. وعاد يقول:

- أنت هنا؟

مضت في صمتها، سوى أنها حدقت فيه تحديقة طويلة ناعمة. غض اينساروف بصره. سألته:

- هل أنت قادم من بيتنا؟

- لا، ليس من بيتكم.

- لا؟ - كررت يلينا وحاولت أن تبتسم - بهذا الشكل تفي بوعودك؟ انتظرتك منذ الصباح.

- تذكري، يلينا نيقولايفنا، أنا لم اعد بشيء يوم أمس.

ابتسمت يلينا مرة أخرى ابتسامة باهتة، ومررت يدها على وجهها. وكان الوجه واليد بنفس الشحوب.

- اذن، كنت تريد أن ترحل، دون أن تودعنا؟

قال اينساروف بصوت صارم فاقد الرنين:

- نعم.

- وكيف؟ بعد تعارفنا، بعد تلك الاحاديث، بعد كل شيء...
يعني... لو لم التق بك هنا مصادفة (اكتسى صوت يلينا رنة، فتوقفت
لحظة)... لرحلت، ولم تصافحني مودعاً آخر وداع وما كنت ستأسف؟
اشاح اينساروف بوجهه.

- ارجوك، يلينا نيقولايفنا، لا تتحدثي بهذا الشكل. فأنا مغموم
حتى بدون ذلك. وتأكدي أن اقراري كلفني جهوداً كثيرة. لو كنت
تعرفين...

قاطعته يلينا بذعر:

- لا أريد أن اعرف السبب في رحيلك... الظاهر أنه ضروري.
الظاهر أن علينا أن نفرق. وأنت ما كنت لتريد أن تكدر اصدقاءك بلا
موجب. ولكن أهكذا يفترق الاصدقاء؟ ونحن صديقان. أليس كذلك؟
قال اينساروف:

- كلا.

- كيف؟

وضرّجت حمرة خفيفة وجنتي يلينا.

- لهذا السبب بالذات رحلت، كوننا غير صديقين. ولا تجبريني على
أن أقول ما لا اريد أن أقوله، ولن أقوله.

قالت يلينا بعتاب خفيف:

- من قبل كنت صريحاً معي. هل تذكر؟

- آنذاك كان في وسعي أن اكون صريحاً، آنذاك لم يكن هناك ما اخفيه، والآن....

فسألت يلينا:

- والآن؟

- والآن... والآن يجب أن انصرف، وداعاً.

ولو أن اينساروف، في تلك اللحظة، رفع بصره إلى يلينا لرأى وجهها يتالق أكثر فأكثر كلما ازداد وجهه جهامة واسوداداً. ولكنه كان يثبت بصره في الأرض بأصرار. قالت يلينا:

- حسناً، وداعاً، يا دميتري نيكانوروفيتش، ولكن ما دمنا قد التقينا فعلى الأقل هات يدك لاصافحها.

هم اينساروف بأن يمد يده.

- لا، لا استطيع ذلك أيضاً.

قال واشاح وجهه ثانية.

- لا تستطيع؟

- لا استطيع، وداعاً.

واجته نحو باب الصومعة. قالت يلينا:

- انتظر قليلاً. يبدو أنك تخشاني. ولكنني اشجع منك - اضافة واعترتها رعدة مفاجئة سرت في كل جسدها - استطيع أن اقول لك... هل تريد؟ لماذا وجدنتني هنا؟ اتدري إلى أين كنت ذاهبة؟

نظر اينساروف إلى يلينا بذهول.

- كنت متجهة إليك.

- إلى؟

غطت يلينا وجهها.

- تريد أن تجبرني على أن أقول: أنا أحبك - همست يلينا بذلك -
طيب... ها قد قلت.

هتف اينساروف:

- يلينا!

اسبلت يديها، ونظرت إليه، وارتمت على صدره.

عانقها بقوة، ولم يقل شيئاً. لم يكن بحاجة إلى أن يقول لها أنه يحبها. فقد كان في وسع يلينا أن تفهم أنه يبادلها حباً بحب، من مجرد نداءه، من ذلك التحول المفاجئ في كيانه كله، من لهات صدره الذي التصقت به مؤتمنة، ومن لمسات اطراف اصابعه في شعرها. لم يقل شيئاً، ولم تكن هي بحاجة إلى كلمات. «أنه إلى جانبي، أنه يحبني... فماذا أريد أكثر؟» وشملتها سكينه النعيم، سكينه المرفأ الآمن، والغاية المحققة، تلك السكينه السماوية التي تعطي للموت نفسه معنى وجمالاً، غمرتها بفيضها الإلهي. ولم تكن في نفسها أية رغبة، لأنها امتلكت كل شيء. همست شفتاها: «يا أخي، يا صديقي، يا حبيبي!..» ولم تكن تعرف أي قلب كان يدق ويذوب في صدرها بعدوبة، قلبه أم قلبها.

وقف بلا حراك، كان يحيط بذراعيه القويين هذه الحياة الشابة التي اعطته قيادها، وكان يحس على صدره هذا العبء الجديد العزيز إلى ما لا حد له. وقد غشت صلابه روحه عاطفة حنان، عاطفة امتنان تعز على التعبير، وقد تفرقت عيناه بدموع لم يكن له عهد بها من قبل.

أما هي فلم تبك، بل كانت تكرر فقط: «يا صديقي، يا أخي!».

وبعد ربع ساعة، وهو ما يزال يطوقها ويسندها بذراعيه كان يقول:

- وكيف ستجوبين^(٢٧) معي كل مكان؟
- اقصى الدنيا. سأكون حيث تكون أنت.
- ربما تخادعين نفسك في ذلك، فأنت تعرفين أن والديك لن يوافقا على زواجنا؟
- أنا لا أخادع نفسي. أنا أعرف ذلك.
- وهل تعرفين أنني فقير، مدقع تقريباً.
- اعرف.
- وأنتي لست روسياً، ولا مقسوماً لي أن أعيش في روسيا، وسيتعين عليك أن تقطعي علاقاتك مع وطنك، ومع أقاربك؟
- أعرف، أعرف.
- وهل تعرفين أيضاً أنني نذرت نفسي لقضية صعبة لا يمين على أحد، وأنسي... أنا ستعرض لا إلى المخاطر فقط، بل وإلى حرمانات، ولربما إلى اذلال؟
- اعرف، اعرف كل شيء... أحبك.
- وأن عليك أن تتخلي عن كل عاداتك، وأنتك لربما ستضطرين هناك، أن تعملي وحيدة، وسط غرباء...
- وضعت يدها على فمه.
- أحبك، حبيبي.
- أخذ يقبل يدها الضيقة الوردية بحرارة. ولم تبعدها عن شفثيه،

(٢٧) في هذه الجملة تحول اينساروف إلى مخاطبتها لأول مرة بضمير الفرد رفعاً للكلفة كما في طريقة المخاطبة الروسية. المترجم

وراحت تنظر إليه بفرح طفولي، وبفضول ضاحك، وهو يغطي بالقبلات يدها تارة، واصابعها تارة أخرى...

واحمرت فجأة، وخبأت وجهها في صدره.
رفع رأسها برقة، وحدق في عينيها، وقال لها:
- أهلا بك اذن، زوجة لي أمام الناس وأمام الرب.

١٩

بعد ساعة كانت يلينا تدخل حجرة الجلوس في البيت الريفي بهدوء، وقبعتها في يد، وعبأتها في اليد الأخرى. وقد انحل شعرها قليلاً، وعلت وجنتيها طرة صغيرة من التورد، والبسمة على شفثيها لا تريم، وعيناها المنطبتان نصف انطباقه تبسيمان أيضاً. كانت تجر جر قدميها تعباً، وكانت تتلذذ بهذا التعب. كانت تتلذذ بكل شيء. كل شيء كان يبدو لها قريباً إلى القلب، وحنوناً. كان أوفار ايفانوفيتش جالساً عند النافذة، دنت منه، ووضعت يدها على كتفه، وتمطت قليلاً، وضحكت ضحكة بدت لا إرادية.

سألها مندهشاً:

- مم؟

لم تعرف ماذا تقول. أحبت أن تقبل اوفار ايفانوفيتش.

وقالت أخيراً:

- مبطوح...

ولكن أوفار ايفانوفيتش لم يحرك ساكناً، وظل ينظر إلى يلينا باندهاش.
فرمت عليه العباءة والقبعة، وقالت:

- يا عزيزي أوفار ايفانوفيتش، اريد أن أنام، أنا متعبة.

وضحكت مرة أخرى، وانهدت على كرسي وثير بالقرب منه.

- حم - متمم اوفار ايفانوفيتش، ولاعب اصابعه - هذا... يجب،

نعم..

وتلفتت يلينا فيما حولها، وكانت تفكر: «يجب أن افارق كل هذا عن قريب... والغريب أنني لا أشعر بفزع ولا ريبة، ولا اسف... ولكن لا، أتأسف على أمي!» ثم تراءت لها الصومعة مرة أخرى، وتردد صوته في اذنيها مرة أخرى. وكانت تحس بذراعيه تطوقانها. وتلملم قلبها في صدرها بفرح وبوهن أيضاً، كانت السعادة تسترخي عليه. وتذكرت المتسولة العجوز. وفكرت: «اخذت معها بلواي حقاً، آه، كم أنا سعيدة سعادة لا استحقها أبداً! وتهل بهذه السرعة!» وما كان سيكلفها غير شيء من الحرية لعاطفتها الحبيسة حتى تنهمر من عينيها دموع حلوة لا تجف. كانت تضغط عليها باسترسالها في الضحك الخفيف، ولا شيء آخر. وكان أي وضع تتخذه يبدو لها أفضل واروح من أي وضع آخر. وكأنما كانت تهدهد لتنام. صارت كل حركاتها بطيئة وناعمة، فأين تخلى عنها استعجالها وتناقلها؟ دخلت زويا، فتصورت يلينا بأنها لم تر محيا افتن من محياها. ودخلت آنا فاسيليفنا، فأحست بوخزة، ولكنها عانقت أمها الطيبة برقة بالغة، وقبلت جبينها عند منبت الشعر، الشائب قليلاً ثم ذهبت إلى حجرتها، فرأت كل شيء فيها يتسم لها! وجلست على سريرها بشعور عميق من الانتصار الخجل والوداعة، جلست على نفس السرير الذي كانت قبل ثلاث ساعات قد قضت فيه لحظات شديدة المرارة! وفكرت: «حتى في تلك الساعة كنت أعرف أنه يجنني.. كنت أعرف من قبل أيضاً... آه، لا! لا! هذه خطيئة». وهمست وركعت على ركبتيها مغطية وجهها بيديها: «أنت زوجتي...».



ومع حلول المساء صارت أكثر سهوياً واستغراقاً. غشيها الحزن حين أخذت تفكر في أنها لن ترى اينساروف عن قريب. لم يكن في أمكانه أن يبقى مقيماً مع بيرسينيف دون أن يثير الشكوك. ولهذا اتفق معها على أن يعود إلى موسكو، ويزور آل ستاخوف مرة أو مرتين حتى فصل الخريف. ووعده، من جانبها، بأن تراسله، وأن تعين له موعداً للقاء بجوار كونتسوفو، إذا سنحت الفرصة. نزلت إلى حجرة الجلوس في الساعة المحددة لشرب الشاي، فرأت جميع أهل البيت هناك، وشوبين الذي صوّب عليها نظراً حاداً، ما إن اطلت. فارادت أن تتحدث معه بود، كما كانت في الماضي، ولكنها خشيت حدة ذكائه، خشيت نفسها. بدا لها مقصوداً تغاضيه عنها أكثر من أسبوعين. وبعد قليل وصل بيرسينيف، ونقل تحيات اينساروف لآنا فاسيليفنا، مع اعتذاره لعودته إلى موسكو، دون أن يزورها ويودعها. كان اسم اينساروف يذكر لأول مرة هذا اليوم في حضور يلينا، فاحست بالحمرة تصعد إلى وجهها، كما ادركت في الوقت ذاته أن عليها أن تعرب عن الاسف لهذا الرحيل المفاجئ لرجل طيب من معارفها، ولكنها لم تستطع أن تحمل نفسها على التصنع، وبقيت جالسة في صمت وبلا حراك، بينما راحت آنا فاسيليفنا تتحسر، وتبدي حزنها. جاهدت يلينا ان تبقى قرب بيرسينيف، فهي لم تكن تخشاه، رغم أنه كان يعرف جزءاً من سرها، كانت تلوذ بحماه من شوبين الذي ما يزال يلاحقها بنظرات نفاذة، وأن لم تكن ساخرة. كما أن الحيرة استولت على بيرسينيف أيضاً، خلال الامسية، فقد كان يتوقع أن يرى يلينا أكثر حزناً. ومن حسن حظها أن جدالاً نشأ بينه وبين شوبين عن الفن. تنحت جانباً، وراحت تسمع صوتيهما، وكأنها في حلم. وشيئاً فشيئاً صار الحلم يتخطاهما إلى الحجرة كلها، حيث بدت كل الأشياء وكأنها في حلم: السماور على المائدة، وصدار اوفار ايفانوفيتش القصير، وساقا زويا الملساوان، والصورة المرسومة بالزيت للأمير الكبير قسطنطين بافلوفيتش

والمعلقة على الحائط. تغور كل شيء، وتغطي بغشاء دخاني، ولم يعد له وجود. سوى أنها كانت تشفق عليهم جميعاً، وتقول لنفسها: «من أجل أي شيء يعيشون؟».

سألها أمها:

- هل أنت نَعسى، يا لينوتشكا؟

ولم تسمع سؤال أمها.

- هل تقصد تلميحا نصف عادل؟ - نفذت هذه الكلمات التي نطقها شوبين بحدة إلى وعي يلينا فجأة فانتبهت. ومضى شوبين يقول - في هذا بالذات تكمن النكمة. التلميح العادل يثير الجزع، وهو مناف للروح المسيحية. والإنسان لا يعبأ بالتلميح غير العادل. فهذه حماقة. ولكنه يشعر نحو التلميح نصف العادل بالانزعاج ونفاد الصبر. فمثلاً لو قلت: أن يلينا نيقولايفنا تعشق أحدنا، فأى نوع من التلميح سيكون هذا؟ ها؟

قالت يلينا:

- آه، مسيو بول. وددت لو اظهر لك انزعاجي، ولكنني متعبة جداً، فلا أقدر حقاً.

- ولماذا لا ترقدين؟ - قالت أنا فاسيليفنا التي كانت تنعس دائماً في المساء، ولهذا تحب أن تبعث الآخرين إلى مضاجعهم - قبليني قبلة المساء، واذهبي والله معك. اندريه بيتروفيتش سيعذرك.

قبلت يلينا أمها، وانحنت للجميع، وانصرفت. صاحبها شوبين إلى الباب. وهمس لها عند العتبة:

- يلينا نيقولايفنا، أنت تدوسين مسيو بول وشمسين عليه بلا شفقة. بينما مسيو بول يعبدك، ويعبد قدميك والحذاء الذي تلبسين، ونعل الحذاء. هزت يلينا كتفيها، ومدت له يدها على مضض - ليست تلك التي

قبلها اينساروف - وعادت إلى حجرتها فطفقت تخلع ثيابها على الفور، واستلقت، وغفت. نامت نوماً عميقاً هادئاً... لا ينامه حتى الأطفال، لا ينامه غير الطفل الناقه، حين تجلس أمه عند مهده، تنظر إليه، وتنصت إلى انفاسه.

٢٠

قال شوبين ليرسينيف حالما توادع الأخير مع آنا فاسيليفنا:

- تعال إلى حجرتي لدقيقة، عندي ما أريد أن أريك إياه.

سار بيرسينيف معه إلى ملحق البيت. بهره العديد الكبير من التخطيطات، والتماثيل الصغيرة، والنصفية التي كانت مغطاة بخرق مبللة، وموضوعة في كل اركان الحجره.

قال له بيرسينيف:

- أرى أنك تعمل بهمة.

فأجاب هذا:

- يجب أن اعمل شيئاً اذا فشل الإنسان في شيء وجب أن يجرب حظه في شيء آخر. وعلى العموم انا كالكورسيكي، اهتم بشار الدم أكثر من الفن الخالص^(٢٨) «! Trema Bisanzia».

قال بيرسينيف:

- أنا لا أفهمك.

- طيب، انتظر. تفضل انظر، يا صديقي الكريم والفاضل.

(٢٨) ارجعني، يا بيزنطية (بالايطالية في الأصل).

هذا ثأري رقم واحد.

وازاح شوبين الغطاء عن أحد التماثيل فرأى بيرسينيف ممثلاً نصفياً
لاينساروف ممتازاً ومشابهاً له بشكل رائع. وكان شوبين قد التقط ملامح
وجهه بصدق، وبأدق التفاصيل، واعطى لها مسحة رائعة باستقامتها
ونبلها وجرأتها.

وتهلل بيرسينيف بشراً، وهتف:

- هذه هي الروعة بعينها! تهاني. تستحق أن تعرض! ولماذا تسمي هذه
التحفة ثأراً؟

- لأنني، يا صاحب السعادة، انوي أن أقدم هذه التحفة، كما سميتها،
الى يلينا نيقولايفنا في عيد ميلادها. هل تفهم هذه الرموز؟ لسنا عمياناً،
ونحن نرى ما يجري حولنا، ولكننا أصحاب شهامة، يا حضرة المحترم،
ونثار بشهامة.

ومضى شوبين يقول، وهو يزيح الغطاء عن ممثل صغير آخر:

- أما هذا، فما دام الفنان، حسب احدث الجماليات، يستخدم حقه
الذي يحسد عليه في أن يجسد في نفسه كل الحقارات مرتفعاً بها لتكون
جوهرة من الابداع، فاننا في تكويننا لهذه الجوهرة، رقم اثنين، كنا قد
انتقمنا ليس كشهماء على الاطلاق، بل ^(٢٩) en canaille.

ورفع الغطاء بحذق، ورأى بيرسينيف ممثلاً صغيراً لاينساروف أيضاً
منحوتاً على طريقة دانتان تمثل فيه الضغن وحدة البديهة بأكثر ما يمكن.
فقد صُوّر البلغاري الشاب خروفاً واقفاً على قائمته الخلفيتين، مميلاً قرنيه
للنطاح. وقد ارتسمت على وجهه "زوج الشاء الناعمة الصوف" هذا

(٢٩) كسافل (بالفرنسية في الأصل).

العظمة البلهاء، والتوفز، والعناد، والرعونة، والضحالة، كما كان الشبه مذهلاً لا ريب فيه، حتى أن بيرسينيف ما كان في وسعه إلا أن يضحك.

قال شوبين:

- ماذا؟ مضحك؟ عرفت البطل؟ هل تصحني بأن أعرضه في المعرض أيضاً؟ وهذا، يا أخي، سأهديه لنفسي، في عيد ميلادي... فاسمح لي، يا صاحب السيادة، أن ارفض طرباً!

وقفز شوبين مرتين أو ثلاثاً، ضارباً أياه بالنعل.

رفع بيرسينيف قطعة الجيش من الأرض، وغطى بها التمثال.

قال شوبين:

- أوه، أيها الشهم. فاتني من كان في التاريخ معروفاً بشهامته على نحو خاص؟ طيب، لا يهم! أما الآن - تابع وكشف بحركة استعراضية حزينة عن القطعة الثالثة، وهي كبيرة جداً من الصلصال - أمامك شيء يثبت لك تواضع صديقك الحكيم وحدة ذهنه. وستقتنع بأنه، كفنان أصيل على أية حال، يشعر بحاجة وفائدة اذلال النفس. انظر!

وارتفعت الستارة، وابصر بيوسينيف رأسين متقاربين وكأنهما خارجان من رقبة واحدة... ولم يدرك حقيقة الأمر رأساً، ولكنه، حين امعن النظر، عرف في أحد الرأسين رأس أنوشكا، وفي الآخر رأس شوبين نفسه. وعلى العموم كان ذلك رسماً كاريكاتورياً أكثر منه صورة شخصية. صُوِّرت أنوشكا بهيئة فتاة جميلة ممتلئة ذات جبين ضيق، وعينين منفتحتين، وانف مرفوع يتحد. وكانت شفتاها الغليظتان تنفرجان عن ابتسامة ساخرة وقحة. وكان وجهها كله يعبر عن الحساسية وخلو البال والاندفاع، ولا يخلو من طيبة. وصُوِّر شوبين نفسه متهتكاً منحولاً منهوكاً، غائر الوجنتين، خصلات شعره الخفيف متدلّية باسترخاء، وأنفه مدبب كأنف الميت، وعيناه المنطفئتان تنطقان بالبلاهة.

اشاح بيرسينيف وجهه باشمئزاز. فقال شويين:

- ما رأيك في هذا الزوج، يا أخ؟ الا تتكرم بوضع تسمية معتبرة لهما؟
للموضوعين الأولين اهتديت إلى تسمية. سأضع تحت التمثال النصفي
عبارة: "البطل الناوي انقاذ وطنه" وتحت التمثال الصغير: "احترسوا، يا
صانعي النفاق!" اريد أن اكتب تحت هذه القطعة "مستقبل الفنان بافل
ياكوفليف شويين...." ما رأيك؟ أليس لطيفاً؟

فرد بيرسينيف قائلاً:

- كف عن هذا. أيعقل أنك ضيعت وقتك على هذه... ولم يعثر فوراً
على الكلمة المناسبة.

- القذارة؟ تريد أن تقول. لا، يا اخ، وارجو المعذرة، إذا كان هناك
شيء يستحق أن يعرض فهي هذه المجموعة.

كرر بيرسينيف:

- قذارة بالضبط، ثم ما هذه السخافة؟ أنت لا تملك اطلاقاً ما يمتلكه
فنانونا حتى يومنا هذا، وبوفرة، لسوء الحظ، من مقومات لمثل هذا النوع
من التطور. مجرد أنك كنت تغتري على نفسك.

قال شويين بعوس:

- هذا ما تراه، اذن؟ إذا كنت لا امتلكها، وإذا لقحت بها، فالذنب في
ذلك سيعود إلى إنسانة ما. هل تدري - وقطب حاجبيه بشكل مأساوي
- أنني جربت أن أشرب؟

- ألا تكذب؟!

- جربت، وحق الرب - قال وافتر عن تكشيرة فجأة، وتنور وجهه
- ولكنه غير لذيد، يا اخ، ولا يدخل إلى البلعوم، والرأس بعده يصير
كالطبل. ولوتشيخين العظيم نفسه، خارلامبي لوتشيخين، الشريب الأول

في موسكو، وفي كل روسيا حسب آراء أخرى، قال لي: لن تبرز في هذا الميدان، فالزجاجة، حسب قوله، لا توحى الي بشيء.

رفع بيرسينيف ذراعه على قطعة ذات الرأسين، إلا أن شوبين أوقفه:

- كفى، يا اخ، لا تكسرهما، فستنفع كدرس، كفزاعة.

ضحك بيرسينيف، وقال:

- في هذه الحال سأشفق على فزاعتك، على ما أظن. وليعيش الفن الخالد الصافي.

فثنى شوبين:

- ليعش! الشيء الحسن معه احسن، والسيئ لا يضر. وتصافح الصديقان بقوة، وافترقا.

٢٩

كان الفزع الفرح أول احساس شعرت به يلينا، حين استيقظت. سألت نفسها: "معقول؟" وجمد قلبها من السعادة. وتدفتت الذكريات عليها... فغرقت فيها. ثم اهلت عليها ثانية تلك السكينة الهائلة المستبشرة. ولكن القلق اخذ ينتابها شيئاً فشيئاً خلال الصباح، وفي الأيام التالية بدا عليها الفتور والضجر. لقد كانت تعرف الآن، في الحقيقة، ما كانت تريد، ولكن ذلك لم يخفف عنها. فأن ذلك اللقاء الذي لا ينسى قد اخرجها إلى الأبد عن منوالها القديم، ولم تعد فيه، بل كانت بعيدة عنه، بينما كان كل شيء حولها يسير سيره المألوف، كل شيء على منواله، وكان شيئاً لم يتغير. فالحياة السابقة تجري كالسابق، وتعول، كالسابق، على مشاركة يلينا ومساهمتها. حاولت أن تبدأ رسالة إلى اينساروف، ولكنها لم توفق حتى في هذا، فكانت الكلمات تخرج على الورقة أما ميتة، وأما

كاذبة. وقد فرغت من يومياتها، وخطت بعد السطر الأخير فيها خطأ كبيراً. كان ذلك في الماضي، وقد تحولت الآن إلى المستقبل بكل افكارها، بكل كياناتها. وكانت تشعر بضيق. فقد بدا لها جرمًا أن تجالس أمها التي لا ترتاب في شيء، وتستمع إليها وتجيئها، وتتحدث معها. كانت تحس بالكذب يخالط نفسها. فكانت تحنق، رغم أنها لم تفعل شيئاً تخجل منه. وانبعثت في نفسها، أكثر من مرة، رغبة قاهرة أو تكاد في أن تبوح كل شيء دون أن تخفي خافية، وليكن بعد ذلك ما يكون. وكانت تفكر: ”لماذا لم يأخذني دميتري حينذاك، من تلك الصومعة، إلى حيث يريد رأساً؟ ألم يقل لي أنني زوجته أمام الله، فلماذا أنا هنا؟“ وفجأة صارت تتحاشى الجميع، حتى أوفار ايفانوفيتش، الذي كان أكثر حيرة وأكثر لعباً باصابعه من أي وقت مضى. وبدا كل ما يحيط بها فاقداً رفته وعضوبته، وحتى مشابهته للحلم. فكان كالكابوس يهبط على صدرها كثقل ميت لا يتزحزح، فكأنما كان يقرعها، ويسخط عليها، ولا يريد أن يعرف من أمرها شيئاً... كأنه كان يقول أنت من بينتنا، على أية حال. حتى صغارها المساكين، طيورها وحيواناتها المشردة كانت تنظر إليها - أو هكذا ما تصورته، على أقل تقدير بشيء من الريبة والعداء. وصارت تخجل من مشاعرها. كان تقول لنفسها: ”هذا بيتي، على أية حال، عائلتي، ووطني...“ فإرد عليها صوت آخر مؤكداً: ”لا، لم يعد وطنك، ولم تعد عائلتك“. وكان الرعب يستولي عليها، فكانت تضيق بكل خورها. فقدت صبرها ما أن اصابها العسر... أهذا ما وعدت به؟

و لم تمالك يلينا نفسها بسرعة. ولكن اسبوعاً مضى وتبعه آخر... وهدأت يلينا بعض الشيء، وتعودت وضعها الجديد. كتبت رسالتين صغيرتين لاينساروف، أخذتهما بنفسها إلى البريد. لم ترد على الاطلاق أن تأمن الخادمة خجلاً وكبرياء. وأخذت تنتظر مجيئه هو... ولكن عوضاً عنه جاء نيقولاي ارتيميفيتش ذات صباح.

كان ضباط الحرس المتقاعد ستاخوف ملولاً، وفي الوقت ذاته، واثقاً بنفسه ومتعظماً على نحو لم يره أحد من أهل بيته على مثله قبل هذا اليوم. دخل إلى حجرة الجلوس في معطفه وقبعته. دخل ببطء، وبخطوات عريضة، ضارباً الأرض بكعبيه، واقترب من المرأة، ونظر إلى نفسه فيها وقتاً طويلاً، هازراً رأسه، عاضباً على شفثيه بصرامة هادئة. استقبلته آنا فاسيليفنا بمظهر قلق، وفرح خفي (لم تستقبله قط بغير ذلك) وقدم يده في قفازها الشموا في صمت إلى يلينا لتقبلها، حتى دون أن يخلع قبعته، ودون أن يقرأ زوجته التحية. اخذت آنا فاسيليفنا تسأله عن دورة العلاج، فلم يجيبها بشيء. جاء اوفار ايفانوفيتش، ونظر إليه، وقال "ها!". وكان ستاخوف، بشكل عام، يعامل اوفار ايفانوفيتش ببرود وباستعلاء، رغم أنه كان يعترف فيه بـ "علائم الدم الستاخوفي الاصيل". والمعروف أن العوامل النبيلة الروسية جميعها تقريباً تعتقد بأن لها ميزات استثنائية من ناحية النسب، مختصة بها وحدها. فكم سمعنا احاديث "بين الاهل" عن الانوف "البودسالاسكية" والقفا "البيربريفية"^(٣٠). دخلت زويا، وانحنت لنيقولاي ارتيميفيتش احتراماً. تنحى، وانهد على كرسي وثير، وطلب قهوة، وعند ذاك فقط خلع قبعته. قدمت له القهوة، فاحتسى الفنجان، ونظر إلى الجميع بالتوالي، وقال من خلال اسنانه: ^(٣١) "Sortez, s'il vous plait" وأضاف مخاطباً زوجته: "Et vous, madame, restez, je vous prie"^(٣٢).

(٣٠) اسماء عوائل. - المترجم.

(٣١) اخرجوا، ارجوكم (بالفرنسية في الأصل).

(٣٢) أما أنت، يا مدام، فابقي، ارجوكم (بالفرنسية في الأصل).

خرج الجميع ما عدا آنا فاسيليفنا. كان رأسها يرتعش من الانفعال.
ادهشتها نبرة الظفر في سلوكه. فكانت تتوقع شيئاً غير اعتيادي.

ما أن غُلق الباب حتى هتفت:

- ما هذا!

القى نيقولاي ارتيميفيتش عليها نظرة غير مكرثة.

- لا شيء على وجه الخصوص. أية طريقة لك في أن تظهرني نفسك
حالاً. معظّم الضحية؟ - شرع يقول مرخياً طرفي شفتيه لدى كل كلمة
دون أية حاجة - مجرد أنني اردت أن اعلمك أن ضيفاً جديداً سيتناول
الغداء عندنا اليوم.

- مَنْ هو؟

- يغور اندرييفيتش كورناتوفسكي. أنت لا تعرفينه، يشغل منصب
السكرتير الأول في مجلس الشيوخ.

- وسيتناول الغداء عندنا اليوم؟

- نعم.

- ولأجل أن تقول لي ذلك أمرت الجميع بأن يخرجوا؟

ومرة أخرى القى نيقولاي ارتيميفيتش على آنا فاسيليفنا نظرة، كانت
تهكمية هذه المرة.

- أيدهشك هذا؟ انتظري وستندهشين أكثر.

وصمت، وصمت آنا فاسيليفنا قليلاً، ثم قالت:

- جيداً...

وفجأة قال نيقولاي ارتيميفيتش:

- أنا أعرف أنك دائماً كنت تعتبريني إنساناً... «بلا أخلاق».

تمتت أنا فاسيليفنا بذهول:

- أنا؟!

- وقد تكونين على حق. ولا أريد أن انكر أنني بالفعل كنت أعطيك أحياناً حجة عادلة لعدم الرضى (وطاف في ذهن أنا فاسيليفنا «أنها الخيول الرمادية») رغم أنك لا بد أن تقرى بأن عضويتك في حالتها المعروفة لك...

- ولكنني لا أتهمك أبداً، يا نيقولاي ارتيميفيتش.

- Cest possible^(٣٣). وفي كل الأحوال لا انوي تبرير نفسي. الزمن سيررني. ولكنني أرى من واجبي أن أؤكد لك أنني أعرف التزاماتي، واستطيع أن اهتم ب... مصالح... العائلة المؤكل بها.

فكرت أنا فاسيليفنا مع نفسها: "ماذا يعني كل هذا؟" (ما كان في امكانها أن تعرف أن جدالاً نشأ في عشية اليوم، في ركن من حجرة الارائك في النادي الانجليزي، عن عدم قدرة الروس على تدييح الحديث. وهتف أحد المتجادلين: "مَنْ يجيد الحديث عندنا؟ هل تسمون لي أحداً"، فرد آخر: "لنأخذ ستاخوف مثلاً" وأشار إلى نيقولاي ارتيميفيتش الذي كان بين المتحدثين. وكادت تند منه صيحة فرح).

ومضى نيقولاي ارتيميفيتش يقول:

- لنأخذ ابنتي يلينا. ألا تجددين أن الوقت قد حان أخيراً لأن تقوم بخطوة ثابتة في طريق الحياة... أريد أن أقول أن تزوج. لا ضير في كل تلك التفلسفات وأعمال البر والاحسان، ولكن بقدر معين، وإلى

(٣٣) هذا محتمل (بالفرنسية في الأصل).

عمر معين. وقد آن لها أن تترك ضباياتها وأن تخرج من مجتمع اوزاع
الفنانين والطلبة والجبليين السود^(٣٤) وتصير كالآخريين.

سألت أنا فاسيليفنا:

- كيف علي أن افهم كلامك؟

رد نيقولاي ارتيميفيتش بنفس تهدل الشفتين:

- دعيني اكمل. سأقول لك بصراحة ودون لف ودوران. لقد تعرفت
وتصاحبت مع هذا الشاب، السيد كورناتوفسكي، على أمل أن يكون
صهري. واجروء على الظن بأنك، حين ترينه، لن تتهميني بالمحابة أو
بالتسرع في الرأي. (كان نيقولاي ارتيميفيتش يتكلم، ويعجب بذلاقة
لسانه) تعليمه ممتاز، فهو قانوني، وتربيته جيدة، وهو في الثالثة والثلاثين،
وسكرتير أول، ومستشار متخرج، وحامل وسام ستانسلاف. وآمل في
أنك ستصفيني، ولا تضعيني في عداد أولئك^(٣٥) pères de comédie
الذين تسحرهم المناصب وحدها. وأنت نفسك كنت تقولين لي أن يلينا
نيقولاييفنا يعجبها الاكفاء الايجابيون. ويفور اندرييفيتش الأول في حلقة
من حيث الكفاءة. وابنتي، من الناحية الأخرى، مبالغة إلى افعال الشهامة،
فاعلمي، اذن، أن يفور اندرييفيتش، حالما اتاحت له امكانية، وارجو أن
تفهميني، امكانية العيش على راتبه دون عوز، تخلى على الفور لاخوانه
عن المبلغ السنوي الذي عينه له ابوه.

فسألت أنا فاسيليفنا:

- ومن أبوه؟

(٣٤) الجيل الأسود ("مونت نيفرو") - مقاطعة في البلقان هي الآن داخله في حدود
يوغوسلافيا.

(٣٥) الاباء في التمثيليات الفكاهية (بالفرنسية في الأصل).

– أبوه؟ ابوه أيضاً إنسان مشهور في مضماره، ذو اخلاقيات عالية
جداً^(٣٦) un vrai stoïcien، رائد متقاعد، على ما أظن، يدير كل ضياع
الكونتات من آل ب... .

قالت أنا فاسيليفنا:

– أها!

فأسرع نيقولا ي ارتيميفيتش يقول:

– أها! ماذا أها؟ هل معقول أنك أيضاً مصابة بداء التحاملات؟
فشرعت أنا فاسيليفنا تقول:

– ولكنني لم أقل شيئاً...

– لا، قلت أها!.. ومهما يكن من شيء رأيت من اللازم أن انبهك
إلى ما يدور في ذهني، واجرؤ على الاعتقاد... اجرؤ على أن أمل في أن
السيد كورناتوفسكي سيستقبل^(٣٧) à bras ouverts أنه ليس من الجليلين
السود أو ما شاكل.

– بالطبع. ولكن يجب أن تبلغ الطباخ فانكا ليضيف أصنافاً جديدة.

– أنت تعرفين أنني لا اتدخل في ذلك – قال نيقولا ي ارتيميفيتش
ونهمض، ولبس قبعته، وذهب ليتنزه في الحديقة، وهو يصفر (وكان قد
سمع أن السفير لا يجوز إلا في بيت ريفي تقطنه أو في حلبة الخيول). نظر
شوبين إليه من نافذة مسكنه الملحق، وأخرج له لسانه صامتاً.

في الساعة الرابعة إلا عشر دقائق وصلت إلى واجهة بيت ستاخوف
الريفى عربية مستأجرة، ونزل منها رجل لم يتخط بعد سن الشباب،

(٣٦) زيننوني حقيقي (بالفرنسية في الأصل).

(٣٧) باذرع مفتوحة (بالفرنسية في الأصل).

مهذب المظهر أنيق اللباس، بسيطه، وأمر بأن يُعلن عن وصوله. ذلك هو يغور اندرييفيتش كورناتوفسكي.

وبالمناسبة، هذا ما كتبه يلينا لاينساروف في اليوم التالي:

”هنثني، يا عزيزي دميتري، فقد صار لي خطيب. ويوم أمس تناول طعام الغداء عندنا، وكان أبي قد تعرف عليه في النادي الانجليزي، على ما يبدو، ودعاه لزيارتنا. وطبيعي أنه لم يأت يوم أمس كخطيب، إلا أن أمي الطيبة التي ابلغها أبي بأمنيته، همست في أذني من هو ضيفنا. يدعى يغور اندرييفيتش كورناتوفسكي، ويعمل سكرتيراً أول في مجلس الشيوخ. ولأصف لك مظهره الخارجي أولاً. أنه ربع القامة، اقصر منك، حسن البنيان، متناسق القسمات، قصير الشعر، طويل القidal. عيناه صغيرتان (كعينيك) بنيتان، سريعتان، وشفته مسطحتان، عريضتان، وفي عينيه وعلى شفثيه بسمة دائمة، رسمية على نحو ما، وكأنما لاداء الواجب. طريقة سلوكه بسيطة جداً، وكلامه واضح، وكل شيء لديه واضح، فهو يسير، ويضحك، ويأكل وكأنه يؤدي عملاً. ولربما أنت تفكر في هذه اللحظة ”درسته بدقة!“ أجل، لكي اصفه لك. ثم كيف لا ادرس خطيبي! أن فيه شيئاً حديدياً... وبليداً وفارغاً في الوقت ذاته، ونزيهاً. يقال أنه نزيه جداً، حقاً. وأنت أيضاً حديدي، ولكن لست كمثلته. جلس إلى المائدة جنبي، وجلس شوبين قبالتنا. في البداية دار الحديث عن مؤسسات تجارية يقال أنه يفهم فيها، وكاد يترك وظيفته ليشراف على معمل كبير. ولكنه فوّت عليه الفرصة! ثم اخذ شوبين يتحدث عن المسرح، وهنا ذكر السيد كورناتوفسكي، وبدون أي تواضع كاذب - ويجب أن اقرأ بذلك - أنه لا يفقه شيئاً في الفن. وقد ذكرني ذلك بك... ولكنني قلت لنفسي: لا، أنا ودميتري لا نفهم الفن بطريقة مغايرة، على أية حال. بينما هذا كما لو أنه كان يريد أن يقول: أنا لا افهمه، كما أنه ليس ضرورياً، ولكنه مسموح به في دولة حسنة التنظيم. أن هذا الرجل، على العموم، يستهين

كثيراً أبطر سبورغ، وبـ *comme il faut* بل وقد سمى نفسه بروليتارياً مرة واحدة. ويقول: نحن عمال بسطاء! وقد فكرت مع نفسي: لو أن دميتري قال ذلك لما اعجبني ذلك منه، ولكن ليقبل هذا عن نفسه ما يشاء، وليتبع! كان جد مهذب معي، ومع ذلك فقد كان يبدو لي دائماً أن المتحدث إلي رئيس يتلطف مع محدثه كثيراً. وحين يريد أن يمتدح إنساناً يقول أنه صاحب أصول. وذلك تعبيره المفضل. فلا بد أنه واثق بنفسه، محب للعمل، ومقتدر على التضحية (ها أنت ترى أنني منصفة) أقصد التضحية بمنافعه، ولكنه مستبد كثيراً. ومن المصيبة الوقوع في يده! جرى الحديث على المائدة عن الرشاوي...

قال:

— أنا ادرك أن الذي يأخذ الرشوة غير مذنب في كثير من الاحوال، فهو لا يستطيع أن يفعل خلاف ذلك. ومع هذا يجب سحقه، إذا اكتشف أمره.

هتفت:

— سحق بريئاً!

— نعم، في سبيل المبدأ.

فسأل شوبين:

— أي مبدأ؟

فبدأ على كورناتوفسكي الارتباك أو الدهشة وقال:

— لا يحتاج ذلك إلى شرح.

فتدخل أبي الذي كان يبجله، كما يبدو، وقال: لا يحتاج، بالطبع، وانتهى هذا الحديث، مع الأسف، وفي المساء جاء بيرسينيف، ودخل معه في جدال مريع. حتى ذلك الحين لم أر قط صديقنا اندريه بيتروفيتش الطيب

على مثل تلك الدرجة من الانفعال. لم ينكر السيد كورناتوفسكي، على الإطلاق، فائدة العلم والجامعات وغيرها... ومع ذلك فقد كنت أتفهم استياء اندريه بيتروفيتش. كان الآخر ينظر إلى كل ذلك وكأنه نوع من التمارين الرياضية. جاءني شوبين، بعد الفراغ من المائدة، وقال: "أن هذا وشخصاً آخر (أنه لا يستطيع أن يلفظ اسمك) عمليان كلاهما، ولكن انظري أي فارق بينهما. الآخر مثال حقيقي حي طرحته الحياة نفسها، أما هذا فحتى الشعور بالواجب غير متوفر فيه، بل مجرد نزاهة وظيفية، وكفاءة فارغة من أي محتوى". أن شوبين ذكي، وأنا أتذكر ما قاله خصيصاً لك. ولكن أي جامع يمكن أن يكون بينكما برأيي؟ أنت تؤمن، وهو لا، إذ لا يجوز الايمان بالنفس فقط.

غادر السيد كورناتوفسكي في ساعة متأخرة، ولكن ماما لحقت أن تخبرني بأنني رقت له، وأن أبي في غاية الغبطة... لعل السيد كورناتوفسكي قال أيضاً عني أنني صاحبة أصول؟ وكدت ارد على أمي بأنني آسفة جداً، ولكن لي زوجاً بالفعل. لماذا لا يحبك أبي إلى هذه الدرجة؟ مع أمي يمكن أن ندبر الأمر بطريقة أو بأخرى...

آه، يا عزيزي. لقد اسهبت لك في وصف هذا السيد لا تغلب على وحشتي. لا حياة لي بدونك. وأنا، على الدوام، أراك واسمعك... أنا انتظرك، ولكن ليس في بيتنا، كما كنت تريد - تصور ما سنحسه من ضيق وحرارة - بل في المكان الذي كتبت لك عنه - في ذلك الحرش... آه، يا عزيزي، كم أحبك!".

٢٣

بعد ثلاثة أسابيع من زيارة كورناتوفسكي الأولى انتقلت أنا فاسيلينا إلى موسكو، مشيرة بذلك فرحاً عظيماً في نفس يلينا، ونزلت في بيتها

الخشبي الكبير قرب شارع بريتشستينكا، وهو بيت ذو أعمدة تكلل كل نافذة من نوافذه قيثارات واكاليل بيض، وللبيت طابق علوي، ومرافق للخدمات، وحديقة خضروات، وفناء أخضر واسع، فيه بئر يجاورها وجار للكلاب. من قبل لم تكن آنا فاسيليفنا تغادر البيت الريفي إلى المدينة في مثل هذا الوقت المبكر من الخريف. ولكن موجات البرد الخريفية الأولى في هذا العام أثارت خراجات اللثة عندها. كما أن نيقولاي ارتيميفيتش، من ناحيته، قد أنهى دورة علاجه. واشتاق إلى زوجته، لا سيما وأن افغوستينا خريستيانوفنا قد سافرت لزيارة ابنة عمها في ريفيل. ووصلت إلى موسكو أسرة أجنبية كانت تعرض أوضاعاً بلاستيكية des poses plastiques أثار وصفها في صحيفة "موسكوفسكيه فيدموستي" فضول آنا فاسيليفنا الشديد. وباختصار كان استمرار الإقامة في البيت الريفي غير ملائم، بل ولا يتفق، كما قال نيقولاي ارتيميفيتش، مع تنفيذ "مخططاته". وبدأ الأسبوعان الأخيران طويلين جداً ليلينا. وكان كورناتوفسكي يزورهم مرتين يوم الأحد، وكان في بقية الأيام مشغولاً. وكان يأتي خصيصاً ليلينا، ولكنه كان يتحدث أكثر مع زويا التي أعجبت به كثيراً. وكانت تقول لنفسها، وهي تنظر إلى وجهه الأسمر الرجولي وتسمع كلامه الواثق المتسامح: "Das ist ein Mann" (٣٨). فإن أحداً، حسب رأيها، لم يمتلك صوتاً مدهشاً مثل صوته، ولا أحد يضارعه في نطقه بشكل رائع: "لي الشرف" أو "أنا مرتاح جداً". ولم يزر اينساروف آل ستاخوف، ولكن يلينا التقت ذات مرة خلسة في حرش صغير على نهر موسكو، كانت قد حددت له موعداً فيه. وما كاد الوقت يتسنى لهما ليتبادلا بعض الكلمات. وعاد شوبين إلى موسكو مع آنا فاسيليفنا، وبعد بضعة أيام تبعه بيرسينيف.

(٣٨) هذا رجل حقيقي (بالألمانية في الأصل).

كان اينساروف جالساً في حجرته يقرأ للمرة الثالثة رسائل وصلته من بلغاريا مع رسول سائح، فقد كانوا يخافون ان يرسلوها في البريد. وقد اقلقتهم الرسائل كثيراً. الأحداث تتطور بسرعة في الشرق. وكان احتلال القوات الروسية للامارتين يشغل بال الجميع. واشتدت العاصفة، وفاحت رائحة حرب قريية لا مرد لها. وبدأ الحريق، ولم يكن في مستطاع أحد أن يتنبأ إلى أين يتجه، وأين يتوقف. تحركت المظالم القديمة والأمانى التي طال أمدها. وكان قلب اينساروف يخفق بشدة، فأخذت أماله تتحقق. وكان يفكر عاصراً يديه: ”ولكن أليس ذلك مبكراً؟ بدون جدوى؟ فنحن غير مستعدين الآن. ولكن ما العمل! يجب أن اسافر“.

حدثت حركة خفيفة وراء الباب، وانفتح بسرعة، ودخلت يلينا الحجره.

ارتعش كيان اينساروف كله، واندفع نحوها، وركع أمامها، وطوق قامتها، وضغط رأسه عليها بقوة.

- لم تكن تتوقعني؟ - قالت، وهي لا تكاد تلتقط أنفاسها (وكانت قد ارتقت السلم بسرعة) - عزيزي! عزيزي! - ووضعت كلتا يديها على رأسه، وتلفتت - هنا تعيش، اذن؟ عثرت عليك بسرعة. دلتنى ابنة صاحب البيت. انتقلنا إلى موسكو يوم أمس الأول. وارتدت أن اكتب لك، ولكنني فكرت في أن مجيء إليك أفضل. سأظل معك ربع ساعة. انهض، واغلق الباب.

نهض، وخف لغلق الباب، وعاد إليها، وأخذ يديها. لم يستطع أن يتكلم، فقد عقدت الفرحة لسانه. وكانت تحديق في عينيه مبتسمة... كان في عينيه الكثير من السعادة... وخجلت يلينا.

- على مهلك - قالت له، واسترجعت يديها منه بلطف - دعني اخلع القبة.

وفكت شريطي القبعة، ورمتها وألقت العبءة عن كتفيها، وعدلت شعرها. وجلست على اريكة صغيرة قديمة. جمد اينساروف يحدق فيها كالمسحور.

- اجلس.

قالت دون أن ترفع إليه عينيها، مشيرة له إلى مكان جنبها.
جلس اينساروف، ولكن على الأرض، عند قدميها، لا على الاريكة.
قالت بصوت مضطرب، إذ شعرت برهبة:
- خذ، اخلع القفازين من يدي.

أخذ يفك الازرار في البداية، ثم يسحب أحد القفازين، وسحبه إلى النصف، ولثم في نهم الكف الناعمة الرقيقة التي لاحت بيضاء من تحت القفاز.

ارتعشت يلينا، وارادت أن تدفعه بيدها الأخرى، ولكنه راح يقبل هذه اليد أيضاً. سحبتها يلينا نحوها، فدفع رأسه إلى الوراء، فنظرت في وجهه، وانحنت، والتقت الشفاه...

مرت لحظة... انتزعت يلينا نفسها، ونهضت، وهمست "لا، لا"
واقتربت بسرعة من منضدة الكتابة.

- أنا ربة بيت هنا، ولا يجوز أن تخفي عني خافية - قالت محاولة أن تبدو خلية البال، مديرة له ظهرها - ما أكثر الاوراق! ما هذه الرسائل؟

قطّب اينساروف حاجبيه. وقال، وهو ينهض من الأرض:

- هذه الرسائل؟ تستطيعين أن تقرئيها.

قلّبتها يلينا في يدها.

- أنها كثيرة جداً، ومكتوبة بخط دقيق، بينما يجب أن انصرف
الآن... سأتركها! أليست من غريمة لي؟ ولكنها ليست بالروسية.

أضافت ذلك، وهي تتصفح الأوراق الخفيفة.

دنا اينساروف منها، ومسّ قَدَّها، فاستدارت نحوه فجأة، وابتسمت
له ابتسامة مشرقة، واستندت على كتفه.

- أن هذه الرسائل من بلغاريا، يا يلينا. اصدقائي يكتبون لي، ويدعونني
إلى السفر.

- الآن؟ إلى هناك؟

- نعم... الآن، ما دام الوقت لم يفت، وما دام السفر ممكناً.

وفجأة طوقت رقبتة بكلتا يديها.

- ولكن ستأخذني معك؟

ضمها إلى صدره:

- آه، يافتاتي العزيزة، يا بطلتي، ما الطف نطقك لهذه الكلمات!
ولكن أليست خطيئة، أليس جنوناً مني أن اجرك معي - أنا الذي لا بيت
له ولا أهل... وإلى أين!

وضعت يدها لتسد فمه قائلة:

- هسس... والافسأزعل، ولن أعود لزيارتك أبداً. ولكن ألم يُحسَم
كل شيء بيننا، وُيئت؟ أولست زوجتك؟ وهل الزوجة تفارق زوجها؟

قال بابتسامة شبه حزينة:

- الزوجات لا يخرجن للحرب.

- أجل، إذا يقدرّون على البقاء. وهل في أمكاني أن ابقى هنا؟

- يلينا، أنت ملاك!.. ولكن فكّري، ربما اضطر إلى ترك موسكو...

بعد أسبوعين. ولا مجال لأن افكر في محاضرات الجامعة، ولا في اكمال عمالي.

قاطعته يلينا:

- ما هذا الذي تقوله؟ هل يجب أن تسافر قريباً؟ إذا اردت، فسأبقى معك الآن، هذه اللحظة، واطل معك إلى الأبد، ولن أعود إلى البيت، هل تريد؟ لنسافر الآن، هل تريد؟

ضمها اينساروف بين ذراعيه بقوة مضاعفة، وهتف:

- ليعاقبني الرب، أن قمت بعمل سوء! منذ اليوم نحن مرتبطان إلى الأبد! فسألت:

- يعني، سأبقى؟

- لا، يافتاتي الطاهرة، لا، يا كنزي. ستعودين اليوم إلى البيت، ولكن كوني على أهبة. فأن هذا الأمر لا يجوز أن يوّتي دفعة واحدة. يجب التروي في كل شيء. ونحن نحتاج إلى نقود، وجواز سفر... قاطعته يلينا:

- عندي نقود. ثمانون روبلاً.

فقال اينساروف:

- هذا ليس مبلغاً كبيراً، ولكنه ينفع على أية حال.

- واستطيع أن احصل على أكثر، استدين، اطلب من أمي... لا، لا أريد أن اطلب منها... ولكن يمكن أن أبيع ساعتني... وعندني اقراط، وسواران... مخرمات.

- ليست المسألة مسألة فلوس، يا يلينا. جواز السفر، جواز سفرك، كيف

ندبره؟

- نعم، كيف ندبره؟ لا بد من جواز سفر؟

- لا بد.

وضحكت ضحكة مقتضبة ساخرة.

- هذا ما خطر في بالي! اذكرك، وأنا صغيرة... هربت منا خادمة، فامسكوا بها، وصفحوا عنها، وظلت تعيش معنا زمناً طويلاً... ومع ذلك كان الجميع يلقبونها بتاتيانا الهاربة. لم أكن أتصور في حينها، أنني ربما سأكون أيضاً هاربة، مثلها.

- عيب عليك، يا يلينا!

- وماذا في الأمر؟ الأفضل، بالطبع، أن اسافر بجواز سفر. ولكن إذا تعذر ذلك...

قال اينساروف:

- سنسوي كل ذلك، فيما بعد، فيما بعد، انتظري، اعطيني فرصة لأن اتفحص اموري، اتركيني افكر. سنتباحث في كل شيء سوية، وكما ينبغي. أما النقود فعندي منها أيضاً.

ازاحت يلينا بيدها الشعر الذي تساقط على جبينه.

- آه، دميتري! ما امتع أن نسافر سوية!

قال اينساروف:

- نعم، وهناك إلى أين نذهب...

قاطعته يلينا:

- وماذا في ذلك؟ أليس الموت سوية ممتعاً أيضاً؟ ولكن لا، لماذا نموت،

سنعيش، فنحن شبابان، كم عمرك؟ ستة وعشرون؟

- ستة وعشرون.

- وأنا في العشرين، أمانا العمر بطوله، ها! وكنت تريد أن تهرب مني؟ لم تكن بحاجة إلى حب روسي، أيها البلغاري! فلنر الآن كيف ستخلص مني! ولكن ماذا كان سيحصل لنا، لو لم اتجه إليك آنذاك!

- أنت تعرفين، يا يلينا، ما الذي كان يحملني على الابتعاد عنك.

- اعرف، أحببت، وارتعبت. ولكن هل من المعقول أنك لم تحدث أنني كنت أبادلك الحب؟

- لا، يلينا قسما بالشرف.

قبلته بغتة وبسرعة.

- ولهذا بالذات أحبك. والآن، وداعاً.

فسأل اينساروف:

- إلا تستطيعين أن تبقي أكثر؟

- لا، يا عزيزي. هل تتصور أنه كان سهلاً علي أن انسل واخرج

وحيدة؟ ربع الساعة انقضى منذ زمان - وليست عباءتها وقبعتها - تعال

عندنا غدا في المساء، لا، بعد غد. سيكون الجو مصطنعاً مضجراً، ولكن لا

حيلة لنا عليه. سيرى أحدنا الآخر على أقل تقدير. وداعاً. دعني اذهب -

وعانقها للمرة الأخيرة - آه! انظر، قطعت سلسلتي. آه، يا فتاي الاخرق!

طيب، لا يهم. هذا احسن. سأذهب إلى شارع "كوزنتسكي موس" ،

واعطيها للتصليح. فإذا سألوني أقول كنت في كوزنتسكي موس -

وامسكت مقبض الباب - بالمناسبة، نسيت أن أقول لك: من المحتمل

أن مسيو كورناتوفسكي سيطلب يدي خلال أيام. ولكنني سأصنع له...

هذا - ووضعت ابهام يدها اليسرى على ارنبة انفها، وحركت اصابعها

الأخر في الهواء - وداعاً، وإلى اللقاء. اعرف الطريق الآن. أما أنت فلا

تضيع الوقت...

فتحت يلينا الباب قليلاً، وتسمعت، واستدارت نحو اينساروف،
واومات برأسها، وانسلت من الحجرة.

وقف اينساروف أمام الباب دقيقة، وتسمع أيضاً. انصفق الباب
المؤدي إلى الفناء في الاسفل. اقترب اينساروف من الاريكة، وجلس،
وغطى عينيه بيده. أن مثل هذا الشيء لم يحدث له من قبل. وفكر: "لأي
شيء اجازى بهذا الحب؟ أعله حلم؟".

إلا أن رائحة البليحاء الخفيفة التي ابقتها في حجرته البائسة المظلمة
كانت تذكر بزيارتها. كما بقيت عالقة في الهواء، على ما يبدو، رنات
صوتها الفتى، وحفيف خطواتها الفتية الخفيفة، ودفء وغضارة جسدها
العذري الفتى.

٢٤

قرر اينساروف أن ينتظر أخباراً أكثر إيجابية، وبدأ يتهيأ للسفر. وكان
الأمر صعباً جداً. وفي الحق لم تكن هناك أية عقبات أمامه، إذ لم يكن عليه
إلا أن يطالب بجواز سفر. ولكن كيف سيكون الأمر مع يلينا؟ كان من
المستحيل الحصول لها على جواز سفر بطريق مشروع. أم يعقدان قرانهما
خلصة، ثم يتوجهان إلى والديها... وكان يفكر: "عندئذ سيسمحان لنا
بالسفر. وأن لم يسمحا؟ سنسافر، في كل الأحوال. وأن اشتكيا علينا...
أن... لا، من الأفضل السعي للحصول على جواز سفر بطريقة ما".

وعزم على التشاور (دون أن يسمي أسماً، بالطبع) مع مدع عام يعرفه،
متقاعد أو مقال، وعجوز ضليح محنك في شتى القضايا السرية. وكان هذا
الرجل المحترم يعينش بعيداً من مسكنه. وقضى اينساروف ساعة كاملة
للوصول إلى بيته في عربة مستأجرة بائسة، والانكى من ذلك أنه لم يجده

في بيته. وفي طريق العودة بلله حتى العظام وابل هطل على حين غرة. وفي الصباح التالي ذهب اينساروف للمرة الثانية إلى بيت المدعي العام المتقاعد، رغم الصداق الشديد. اصغى إليه المدعي العام المتقاعد بانتباه، وهو يستنشق التبغ من علبة تبغ مزينة بصورة حورية مكتنزة النهدين، وينظر إلى ضيفه بحول من عينين صغيرتين ماكرتين بلون التبغ أيضاً. كان يصغي ويطلب "دقة أكثر في طرح المعطيات الفعلية"، ولما رأى كراهية اينساروف للدخول في التفاصيل (وكان قد جاء إليه على مضض) اكتفى بتوجيه النصح له بأن يتزود "القروش" قبل كل شيء، وطلب إليه أن يزوره للمرة الثانية. واطاف، وهو يستنشق التبغ منكباً على علبته المفتوحة "عندما تزداد لديك الثقة، وتقلل عدم الثقة". ومضى يقول كمن يخاطب نفسه: "أما جواز السفر فتحت متناول يد الإنسان. فأنت لو سافرت مثلاً، فمن سيعرف من أنت: ماريا بريديخينا، أم كارولينا فوغيلمير؟" وأحس اينساروف بشعور القرف يتململ في نفسه، إلا أنه شكر المدعي العام، ووعده بالعودة إليه خلال أيام.

في ذلك المساء ذهب لزيارة آل ستاخوف. استقبلته أنا فاسيليفنا برقة، وعاتبته على نسيانه لهم كلياً، ولما رآته شاحب الوجه استفسرت عن صحته. ولم يقل نيقولا اي ارتيميفيتش له أية كلمة، ولكنه نظر إليه بفضول ساهم ذاهل، ولا شيء آخر. وعامله شوبين ببرود، ولكن يلينا ادهشته. فقد كانت تنتظره، ومن أجله لبست نفس الثوب الذي كانت ترتديه يوم لقائهما الأول في الصومعة، ولكنها رحبت به بهدوء شديد، وكانت لطيفة جداً، ومرحة في خلو بال، فما كان في وسع أحد ينظر إليها في تلك الساعة أن يظن أن مصير هذه الفتاة قد حسم، وأن الاحساس الخفي بالحسب السعيد وحده كان يضيف الحيوية على ملامحها، والخفة والفتنة على كل حركاتها. كانت تصب الشاي، بدلاً من زويا، ومزح، وتكثر من الكلام، فقد كانت تعرف أن شوبين سيراقبها وأن اينساروف لا يحسن

التمويه، ولا يجيد التظاهر بعدم الاكتراث، فسلحت نفسها مسبقاً. ولم تخطئ في ذلك. فقد كان شويين لا يصرف عينيه عنها. وكان اينساروف صموتاً جداً وعبوساً خلال الامسية كلها. وكانت يلينا تشعر بالسعادة تغمر نفسها، حتى أنها رغبت في مناكדתه.

سألته فجأة:

– ماذا، اذن؟ هل مشروعك في تقدم؟

ارتبك اينساروف، وقال:

– أي مشروع؟

– هل نسيت؟ – ردت عليه ضاحكة في وجهه. وكان وحده يستطيع أن يدرك مغزى هذا الضحك السعيد – كتاب المطالعة البلغاري للروس الذي كنت تنوي تأليفه؟

تمتم نيقولاي ارتيميفيتش من خلال أسنانه:

– Quelle bourde ! (٣٩)

جلست زوييا إلى البيانو. هزت يلينا كتفيها بشكل لا يكاد يلاحظ، وأشارت لاينساروف بعينيها إلى الباب، وكأنما تأذن له بالانصراف. ثم مسّت المائدة باصبعها مستين، ونظرت إليه. ففهم أنها قد حددت له موعداً بعد يومين، وابتسمت ابتسامة سريعة حين رأت أنه قد فهم اشارتها. نهض اينساروف، وأخذ يستأذن بالانصراف، لأنه يشعر بتوعك. جاء كورناتوفسكي. فهب نيقولاي ارتيميفيتش واقفاً، ورفع يده اليمنى إلى أعلى من رأسه، وانزلها بنعومة على كف السكرتير الأول هذا. بقي اينساروف بضع دقائق أحر، ليتفحص غريمه. هزت يلينا رأسها خلسة

(٣٩) أية سخافة (بالفرنسية في الاصل).

وعمكر، فإن رب البيت لم ير من الضروري أن يعرف أحدهما بالآخر، وخرج اينساروف متبادلاً النظرات مع يلينا للمرة الأخيرة. فكر شوبين وفكر، ثم دخل في نقاش ضار مع كورناتوفسكي عن مسألة قانونية لم يكن يفقه فيها شيئاً.

أرق اينساروف الليلة بطولها، وفي الصباح كان يشعر بسوء في صحته. ومع ذلك أخذ يرتب اوراقه، ويكتب الرسائل، إلا أن رأسه كان ثقيلًا، ومضطرباً. وعند الغداء ارتفعت حرارته، فلم يستطع أن يأكل شيئاً. واشتدت الحرارة بسرعة عند المساء. واصابه انحلال في كل اعضائه، وصداع مؤلم في رأسه. استلقى اينساروف على نفس الاريكة الصغيرة التي كانت يلينا تجلس عليها قبل وقت قصير. وفكر مع نفسه: "هذا عقاب عادل على ذهابي إلى ذلك المحتال العجوز" وحاول أن يغفو... ولكن المرض كان قد تمكن منه آنذاك. وراحت عروقه تنبض بقوة رهيبه، والدم يغلي بحرارة في داخله، والافكار تدور في ذهنه كالطيور. وغرق في غيبوبة. انطرح على ظهره كالمسحوق، وفجأة تراءى له شخص يضحك فوقه بخفوت ويهمس. فتح عينيه بجهد. فنفذ اليهما ضوء الشمعة المحترقة كالسيكين. ما هذا؟ كان المدعي العام العجوز امامه في روب بيتي حريري محزم بنطاق من الحرير الخفيف، كما رآه قبل يوم. وتمتم الفم الادرد "كارولينا فوغيلمير". ويحدق اينساروف، والعجوز يكبر، ويتفخ، وينمو، حتى لم يعد رجلاً، بل شجرة... وكان على اينساروف أن يتسلق أغصانها العالية. فيتشبك، ويسقط بصدرة على صخرة حادة، وكارولينا فوغيلمير تجلس القرفصاء، في زي بائعة، وتغمغم: "فطائر، فطائر، فطائر". ثم يتدفق دم، والسيوف تلمع لمعاناً لا يطاق... يلينا!... واختفى كل شيء في هيولى حمراء...

- جاءك شخص، والله يعلم مَنْ هو... ربما هو سمكري. ويريد أن يراك.

قال ذاك لبرسينيف في المساء التالي، خادمه الذي كان يتميز بالصرامة في التعامل مع سيده، وبنزعة التشكك في تفكيره.

قال بيرسينيف:

- دعه يدخل.

ودخل "السمكري"، فعرف بيرسينيف فيه الخياط صاحب المسكن الذي يقيم فيه اينساروف.
سأله:

- ماذا تريد؟

- اريد أن اكلم حضرتك - قال الخياط منقلأ قدميه ببطء، ورافعاً من حين لآخر يده اليمنى، وقد امسك بأصابعه الثلاث الأخيرة طرف كفه - نزيلنا مريض جداً والله يعلم.

- اينساروف؟

- بالضبط، نزيلنا. والله يعلم. حتى صباح أمس كان ما يزال على قدميه، وفي المساء لم يطلب غير شيء يشربه، فجلبت له أم بيتنا ماء، وفي الليل راح يهذر، وكنا نسمعه من خلال الحاجز. واليوم صباحاً فقد لسانه، وهو مطروح كالحشبة، متوهج بحمى، نعوذ بالله منها! وفكرت: الله يعلم، قد يموت بين لحظة وأخرى، ويجب أخبار الشرطة. لأنه وحيد، ولكن أم البيت قالت لي: "أذهب إلى الساكن الذي كان نزيلنا يستأجر حجرة في بيته الزيفي. فلعله يشير لك بشيء، أو يأتي بنفسه". ولهذا جئت إلى حضرتك، لأنه لا يجوز لنا، اقصد...

اختطف بيرسينيف قبعته، ودس في يد الخياط قطعة معدنية من فئة الروبل، واسرع معه في عربة مستأجرة إلى مسكن اينساروف على الفور. وجدته راقداً على الارىكة فاقد الوعي، في ثيابه الكاملة. وقد تغير وجهه تغيراً رهيباً. اسرع بيرسينيف فأمر صاحب البيت وربته بأن يخلعا عنه ثيابه، وينقلاه إلى السرير، وانطلق هو إلى الطبيب، وجاء به. وصف له الطبيب دفعة واحدة علماً ولصقات وملح الزئبق كما أمر بفصد الدم.

- هل هو في حالة خطرة؟

أجاب الطبيب:

- نعم، جداً، التهاب شديد للغاية في الرئتين، والتهاب الغشاء البلوري في اوجهه. ولربما الدماغ مصاب أيضاً، بينما الشخص ما يزال شاباً. قواه الآن انقلبت ضده. تأخرت في استدعائي ولكنني، على العموم، سنقوم بكل ما يتطلبه العلم.

كان الطبيب نفسه ما يزال شاباً، ويصدق بالعلم.

وبقي بيرسينيف لقضاء الليلة. وكان رب البيت وربته طبيين بل ومقتدرين، حالما توفر الشخص الذي أخذ يقول لهما ماذا يجب أن يفعلوا. وجاء المطب وبدأت التعدييات الطبية.

وعند مطلع الصباح افاق اينساروف على نفسه بضع دقائق، وعرف بيرسينيف، وسأله: "يبدو أنني معتل الصحة؟"، ونظر فيما حوله بالحيرة المتبلدة الفاترة التي يتسم بها المريض الدنف، ثم غاب عن الوعي ثانية. ذهب بيرسينيف إلى بيته ليستبدل ملابسه، وأخذ معه بعض الكتب، وعاد إلى مسكن اينساروف. وقد عزم أن يسكن معه في فترة المرض الأولى على الأقل. سد سريريه بيرافان، وهياً لنفسه موضعاً قرب الارىكة. ومر اليوم حزيناً متباطئاً، ولم يغب بيرسينيف إلا ليتناول لقمة. وحل المساء، واشعل بيرسينيف شمعة ذات ظليلة، وأخذ يقرأ. كان الصمت يشمل كل

شيء. ومن خلف الحاجز كان يسمع لاهل البيت همس مكبوت تارة، وتساؤب تارة أخرى، وزفرة تارة ثالثة... وعطس احدهم، ففُرع همساً، وكانت تصدر من وراء البرافان أنفاس ثقيلة متقطعة يتخللها، أحياناً، أنين قصير، وتقلب رأس ملول على الوسادة... وتواردت افكار غريبة على ذهن بيرسينيف. كان في حجرة رجل كانت حياته معلقة بخيط رفيع، رجل - وهو يعرف ذلك - كانت يلينا تحبه... وتذكر تلك الليلة التي لحقه فيها شوبين، وابلغه أنها تحبه هو، بيرسينيف! والآن... سأل نفسه: "ماذا علي أن افعل الآن؟ أخير يلينا بمرضه؟ أم انتظر قليلاً؟ هذا الخبر أشد حزنًا من ذلك الذي نقلته لها يومها. غريب أن القدر يضعني دائما شخصاً ثالثاً بينهما!". وقرر أن ينتظر قليلاً، فذلك افضل. وقع بصره على المنضدة المغطاة بتلال من الأوراق... فكر بيرسينيف: "تُرى، هل سيحقق مخططاته؟ معقول أن يختفي كل شيء؟" واشفق على الحياة الفتية المحتضرة، وقطع على نفسه عهداً بأن ينقذها...

كانت الليلة سيئة. ظل المريض يهذي كثيراً. نهض بيرسينيف غير مرة من مرقده على الاريقة، ودنا من السرير على اطراف اصابعه، واصغى في حزن إلى هذيانه غير المترابط. مرة واحدة فقط نطق اينساروف بوضوح مباغت: "لا اريد، لا اريد، ينبغي أن تفعلني..." جفل بيرسينيف، ونظر إلى اينساروف.. كان وجهه المعذب، والميت في نفس الوقت، جامداً، ويدها ترتخيان بلا حول... وكرر المريض بصوت لا يكاد يسمع: "لا اريد".

جاء الطبيب في الصباح، وهز رأسه، ووصف ادوية جديدة. وقال وهو يلبس قبعته:

- ما زال هناك شبوط بعيد إلى أن تحل الازمة.

فسأله بيرسينيف:

- وبعد الازمة؟

- بعد الازمة؟ أمام امرين aut Caesar، aut nihil (٤٠).

غادر الطبيب. سار بيرسينيف في الشارع عدة مرات رواحاً ومجيباً. كان يحتاج إلى هواء طليق. وعاد، وتناول كتاباً. وكان قد فرغ من راومر منذ زمان، وهو الآن يدرس غروت.

وفجأة صر الباب بخفوت، واطل رأس ابنة صاحب البيت على الحجرة بحذر، معصوباً بمنديل سميك، كالعادة. وقالت صاحبه بصوت خافت:

- جاءت آنسة الاكابر التي نفحتني يومها بعشرة كوبيكات... واختفى رأس ابنة صاحب البيت فجأة، وظهرت يلينا مكانه. قفز بيرسينيف كالملدوغ. ولكن يلينا لم تبد حركة ولا نادت منها صيحة... بدا وكأنها فهمت كل شيء في لحظة واحدة. غطى وجهها شحوب رهيب، وتقدمت من البرافان، ونظرت إلى ورائه، ورفعت ذراعيها، وجمدت. وكانت سترمي على اينساروف بعد لحظة أخرى، لو لم يوقفها بيرسينيف. قال لها بهمس مرتعش:

- ما هذا الذي تفعلينه؟ يمكنك أن تسببي موته!

وترنحت. قادها إلى الاريغة. واجلسها.

نظرت في وجهه، ثم طوفت عليه ببصرها، وبعدها تبثت عينيها في الارض.

- أنه يحتضر؟

سألت ببرود شديد وهدوء أرعبا بيرسينيف. قال:

(٤٠) أما القيصر، وأما لاشيء (باللاتينية في الأصل).

- يلينا نيقولايفنا، ما هذا منك، بحق الرب؟ أنه مريض حقاً، وبخطر شديد. ولكننا سننقذه، أتعهد لك بذلك.

سألت بنفس لهجتها السابقة:

- فاقد الوعي؟

- نعم، أنه الآن في غيبوبة... هذا ما يحصل دائماً في بداية هذه الأمراض، ولكن هذا لا يعني شيئاً، لا شيء صدقيني - اشربي قليلاً من الماء.

رفعت بصرها إليه وادرك بيرسينيف أنها لم تسمع رده.

- إن يمت - قالت بنفس الصوت لم تغيره - امت أنا أيضاً.

في تلك اللحظة صدرت من اينساروف أنة خفيفة. فأخذت يلينا ترتجف، امسكت رأسها، ثم اخذت تفك شريطي قبعتها. سأل بيرسينيف:

- ما هذا الذي تفعليه؟

لم تجب، فكرر بيرسينيف:

- ماذا تفعلين؟

- سأبقى هنا...

- كيف... لمدة طويلة؟

- لا اعرف، ربما النهار كله، والليل، أو إلى الابد... لا اعرف.

- بحق الرب افقي على نفسك، يا يلينا نيقولايفنا. بالطبع، لم أكن اتوقع قط أن اراك هنا. ولكنني اعتقد، على أية حال، أنك جئت إلى هنا لوقت قصير. تذكري أن أهلك يمكن أن يفتقدوك.

- وماذا في ذاك؟

- وسيبحثون عنك... ويجدونك....

- وماذا في ذلك؟

- يلينا نيقولايفنا! ها أنت ترين... أنه الآن عاجز عن أن يحملك.

اطرقت برأسها، وكأنها تفكر، ورفعت المنديل إلى شفيتها. وانفجرت من صدرها فجأة، وبقوة مروعة، نوبات متشنجة من النحيب... انكبت على الارىكة ووجهها إلى الاسفل، وحاولت أن تخنقها، ولكن جسدها كله ظل يخفق ويرتعد كطائر اصطياد لتوه.

كرر بيرسينيف مطلقاً عليها:

- يلينا نيقولايفنا... بحق الرب...

وفجأة تردد صوت اينساروف:

- ها؟ ما هذا؟

رفعت يلينا جسدها، بينما جمد بيرسينيف في مكانه... وبعد وقت قصير دنا من السرير... كان رأس اينساروف، مرتخياً على الوسادة بعجز، كالسابق. وكانت عيناه مغمضتين.

همست يلينا:

- يهذي؟

أجاب بيرسينيف:

- يبدو. ولكن هذا لا شيء. وهو أيضاً يحدث دائماً، لا سيما إذا...

قاطعته يلينا:

- متى مرض؟

- منذ أمس الأول. وأنا هنا منذ أمس. اعتمدي عليّ، يلينا نيقولايفنا. لن أبتعد عنه، وسنستخدم كل الوسائل. وإذا اقتضى الأمر استدعينا بعض الاطباء للتشاور.

صاحت وهي تلوي يديها:

- سيموت في غيابي.

- اعطيك عهداً بأن ابلغك كل يوم عن سير مرضه، وإذا نشأ خطر

فعلي...

- احلف لي بأنك سترسل عليّ في الحال، في أي وقت كان، نهاراً أو

ليلاً، اكتب مذكرة لي رأساً... كل شيء سواء لدي الآن. هل تسمعني؟

هل تعد بأن تفعل ذلك؟

- أعدك، أمام الله.

- احلف.

- احلف.

وفجأة امسكت يده، وقبل أن يلحق ليسحبها، وقعت عليها بشفتيها.

تمتم:

- يلينا نيقولايفنا... ما هذا منك.

نطق اينساروف بصوت غير واضح:

- لا... لا... لا حاجة...

وزفر زفرة ثقيلة.

اقتربت يلينا من البرافان، وعضت المنديل باسنانها، وحدثت في

المرضى فترة طويلة. وسالت دموع صامته على خديها.

قال لها بير سينيف:

- يلينا نيقولايفنا، قد يعود إلى وعيه، ويعرفك، والله يعلم ماذا سيسفر

عن ذلك. وبالإضافة أنا أتوقع مجيء الطبيب من ساعة إلى أخرى.

تناولت يلينا القبعة من الاريكه، ولبستها، وتوقفت. وطوفت عيناها

في ارجاء الحجره بأسى. والظاهر أنها تذكرت شيئاً...

وأخيراً همست:

- لا أستطيع أن اخرج.

ضغط بيرسينيف على يدها، وقال:

- استجمعي قواك، واهدئي. أنت تتركينه في رعايتي. واليوم مساء

سأجيئ إليك.

نظرت يلينا إليه وقالت: "أوه، يا صديقي الطيب!" واجهشت باكية،

وانصرفت مسرعة.

اتكأ بيرسينيف على الباب. وعصر قلبه شعور كئيب ومرير لا يخلو من

فرحة غريبة. وفكر: "صديقي الطيب"، وهز كتفيه.

تردد صوت اينساروف:

- من هنا؟

اقرب بيرسينيف منه:

- أنا هنا، يا دميتري نيكانوروفيتش. ماذا تحتاج؟ كيف حالك؟

سأل المريض:

- لوحدك؟

- لوحدتي.

- وهي؟

قال بيرسينيف كالمذعور:

- مَنْ هي؟

صمت اينساروف.

- البليحاء العطرية.

همس، وانغلقت عيناه من جديد.

كان اينساروف ثمانية أيام بلياليها بين الموت والحياة. وكان الطبيب يتردد دائماً مهتماً كشاب بحالة متعسرة. وسمع شوبين عن حالة اينساروف الخطرة، وزاره، كما زاره أبناء وطنه، البلغار، وعرف بيرسينيف من بينهم الشخصين الغريبين اللذين أثارا استغرابه بزيارتهما المفاجئة لاينساروف في البيت الريفي، وكان الجميع يظهرون عطفهم الصادق، واقترح بعضهم على بيرسينيف أن يحل محله في ملازمة سرير المريض، ولكنه لم يوافق متذكراً وعده ليلينا. وكان يراها كل يوم، وينقل لها خلسة - شفاهاً أحياناً، وفي مذكرة صغيرة أحياناً أخرى - كل دقائق سير المرض. كانت تنتظره واجمة القلب، وتصغي إليه، ومطره بالاسئلة بلهفة! وكانت طوال الوقت تريد أن تزور اينساروف، ولكن بيرسينيف يتوسل إليها أن لا تفعل ذلك لأن اينساروف نادراً ما يكون وحده. وفي اليوم الأول، الذي عرفت فيه بمرضه، كادت هي الأخرى أن تقع عليه. حالما عادت أغلقت عليها باب حجرتها. ولكنها دعيت لتناول الغداء، فجاءت إلى غرفة الطعام بوجه اربع فاسيليفنا، فأرادت هذه أن تجبرها على ملازمة السرير. إلا أن يلينا استطاعت أن تغلب نفسها. وكانت تقول لنفسها: "أن يموت فسأمت أنا أيضاً". وهدأتها هذه الفكرة، ومدتها بالقوة لأن تبدو غير مكترثة. وعلى العموم لم يزعجها أحد كثيراً. كانت أنا فاسيليفنا مشغولة بخراجاتها. وكان شوبين منكباً على عمله بحماس، وابدت زويا سوداوية، وتهيات لتقرأ "آلام فرتر". وكان نيقولاى ارتيميفيتش منزعجاً جداً من زيارات "الطالب" المتكررة، لا سيما وأن "مخططاته" بشأن كورناتوفسكي لم تتقدم كثيراً. فقد كان السكرتير الأول العملي هذا في حيرة من امره، يترقب. ولم تشكر يلينا بيرسينيف، فأن هناك خدمات يخجل المرء ويرتعب من شكر صاحبها. وفي زيارة بيرسينيف الرابعة فقد (وكان اينساروف قد قضى ليلة سيئة جداً، ولمح الطبيب إلى وجوب

استدعاء بعض الاطباء للتشاور) ذكرته بالقسم الذي اقسمه. عندئذ قال لها ”حسناً، لنذهب، في هذه الحال“ ونهضت، وذهبت لترتدي ملابس الخروج، إلا أنه قال: ”لا، لنتنظر حتى الغد“. وفي المساء حفت وطأة المرض على اينساروف.

استمر هذا التعذيب ثمانية أيام. وبدت يلينا هادئة، ولكنها لم تستطع أن تأكل شيئاً، ولم تنم في الليالي، طغى على اطرافها كلها ألم ممض، وبدا وكأن دخاناً ساخناً يملأ رأسها. وكانت خادمتها تقول عنها: ”سيدتنا الشابة تذوب كالشمعة“.

وأخيراً حدث التحول في اليوم التاسع. كانت يلينا تجلس في حجرة الجلوس قرب آنا فاسيليفنا، تطالع جريدة ”موسكوفسكيه فيدوموستي“ دون أن تعي شيئاً. ودخل بيرسينيف. ونظرت يلينا إليه (وكم كانت سريعة ومتخوفة ونافذة وقلقة تلك النظرة الأولى التي تحدج بهما في كل مرة!) ولكنها حدست في الحال أنه جاء بخبر سار. كان يتسم، ويهز رأسه لها قليلاً. فنهضت للقياه. همس لها:

– افاق على نفسه. وزال الخطر عنه. وبعد اسبوع سيكون متعافياً تماماً.

مدّت يلينا ذراعيها، وكأنها تصد ضربة، ولم تقل شيئاً. سوى أن شفتيها ارتعشتا، وشاعت الحمرة في كل وجهها. أخذ بيرسينيف يتحدث إلى آنا فاسيليفنا، بينما ذهبت يلينا إلى حجرتها، وركعت، وراحت تصلي، تحمد الله على عقباه... وسالت من عينيها دموع خفيفة وضاءة. وفجأة احست بوصب تام، فأرخت رأسها على الوسادة، وهمست ”يا اندريه بيتروفيتش المسكين!“ وغفت على الفور، مبللة رموشها وخديها. ولم تكن قد نامت ولم تبتك منذ زمن طويل.

لم تتحقق كلمات بيرسينيف إلا جزئياً. زال الخطر، ولكن اينساروف كان يستعيد قواه ببطء، وكان الطبيب يتحدث عن الهزة العميقة الشاملة التي اصابت كيانه كله. ومع كل هذا فقد غادر المريض فراشه، وصار يسير في الحجرة. وكان بيرسينيف قد انتقل إلى مسكنه، ولكنه كان يزور كل يوم صديقه الذي ما يزال واهناً، ويبلغ يلينا عن حالته الصحية كل يوم، كما كان يفعل في السابق. وكان اينساروف لا يجسر على الكتابة إليها، سوى أنه كان يلمح إليها بشكل عابر في احاديثه مع بيرسينيف، وكان هذا يحدثه، بلا مبالاة مصطنعة، عن زيارته لآل ستاخوف، محاولاً في الوقت ذاته، أن يدعه يعلم بأن يلينا كانت في غم شديد، وأنها الآن قد اطمأنت. كما أن يلينا لم تكتب لاينساروف، فقد كان يشغل ذهنها شيء آخر.

ذات مرة وكان بيرسينيف قد ابلغها لتوه والمرح باد على وجهه بأن الطبيب سمح لاينساروف بأن يأكل كفتة، ومن المحتمل أنه سيخرج عما قريب، استغرقت يلينا في التفكير، واطرقت برأسها... وقالت:

- احدهس ماذا اريد أن اقول لك.

ارتبك بيرسينيف. لقد فهمها. نظر في ناحية واجاب:

- لعلك تريدان أن تقولي لي أنك ترغين في رؤيته.

احمرت يلينا، وقالت بصوت لا يكاد يسمع:

- نعم.

- وليكن. اعتقد أن ذلك سهل عليك جداً.

وقال في سره: "أوف! أي شعور مفرز يجثم على قلبي!"

قالت يلينا:

- تريد أن تقول أنني من قبل أيضاً... ولكنني أخاف. فأنت تقول أنه الآن نادراً ما يكون لوحده.

قال بيرسينيف، وهو ما يزال يتحاشى النظر إليها:

- ليس من الصعب مساعدتك في ذلك. بالطبع، لا أستطيع أن اعلمه مسبقاً، ولكن اعطيني مذكرة. فمن يستطيع أن يمنعك من الكتابة إليه، كواحد من معارفك القريين، تهتمين بمصيره؟ لا شيء يلام عليه في هذه الكتابة. حددي له... اقصد اكتبي له متى ستورينه...

همست يلينا:

- أنا خجلة.

- اعطيني المذكرة، وسأحملها إليه.

- لا حاجة إلى ذلك. ولكن اردت أن أطلب إليك... لا تغضب عليّ، اندريه بيتروفيتش... لا تذهب إليه غداً.

عض بيرسينيف على شفته.

- أها! نعم، فهمت، حسن جداً، حسن جداً.

وبعد أن اضاف كلمتين أو ثلاثاً، خرج بسرعة.

وراح يفكر، وهو يسرع إلى بيته: "هذا أفضل، أفضل. لم اعرف شيئاً جديداً، ومع ذلك افضل. فما حاجتي إلى أن اتشبت بطرف عش لا يخصني؟ لقد فعلت ما املاه ضميري، دون أن اندم على شيء. والآن كفى. هما وشأنهما! كان أبي على حق، حين كان يقول لي: "أنا وأنت، يا اخ، لسنا مترفين ولا ارسقراطيين، ولا مَن حباهم القدر والطبيعة، ولا حتى شهيدين، بل نحن كادحان، ولا أكثر من كادحين. فالبس مشزرك الجلدي، أيها الكادح، والزم مكانك وراء الدكة، في مشغلك

المظلم! واترك الشمس تضيئ للآخرين! فأن لحياتنا الكالحة فخرها أيضاً،
وسعادتها!“.

في صباح اليوم التالي تلقى اينساروف عن طريق بريد المدينة مذكرة
قصيرة كتبت يلينا فيها له: ”انتظرنى، واطلب أن لا يُدخَل عليك أحد. أما
أ.ب. فلن يأتي“.

٢٨

قرأ اينساروف مذكرة يلينا، وأخذ على الفور يرتب حجرته، وطلب
من ربة البيت أن تخرج قارورات الدواء، وخلع روبه البيتي، ولبس سترته.
كان رأسه يدور وقلبه يخفق ضعفاً وفرحاً. وتراخت رجلاه، فجلس على
الاريكة، وأخذ ينظر في الساعة. قال لنفسه: ”الساعة الآن الثانية عشرة
إلا ربعاً. ولا يمكنها أبداً أن تأتي قبل الثانية عشرة، فلأفكر في شيء آخر
خلال ربع الساعة هذا. وإلا فلن أتحمّل. لا يمكنها أبداً أن تأتي قبل الثانية
عشرة...“.

وانفتح الباب، ودخلت يلينا مع الحفيف الخفيف من ثوبها الحريري،
شاحبة مماماً، نضرة كلياً، فتية، سعيدة، وارتمت على صدره بصيحة فرح
ضعيفة. وقالت، وهي تعانقه، وتداعب رأسه:

– أنت حي، أنت لي.

وجمد كلية، واحتبست انفاسه من قربها منه، ومن ملامساتها له،
ومن هذه السعادة.

جلست بالقرب منه، وانكمشت عليه، وراحت تمدق فيه بتلك النظرة
الضاحكة الناعمة الحنون، التي لا تتألق إلا في عيون العاشقات.

وعلا وجهها مفاجئ، وقالت وهي تمرر يدها على خده:

- كم نحلت، يا مسكيني دميتري! واية لحية لك!

اجابها وهو يمس اصابعها بشفتيه:

- وانت أيضاً، نحفت، يا مسكيتي يلينا.

هزت خصلاتها بمرح.

- لا بأس. ستري كيف سنمتلي! صحة! هبت عاصفة، كما في ذلك

اليوم الذي التقينا فيه في الصومعة. هبت وانقضت. والآن سنعيش!

لم يجبها إلا بابتسامة.

- آه، يا دميتري، أية أيام، أية أيام قاسية! كيف يستطيع الناس أن يعيشوا

أطول من الذين يحبونهم؟ والحق أنني كنت اعرف مسبقاً ما سيقوله اندريه

بيتروفيتش كل مرة. فقد كانت حياتي تهبط وترتفع مع حياتك. حُييت، يا

عزيري دميتري!

ولم يعرف ماذا يقول لها. كان يود لو يركع على قدميها. استطردت،

وهي تدفع شعره إلى الورا:

- ولاحظت أيضاً (خرجت بالكثير من الملاحظات، طوال هذه المدة،

أثناء فراغي) عندما يكون الإنسان تعيساً جداً، جداً، ينتبه بعمق إلى كل ما

يجري حوله! أحياناً، إذا أردت الحقيقة، كنت أتمعن في ذبابة، بينما تسري

في روحي برودة ورعب! ولكن كل ذلك ولى وانقضى. أليس كذلك؟

وكل شيء نير مستقبلاً. أليس كذلك؟

أجاب اينساروف:

- أنت لي مستقبلاً، فكل شيء نير في وجهي.

- وانت لي أيضاً! أتذكر عندما كنت عندك، ليس في المرة الأخيرة، لا،

ليس في المرة الأخيرة - كررت في ارتعاش لا ارادية - عندما كنا نتحدث

سوية، لا ادري لماذا خطر الموت على بالي، ولم أكن اتوجس بأنه كان

يترصد خطانا. ولكنك الآن معافى، أليس كذلك؟

- أحس بتحسّن شديد، معافى تقريباً.

- أنت معافى، ولم تمت. آه، ما أسعدني!

وساد صمت قصير. ناداها اينساروف متسائلاً:

- يلينا؟

- ماذا، يا عزيزي؟

- قولي لي، ألم يخطر في ذهنك أن هذا المرض جاء عقاباً لنا؟

نظرت يلينا إليه نظرة جادة:

- خطرت لي هذه الفكرة، يا دميتري. غير أنني فكرت على أي شيء

أعاقب؟ وبأي واجب فزطت، وبحق أي شيء أجرمت؟ ربما لم يكن

ضميري كضمائر الآخرين، ولكنه لم يحاسبني، أو ربما كنت مذنباً أزاءك؟

فأنا ساعيقك، اوقفك...

- أنت لن توقيني، يلينا، سنسير سوية.

- نعم، دميتري، سنسير سوية، سأسير وراءك... ذلك واجبي. أنا

أحبك، ولا اعرف واجباً آخر.

قال اينساروف:

- آه، يلينا! بأية سلاسل لا تقهر تطوقني كل كلمة تقولينها!

فانبرت تقول:

- ولم تقول سلاسل؟ نحن أحرار، أنت وأنا. أجل - مضت تقول،

ناظرة، في سهوم إلى الأرض، وهي تسوي شعره بيد واحدة، كالسابق -

ذقت في المدة الأخيرة، الكثير مما لم تكن لي أية فكرة عنه من قبل. لو أن

أحدًا تكهن لي في الماضي بأنني، أنا المهذبة الحسنة التربية من عائلة الاسياد

سأخرج لوحدي من البيت بذرائع مختلفة مختلفة، وإلى أين؟ إلى شاب في مسكنه، لاحسست بحنق شديد! وكل هذا قد تحقق، ولم اشعر بأي حنق، وحق الرب!

قالت هذا والتفتت إلى اينساروف.

كان ينظر إليها بهناء عظيمة، حتى أنها أرخت يدها بهدوء وانزلتها من شعره إلى عينيه. وانشأت تقول:

- دميتري، أنت لا تعرف أنني رأيتك مطروحاً على ذلك السرير المريع، - رأيتك بين برائن الموت، فاقد الوعي...

- رأيتني؟

- نعم.

صمت لحظة.

- وبيرسينيف كان هنا؟

هزّت رأسها. انحنى اينساروف نحوها، وهمس:

- آه، يلينا! أنا لا اجسر على النظر إليك.

- ولماذا؟ اندريه بيتروفيتش طيب جداً، ولم اخجل منه. ولماذا اخجل؟ أنا مستعدة لأن اعلن للدنيا كلها بأنني لك... وأنا اثق باندرية بيتروفيتش، كأخ.

هتف اينساروف:

- هو الذي انقذني. أنه انبل الناس خلقاً، واكثرهم طيبة!

- نعم... وهل تعرف أنني مدينة إليه بكل شيء؟ هل تعرف أنه هو أول من قال لي بأنك تحبني؟ ليتني أستطيع أن اكشف كل شيء... نعم، أنه انبل الناس خلقاً.

حدق اينساروف في يلينا بتفرس.

- أنه مغرم بك، أليس كذلك؟

قالت منكسة الرأس، خافتة الصوت:

- نعم، كان يحبني.

ضغط اينساروف على يدها بقوة وقال:

- أوه، أيها الروس، أن لكم قلوباً من ذهب! وكان يرعاني، ولم ينم

الليالي... وأنت، وأنت، يا ملاكي... لا تأنيب، ولا تردد، وكل ذلك لي،

لي...

- نعم، نعم، كل شيء لك، لأنني أحبك. آه، دميتري! ما اغرب

ذلك! بيدو لي أنني حدثتك بذلك من قبل، ومع هذا يطيب لي أن اكرره،

وسيطيب لك أيضاً سماعه. عندما رأيتك لأول مرة...

قاطعها اينساروف قائلاً:

- ولماذا الدموع في عينيك؟

- الدموع؟ في عيني؟ - ومسحت عينيها بالمنديل - أوه، ما احمقك!

أنت لا تعرف حتى الآن أن الناس تبكي من فرط السعادة. كنت أريد أن

اقول لك: عندما رأيتك لأول مرة، لم أجد فيك شيئاً يلفت النظر، حقاً.

أتذكر أن شوبين، في البداية، كان يروق لي أكثر منك بكثير، ولكنني لم

أحبه قط، أما اندريه بيتروفيتش، أوه! مرّت برهة فكرت فيها: ربما هو

سيكون من نصيبي؟ أما عنك فلم أفكر في شيء. ولكن، فيما بعد، فيما

بعد... أخذت قلبي بكلتا يديك.

قال اينساروف:

- اشفقي عليّ...

وأراد أن ينهض، ولكنه انهدأ على الأريكة في اللحظة التالية. سألته مهتمة:

- ماذا بك؟

- لا شيء... ما زلت ضعيفاً... وهذه السعادة ليست في حدود طاقتي الآن.

- اذن، اجلس بهدوء. لا تحرك، ولا تفعل - اضافت متوعدة أياه باصبعها: - ولماذا خلعت روبك البيتي؟ ما زال الوقت مبكراً لتتغندرا اجلس. وسأروي لك الحكايات. فاسمع، ولا تقل شيئاً. الكلام الكثير مضر لك بعد المرض...

وأخذت تحدّثه عن شوبين، وعن كورناتافسكي، وعمّا فعلته في الاسبوعين الاخيرين، وعن حتمية الحرب، حسب أقوال الصحف، وبالتالي سيتعين، حالما يسترد صحته تماماً، ايجاد السبل للسفر، دون تضييع الوقت... وكانت تقول كل ذلك، وهي جالسة إلى جانبه، مستندة إلى كتفه.

كان يسمعها ووجهه يشحب تارة ويحمر أخرى... وحاول أن يوقفها أكثر من مرة، ثم رفع جذعه فجأة. قال لها بصوت غريب حاد:

- اتركني، يلينا، واذهي.

فردت باندهاش:

- كيف؟ - ثم اضافت بسرعة - هل تحس بتوعك؟

- لا... أنا في حالة جيدة... ولكن اتركني، ارجوك.

- أنا لا افهمك... هل تطردني؟.. ما هذا الذي تفعله؟ - قالت فجأة،

وقد رآته ينزلق من الأريكة إلى الأرض تقريباً، ويمس قدميها بشفتيه: - لا تفعل ذلك، دميتري... دميتري...

رفع جسمه عن الأرض.

- اتر كيني، اذن! عندما وقعت مريضاً، لم افقد الوعي رأساً، وكنت أحس بأنني على شفا الموت، حتى وأنا في وهج الحمى، في حالة الهذيان، كنت ادرك، أشعر بشكل مبهم بأن الموت مقبل عليّ، فأخذت أودع الحياة، اودعك، اودع كل شيء، وتخلّيت عن الأمل... وفجأةً يأتيني هذا البعث، هذا النور بعد الظلمة، أنت... أنت بالقرب مني في حجرتي... صوتك، انفاسك... هذا أكثر مما تتحمله قواي! أشعر بأنني أحبك بدنّف، واسمعك تقولين أنك لي، أنا لا اتحمل هذا... اخرجني!

- دميتري...

همست يلينا، وخبأت رأسها في كتفه. الآن فقط فهمته. ومضى اينساروف يقول:

- يلينا، أحبك، وأنت تعرفين ذلك، وأنا مستعد إلى التخلي عن حياتي فداء لك... لم جئت إلى اليوم، وأنا واهن القوى، ولا أستطيع السيطرة على نفسي، ودمي كله يحترق... تقولين أنت لي... أنت تحبينني...
- دميتري.

عادت تناديه، واحمرت كلية، وانكلمت عليه أكثر.

- يجب أن تشفقي عليّ، وتخرجني، يلينا... أنا أشعر، بأن من الممكن أن اموت... لا أتحمّل هذه السورات... روعي كلها تصبو إليك... فكري في أن الموت كاد يفرق بيننا... والآن، أنت هنا، في أحضاني...
يلينا...

وأخذت تهتز بكل جسدها. وهمست بصوت لا تكاد يسمع:

- خذني، اذن...

كان نيقولاي ارتيميفيتش مقطب الحاجبين يتمشى في مكتبه جيئة وذهوباً. وكان شوبين يجلس عند النافذة، ويدخن سيغاراً بهدوء، واضعاً رجلاً على رجل. وقال وهو ينفض رماد السيغار:

- ارجوك، كَفَّ عن الرواح والمجسيء. طول الوقت اتوقع أن تتكلم، وراقب حركاتك، حتى أن رقبتي اخذت تؤلمني، فضلاً عن أن في مشيتك شيئاً متوتراً ميلودرامياً.

أجابه نيقولاي ارتيميفيتش:

- لا شيء لك غير المزاح. أنت لا تريد أن تفهم وضعي، لا تريد أن تفهم أنني تعودت على تلك المرأة، وارتبطت بها وأن غيابها أخيراً يعذبني لا محالة. ها هو تشرين الأول والشتاء على الابواب... فماذا يمكن أن تفعل في بقائها هذه المدة في ريفيل؟

- ربما تحوك جورباً لها، لنفسها، لا لك.

- اهزل، اهزل، ولكنني أقول لك أنني لا أعرف امرأة مثلها قط في النقاء والنزاهة...

فسأله شوبين:

- هل أعطت سندا يكفل دفع ما يترتب على ذلك؟

كرر نيقولاي ارتيميفيتش رافعاً صوته:

- هذه النزاهة شيء مذهل. يقولون لي أن في العالم مليون امرأة أخرى، فأقول لهم: دلوني أين هذا المليون. ودلوني أين هذا المليون، ودلوني أين

هذا المليون أقول^(٤١) Ces femmes – qu'on me les montre! والذي
يقتل أنها لا تكتب!

قال شوبين:

– أنت بليغ اللسان، مثل فيثاغورس. ولكن هل تدري بماذا انصحك؟
– بماذا؟

– حين تعود افغوستينا خريستيانوفنا... اتفهمني؟

– أي نعم، وبعد؟

– حين تراها... هل تلاحظ تطور افكاري؟

– أي، نعم، نعم.

– حاول أن تضربها، لتعرف ماذا يحصل من ذلك؟

استدار نيقولاي ارتيميفيتش بسخط.

– ظننت أن سيقدم لي، بالفعل، نصيحة مجدية. ولكن ماذا تتوقع منه!
فنان، إنسان بلا اصول...

– بلا أصول! ويقال أن محبوبك السيد كورناتوفسكي إنسان صاحب
أصول، ربح منك يوم امس مائة روبل فضي. وهذا عمل غير لائق، ارجو
أن توافقني على ذلك.

– وماذا في ذلك؟ كنا نلعب للربح. بالطبع، كان من الممكن أن
اتوقع... ولكنه لا يُقدَّر في هذا البيت كثيرًا...

سارع شوبين ليقول:

(٤١) دعهم يدلونني على هؤلاء النساء! (بالفرنسية في الأصل).

- حيث راح يفكر: "مَنْ يدري! هل سيكون نسبي أم لا، فذلك رهن بالاقدار، ولكن المائة روبل تنفع لرجل لا يأخذ رشوة".

- نسيب! أي نسيب أنا؟^(٤٢) Vous rêvez، mon oher، بالطبع، مثل هذا الخطيب كان من الممكن أن يكون مسيرة لكل فتاة أخرى. حكّم نفسك: أنه إنسان نشيط، ذكي، عصامي ارتقى بنفسه، كان يعمل في وظيفة في ولايتين...

قال شوبين:

- في ولاية... كان يضلل الحاكم.

- من المحتمل جداً. وهذا، في الظاهر، ما كان ينبغي أن يفعل. أنه واقعي، رجل عمل...

فعاد شوبين يقول:

- ويجيد لعب الورق.

- اي نعم، ويجيد لعب الورق. ولكن يلينا نيقولايفنا... هل ممكن فهمها حقاً؟ أود أن اعرف أين ذلك الرجل الذي يستطيع أن يفهم ما تريد؟ مرحلة تارة، وضجرة أخرى، تنحف فجأة بحيث لا تقوى على النظر إليها، ثم وإذا بها تصح، وكل ذلك بدون أي سبب ظاهر...

دخل خادم دميم يحمل على صينية فنجان قهوة وطاسة من الحليب وبقسماتاً.

ومضى نيقولاي ارتيميفيتش يقول ملوحاً بقسماتة:

- الاب معجب بالخطيب، والابنة لا تعير التفاتاً لذلك! كان الأمر

(٤٢) أنت تهدي، يا عزيزي (بالفرنسية في الأصل).

مضبوطاً في الازمنة البطريقية السالفة، أما الآن فقد غيرنا كل شيء
Nous avons change tout ça^(٤٣). الآنسة الآن تتحدث إلى كل من
يطيب لها، وتقرأ كل ما يطيب لها، تطوف وحدها في موسكو، بدون
خادم، ولا وصيفة، كما في باريس. وكل ذلك مقبول. قبل أيام سألت:
أين يلينا نيقولايفنا؟ فقيل لي: أنها خرجت. إلى أين؟ لا أحد يعرف. هل
هذا هو النظام؟

قال شوبين:

- خذ الفنجان. وارك الخادم يذهب - ثم اضااف بصوت خافض -
أنت نفسك تقول لا يجوز^(٤٤) devant les domestiques.

نظر الخادم إلى شوبين من طرف عينه، وتناول نيقولاوي ارتيميفيتش
الفنجان، وضااف شيئاً من الحليب، وغرف زهاء عشر بقسماطات.
وحالما خرج الخادم أخذ يقول:

- أردت أن أقول أن لا أهمية لي في هذا البيت. وهذا كل ما في الأمر.
لأن الناس في عهدنا لا يحكمون إلا بالمظاهر. فإذا رأوا شخصاً يشمخ
بنفسه احترامه، وأن كان فارغاً احمق. أما صاحب المواهب، الذي ربما
يجلب النفع العميم، فأنهم لتواضعه...

سأله شوبين بصوت نحيل:

- هل أنت رجل دولة، يا صغيري نيقولاوي؟

هتف نيقولاوي ارتيميفيتش مهتاجاً:

(٤٣) فقد غيرنا بكل شيء. (بالفرنسية في الأصل).

(٤٤) أمام الخدم (بالفرنسية في الأصل).

- كفاك مسخرة! أنت تتجاوز حدك! هذا شاهد آخر على أنني لا أعني شيئاً في هذا البيت، لا شيء على الإطلاق!
قال شوبين متمطياً جذعه:

- آنا فاسيليفنا تضيق عليك!.. يا للمسكين! آه، يا نيقولاي ارتيميفيتش، عيب علينا أنا وأنت! كان من الأفضل أن تهنيء هدية ما لآنا فاسيليفنا. فسيحل عيد ميلادها بعد أيام، وأنت تعرف أنها تعتز بأبي اهتمام صغير يبدى من جانبك.

اسرع نيقولاي ارتيميفيتش ليقول:

- نعم. نعم. شكراً جزيلاً على تذكيرك لي. بالطبع، بالطبع، من كل بد. عندي شيء لا بأس به، قلادة اشتريتها من محل روزينشتر اوخ قبل أيام، ولكن لست ادري، هل ستناسبها؟

- لكنك اشتريتها لتلك التي تعيش في ريفيل؟

- أقصد.. أنا... نعم... كنت اتصور...

- في هذه الحال ستصلح بالتأكيد.

نهض شوبين من مقعده، فسأله نيقولاي ارتيميفيتش محققاً في عينيه بلطف:

- أين سنقضي المساء، يا بافل ياكوفليفيتش؟ ها؟

- ولكنك ستذهب إلى النادي.

- بعد النادي... بعد النادي.

تمطي شوبين مرة أخرى.

- لا، يا نيقولاي ارتيميفيتش، عليّ أن اعمل في الغد. في مرة أخرى.

وخرج.

تعبس نيقولاى ارتيميفيتش، وذرع الحجره مرة أو مرتين، واخرج من مكتبه علبه مخمليه فيها "القلاده"، وتمعن فيها طويلاً، ومسحها بمنديل حريري. ثم جلس إلى المرآة، وراح يمشط شعره الاسود الكثيف بعناية، مميلاً رأسه بعظمة تارة إلى اليمين، وتارة إلى الشمال، ممطياً خده بطرف لسانه، دون أن يصرف بصره عن مفرق الشعر. سعل احد وراء ظهره. التفت فرأى الخادم الذي جاءه بالقهوة. سأله:

- لم أنت هنا؟

قال الخادم بنبرة فيها شيء من المهابة:

- نيقولاى ارتيميفيتش! أنت سيدنا!

- اعرف، وماذا بعد؟

- نيقولاى ارتيميفيتش، ارجو إلا تغضب عليّ. أنا الذي اخدم سيادتك، منذ الصغر، اقصد من واجبي كعبد لك أن اخبر سيادتك...

- ولكن ماذا في الأمر؟

راوح الخادم في مكانه، وقال:

- سمعت سيادتك تقول أنك لا تعرف إلى أين تذهب يلينا نيقولايفنا. ولكنني صرت أعرف إلى أين.

- أعلك تكذب، أيها الأحمق؟!

- أنا رهن ارادتك، ولكنني منذ أربعة أيام وأنا أراها تدخل في بيت غريب.

- أين؟ كيف؟ في أي بيت؟

- في زقاق... قرب شارع بوفارسىكا. غير بعيد عن هنا. وقد سألت البواب عن الذين يسكنون البيت.

ضرب نيقولاي ارتيميفيتش الأرض بقدميه:

- اسكت، أيها الارعن! كيف تجسر على ذلك؟ يلينا نيقولاي فإنا تزور
المساكن لأن قلبها طيب. وها أنت... اخرج، أيها الأحمق!

اندفع الخادم نحو الباب مرعوباً. وهتف نيقولاي ارتيميفيتش:

- توقف! ماذا قال لك البواب؟

- لا... لم يقل شيئاً... يقول أنه... طا... لب...!

- اسكت، أيها الارعن! اسمع، يا وغد، حذار أن تقول شيئاً عن
ذلك، حتى في منامك...

- ارجو المذرة...

- اسكت! حتى لو أنك المحت... لو أن أحداً... لو أعرف... لن

تختفي عني ولو تحت الأرض! هل أنت سامع؟ اغرب عن وجهي!
واختفي الخادم.

وفكر نيقولاي ارتيميفيتش حين بقي وحيداً:

”يا رب، يا إلهي! ما يعني هذا؟ ماذا قال لي هذا الأحمق؟ ها؟ على
كل حال، يجب أن اعرف أين هذا البيت، ومن يعيش فيه. اذهب بنفسي.
إلى هذه الحال وصل الأمر، أخيراً...“^(٤٥) ... Un laquais! Quelle
humiliation!“.

وكرر ”Un laquais!“ بصوت عال، واغلق المكتب على القلادة،
وذهب إلى آنا فاسيليفنا. فوجدها في السرير، معصوبة الخد. ولكن
مظهرها المعذب لم يزد إلا حنقاً، وبعد وقت قصير جداً جعلها تبكي.

(٤٥) خادم! أي احتقار! (بالفرنسية في الأصل).



وفي غضون ذلك انفجرت الزوبعة التي كانت تتجمع في الشرق، وعلنت تركيا الحرب على روسيا. وانتهى الموعد الذي حدد للجلاء عن الامارتين، ولم يكن يوم الهزيمة في سينوب بعيداً. وكانت الرسائل الأخيرة التي تسلمها اينساروف تدعوه إلى المجيء إلى الوطن بالحاح. وصحته ما تزال معتلة. كان يسعل، ويشعر بوهن، وبنوبات خفيفة من الحمى. ولكن لم يكن يستقر في بيته تقريباً. كانت نفسه تلتهب، فلم يعد يفكر في المرض. وكان يتنقل في موسكو باستمرار، ويجتمع خلسة باشخاص مختلفين، ويكتب في ليال بطولها، ويغيب نهارات كاملة، وابلغ صاحب البيت بأنه سيرك البيت قريباً، واهدى له مسبقاً أثاثه البسيط. كما كانت يلينا تنهياً للسفر من جانبها. وفي إحدى الامسيات المطرة كانت جالسة في حجرتها، تخطط الحواشي لمناديلها، وتستمع إلى عويل الريح بجزع لا ارادي. دخلت خادمتها، وابلغتها بأن اباها يدعوها إلى مخدع أمها. وهمست لها، وهي تغادر حجرتها: "ماما تبكي، وبابا حانق..."

هزت يلينا كتفيها هزاً خفيفاً، ودخلت إلى مخدع آنا فاسيليفنا. كانت عقيلة نيقولاي ارتميفيتش الطيبة هذه تستلقي نصف استلقاء على مقعد مسرح، وتشم مندبلاً فيه رائحة كولونيا، بينما كان أبوها يقف عند موقد الحائط مزرراً سترته بكاملها في ياقة منشاة جيداً، ويرباط صلب عالٍ، في هيئة تذكر بعض الشيء بخطيب برلماني. أشار لابنته بحركة خطابية من يده إلى مقعد، وحينما نظرت ابنته إليه نظرة متسائلة، وهي لم تفهم اشارته، قال، معهابة، ولكن دون أن يدير رأسه: "تفضلن، اجلسن" (ونيقولاي ارتميفيتش يخاطب زوجته دائماً بضمير الجماعة، وابنته بهذا الضمير في الحالات الاستثنائية).

جلست يلينا.

مخطت أنا فاسيليفنا بعيرة في الصوت. ووضع نيقولاي ارتيميفيتش يده اليمنى وراء طية سترته الفراك. وبعد صمت مطول قال:

- استدعيتك^(٤٦)، يلينا نيقولاييفنا لكي استفسر منك، أو بالأحرى، لكي اطالبك باستيضاح. أنا غير راض عنك، أو، لا، هذا خفيف جداً، أن سلوكك يعني كثيراً، يسيء الي وإلى أمك أيضاً... أمك التي تربتها هنا. وأطلق نيقولاي ارتيميفيتش نبرات صوته الجهيرة وحدها. نظرت يلينا إليه صامته، ثم إلى أنا فاسيليفنا، وشحبت.

ومضى نيقولاي ارتيميفيتش يقول:

- كان هناك حين من الدهر لم تكن فيه البنات ينظرن إلى والديهن باستعلاء، وكانت سلطة الوالدين تجعل العاصيات يرتجفن. وقد ولى ذلك العهد، مع الاسف، أو هذا، على أقل تقدير، ما يظنه الكثيرون، ولكن ما تزال هناك قوانين، وارجو أن تصدقيني، لا تبيح... لا تبيح... باختصار ما تزال توجد قوانين. وارجو أن تنتهي إلى ذلك، توجد قوانين.

قالت يلينا:

- ولكن، يا بابا...

- ارجو ألا تقاطعيني. لنعد باذهاننا إلى الماضي... لقد قمنا، أنا وأنا فاسيليفنا، بواجبنا. لم نبخل، أنا وأنا فاسيليفنا بشيء لتعليمك، لا من ناحية المصروفات ولا من ناحية الاهتمام. مسألة أخرى ماذا حصلت من كل هذه المصروفات وهذه الاهتمامات. ولكن كان لي الحق أن اتصور... كان لي ولأنا فاسيليفنا الحق في أن نتصور أنك ستحافظين بقدسية على

(٤٦) الضمائر في النص للجماعة، ولكنها حذفت لتخفيف النطق. المترجم.

تلك القواعد الأخلاقية^(٤٧) que nous vous avons inculqués كأبنة
وحيدة لنا... كان لنا الحق في التصور بأن اية "افكار" جديدة لن تمس
هذا الحرم المقدس. فماذا حصل؟ لم أعد أتحدث عن الطيش المتميز بها
جنسك، وعمرك... ولكن من كان يتوقع أنك تفقدين صوابك إلى هذا
الحد...

قالت يلينا:

- بابا، أنا اعرف ماذا تريد أن تقول...

- كلا، أنت لا تعرفين ماذا اريد أن اقول! - هتف نيقولاوي ارتميفيتش
بصوت رفيع، وتحول فجأة عن عظمة القيافة البرلمانية، ومهابة الكلام
المسترسل، والنبرات الجهيرة الرنين - أنت لا تعرفين، أيتها الفتاة الجسور!
غمغمت أنا فاسيليفنا:

- Nicolas بحق الرب،^(٤٨) Vous me faites mourir، .

- لا تقولي لي^(٤٩) que je vous fais mourir أنا فاسيليفنا. أنت لن
تتصورني ماذا ستسمعين الآن. هيئي نفسك لأن تسمعي أسوأ من ذلك،
دعيني أحذرك!

فتهافتت أنا فاسيليفنا مسترخية. وخاطب نيقولاوي ارتميفيتش ابنته:
- لا، أنت لا تعرفين ماذا اريد أن اقول.

قالت:

(٤٧) التي دخلناها في ذهنك (بالفرنسية في الأصل).

(٤٨) أنت تقتلني (بالفرنسية في الأصل).

(٤٩) أنتي اقتلك (بالفرنسية في الأصل).

- أنا مقصرة ازاءكما...

- أخيراً، اذن!

مضت يلينا تقول:

- أنا مقصرة ازاءكما. لأنني لم اعترف منذ زمان...

قاطعها نيقولاى ارتميفيتش:

- ولكن هل تعرفين أنني استطيع أن اقضي عليك بكلمة واحدة؟

رفعت يلينا بصرها إليه.

- نعم، يا سيدتي، بكلمة واحدة! فلا توجهي الي هذه النظرة!

(وصالب يديه على صدره) اسمحي لي بأن اسألك هل تعرفين البيت في

زقاق... قرب شارع بوفارسكيا؟ وهل كنت تردددين على هذا البيت؟

(ضرب الأرض بقدمه) اجيبي، أيتها السائبة، ولا تحاولي التملص! الخدم،

الخدم يا سيدتي ^(٥٠) des vils laquais رأوك تدخلين هناك إلى صاحبك...

احمرت يلينا، والتمعت عيناها. قالت:

- لا شيء أحاول التملص منه. نعم، كنت أتردد على هذا البيت.

- رائع، هل تسمعين يا آنا فاسيليفنا؟ ومن المحتمل أنك تعرفين من

يسكن هذا البيت؟

- نعم، اعرف، أنه زوجي...

بحلق نيقولاى ارتميفيتش عينيه.

- زوجك...

(٥٠) الخدم الحقراء (بالفرنسية في الأصل).

كررت يلينا:

- زوجي. لقد تزوجت ديمتري نيكانوروفيتش اينساروف.

قالت آنا فاسيليفنا بجهد وبصوت لا يكاد يسمع:

- أنت؟ تزوجت؟

- نعم، ماما... اعذريني... تزوجنا قبل اسبوعين، سرأ.

استلقت آنا فاسيليفنا على ظهر الكرسي، وتراجع نيقولاي ارتيميفيتش

خطوتين.

- تزوجت! تزوجت ذلك الجبلي الأسود الفقير! ابنة النبيل العريق

نيقولاي ستاخوف تزوجت صعلوكاً، لا أصل له ولا فصل! دون مباركة

الابوين! وتظنين أنني سأتركك وحالك؟ ولا أرفع شكوى؟ واسمع

لك... وأنتك... أن... سادخلك إلى الدير، وارسله هو إلى الأعمال

الشاقة، إلى فرق السجناء! آنا فاسيليفنا قولي لها الآن من فضلك أنك

ستحرمينها من الميراث.

قالت آنا فاسيليفنا والائين في نبرة صوتها:

- نيقولاي ارتيميفيتش، بحق الرب.

- متى وبأية صورة تم ذلك؟ من عقد قرانك؟ أين؟ كيف؟ يا الهي!

ماذا سيقول الآن معارفي كلهم، الدنيا كلها. وأنت، أيتها المتصنعة العديمة

الحياء استطعت أن تعيشي في كنف والديك بعد هذه الفعلة! ولم تخافي

غضب السماء؟

- بابا - قالت يلينا (وكانت ترتعش من رأسها إلى قدميها، ولكن

صوتها كان متماسكاً) افعل بي ما تشاء، ولكن لا مبرر لك في اتهامي

بعدم الحياء والتصنع. لم أرد أن اكدركما قبل الاوان، ولكنني كنت

سأضطر إلى ابلاغكما عن كل شيء خلال أيام، لأننا عزمنا على الرحيل أنا

وزوجي في الاسبوع القادم.

- ترحلون؟ إلى أين؟

- إلى وطنه، إلى بلغاريا.

- إلى الأترك!

هتفت أنا فاسيليفنا، وفقدت الوعي.

اندفعت يلينا إلى أمها.

- ابتعدي! - صرخ نيقولاي ارتيميفيتش، وامسك ابنته من يدها -

ابتعدي، أيتها العاقبة!

ولكن باب المخدع فتح في تلك اللحظة، واطل رأس شاحب الوجه

ذو عينين لامعتين. كان ذلك رأس شوبين. صرخ بأعلى صوته:

- نيقولاي ارتيميفيتش! افغوستينا خريستيانوفنا وصلت وهي تدعوك

إيها!

التفت نيقولاي ارتيميفيتش بجنون، وتوعد شوبين بقبضته، وتوقف

لحظة، وخرج من الحجرة بسرعة.

سقطت يلينا على قدمي أمها، وطوقت ركبتيها.

كان اوفار ايفانوفيتش مستلقياً في سريره وقد طوق رقبته الممتلئة

قميص بلا ياقة له زر علوي كبير، واسترخى على صدره الشبيه بصدور

النسوة بطيات عريضة سارحة، كاشفاً عن صليب كبير من خشب السرو،

وحجاب. وكان لحاف خفيف يغطي اطرافه الرحبة. والشمعة تشتعل

باهتة على المنضدة الليلية الصغيرة، قرب قدح كبير من الكفاس. وكان

شوبين يجلس على السزير عند قدمي اوفار ايفانوفيتش مكسور الخاطر.

كان يقول في تفكير:

- أجل، تزوجت، وتنوي السفر. وابن أخيك هدر، وملاً البيت كله بالصياح، واغلق عليه مخدعه، للسرية، ولكن صوته كان يصل لا إلى الخدم والوصيفات فقط، بل وإلى السواقين جميعاً وهو حتى الآن يزار ويصهل، وكاد يتعارك معي. يهدر بلعنة الابوة كما يهدر دب بقطعة خشب. ولكن ليست لديه القوة. وأنا فاسيلفنا منهارة، ولكن سفر ابنتها يفتك بها أكثر بكثير من الزواج.

لاعب اوفار ايفانوفيتش اصابعه. وقال:

- أم... هذا... معلوم.

قال شوبين:

- ابن أخيك يهدد برفع القضية إلى المطران، إلى المحافظ، وإلى الوزير، ولكنها ستسافر على أية حال. لا أحد يطاوعه قلبه ليقتل ابنته! سيزعق ويصيح، ثم يسبل ذيله.

- ليس لهم... الحق.

قال أوفار ايفانوفيتش، وشرب شيئاً من القدح.

- نعم، نعم. ثم أية موجة من الادانات والاقاويل والشائعات ستسري في موسكو كلها. أنها لا تخشاها... أنها ارفع منها، على العموم، ستسافر، ولكن إلى أين؟ حتى التفكير في ذلك يرعب القلب. أي بقعة نائية، مغمورة! وماذا ينتظرها هناك؟ اراها بعيني خيالي طالعة من خان، في الليل، والعاصفة الثلجية، ودرجة البرودة ثلاثون تحت الصفر. تفارق وطنها، وعائلتها، ولكنني افهمها. فمن ستترك هنا؟ مَنْ كانت ترى من الناس؟ كورناتوفسكي وامثاله، وبيرسينيف وأمثاله، وأنا وامثالي أيضاً وهؤلاء، على أية حال، خيرة الناس. فعلى أي شيء تأسف هنا؟ شيء واحد سيئ. يقال أن زوجها - اوه، اللعنة، اللسان غير متعود على النطق بهذه الكلمة - يقال أن اينساروف يسعل ويصق دماً. وهذا سيئ. رأيت قبل

أيام، وجهه يصلح لأن يصاغ منه بروتوس في الحال... هل تعرف من هو بروتوس، أوفار ايفانوفيتش؟

- وماذا لا يعرف هنا؟ إنسان.

- بالضبط «كان إنساناً». أجل. الوجه رائع، سوى أنه عليل، وعليل جداً.

قال أوفار ايفانوفيتش:

- لا يهم... سيقا... سيقا...

- بالضبط، لا يهم، سيقا... أنت اليوم منصف تماماً. ولكن سيهم إذا كان الأمر متعلقاً بحياته. بينما هي تريد أن تعيش معه.

رد أوفار ايفانوفيتش:

- أنهما شابان.

- نعم. أنهما شابان وقضيتهما رائعة جريئة. الموت، الحياة، النضال، السقوط، الانتصار، الحب، الحرية، الوطن، كل ذلك جيد، جيد، وليهب الله ذلك لكل واحد منا! وليس مثل البروك في مستنقع إلى الأذقان، والتظاهر بأن الأمر لا يهمك، وهو في الواقع لا يهمك، من حيث الجوهر. بينما هناك الاوتار مشدودة، فأما أن ترن للعالم كله، أو تنقطع!

والقى شوبين رأسه على صدره. وبعد صمت طويل مضى يقول:

- أجل، اينساروف يستحقها. ولكن اي سخف هذا! لا أحد يستحقها. اينساروف... لم هذا الخنوع الكاذب؟ طيب، لنفرض أنه شاطر، يستطيع أن ينافح عن نفسه، رغم أنه حتى الآن فعل ما فعلناه نحن، الآثمين، ولكن المسألة هل نحن تفاهة ميثوس منها؟ طيب، هل أنا تفاهة، يا أوفار ايفانوفيتش؟ هل الرب جردني من كل شيء؟ لم يعطني أية قابليات، أية مواهب؟ ومن يدري، ربما سيكون اسم بافل شوبين، مع

مرور الزمن، علماً من الاعلام؟ ومن يدري، ربما تلك القطعة النحاسية الزهيدة الموضوعة على منضدتك الآن قد تُعطى، في يوم ما، بعد مائة عام لنصب تمثال لبافل شوبين يقيمه أبناء ذريته تكريماً له؟

اتكأ أوفار ايفانوفيتش على كوعه، وتفرس في الفنان المتأجج. وأخيراً قال وهو يلاعب اصابعه كعادته:

- ظنُّ بعيد. كنا نحكي عن الآخرين... وإذا بك تنتقل إلى الحديث عن نفسك.

هتف شوبين:

- أيها الفيلسوف العظيم للأرض الروسية. كل كلمة من كلماتك أبريز خالص. والتمثال لا يجدر أن يقام، لي، بل لك، وأنا أتعهد لك بذلك. ها أنت مستلق في وضع لا أحد يعرف بأي شيء مشبع أكثر: بالكسل، بالقوة؟ سألتُ: لك تمثالاً بهذا الوضع. كنت محقاً جداً في تقريبك لانانيتي وغروري! نعم! نعم! لا يجوز أن اتحدث عن نفسي، لا ينبغي أن اتباهى. ما زلنا نفتقر إلى الرجال، مهما اطلت النظر ودققت. الجميع أما تافهون، من القوارض، وهاملتون صغار، ومتوحشون، وأما جهلة في الحضيض الاسفل، وأما نافخو ابواق، مهتمون بالصغائر، وعصوات طبول! كما أن هناك أناساً درسوا أنفسهم بدقة مخزية، يسبرون نبض كل أحساس لهم دون انقطاع، ويعلنون لانفسهم: هذا ما احسه، هذا ما افكر فيه... ياله من شغل نافع عملي! لا، لو كان بيننا أناس حقيقيون لما انصرفت عنا تلك الفتاة، تلك النفس المرهفة، ولما انزلت كما تنزلق سمكة في الماء! ماذا يعني هذا كله، يا اوفار ايفانوفيتش؟ متى سيأتي زماننا؟ متى سيولد عندنا أناس حقيقيون؟

أجاب اوفار ايفانوفيتش:

- تمهل وسيكونون.

- سيكونون؟ يا تربة! يا قوة الأرض السوداء! قلت! سيكونون؟
احذر، فسأسجل كلمتك هذه. ولكن لماذا تطفئ الشمعة؟
- أنا نعسان، مع السلامة!

٣١

كان شوبين صادقاً في قوله. كاد نبأ زواج يلينا المفاجئ يودي بحياة
آنا فاسيليفنا. صارت طريحة الفراش. طالبها نيقولاي ارتيميفيتش بأن لا
تسمح لابنتها بأن تراها. وكان يسدو كالمبتهج بسنوح الفرصة لأن يظهر
نفسه رباً لبيته بالمعنى الكامل، رأس عائلة متمتعاً بكامل السلطة. كان
يهدر ويصيح بالخدم دون انقطاع، ويقول من حين لآخر: «سأريكم من
أنا. سأجعلكم تعرفون، فانتظروا!» وطوال ما هو موجود في البيت لم
تكن آنا فاسيليفنا ترى يلينا، وتكتفي بوجود زويا التي كانت تخدمها
بعناية شديدة، بينما هي تقول لنفسها: «Diesen Insaroff vorziehen und wem
-!»^(٥١) ولكن حالما كان نيقولاي ارتيميفيتش يترك البيت
(وكان هذا كثيراً ما يحدث فقد عادت افغوستينا خريستيانوفنا، بالفعل)
حتى تذهب يلينا إلى أمها، فتظل هذه تحديق فيها طويلاً وبصمت، وعيناها
مغرورقتان بالدموع. وكان هذا التأنيب الصامت ينفذ إلى قلب يلينا اعمق
من غيره. عندئذ لم تكن يلينا تشعر بالندم، بل بشفقة عميقة لا حدود لها
شبيهة بالندم.

وكانت تقول مقبلة يديها:

- يا عزيزتي، يا ماما. ماذا كان علي أن افعل؟ أنا لست مذنبه، لقد

(٥١) تفضيل اينساروف هذا - وعلى من! (بالألمانية في الأصل).

احببته، وما كان في أمكاني أن اتصرف بغير هذا الشكل. اتهمى القدر، فهو
الذي ساقني إلى رجل لا يروق لبابا، رجل سيأخذني منك.
فكانت أنا فاسيليفنا تقاطعها قائلة:

- آه! لا تذكريني بذلك. ما أن اتذكر إلى أين ستسافرين حتى يغوص قلبي
في صدري!
فتجيب يلينا:

- يا عزيزتي ماما. لتلهمك السلوان هذه الحقيقة على الأقل، وهي ربما
كان من الممكن أن يكون الأمر اسوأ، كأن اموت..

- ولكنني بهذا الشكل أيضاً لا أمل في أن اراك بعد الآن. لأنك ستتهين
حياتك هناك، في حُص في مكان ما (كانت أنا فاسيليفنا تتصور بلغاريا
كالتوندرال السيبرية) أو سيقتلني فراقك...

- لا تقولي هذا، يا أمي الطيبة، سنلتقي، بمشيئة الله. ثم أن في بلغاريا مدنا
مثلما عندنا هنا.

- أي مدن عندهم! الحرب قائمة الآن هناك، واتصور أن المدافع تطلق في
كل مكان، أينما ذهبت... هل تنوين السفر قريباً؟

- قريباً... ولكن أبي... أنه يريد أن يرفع شكوى. ويهدد بطلاقنا.
رفعت أنا فاسيليفنا بصرها إلى السماء.

- لا، يا عزيزتي يلينا، لن يرفع شكوى. وما كنت أنا سأوافق على هذا
الزواج أبداً، وأفضل الموت عليه، ولكن لا مرد لما حصل، ولن أتركه يشين
ابنتي.

وبهذا الشكل انقضت عدة أيام. وفي آخر الأمر تشجعت واختلت بزوجها
في احدى الاماسي في مخدعها. وكان كل شيء في البيت قد هدأ واستقر. في
البداية لم يُسمع شيء من هناك. ثم أخذ صوت نيقولاي ارتيميفيتش يطن،

وبعد ذلك نشأ جدال، وارتفعت صيحات، بل وتوهمت تأوهات... وتهاياً شوبين مع الوصيفات وزويبا أن يهب مرة أخرى للنجدة. ولكن الضجة في المخدع أخذت تضعف شيئاً فشيئاً، وتحول إلى كلام، وسكنت. من حين لآخر فقط كانت تتردد نشجات واهنة، وحتى هذه تلاشت. ورنت مفاتيح، ودمدر صريف مكتب يفتح... وانفتح الباب، وظهر نيقولاى ارتيميفيتش. نظر بصرامة إلى جميع الذين التقاهم، وتوجه إلى النادي. واستدعت أنا فاسيليفنا ابنتها إليها، وعانقتها بقوة، وقالت ذارفة دمواً مرة:

- كل شيء سوي. ولن يثير ضجة. ولا شيء الآن يعيقك عن السفر... وتركنا.

وسألت يلينا حالما هدأت الام قليلاً:

- هل تسمحين بأن يأتي دميتري لتقديم الشكر لك؟

- انتظري قليلاً، يا روجي، لا استطيع الآن أن ارى هذا المفرق بيننا... سيتسنى لنا الوقت قبل السفر.

كررت يلينا باكتئاب:

- قبل السفر.

وافق نيقولاى ارتيميفيتش على أن لا "يثير ضجة"، ولكن أنا فاسيليفنا لم تقل لابنتها بأي ثمن اعطى موافقته. لم تقل لها أنها وعدته أن تدفع كل ديونه، كلما سلمته ألف روبل فضي نقداً. وفوق ذلك ابلغ أنا فاسيليفنا بشكل حاسم أنه لا يريد أن يقابل اينساروف الذي مضى في نعتة بالجبلي الأسود. وحين وصل إلى النادي، صار، بدون أية ضرورة، يتحدث عن زواج ابنته، مع ملاعبه، وهو مهندس متقاعد برتبة جنرال. قال بلا مبالاة متكلفة: "هل سمعت بأن ابنتي قد تزوجت طالباً بسبب ولوعها الشديد بالعلم". نظر الجنرال إليه من خلال نظارته، وهمهم "حم!" وسأله أي لعبة يلعب؟

كان يوم الرحيل يقترب. وتشيرين الثاني في أيامه الأخيرة والمواعيد الأخيرة ممضي. وكان اينساروف قد فرغ من استعداداته منذ زمان، وهو يتحرق شوقاً إلى مغادرة موسكو بأسرع وقت. وكان الطبيب يستعجله أيضاً، ويقول له: "أنت بحاجة إلى طقس دافئ، لن تسترد صحتك هنا". وكانت اللفتة إلى السفر تضني يلينا أيضاً، فقد كان يفرزها شحوب اينساروف، ونحوه. كانت غالباً ما تنظر إلى ملامح وجهه المتغير بفرع لا ارادي. أن وضعها في بيت والديها صار لا يطاق. كانت امها تنوح عليها، وكأنما تنوح على ميتة، وأبوها يعاملها ببرود وازدراء. فقد كان هو الآخر يتعذب سراً من دنو الفراق. ولكن كان يرى من واجبه، واجب اب مهان، أن يخفي مشاعره، ضعفه. واخيراً رغبت آنا فاسيليفنا في أن ترى اينساروف. اتوا به إليها خلسة، ومن باب خلفي. وعندما دخل عليها غرفتها، استعصى عليها الكلام معه وقتاً طويلاً، بل ولم تستطع حتى أن تستجمع قواها وتنظر إليه. جلس بالقرب من كرسيها، وانتظر باحترام هادئ حين بدأت تتحدث معه. وكانت يلينا تجلس هناك واضعة يد امها في يدها. وأخيراً، رفعت آنا فاسيليفنا بصرها، وقالت: "الله يحاكمك، يا دميتري نيكانوروفيتش..." وتوقفت، وجمدت كلمات التأييب على شفيتها.

وهتفت:

- ولكنك مريض. يلينا، صاحبك مريض!

أجاب اينساروف:

- كنت مريضاً، يا آنا فاسيليفنا. ولم أسترده كل صحتي بعد. ولكن أمل

أن هواء وطني سيسفيني تماماً.

غمغمت أنا فاسيليفنا:

- نعم... بلغاريا!

وفكرت مع نفسها: "الهي، أنه بلغاري، يحتضر، وصوته فاقد الرنين، وعيناه خاويتان، وجسده هيكل عظمي، وسترته مترهلة على كتفيه، وكأنها ليست سترته، ولونه أصفر كالكريم... بينما هي زوجته، تحبه... هذا مجرد حلم..." إلا أنها تداركت الأمر حالاً، وقالت:

- دميتري نيكانوروفيتش... هل حتم، حتم عليك أن تسافر؟

- حتم، أنا فاسيليفنا.

نظرت أنا فاسيليفنا إليه.

- آه، دميتري نيكانوروفيتش، أرجو من الله إلا يجعلك تعاني ما اعانيه الآن... ولكنك تعديني بأن تصونها، تحبها... ولن تشكوا عوزاً ما دمت أنا في الحياة!

وخنقت العبرات صوتها، وبسطت ذراعيها، وارممت يلينا واينساروف عليها.

وأخيراً جاء اليوم المحتوم. وجرى الاتفاق على أن تودع يلينا والديها في البيت، وتبدأ سفرها من مسكن اينساروف. وعينت الساعة الثانية عشرة موعداً للانطلاق. وجاء بيرسينيف قبل الموعد برع ساعة. فقد كان يظن أنه سيجد أبناء وطن اينساروف الذين يرغبون في توديعه، ولكنهم انصرفوا جميعاً قبل الموعد، وانصرف كذلك الشخصان الغامضان اللذان يعرفهما القارئ (كانا شاهدي الزواج لاينساروف). استقبل الخياط "السيد الطيب" بانحناء احترام، وكان سكران كثيراً ربما حزناً، أو ربما فرحاً لحصوله على الاثاث، إلا أن زوجته سرعان ما ابعده. كان كل شيء في الحجره قد رتب. وعلى الارض حقيبه مربوطة بحبل. وغرق بيرسينيف في افكاره. فلقد مرت في خاطره ذكريات عديدة.

دقت الساعة الثانية عشرة منذ وقت طويل، والحوذي جاء بزلاجة السفر، و"العروسان" لم يأتيا بعد. وأخيراً ترددت خطوات عجل على الدرج، ودخلت يلينا بصحبة اينساروف وشوبين. كانت عينا يلينا حمراوين، فقد تركت أمها فاقدة الوعي. فقد كان الوداع شاقاً جداً. ولم تكن يلينا قد رأت بيرسينيف أكثر من أسبوع، فقد صارت زيارته إلى بيت ستاخوف نادرة في المدة الأخيرة. ولم تكن تتوقع أن تجده فهتفت: "أنت هنا! شكراً!" وارتمت عليه. وعانقه اينساروف أيضاً. وهبط صمت مرهق. فماذا كان من الممكن أن يقول هؤلاء الثلاثة، ماذا كانت تشعر هذه القلوب الثلاثة؟ وادرك شوبين ضرورة الصوت الحي، الكلمة التي تقطع هذا الارهاق. وانشأ يقول:

- واجتمع ثلاثتنا من جديد، للمرة الأخيرة! فلنخضع لمشيئة الاقدار، لنذكر الماضي بالخير، وليبارك الرب الحياة الجديدة وانشد - "وعلى بركة الله في الطريق الطويل". وتوقف. أحس فجأة بالخجل والرج. فمن الائم الغناء حيث يرقد المحتضر. وفي هذه الحجره، وفي هذه اللحظة، كان يحتضر الماضي الذي ذكره، ماضي الناس المجتمعين فيها. كان يحتضر لبعث حياة جديدة، ولنقل ذلك.. ولكنه كان يحتضر على أية حال.

قال اينساروف مخاطباً زوجته:

- حسناً، يلينا. هذا كل شيء، كما يبدو؟ دفع كل شيء، وحزمت جميع الامتعة. بقي انزال هذه الحقبية فقط. يا صاحب البيت!

دخل صاحب البيت إلى الحجره مع زوجته وابنته. واستمع إلى ايعاز اينساروف متمائلاً قليلاً، وطرح الحقبية على كتفه، وهبط الدرج إلى الاسفل بسرعة، طارقاً الارض بحذائه.

قال اينساروف:

- والآن لتجلس لحظة، حسب العادة الروسية.

جلس الجميع. وقعد بيرسينيف على الأريكة القديمة، وجلست يلينا بالقرب منه، وانكمشت ربة البيت وابنتها على العتبة. والجميع صامتون، والجميع يتسمون بجهد، ولا أحد كان يعرف لم يتسم. كان كل واحد يود أن يقول شيئاً في الوداع، وكان كل واحد (باستثناء صاحبة البيت وابنتها، بالطبع، حيث كانتا تحملقان لا غير) يشعر بأن في مثل هذه اللحظات، لا يباح إلا المبتذل من القول، فإن كل كلمة مهمة، أو ذكية، أو نابغة من القلب، لا غير، ستبدو في غير مكانها، وكاذبة تقريباً. كان اينساروف أول من نهض، وراح يرسم علامة الصليب، وهتف: "وداعاً، يا حجرتنا!".

وترددت قبلات رنانة، ولكنها باردة، قبلات فراق، وتمنيات في سفر ميمون، لم تقل كاملة، وفي الوداع بالمراسلة، وكلمات وداع أخيرة نصف مكتومة...

جلست يلينا في الزلاجة، والدموع تغمر وجهها، وغطى اينساروف قدميها بالسجادة بعناية. وكان الجميع واقفين على مدخل البيت: شوبين، وبيرسينيف، وصاحب البيت، وصاحبتة وابنتهما في المنديل الذي لا يفارق رأسها، والبواب، وحرفي عابر يرتدي روب عمل مخططاً. وإذا بزلاجة مترفة تدخل الفناء فجأة يجرها حصان جيد سريع العدو، ويقفز منها نيقولاي ارتيميفيتش مزيحاً الثلج من ياقة معطفه. ويهتف وهو يدنو من زلاجة السفر راکضاً:

- حمداً لله على أنني وجدتك لم ترحلي بعد. يلينا، هذا لك، بركتنا الابوية الأخيرة.

وادخل رأسه تحت سقف الزلاجة وأخرج من جيب سترته ايقونة صغيرة، مخاطة بحافظة مخملية صغيرة، ووضعها في رقبته. انفجرت يلينا

باكية، وراحت تقبل يديه، وخلال ذلك اخرج الحوذني من مقدمة الزلاجة زجاجة من الشمبانيا، وثلاثة اقداح.

- طيب! - قال نيقولاي ارتيميفيتش، والدموع تقطر غزيرة على ياقة معطفه من فراء القندس - يجب توديعكما... والتعبير عن التمنيات - وأخذ يصب الشمبانيا، ويدها ترتعشان، وطفح الحَب على الحوافي، وسقط على الثلج. تناول قدحاً واعطى القدحين الاخرين ليلينا ولاينساروف الذي كان قد لحق ليجلس جنبها. وشرع نيقولاي ارتيميفيتش يقول:

- يعطيكما الله... - ولم يستطع أن يكمل. فشرب قدحه، وشرب الآخرون أيضاً - والآن ينبغي عليكما، أيها السيدان - اضاف مخاطباً بيرسينيف وشوبين، ولكن الحوذني ساق الحصان في تلك اللحظة. ركض نيقولاي ارتيميفيتش قرب العربية. وراح يقول بصوت متقطع - لا تنسي، اكتبني لنا. - اخرجت يلينا رأسها، وقالت: "وداعاً، بابا، اندريه بيتروفيتش، بافل ياكوفليفيتش، وداعاً، الجميع، وداعاً، يا روسيا!" وارتدت إلى الخلف. لوح الحوذني بسوطه، وصر، وصرقت زلاجة السفر بمزجتيها، واستدارت من بوابة الفناء إلى اليمين، واختفت.

٣٣

كان يوماً مشرقاً من أيام نيسان. وكان جندول حاد المقدمة يتمايل باتران كلما دفع الجندولي مجذافه الطويل، لينزلق في المنبسط المائي العريض الذي يفصل فينيسيا عن ليدو، وهو الاسم الذي يطلق على شريط ضيق من رمل البحر المجروف. كانت يلينا واينساروف جالسين تحت سقفه الواطئ على نضد جلدية ناعمة.

لم تتغير قسما وجه يلينا كثيراً منذ مغادرتها موسكو، إلا أنها اكتست مسحة أخرى، فكانت أكثر استغراقاً وصرامة، وكانت عيناها

اجسر. تفتح كل جسدها، وبدا شعرها أكثر نعومة وأكثر مؤطراً جبينها الابيض وخديها النضين. وشفاتها وحدهما، حين لا تبسمان، تكشفان عن انشغال مستديم خفي يلوح كغضن لا يكاد يبين. أما اينساروف، فبالعكس، ظل تعبير وجهه كما كان، إلا أن ملامحه تغيرت بشدة. نحف ولاح عليه الكبر، وشحب، وتقوس ظهره بعض الشيء. وكان يسعل، باستمرار تقريباً، سعالاً قصيراً جافاً، وكانت عيناه الغائرتان تلمعان لمعاناً غريباً. وكان في طريق سفره من روسيا، قد اقعده المرض في الفراش ما يقارب الشهرين قضاهما في فينا. وفي نهاية آذار فقط وصل إلى فينيسيا مع زوجته. وكان يأمل أن يسافر منها، عبر زارا، إلى الصرب، وبلغاريا. فكانت جميع الطرق الأخرى مغلقة عليه. وكانت الحرب ما تزال تهدر في الدانوب، وقد اعلنت فرنسا وانجلترا الحرب على روسيا، وجميع الامصار السلافية مضطربة تهباً للانتفاضة.

رسا الجنود على الحافة الداخلية لليدو. وتوجهت يلينا واينساروف منها إلى البحر، خلال درب رملي ضيق، غرست فيه اشجار عجفاء (تغرس كل عام، وتموت كل عام).

سارا بمحاذاة الساحل. وكان بحر الادرياتيك يسوق امامهما امواجه الزرقاء الكدرية مزبدة مرغية، صاعدة هابطة مخلفة على الرمل، في تراجعها، اصداًفاً صغيرة، ومزقاً من الاعشاب البحرية.

قالت يلينا:

- يا له من مكان مقبض! اخشى أن يكون البرد هنا أكثر مما تتحملة. ولكنني حزرت لم ارددت أن تأتي إلى هنا.

قال اينساروف بتكشيرة سريعة مريرة:

- برد! ولكن أي جندي ساكون إذا اخاف من البرد. سأقول لك، لماذا جئت إلى هنا. انظر إلى البحر، واشعر وأنا في هذه البقعة، بأنني اقرب إلى

بلادي - واضاف ماداً ذراعه إلى الشرق - فهي هناك. وهذه الرياح قادمة من هناك.

قالت يلينا:

- إلا تسوق هذه الرياح تلك السفينة التي تنتظرها؟ هناك شرع ابيض في الافق، لعله شرعها؟

نظر اينساروف في المدى البحري، إلى حيث اشارت يلينا وقال:

- وعد رينديتس أن يرتب كل شيء لنا، خلال اسبوع. يبدو أن الاعتماد عليه ممكن. هل سمعت، يلينا - اضاف بحيوية مفاجئة - يقال أن الصيادين الفقراء في دالماسيا كانوا يتخلون عن تلك القطع الرصاصية الصغيرة التي تثقل الشباك وتنزلها إلى القاع - ليصنعوا منها طلاقات! لم تكن لديهم نقود. كانوا يعيشون على صيد الاسماك وحده، ولكنهم اعطوا آخر ما يملكون بفرح، وهم يتضورون جوعاً الآن. أي أناس هؤلاء! - Aufgepasst! (٥٢) صدر هذا الصوت بعجرفة من الخلف. وترددت كركبة حوافر حصان خافتة الرنين، ومرّ على فرسه ضابط نسماوي في سترة رمادية قصيرة، وقبعة خضراء ذات ظليلة... وما كادا يلحقان ليتنحيا عن طريقه.

شيّعه اينساروف بنظره جهماً، قالت يلينا:

- ليس ملوماً، ليس لهم مكان آخر للتدريب على ركوب الخيل، كما تعرف:

قال اينساروف:

- ليس ملوماً، ولكنه اثار دمي بصيخته، وشاربيه، وقبعته العسكرية، وبكل مظهره. لنعد.

(٥٢) احترس! (بالالمانية في الأصل).

- لنعد، ديمتري. هناك تيار من الريح، بالفعل. لم تحرص أنت على نفسك، بعد مرضك في موسكو، فدفعت ثمن ذلك في فينا. يجب أن تكون أكثر حذراً، الآن.

صمت اينساروف، إلا أن التكبشيرة المريرة السابقة، رفت على شفثيه. وتابعت يلينا تقول:

- هل تريد أن نركب جندولاً في القناة الكبيرة؟ نحن حتى الآن لم نر فينيسيا، بشكل طيب. وفي المساء نذهب إلى المسرح. عندي تذكرتان في المقصورة. يقال أن اوبرا جديدة تعرض هناك. اتريد أن نُوقِف هذا اليوم على أنفسنا، وننسى السياسة، والحرب، وكل شيء، ولا نعرف إلا شيئاً واحداً وهو أننا نعيش، ونستنشق الهواء سوية، ونفكر سوية، وأنا قد ارتبطنا إلى الابد... هل تريد؟

أجاب اينساروف:

- أنتِ تريدين ذلك، يا يلينا، ومعنى ذلك أنني اريده أيضاً.

قالت يلينا مبتسمة:

- كنت أعرف ذلك. لنذهب، لنذهب.

وعادا إلى الجندول، وجلسا فيه، وامرا الجندولي أن يسير بهما في القناة الكبيرة على مهل.

ومن لم ير فينيسيا في نيسان لا يكاد يعرف فتنة هذه المدينة الساحرية، الفتنة التي تعز على الوصف. وداعة الربيع ونعومته تناسبان فينيسيا مثلما تناسب شمس الصيف الساطعة مدينة جنوى الرائعة ويناسب الخريف الذهبي القرمزي مدينة روما العظيمة، العريقة. وجمال فينيسيا، كالربيع، يسر رغائب النفس ويوقظها، ويداعب القلب الغرير ويناكده، وكأنه وعد بسعادة دائية القطوف ليست لغزاً، وأن كانت مبهمة. كل ما في المدينة

وضئى، قريب إلى الفهم، كل ما فيها مغشى بنقاب ناعس من السكون العاشق. كل ما فيها صامت، حَفِيّ، انثوي ابتداء من اسمها. فليس محض مصادفة أن يطلق عليها وحدها لقب ”الحسنة“. عمائر قصورها وكنائسها تنتصب بخفة وروعة، مثل حلم رهيف لآلهة شابة. هناك شي سحري، شيء غريب فتان في الالق الرمادي المخضوضر، في الائتماعات الناعمة لموج فنواتها الاخرس، في سرحان جندولاتها الصموت، في خلوها من اصوات المدن الخشنة، ومن الطرق الفظ، والقرقعة، والددنة. ويقول لك أهل فينيسيا: ”فينيسيا تحضر، فينيسيا تقفر“. ولكنها ربما كانت تفتقر إلى هذه الفتنة الأخيرة، فتنة ذبول جمال في ذروة تفتحه وانتصاره. والذي لم يرها لا يعرفها. فلا كاناليتي، ولا غواردي (ودع عنك الرسامين المحدثين) استطاع أن ينقل رقة الهواء الفضية هذه، ولا ذلك المرمى المتناهي والقريب، ولا ذلك التناسق العجيب لأرشق الملامح والالوان الذائبة. ومن ولى زمانه، وحطمته الحياة لا داعي له أن يزور فينيسيا، فستكون مريرة المذاق في ذهنه، كذكرى أحلام لم تتحقق في مطلع حياته. ولكنها ستكون حلوة المذاق لمن ما يزال العنقوان في اعطافه، ولن يشعر بالسعادة في ذات نفسه. فليات بسعاداته إلى كنف سمائها الساحرة، وليغمرها ألقها الذهبي الأبد، مهما يكن لسعادته من لألاء.

مرّ جندول اينساروف ويليينا رخيأ بـ ^(٥٣) Riva dei Shciavoni وبقصر الدوجي ^(٥٤)، وبيادزيتا، وخرج إلى القناة الكبيرة. كانت القصور الرخامية تمتد على الجانبين، فكانت تبدو وكأنها تمر عائمة بهدوء، لا تكاد تتيح للمرء أن يشملها ببصره ويفهم كل محاسنها. كانت يليينا تشعر بسعادة

(٥٣) كورنيس شيافوني (بالإيطالية في الأصل).

(٥٤) رئيس جمهورية فينيسيا التجارية المنتخب مدى الحياة.

غامرة. لم تكن في سماء قلبها اللازوردية غير سحابة داكنة واحدة، وحتى هذه راحت تتعد. لأن اينساروف في هذا اليوم كان يشعر بتحسن أكثر. مضى بهما الجندول حتى طاق رياتو العالي، وعاد بهما. كانت يلينا تخشى برودة الكنائس على اينساروف، ولكنها تذكرت اكااديمية ^(٥٥) delle Belle Arti، وطلبت من الجندولي أن يأخذهما إليها. طافا في قاعات هذا المتحف الصغير بسرعة. ولم يتوقفا امام كل لوحة، ولم يرحما نفسيهما، وهما ليس خبيرين في ذلك، ولا متفهمين. وغمرهما فرح نَصْرٍ مفاجئ. فقد بدا لهما فجأة أن كل شيء مسل جداً (الأطفال يعرفون هذا الشعور جيداً). اثارَت يلينا الغيظ الشديد لثلاثة من الزوار الانجليز، حين ضحكت، حتى سالت دموعها، من القديس ماركو لتيتوريتو، وقد قفز من السماء كما تقفز الضفدعة إلى الماء لينقذ عبداً من التعذيب. كما تهلل اينساروف بشراً، من ناحيته، حين رأى ظهر وربلتي الرجل النشيط في ازار أخضر، وهو يقف في صدر لوحة تيتسان "الرفع"، ماداً يديه في إثر العذراء. بينما العذراء نفسها، وهي امرأة جميلة قوية، مندفة بسكينة وعظمة إلى احضان الاله الأب ابهرت اينساروف ويلينا كليهما. كما اعجبتهما أيضاً لوحة الشيخ تشيما دا كونيلىانو الصارمة القدسية. وعندما خرجا من الاكاديمية نظرا مرة أخرى إلى الانجليز الثلاثة الذين خرجوا وراءهما باسنانهم الطويلة كأسنان الارانب، وقذالاتهم المرتخية، وضحكا. ورأيا صاحب الجندول الذي جاء بهما بسترته القصيرة وبنظولونه القصير أيضاً، وضحكا. ورأيا بائعة قد لفتت شعرها الاشيب على شكل صرة صغيرة فوق يافوخها تماماً، فضحكا اصدح من ذي قبل، وأخيراً نظر احدهما في وجه الآخر، وانفجرا ضاحكين. وحالما استقرا في الجندول ضم احدهما يد الآخر بقوة. ذهبوا إلى الفندق، وهرعا إلى حجرتهما،

(٥٥) الفنون الجميلة (بالايطالية في الاصل).

وطلبنا أن يجلب لهما الغداء فيها. ولم يزيلاهما المسرح، وهما على مائدة الطعام. اطعم احدهما الآخر، وشربا في صحة اصدقائهما في موسكو وصفقا للحاجب ثناء على طبق السمك اللذيذ، وراحا يلحان عليه لتقديم ^(٥٦) frutti di mare حية، هز الحاجب كتفيه، وشحط بقدميه، وهز رأسه لى خروجهم، بل وهمس مرة في زفرة poveretti (مساكين!). وبعد الغداء توجهنا إلى المسرح.

في المسرح عرضت اوبرا الفيردي مبتذلة جداً، إذا اردنا الصدق، ولكنها استطاعت أن تطوف في مسارح اوربا كلها، اوبرا مشهورة جداً عندنا، نحن الروس، وهي ”ترافياتا“. كان الموسم قد انتهى في فينيسيا، وجميع المغنين لم يرتفعوا عن المستوى الوسط، وكان كل مغن يصرخ بأعلى ما تستطيع حنجرته. وقد مثلت دور فيوليتا ممثلة مغمورة، لا يجيها الجمهور كثيراً، إذا حكمنا بالبرود الذي جوبهت به، ولكنها لم تكن تخلو من موهبة. وكانت هذه فتاة شابة سوداء العينين وليست على حظ كبير من الجمال لها صوت غير متسق تماماً، وتالف. وكانت في ملابس مزرکشة إلى حد السذاجة، وبلا ذوق. كان شعرها مغطى بشبكة حمراء، وفتانها من الاطلس الازرق الناصل يضغط على نهديها، وقفازاها السويديان السميكان يصلان إلى كوعها المديبين، ثم من أين لها أن تعرف، وهي ابنة راع من رعاة برغامو، كيف تلبس غادات الكاميليا الباريسيات! كما انها لم تحسن الوقوف والحركة على المسرح. ولكن تمثيلها كان يحفل بالكثير من الصدق، ومن البساطة الخالية من التحايل، وكانت تغني بتلك العاطفية في التعبير والايقاع، تلك التي يتميز بها الايطاليون وحدهم. كانت يلينا واينساروف جالسين لوحدهما في مقصورة مظلمة عند خشية المسرح

(٥٦) ثمار البحر، أي المحار المأكول، (بالايطالية في الأصل).

تماماً، وهما ما يزا الان تحت سيطرة ذلك المرح اللعوب الذي غمرهما في
اكاديمية delle Belle Arti. وحين ظهر على المسرح والد الشاب التعيس
الذي وقع في شرك الغاوية، مرتدياً سترة فراك بلون الحمص، وباروكة
بيضاء منفوشة الشعر، وفتح فمه باعوجاج، وأطلق ”ترميلو“^(٥٧) خفيضة
النيرة كثيبة، مرتبكاً هو نفسه: قبل الاوان، كادت أن تند منهما ضحكة...
ولكن تمثيل فيوليتا أثر فيهما. قالت يلينا:

- لا يكاد أحد يصفق لهذه الفتاة المسكينة بينما أنا أفضلها الف مرة
على أية شهيرة من الدرجة الثانية معتدة بنفسها كانت ستلوى، وتثنى،
وتسعى طوال الوقت إلى انارة الاعجاب. أما هذه فتبدو وكأنها تشعر
بحالها جديدة. انظر إليها، أنها لا تلتفت إلى الجمهور.

مال اينساروف إلى حافة المقصورة، وتفرس في فيوليتا وقال:

- نعم، أنها لا تمزح، تتوجس الموت.

سكتت يلينا.

وبدأ الفصل الثالث. وارتفعت الستارة... وجفلت يلينا من مرأى
السريـر، والستائر المسدلة، وقارورات الدواء، والمصباح المحجوب...
تذكرت الماضي غير البعيد... وطاف في ذهنها: ”والمستقبل؟ والحاضر؟“،
ومن نكد الطالع أن المثلة سعلت سعالاً تمثيلاً فرد عليه من المقصورة
سعال جاف حقيقي من جانب اينساروف... اختلست يلينا النظر إليه،
ولكنها اسرعت فطبعت الرصانة والهدوء على قسماـت وجهها. فهمها
اينساروف، وأخذ يتسم، مترنماً بلحن الأغنية قليلاً.

ولكنه سرعان ما سكت. وصار تمثيل فيوليتا أحسن فأحسن وأكثر

(٥٧) ارتعاشة في الاوتار الصوتية. المترجم.

طلاقة. تخلت عن كل ما هو دخيل، عن كل ما هو زائد، ووجدت نفسها، وتلك سعادة نادرة عالية جداً للفنان! تجاوزت فجأة الحد الذي يستحيل تحديده، ولكن الجمال يكمن وراءه. سرت حركة بين الجمهور، واخذته الدهشة. لقد بدأت الفتاة القبيحة ذات الصوت التالف تأخذ بزمامه، وتسيطر عليه. ولم يعد صوتها تالفاً، فقد اشاع الدفء فيه واشتد. وظهر "الفريدو" وكادت صيحة فيوليتا الفرحة تثير تلك العاصفة التي تسمى ^(٥٨) fanatismo والتي لا تهزم امامها كل صياحاتنا الشمالية الكئيبة... وما هي إلا لحظة، وإذا بالجمهور قد جمد مرة أخرى. وبدأ اللحن الثنائي، اروع قطعة في الاوبرا، والذي استطاع فيه الموسيقار أن يعرب عن كل الاسف على تبذير الشباب بطيش، والصراع الاخير لحب يائس عاجز. واستسلمت المغنية للموجة التي ارتفعت بها مأخوذة ومغمورة بدفق التجاوب الشامل، وفي عينيها دموع الفرح الفني والعذاب الحقيقي، وتغير وجهها، وأمام شبح الموت الرهيب المقرب فجأة اندفعت من شفيتها كلمات الرجاء التي تصل إلى عنان السماء "Lascia mi vivere... Imorirsi giovane!" (دعني اعيش... اموت وأنا شابة!) وإذا بالمرح كله يهتز بالتصفيق العارم، وهتافات الحماس والاعجاب.

واحست يلينا بالبرودة تحتاج جسدها كله. اخذت تبحث بيدها، خلصة، عن يد اينساروف، ووجدتها وضغطت عليها بقوة. استجاب هو لحركة يدها، ولكنه لم ينظر إليها، ولم تنظر هي إليه. أن ضم اليدين هذا لم يكن يشبه ذلك الذي حدث بينهما في الجندول قبل بضع ساعات، واحدهما يحتفي بالآخر.

في طريق العودة إلى الفندق سار بهما الجندول في القناة الكبيرة ثانية.

(٥٨) تممس (بالإيطالية في الأصل).

كان الليل قد هبط وضيئاً ناعماً. واستقبلتهما نفس القصور على امتداد القناة، إلا أنها بدت مختلفة، كان القمر يضيء بعضها فيبدو أبيض مذهباً، وكأنما قد ابتلع بياضه تفاصيل الزخارف ومعالم النوافذ والشرفات، بينما برزت هذه بوضوح أكثر في المباني المسربلة بنقاب خفيف من الظل السبسط. وبدت الجندولات باضواؤها الحمراء الصغيرة اخفت صوتاً وأسرع حركة، وكانت قيادتها الفولاذية تلمع غامضة غموض مجاذفها التي كانت تعلو وتهبط فوق الالتماعات الفضية للماء المستثار. وهنا وهناك كان الجندوليون يتبادلون نداءات قصيرة خافتة (أنهم الآن لا يغنون أبداً)؛ وما من أصوات أخرى تقريباً. كان الفندق الذي نزل فيه اينساروف ويلينا في Riva dei Schiavoni، وقد نزلنا من الجندول قبل الوصول إليه، وطافا عدة مرات حول ساحة القديس ماركو تحت الاطواق التي كان عدد كبير من المتبطلين يزدحمون امام مقاهيها الصغيرة. لطيف جداً أن يسير الإنسان مع محبوبه في مدينة غريبة، وسط أناس غرباء. فقد كان كل شيء يبدو جميلاً مهماً فتمنى للجميع الخير والسلام والسعادة التي تملأ جوانحك. ولكن يلينا لم تعد الآن قادرة على الاستسلام للشعور بسعادتها بخلو بال. وما كان في وسع قلبها أن يهدأ، وقد روعته الايحاءات قبل وقت قصير. أما اينساروف فقد اشار بصمت، حين مرّا بقصر الدوجي، إلى مواسير المدافع النمساوية المطلة من تحت عقود السقوف الواطئة، ودفع قبعته إلى حاجبيه. وكان يشعر بالتعب فضلاً عن ذلك. نظراً للمرة الاخيرة إلى كاتدرائية القديس ماركو، وإلى قبابها، وقد اشعلت أشعة القمر نقاطاً من الضوء الفوسفوري على قصديرها المزرووق، وعادا إلى الفندق على مهل.

كانت حجرتها تطل بنوافذها على المنبسط البحري العريض الممتد من Riva dei Schiavoni إلى جيوديكا. ومقابل فندقهم تقريباً كان يرتفع برج القديس جيورجي المدبب الطرف، وإلى اليمين تلمتج كرة دوغانا الذهبية المرتفعة في الهواء وتتصب كنيسة Redentore، لبالاديو، وهي

واحدة من أجمل الكنائس، مزدانة كعروس، وإلى اليسار تلوح صواري السفن وجبالها، ومداخن البواخر سوداء اللون. وهنا وهناك كان أحد الاشرعة المنشورة إلى النصف يتدلى كجناح كبير، واعلام السفينة المثلثة لا تكاد ترفرف. جلس اينساروف أمام نافذة، ولكن يلينا لم تتركه يستمتع بالمنظر طويلاً. إذ احس بحمى مفاجئة، ومملكه ضعف موهن. فأرقدته في الفراش، وانتظرت حتى غفا، وعادت إلى النافذة بهدوء. آه، كم كان الليل ساجياً حنوناً، والهواء اللازوردي مشبعاً بوداعة الحمام، وكل عذاب، كل بلية لا يمكن لها إلا أن تهج وتغفو تحت هذه السماء الصافية، وتحت تلك الاشعة القدسية الطاهرة! وفكرت يلينا مع نفسها: ”يا الهي! لم الموت، لم الفراق، والمرض والدموع؟ أو لم هذا الجمال، هذا الشعور اللذيذ بالأمل، ولم الاحساس المهدي بالملجأ الآمن، بالحماية الوثقى، والرعاية الخالدة؟ ما تعني هذه السماء الباسمة المباركة، هذه الارض السعيدة المستريحة؟ يمكن أن يكون هذا كله فينا فقط، وفي خارجنا البرودة الأبدية والسكون؟ يمكن أن نكون نحن هنا... وحدنا... وكل شيء هناك، في كل مكان من هذه الاعماق السحيقة التي لا تُسير، غريباً علينا؟ اذن، فما نفع هذا الظمأ وفرحة الصلاة؟ (تردد في داخل نفسها ”Morir si giovane”) إلا يجوز للمرء أن يتضرع ويتحاشى وينجو... أوه، يا الهي، إلا يجوز الايمان بمعجزة، حقاً؟ - ووضعت رأسها على ذراعيها المطويتين، وهمست - ”أهذا كل شيء؟ معقول أنه كل شيء؟ كنت سعيدة، لا لدقائق، ولا لساعات، ولا لأيام بطولها، بل لاسبوع متالية. ولكن بأي حق؟“ واحست بالرهبة من سعادتها ذاتها. وفكرت: ”ماذا لو أن ذلك غير مباح؟ ماذا لو كان لا يُعطى بلا مقابل؟ أنه السماء... بينما نحن بشر، مساكين، خاطئون... Morir si giovane أوه، أيها الشيخ الاسود المشؤوم، انصرف! حياته ضرورية ليست لي وحدي!“.

وفكرت ثانية: ”ولكن ماذا لو كان هذا عقاباً، ماذا لو كان علينا الآن

أن ندفع الثمن كاملاً على ذنوبنا؟ كان ضميري هادئاً، وهو الآن هادئ. ولكن أهذا برهان على البراءة؟ أه، يا ألهي، يعقل أننا مجرمون بهذا الشكل؟ أيعقل أنك، خالق هذا الليل، وهذه السماء تريد أن تعاقبنا لأن احدنا أحب الآخر؟“ وازافت بصورة لا ارادية: ”وإذا كان كذلك، إذا هو مذنب، وأنا مذنب، فاجعله يموت، يا ألهي، اجعل كلينا يموت على الاقل ميتة شريفة ماجدة، في رحاب وطنه، هناك، وليس هنا، ليس في هذه الحجرة المعزولة.“

”وفاجعة المسكينة، الام الوحيدة؟“ - سألت نفسها، واضطربت من سؤالها هذا، ولم تجد اعتراضاً عليه. ولم تكن تعرف أنه سعادة إنسان قائمة على تعاسة إنسان آخر، بل وأن تقعه وراحته، كالثمثال، تتطلبان قاعدة من خسارة الآخرين ومضايقتهم.

غمغم اينساروف أثناء نومه: ”رينديتش!“.

سارت يلينا إليه على اطراف اصابعها، وانحنت عليه، ومسحت العرق من وجهه. تقلب على المخدة قليلاً، وسكن.

عادت إلى النافذة، وعادت افكارها تتوارد. اخذت تقنع نفسها وتؤكد لها أن ليس هناك سبب للخوف. بل وخجلت من ضعفها. وهمست: ”وهل هناك خطر حقاً؟ أو ليست صحته قد تحسنت؟ ولو لم تكن اليوم في المسرح، لما طافت في ذهني هذه الخواطر“. وفي تلك اللحظة رأت نورساً أبيض يحلق عالياً فوق الماء، ربما رؤّعه صياد، فطار بصمت، صاعداً هابطاً، وكأنما يبحث عن مكان يحط فيه. وفكرت يلينا: ”أن طار إلى هنا، كان فألاً حسناً...“ حام النورس دائراً في مكان واحد، واطبق جناحيه، وسقط بعيداً وراء سفينة مسودة، مطلقاً صيحة شاكية، وكأنما اصيب بطلقة. جفلت يلينا، ثم خجلت من جفولها هذا، فاستلقت على السرير، دون أن تخلع ثيابها، جنب اينساروف الذي كانت أنفاسه تتلاحق ثقيلة سريعة.

استيقظ اينساروف في ساعة متأخرة يطوق رأسه صداع اصم، ويغمره احساس بضعف لثيم، على حد تعبيره، يسري في جسده كله. ولكنه نهض وكان سؤاله الأول:

– ألم يأت رينديتش؟

– لم يأت بعد.

ردت يلينا عليه، وقدمت له العدد الأخير من ^(٥٩) Osservatore Triestino“. وكان فيه حديث كثير عن الحرب، وعن البلدان السلافية، وعن الامارات. شرع اينساروف يقرأ، وانشغلت هي بتحضير القوة له... وإذا بطرق على الباب.

وفكر كلاهما مع نفسه: ”رينديتش“، ولكن الطارق تكلم بالروسية: ”هل ممكن أن ادخل؟“ تبادلت يلينا واينساروف النظرات في استغراب، وقبل أن يردا دخل الحجرة رجل انيق الملبس ذو وجه صغير مدبب، وعينين حركتين. كان يتألق بكليته، وكأنما قد ربح لتوه مبلغاً ضخماً من المال، أو سمع نبأ ساراً.

رفع اينساروف جسمه عن الكرسي.

قال الغريب متقدماً نحوه بمشية متخلخلة، منحنيماً ليلينا بأدب:

– لا تعرفني. أنا لوبوياروف، هل تذكرني؟ التقينا في موسكو عند آل

ي....

قال اينساروف:

(٥٩) «مراقب تريست» (بالإيطالية في الأصل).

- نعم، عند آل ي....

- بالتأكيد، بالتأكيد! ارجو أن تقدمني لعقيلتك. كنت دائماً، يا سيدتي، احترم دميتري فاسيليفتش (وصحح نفسه) نيكانور فاسيليفتش احتراماً عميقاً... وأنا سعيد جداً في أن يكون لي الشرف، آخر الأمر، أن اتعرف عليك - ومضى يقول مخاطباً اينساروف - تصور أنني مساء أمس فقط، عرفت أنكما هنا. أنا أيضاً اقيم في هذا الفندق. أية مدينة، فينيسيا هذه! أنها الشعر بعينه! شيء واحد فظيع هو أن النمساويين الملعونين في كل خطوة! ضقت من هؤلاء النمساويين! بالمناسبة، لعلك سمعت بأ معركة حاسمة جرت في الدانوب قتل فيها ثلاثمائة ضابط تركي. واحتلت سيلستريا، وأعلنت بلاد الصرب استقلالها. إلا يهيجك هذا وأنت المناضل؟ أنا، السلافي، يجعل الدم يفور في عروقي! ومع ذلك انصحك بأن تكون أكثر حذراً، وأنا واثق من أنك مراقب. الجاسوسية هنا مريعة! بالامس دنا مني شخص مريب، وسألني "هل أنت روسي؟" قلت له أنني دغماركي... لا بد أنك عليل، يا نيكانور فاسيليفتش الفاضل، وعليك أن تعالج نفسك. سيدتي، عليك أن تعالجي زوجك. بالامس كنت أطوف كالمجنون في القصور والكنائس. لا بد أنكما كنتما في قصر الدوجي؟ يا له من ثراء في كل مكان! لا سيما تلك القاعة الكبيرة وموضع مارينو فاليارى، كتب فيه ^(٦٠) decapitate pro criminibus. وقد زرت السجون الشهيرة، حيث انفعلت شديد الانفعال. لا بد أنك تذكر. كنت دائماً أحب الاهتمام بالمسائل الاجتماعية، ووددت لو أرسل المدافعين عن الارستقراطية إلى هذه السجون. كان بايرون محقاً في قوله ^(٦١) "I stood

(٦٠) "قطع رأسه لجرائمه" (باللاتينية في الأصل).

(٦١) «وقفت في فينيسيا على جسر التهديدات» (بالانجليزية في الأصل).

كان، بالمناسبة، ارستقراطياً. كنت دائماً في صف التقدم. الجليل الفتى كله في صف التقدم. والانجليز والفرنسيون؟ سزى هل سيفعل بوسترايا وبالمرستون الشيء الكثير. أنت تعرف أن بالمرستون أصبح الوزير الأول. على كل حال، القبضة الروسية ليست مزحة. أن بوسترايا هذا محتمل فظيع. هل تريد أن اعطيك "Les Châtiments" de Victor Hugo^(٦٢) شيء مدهش! "L'avenir le gendarme de Dieu"^(٦٣) وهو قول جريء بعض الشيء، ولكنه القوة، القوة. وما قاله الأمير فيازيمسكي جيداً أيضاً: "أوروبا لا تقفأ تردد: باش - كاديك - لار، وابصارها مثبتة في سينوب". أنا اعشق الشعر. وعندى أيضاً آخر كتاب برودون. عندي كل شيء. لا اعرف كيف أنت، ولكن الحرب تسرني، فقط أن لا تلجأني إلى السفر إلى الوطن، بينما أنا انوي السفر من هنا إلى فلورنسا، وإلى روما، وأظن أن السفر إلى فرنسا متعذر، فسأسافر إلى اسبانيا، يقال أن النساء هناك مذهلات، سوى كثرة الفقر والحشرات، وكنت سأسافر إلى كاليفورنيا، نحن الروس مباح لنا كل شيء، ولكنني عاهدت أحد المحررين على دراسة مسألة التجارة في البحر الابيض المتوسط بكل تفاصيلها. قد تقول أن هذا الموضوع غير ممتع ويهم المتخصصين، ولكننا بحاجة إلى المتخصصين، كفانا تفلساً، الممارسة ضرورية الآن، الممارسة... اظنك مريضاً جداً، يا نيكانور فاسيليفيتش، ربما اتعبك، ولكنني سأبقى جالساً بعض الوقت، على أية حال، اجلس قليلاً... وظل لوبوياروف يثرثر بهذا الشكل وقتاً طويلاً، ووعده، لدى خروجه، بزيارة ثانية.

(٦٢) «العقوبات» لفيكتور هوغو (بالفرنسية في الأصل).

(٦٣) "للمستقبل منفذ حكم الرب" (بالفرنسية في الأصل).

استلقى اينساروف على الارىكة وقد اتعبه هذه الزيارة غير المنتظرة.

نظر إلى يلينا وقال بمرارة:

- هذا هو جيل الشباب في روسيا: بعضه يتعاضم ويتباهى، ولكنه في قرارته فارغ كهذا السيد.

ولم ترد يلينا على زوجها، فقد كان ضعف اينساروف في تلك اللحظة يقلقها أكثر بكثير من وضع كل الجيل الفتى في روسيا... جلست إلى جانبه، وتناولت التطريز. اغمض اينساروف عينيه، ومدد بلا حراك، وبدا شديد الشحوب نحيلاً. نظرت يلينا إلى صفحة وجهه الحادة الخطوط، وإلى ذراعيه المسبنتين، واعتصر قلبها بخوف مفاجئ. قالت:

- دميتري...

جفل اينساروف.

- ماذا؟ جاء رينديتش؟

- لا، لم يأت بعد... ولكن ما رأيك، هل نستدعي طبيباً؟ صحتك ليست على ما يرام، وحرارتك مرتفعة، حقاً.

- اخافك ذلك الثرثار. لا حاجة. سأستريح قليلاً، ويزول كل شيء. وسنخرج مرة أخرى بعد الغداء... إلى مكان ما.

انقضت ساعتان، واينساروف ما يزال متمدداً على الارىكة، ولكنه لم ينم، رغم أن عينيه مغمضتان. ولم تبعد يلينا عنه. جعلت التطريز على ركبته، ولم تتحرك. وأخيراً سألته:

- ولماذا لا تنام؟

- على مهلك - وتناول يدها، وتوسّدها - هكذا... لطيف... ايقظيني، حالما يأتني رينديتش... وإذا قال المركب جاهز سافرنا في الحال... يجب أن نصف كل امتعتنا.

اجابت يلينا:

- لا يحتاج ذلك إلى وقت طويل.

وبعد قليل قال اينساروف:

- ما قاله ذلك الرجل عن المعركة وعن بلاد الصرب لا بد أن قد اختلقه كله. ولكن يجب أن نساfer. ولا يجوز تضييع الوقت... كوني متهينة. وغفا. وهدأ كل شيء في الحجرة.

القت يلينا رأسها على ظهر الكرسي، واستغرقت تنظر من النافذة وقتاً طويلاً. ساء الطقس، هبت ريح، وراحت تجوب اقطار السماء بسرعة غيوم بيضاء كبيرة. ممايلت صارية نحيلة في الافق البعيد، وراح العلم المثلث الطويل بصليبه الأحمر يرفرف بلا انقطاع، يسترخي ويرتفع من جديد. وكان رقااص الساعة القديمة يدق ثقيلأ، وبهسيس حزين. اغمضت يلينا عينيهأ. وكانت قد نامت نومأ سيئأ في الليل. فغفت، هي الأخرى، شيئأ فشيئأ.

حلمت حلمأ غريبأ. تراءى لها في النوم أنها في قارب على بركة تساريتسينو بصبحه أناس غرباء يجلسون صامتين بلا حراك، ولا أحد يجذف، والقارب يسير من تلقاء نفسه. ولم تكن يلينا مرتعبة، ولكنها ضجرة، فقد كانت تريد أن تعرف من هؤلاء الناس، ولم هي معهم، وتحرق، فإذا بالبركة تتسع، والضفاف تختفي، ولم تعد البركة بركة، بل صارت بحرأ مضطربأ. والامواج اللازوردية الصامتة الهائلة تؤرجح القارب ببطء، ويطلع من القاع شيء هادر مرعب وإذا بالغرباء يقفزون على ارجلهم، ويصيحون ويلوحون باذرعهم... وتتعرف يلينا على وجوههم، وأبوها بينهم ولكن الاعصار الابيض يدوم في الامواج وراح كل شيء يدور، ويختلط...

وتنظر يلينا فيما حولها. كل شيء أبيض كالسابق، ولكن الثلج يتساقط

إلى ما لا نهاية، ولم تعد جالسة في القارب، بل في الزلاجة التي نقلتها من موسكو، وليست وحيدة، بل مع مخلوق صغير ملتف بمعطف نسائي قديم. وتمعن يلينا فتعرف فيه كاتيا، صاحبته المتسولة المسكينة. وترتعب. ويجوف في ذهنها: "لم تمت بعد؟".

- كاتيا، إلى أين نحن ذاهبتان؟

ولا تجيب كاتيا، وتلتف بمعطفها. كانت ترتعد برداً. وتحس يلينا بالبرودة أيضاً. وترسل بصرها عبر الطريق، فترى مدينة تلوح في البعيد، خلال رذاذ الثلج. ابراج بيضاء عالية برؤوس فضية... كاتيا، كاتيا، أهذه موسكو؟ تفكر يلينا مع نفسها: لا، هذا دير سولوفيتسكي، وفيه الكثير، الكثير من الصوامع الصغيرة الضيقة، والجو هناك خانق، ودميتري محتجز هناك، ويجب أن اطلق سراحه... وفجأة تنشق أمامها هاوية بيضاء فاغرة. وتسقط الزلاجة، وتضحك كاتيا، وتردد صوت من الهاوية: يلينا، يلينا! ويصدر صوت واضح في اذنيها - "يلينا!" رفعت رأسها بسرعة، والتفتت، وجمدت على حالها، فقد رأت اينساروف مبيضاً كالثلج، كالثلج الذي رآته في حلمها، يرفع جسمه على الاريكة إلى النصف، ويحديق فيها بعينين واسعتين وضاءتين مرعبتين. وشعره متناثر على جبينه وشفته منفرجتان بشكل غريب ويرسم على وجهه المتغير فجأة رعب ممزوج بحنان وكآبة وقال:

- يلينا! أنا احتضر.

ركعت على ركبتيها صارخة، وانضغطت على صدره. كرر اينساروف:

- كل شيء انتهى. أنا احتضر. وداعاً، يا زوجتي المسكينة، وداعاً، يا وطني!..

وانطرح بظهره على الاريكة.

خرجت يلينا من الحجرة راکضة، وراحت تنادي طالبة النجدة، وانطلق خادم الاستدعاء طيبب. وارتمت يلينا على اينساروف.

وفي تلك اللحظة ظهر على عتبة الباب رجل عريض المنكبين، ملوّح البشرة في معطف سميك من الفانيله، وقبعة واطئة من المشمع. وتوقف في حيرة. هتفت يلينا:

— رينديتش! أنت هذا! انظر، بحق الرب، أنه في غيبوبة! ماذا به؟ يا الهي، يا الهي! بالامس خرج، وقبل لحظات كان يتكلم معي... لم يقل رينديتش شيئاً، سوى أنه تنحى. وتجاوزته خطفاً شخص صغير يضع على رأسه شعراً مستعاراً، ويلبس نظارة. أنه طيبب كان يقيم في نفس الفندق. وتقدم من اينساروف. وبعد لحظات قال:

— سينيورا. السيد الاجنبي مات — il signore forestiere emorto — من تمدد الاوعية الدموية مع اختلال الرئتين.

٣٥

في اليوم التالي كان يرنديتش واقفاً عند النافذة، في نفس الحجرة وقد جلست يلينا امامه ملتفة بشال. وكان اينساروف ممدداً في تابوت في الحجرة المجاورة. كان وجه يلينا مذعوراً وبلا حياة، وقد ظهر غضنان على جبينها بين الحاجبين كانا يضيفان على عينيها الجامدتين مسحة الاجهاد. وعلى النافذة رسالة من آنا فاسيليفنا مبسوطه تستدعي فيها آنا فاسيليفنا ابنتها إلى موسكو، ولو لشهر، وتشكو من وحدتها، ومن نيقولاي ارتميفيتش، وتسلم على اينساروف، وتستفسر عن صحته، وترجوه أن يسمح لزوجته بالسفر.

كان رينديتتش بحار من دالماسيا تعرف اينساروف عليه أثناء سفره إلى وطنه، ووجدته في فينيسيا. وكان رجلاً صارماً خشناً جسوراً مخلصاً للقضية السلافية. وكان يحتقر الاتراك، ويغض النمساويين.

سألت يلينا بالايطالية:

– كم ينبغي أن تمكث في فينيسيا؟

وكان صوتها بلا حياة كوجهها.

– يوماً لشحن الحمولة، ولعدم اثاره الريبة ثم نتجه إلى زارارأساً. لن افرح أبناء وطني. كانوا ينتظرونه منذ زمان، ويعولون عليه.

ردت يلينا بأكية:

– يعولون عليه.

سأل رينديتتش:

– متى ستدفينينه؟

تلكات يلينا في الجواب.

– غداً.

– غداً؟ سابقى. اريد أن القسي حفنة تراب على قبره. ويجب أن اساعدك أيضاً. كان الأفضل أن يرقد في تربة سلافية.

نظرت يلينا إلى رينديتتش، وقالت:

– يا قبطان، خذني واياه، وانقلنا إلى ذلك الجانب من البحر بعيداً عن هنا. اهذا ممكن؟

غرق رينديتتش يفكر.

– ممكن، ولكنه شاق. لا بد من تدبير الامور مع الرؤساء الملاعين هنا، لنفرض أننا تجاوزنا كل ذلك، ودفناه هناك، لكن كيف سأعود بك؟

- لا حاجة عند ذلك أن تعود بي.

- كيف؟ وأين ستبقين؟

- سأجد لنفسى مكاناً الجأ إليه، فقط أن تأخذنا، تأخذني...

حك رينديتش علباه.

- كما تشائين ولكن كل ذلك يقتضى جهداً كبيراً، أنا ذاهب وسأحاول. انتظريني هنا بعد حوالي ساعتين.

وانصرف. ذهبت يلينا إلى الحجرة المجاورة، واتكأت على الحائط، وبقيت واقفة لفترة طويلة كالمتحجرة. ثم ركعت على ركبتيها، ولكنها لم تستطع أن تصلي. لم تحس في روحها بتأنيب ولوم، ولم تتجاسر على أن تسأل الله لم لم يرحمهما، ولم يشفق عليهما، ولم يصنهما، ولم عاقبهما أكثر من ذنبهما، لو كانا مذنبين؟ أن كل واحد منا مذنب أصلاً لكونه يعيش، وما من مفكر عظيم، ولا أي محسن للإنسانية، يمكن أن يأمل، بحكم ما فعل من خير ونفع، بأن يكون له الحق في أن يعيش... ولكن يلينا لم تستطع أن تصلي، فكانت متحجرة.

في تلك الليلة غادر قارب عريض مرسى الفندق الذي كان اينساروف وزوجته يقيمان فيه. وفي القارب يلينا ورينديتش، وصندوق طويل مغطى بقماشة سوداء. وساروا زهاء ساعة، حتى وصلوا، أخيراً إلى سفينة صغيرة ذات صاريين كانت تلقي مراساتها عند المخرج من المرفأ تماماً. وصعدت يلينا ورينديتش إلى السفينة، وحمل البحارة الصندوق. وعند منتصف الليل هبت زوبعة، ولكن السفينة كانت، في باكر الصباح، تمر بالليدو. وخلال النهار كانت الزوبعة تعربد بقوة رهيبية، وكان البحارة المحنكون في مكاتب شركة "لويد" يهزون رؤوسهم، ولا يتوقعون أي خير. والبحر الادرياتيكي بين فينيسيا وتريست والساحل الدالماسي خطر للغاية.

وبعد ثلاثة أسابيع من خروج يلينا من فينيسيا تلقت آنا فاسيليفنا في
موسكو الرسالة التالية:

”والدي العزيزين. اودعكما إلى الأبد. لن ترياني بعد الآن. يوم أمس
قضى دميتري نجه، وانتهى كل شيء بالنسبة لي. اليوم سأسافر مع جثمانه
إلى زارا. سأدفنه هناك، ولا اعرف ماذا سيكون معي! ولكن لم يعد لي
وطن، غير وطن د. يجري الاعداد لانتفاضة هناك، والناس يتهيوون،
للحرب، وسأكون ممرضة فيها، واعتنى بالمرضى والجرحى. أنا لا اعرف
ماذا سيحدث لي، ولكنني سأظل، بعد وفاته، مخلصه لذكراه ولقضية
حياته. اعرف الآن اللغتين البلغارية والصربية. ولعني لا تحمل كل ذلك،
وهذا افضل. لقد وصلت إلى حافة الهاوية، ويجب أن اسقط. أن القدر
لم يجمع بيننا جزافاً. من يدري فقد اكون أنا التي قتلته، والآن جاء دوره
ليجبرني وراءه. كنت ابحث عن السعادة، ولكنني ربما سأجد الموت.
والظاهر أن هذا ما كان يجب أن يكون. الظاهر أن خطيئة قد ارتكبت...
ولكن الموت يغطي كل شيء، ويسوي كل شيء. أليس كذلك؟ سأحياي
عن كل الاحزان التي سببتها لكما. أن ذلك لم يكن بارادتي. ثم لم اعود
إلى روسيا؟ ماذا افعل في روسيا؟

تقبلا قبلاتي الأخيرة وتبريكاتي، ولا تديناني.

ى.“

انقضى على ذلك زهاء خمسة أعوام، ولم يأت أي خبر آخر عن يلينا.
ولم تجد نفعاً كل الرسائل والاستفسارات ما لم يأت بشيء سفر نيقولا
ارتميفيتش نفسه إلى فينيسيا وزارا، بعد انعقاد الصلح. في فينيسيا لم يعرف
إلا ما يعرفه القارئ حتى الآن، وفي زارا لم يستطع أحد أن يمده بمعلومات
ايجابية عن رينديتش، ولا عن السفينة التي استأجرها. وسرت شائعات
غامضة تزعم أن تابوتاً قد قذف إلى الساحل، بعد زوبعة شديدة، منذ عدة

سنوات، وقد وجدت في هذا التابوت جثة رجل... وتقول معلومات أكثر وثوقاً أن هذا التابوت لم يقذفه البحر اطلاقاً، بل جاءت به سيدة اجنبية قادمة من فينيتسيا ودفنته قرب الساحل، وازداد آخرون أن هذه السيدة قد شوهدت بعد ذلك في الهرسك مع قوات كانت تؤلف آنذاك، بل ووصفت ملابسها السوداء من الرأس حتى القدمين. ومهما يكن من شيء فإن أثر يلينا قد اختفى، وإلى الأبد، ولا احد يعرف هل ما تزال حية محتفية في مكان ما أم أن لعبة الحياة الصغيرة قد انتهت، وانتهى فورانها الخفيف، وحلّ الاجل. يحدث أن يستيقظ إنسان في نومه، ويسأل نفسه بذعر مباغث: اصحيح أنني بلغت الثلاثين... الاربعين... الخمسين؟ وكيف مرت الحياة بهذه السرعة؟ ودنا الموت هذا الدنو؟ أن الموت كالصياد الذي اصطاد سمكة، وابقاها في شبكته في الماء لبعض الوقت، والسمكة ما تزال تسبح، ولكن الشبكة تطوقها، والصيد يخرجها متى شاء.

ماذا جرى لاشخاص قصتنا الآخرين؟

ما تزال آنا فاسيليفنا حية ترزق، وقد ظهر عليها الكبر كثيراً بعد الضربة التي صعقتها، وقلت شكواها، ولكنها صارت اشد حزناً. كما ظهر الكبر على نيقولاي ارتميفيتش أيضاً، وغشاه الشيب، وانقطت علاقته بافغوستينا خريستيانوفنا... وهو الآن يشتم كل ما هو أجنبي. ومديرة بيته، وهي امرأة روسية جميلة في نحو الثلاثين من العمر ترفل بالحرير، وتحلى بخواتم واقراط ذهبية. وكورناتوفسكي، ذو المزاج الحاد، والولوع بالشقرواات الوسيمات، لكونه أسود الشعر حيويًا، تزوج زويا التي طاعته كثيراً، بل وكفت عن التفكير بالالمانية. وبيرسينيف في هايدلبورغ؛ ارسل إلى الخارج على نفقة الحكومة، وزار برلين وباريس، وهو لا يضيع الوقت سدى. وسيطلع منه معلم صاحب كفاءة. وقد لفتت انظار الجمهور المتعلم مقالاتان له هما: "عن بعض خصائص القانون الالمانى القديم في مسألة العقوبات القضائية"، و"عن اهمية نشوء المدن في مسألة الحضارة".

والمؤسف فقط أن كلتا المقالتين قد كتبتا بلغة ثقيلة قليلاً تتخللها الكلمات الاجنبية. وشوبين في روما، وقد انقطع بكليته إلى فنه، ويعتبر واحداً من اروع النحاتين الشبان الواعدين كثيراً. ويرى الصفايون المتشددون أنه لم يدرس القدامى دراسة كافية، وأنه يفتقر إلى "أسلوب" يعدونه من المدرسة الفرنسية، وله طلبيات كثيرة جداً من الانجليز والامريكين. وفي الفترة الاخيرة اثار نحتة "الباخوسية" ضجة كبيرة. وكان الكونت الروسي بوبشكين، وهو ثري شهير، ينوي شراءه بالف سكودي، ولكنه فضل أن يعطي ثلاثة آلاف سكودي لنحات آخر، فرنسي^(٦٤) Pur sang ليقتني نحت "ريفية شابة تموت من الحب على صدر ملاك الربيع". وكان شوبين يرسل، من حين لآخر، اوفار ايفانوفيتش الذي هو وحده لم يتغير قط في أي شيء. وقد كتب شوبين له منذ حين: "هل تذكر ما قلته لي في الليلة التي عرفنا فيها بزواج يلينا المسكينة، حين كنت جالساً على سريرك، واتحدث إليك؟ هل تذكر حين سألتك: هل سيكون عندنا بشر؟ واجبتني: "سيكونون". آه، يا قوة التربة السوداء! والآن أيضاً سألك مرة أخرى من هنا، من "بعدي المريح": "حسناً، يا اوفار ايفانوفيتش، هل سيكونون؟".

لاعب اوفار ايفانوفيتش اصابعه، وثبت نظرتة اللغزية في البعيد.

(٦٤) تقي الدم (بالفرنسية في الأصل).

الآباء والبنون

ترجمة خيري الضامن

تكريماً للذكرى

فيساريون بيلينكسي

١

- هل ترى شيئاً يا بيوتر؟ - سأل السيد خادمه الشاب ذا الوجنتين الممتلئتين والذقن المكسو بزغب يميل إلى البياض والعينين الصغيرتين الداويتين. كل شيء في هذا الخادم: حركاته اللبقة وشعره المدهون وقرط الفيروز المتدلي من احدى اذنيه، ينم عن انتمائه إلى الجيل العصري المتقدم.لقى الخادم بنظرة متعالية على طول الطريق وأجاب: «لا أرى شيئاً، يا سيدي، لا شيء».

كان ذلك في العشرين من مايو ١٨٥٩. وكان السيد الذي تجاوز الاربعين قد خرج، حاسر الرأس بمعطف مغبر وسروال مخطط ذى مربعات، من خان يقع على أحد الطرق الكبيرة. توقف على دكة مدخل الحان الواطئة وكرر السؤال:

- لا شيء؟

- لا شيء، - اجابه الخادم ثانية.

تنهد السيد وجلس على المصطبة فلوى ساقيه تحتها وأخذ ينظر حواليه وهو غارق في خضم أفكاره. وما دام على حاله هذه فلنعرف القارئ عليه.

اسمه نيكولاي بتروفيتش كيرسانوف. ولديه، على بعد ١٥ كيلومتراً عن الحان، ضيعة جيدة قيمتها مئتا نسمة كما يقال عادة، أو مساحتها الفا

هككار، كما يقول هو منذ أن انفصل عن الفلاحين وانشأ «مزرعة» له. كان أبوه جنرالاً روسياً فظاً غليظاً، ولكنه لا يحقد على أحد. قاتل في حرب ١٨١٢، وأدى خدمته الروتينية طوال حياته. قاد في بادئ الأمر لواء ثم فرقة، وقضى حياته في الأطراف حيث لعب دوراً كبيراً بحكم رتبته. ولد نيكولاي بتروفيتش في جنوب روسيا، شأن أخيه الأكبر بافل الذي سنتحدث عنه فيما بعد. وترعرع حتى الرابعة عشرة من العمر في داره وسط جمع من المربين الرخيصين والياورية الوقحين المتزلفين وغيرهم من العسكريين. وكانت أمه، وهي من آل كوليازين، واسمها قبل الزواج (اغاثا)^(١) وبعده اغافو كليا كوزمينيشينا كيرسونوفا، تعتبر في عداد «أمهات الجنود»، وقد اعتادت على ارتداء قلنسوات فاخرة وفساتين حريرية ذات حفيف صاخب. كانت أول من يقترب من الصليب في الكنيسة. وهي كثيرة الكلام ذات صوت جهوري عال. في كل صباح تسمح لأطفالها بأن يقبلوا أيدها، وتباركهم عندما يرقدون في الليل. وباختصار فقد كانت تعيش كما يحلو لها. كان على نيكولاي بتروفيتش الذي لم يتميز بالشجاعة أبداً، بل استحق نعت الجبان، أن ينخرط في الخدمة العسكرية مثل أخيه بافل: فهو ابن جنرال. ولكن رجله انكسرت في اليوم الذي ورد فيه الاشعار باستدعائه للخدمة. لازم الفراش شهرين ثم ظل طوال حياته «أعرج» يئس منه أبوه فتركه وشأنه للحياة المدنية أصطحبه إلى بطرسبورغ حالما بلغ الثامنة عشرة وادخله الجامعة. وفي تلك الاثناء تخرج اخوه وعين ضابطاً في فوج الحرس. عاش الشقيقان معاً في منزل واحد تحت رعاية غير ثقيلة من جانب ابن عم امهما ايليا كوليازين الذي كان يشغل منصباً هاماً. عباد أبوهما إلى فرقته وإلى عقيلته. وصار من حين لآخر يبعث إلى ولديه

(١) في الأصل بالفرنسية Agathe، أثرنا أن نترجم بين هلالين ما ورد في النص الروسي بلغات أخرى - المترجم.

رسائل مكتوبة بحروف عريضة وبخط متقن على ورق رمادي اللون ومذيلة بالكلمات التالية المرسومة «بالتواءات» ورتوش زاهية: «الميجر جنرال بيوتر كيرسانوف». في عام ١٨٣٥ تخرج نيكولاي بتروفيتش من الجامعة بدرجة ماجستير. وفي العام نفسه وصل الجنرال كيرسانوف مع زوجته بطرسبورغ ليقاما فيها بعد أن أحيل على التقاعد بسبب اخفاق أحد الاستعراضات. كان يستأجر دارا قرب متنزه تافريتشيسكي وينتسب إلى نادي النبلاء الانجليزي، ولكنه توفي فجأة بالسكتة الدماغية. وسرعان ما لحقت به اغافو كليا كوزمينيتشنا التي لم تستطع التعود على الحياة المبهما في العاصمة حيث نهشتها كأبة عيشة التقاعد. وفي أثناء ذلك وقع نيكولاي بتروفيتش، منذ أن كان والداه على قيد الحياة، الأمر الذي كدرهما كثيرا، في هوى ابنة الموظف بريولوفينسكي صاحب المنزل الذي سكنه سابقا. وهي فتاة مليحة، ومتطورة كما يقال: فقد كانت تطالع مقالات جادة في ركن «العلوم» في المجلات. تزوج نيكولاي بتروفيتش منها حالما انقضت فترة الحداد. فترك وزارة المقاطعات، حيث كان قد عين بتوصية من ابيه، وصار يتمتع بالنعيم مع زوجته ماشا في دار ريفية قرب معهد الغابات أولا، ثم في المدينة بشقة صغيرة جيدة ذات سلم نظيف وغرفة استقبال باردة بعض الشيء، وأخيرا في الضيعة حيث استقر نهائيا ورزق بعد حين بولده اركادي. عاش الزوجان حياة هائلة هادئة دون أن يفترقا ولا مرة تقريبا، وكانا يطالعان معا، ويعزفان على البيانو بربع ايد وينشدان الاغاني بصوتين. كانت هي تغرس الازهار وتفقد حقل الدواجن. وكان هو يدير شؤون المزرعة ويتوجه إلى الصيد في احيان نادرة، بينما يترعع اركادي وينمو هو الآخر بهناء وهدوء. مرت عشر سنوات كالحلم. وفي عام الف وثمانمائة وسبعة وأربعين توفيت زوجة كيرسانوف. فكادت هذه الضربة تقصم ظهره. وخط المشيب شعره في بضعة أسابيع. فشد العزم على السفر إلى الخارج بغية الترويح عن النفس ولو قليلا... ولكن عام ثمانين وأربعين

داهمه. فعاد إلى القرية مكرها. وبعد ركود طويل نسبيا شرع بممارسة شؤون الضيعة. وفي عام خمسة وخمسين اصطحب ابنه اركاوي إلى الجامعة وقضى معه ثلاثة شتاءات في بترسبورغ دون أن يغادر البيت تقريبا، وكان يسعى إلى معايشة رفاق ابنه الشبان. وفي الشتاء الرابع لم يستطع أن يزور ابنه، وها نحن نراه في شهر مايو عام ١٨٥٩ مترهلا، اشيب الشعر تماما، وعلى شيء من الاحديداب. أنه ينتظر ابنه الحائز على درجة الماجستير، شأنه شأن ابيه الذي حاز على هذه الدرجة في سالف الزمان.

انزوى الخادم وراء البوابة بدافع من اللياقة، أو ربما بسبب عدم رغبته في أن يظل عرضة لانظار سيده، وراح يدخن غليونه. طأطا نيكولاوي بتروفيتش رأسه وأخذ يتفحص درجات دكة المدخل البالية: كان فرخ دجاج كبير زاهي اللون يتمشى عليها برزانة ويضعها صفعات شديدة برجليه الصفراوين الكبيرتين، والقت قطة ملوثة نظرة غير ودية عليه، وهي تتناقص على الدرايزون. كانت حرارة الشمس لافحة. ورائحة خبز الجودار الساخن تفوح من ممر الخان الداخلي شبه المعتم. غرق بطلنا نيكولاوي بتروفيتش في لجة الاحلام، حيث كانت تدور في ذهنه بلا كلل كلمات: «ولدي... اركاشا^(٢)... ماجستير...». حاول أن يفكر في شيء ما آخر، ولكن تلك الكلمات كانت تعود إليه كل مرة. تذكر المرحومة زوجته... وهمس مغتما: «لم يطل بها العمرا»... هبطت حمامة رمادية بدينة على الطريق واسرعت ترشف الماء من بركة قرب البئر. صوب نيكولاوي بتروفيتش نظراته إليها، بينما التقطت أذناه طقطقة عجلات تقرب. اندفع الخادم من وراء البوابة وهتف:

(٢) صيغة التحبيب من اسم اركاوي - المترجم.

- أعتقد أنهم وصلوا.

نهض نيكولاي بتروفيتش بلمح البصر وسلط نظراته على طول الطريق. بانث عربية تجرها ثلاثة من جياذ البريد، ولاح من العربية شريط القبعة الطلابية وبدت ملامح الوجه الحبيب...

- أركاشا! أركاشا! - صاح كيرسانوف وهرع ملوحاً بيديه... بعد لحظات لامست شفتاه خد ابنه الأسمر المغبر الذي لم ينبت الشعر عليه بعد.

٢

- دعن

ي انفض الغبار يا ابتي، كيلا الوثك، - قال اركادي بصوت فتى جهوري مبحوح بعض الشيء بسبب السفر، وهو يردد بمرح على ملاطفة أبيه.

- لا بأس، لا تهتم، - اصر نيكولاي بتروفيتش في ابتسامة متيمة وطبّطب مرتين على ياقة معطف ابنه وعلى معطفه هو. - أرنا كيف أنت، - اضاف مبتعداً بعض الشيء، ثم اتجه على الفور نحو الخان بخطوات متسارعة، وهو يتمتم: «إلى هنا، إلى هنا. عجلوا باخراج الجياذ».

كان نيكولاي بتروفيتش أكثر اضطراباً من ابنه. فقد بدا في شيء من الحيرة والتهيب. اوقفه اركادي قائلاً:

- اسمح لي، يا ابتي، أن أقدم إليك صديقي الطيب بازاروف الذي كتبت لك عنه الكثير. لقد تفضل ووافق على أن يحل ضيفاً علينا.

استدار نيكولاي بتروفيتش على عجل واقترب من الشاب الفارع القامة الذي هبط توا من العربية الكبيرة في رداء طويل ذي شراريب،

وإطبق بشدة على يده الوردية العارية التي مدها له الشاب بتلكو، فبادره نيكولاي بتروفيتش:

- أنا مسرور من صميم القلب، وممتن لرغبتك^(٣) في ضيافتنا، أمل يا... اسمح لي بمعرفة اسمك الكريم.

- يفغيني فاسيليفيتش. - اجاب بازاروف بصوت رجولي متراخ، وازاح ياقة ردايه فبان وجهه كله أمام نيكولاي بتروفيتش. وجه نحيل مستطيل بجبهة عريضة وانف مسطح في أعلاه ومدبب في أسفله وعينين واسعتين خضراوين بعض الشيء وفودين متدليين بلون الرمل وانطبعت ابتسامة هادئة لتزين هذا الوجه الذي ينم عن ذكاء وثقة بالنفس.

- أمل يا عزيزي يفغيني فاسيليفيتش أن لا يتتابك الضجر عندنا، - واصل نيكولاي بتروفيتش كلامه.

كادت شفتا بازاروف الرقيقتان تنفرجان عن ابتسامة، ولكنه لم يرد بشيء، بل اكتفى برفع قبعته. ولم يكن شعره الكث الطويل الاشقر ليحجب التواءات العريضة على جمجمته الضخمة.

- ما رأيك يا اركادي؟ - قال نيكولاي بتروفيتش من جديد ملتفتا إلى ابنه. - هل نعد الجياد الآن، ام انكما تريدان أن تأخذا قسطا من الراحة؟

- سنستريح في المنزل، يا ابتي. فليعدوا الجياد.

فقال الأب مؤيدا:

- في الحال، هل انت سامع يا بيوتر؟ رتب الأمر، وبأسرع ما يمكن.

(٣) الروس يخاطبون الغرباء بصيغة الجمع احتراماً لهم، ولكننا آثرنا أن نترجم ذلك بصيغة المفرد، عدا الحالات التي يخاطب فيها الخدم أسيادهم - المترجم.

اختفى بيوتر وراء البوابة من جديد. وكان هذا الخادم العصري قد اكتفى بانحناءة من بعيد لسيدة الابن دون أن يقترب منه ليقبل يده.

- عندي عربية مكشوفة، ولكن ثلاثة جياد جاهزة لعربتك أيضاً
- قال نيكولاي بتروفيتش مشغول البال، في حين راح اركادي يشرب الماء من أبريق معدني احضرته صاحبة الخان، وشرع بازاروف يدخن غليونه واقترب من الحوذي الذي فك اربطة الجياد. وأضاف نيكولاي بتروفيتش: - غير أن عربتي بمقعدين فقط، ولا أدري بخصوص صديقك...

- سيرتحل في عربتي - قاطعه اركادي بصوت خافت. - لا داعي للرسميات معه. فهو شاب رائع ومتواضع للغاية، سترى ذلك بنفسك.

اقتاد حوذي نيكولاي بتروفيتش جياده. فقال بازاروف لحوذيه:

- عجل، يا ذا اللحية الكثة!

- هل سمعت، يا ميتيوخا، كيف نعتك السيد؟ - انتعش الحوذي الآخر ويدها مدسوستان في الشقين الخلفيين لفروته، - لحية كثة بالضبط. اكتفى ميتيوخا بهزة من رأسه، وسحب عنان فرس المقدمة التي تصببت عرقاً.

- هيا، هيا، يا شباب، ساعدونا وستحصلون على اكرامية، - هتف نيكولاي بتروفيتش.

أعدت الجياد في بضع دقائق. فاستقل الاب والابن العربية المكشوفة. وقعد بيوتر بجانب الحوذي، بينما قفز بازاروف إلى العربية الكبيرة ومال برأسه على الوسادة الجلدية، وتحركت المركبتان.

- حصلت على الماجستير وعدت إلى الأهل أخيراً - قال نيكولاي بروفيتش وهو يلامس كنف ارКАДي تارة وركبته تارة أخرى.

- كيف حال عمي؟ هل هو بصحة جيدة؟ - سأل ارКАДي معجلاً في تحويل الكلام من حالة الانفعال إلى الأمور العادية، بالرغم من الفرحة الصادقة، والطفولية تقريبا، التي تملأ فؤاده.

- بصحة جيدة. كان عازماً على الخروج معي لاستقبالك، ولكنه غير رأيه لسبب ما.

- وهل انتظرتني طويلاً؟

- خمس ساعات تقريبا.

- ما أطيبك يا ابتي!

استدار ارКАДي بسرعة نحو أبيه وطبع على خده قبلة رنانة. فضحك نيكولاي بروفيتش بهدوء. ثم قال:

- جهزت لك حصاناً رائعاً. وستأكد من ذلك بنفسك. ثم أن جدران غرفتك مزينة بالورق.

- وهل هناك غرفة لبازاروف؟

- سنعد غرفة له هو الآخر.

- ارجوك يا ابتي، اعتن به. فأنا عاجز عن التعبير عن مدى اعتزازي بصداقته.

- يبدو أنك تعرفت عليه من مدة قريبة، أليس كذلك؟

- بلى.

- ولذا لم اره في الشتاء الماضي. ماذا يدرس؟

- شغله الشاغل هو العلوم الطبيعية. ولكنه ملم بكل شيء ويستعد لاجتياز امتحانات الطب.

- اها، أنه في الكلية الطبية - قال نيكولاي بتروفيتش ولزم الصمت برهة، ثم سأل من بيوتر مشيرا بيده: - هؤلاء الراكبون فلاحونا، أليس كذلك؟

التفت بيوتر نحو الجهة التي أشار إليها سيده. كانت عدة عربات تجرها خيول مفكوكة الالجمة تنهب الدرب الريفي الضيق. وفي كل عربة فلاح أو فلاحان بفروات مفتوحة الازرار.
- بالضبط، يا سيدي، - اجاب بيوتر.

- إلى أين يقصدون؟

- إلى المدينة في أغلب الظن. إلى الحانة - اضاف بيوتر بازدياء، ومال قليلا نحو الحوذي وكأتما يأمل أن يجد فيه مؤيدا للرأيه. إلا أن ذاك لم ينبس ببنت شفة. فهو شخص محافظ لا يؤمن بالأراء العصرية. فواصل نيكولاي بتروفيتش كلامه مخاطبا ابنه:

- ازدادت مشاغلي في العام الحالي بسبب الفلاحين. أنهم لا يدفعون الجزية. فماذا افعل لهم؟

- وهل أنت مرتاح من عمالك الاجراء؟

فأجاب نيكولاي بتروفيتش مكرها:

- أجل. ولكن المصيبة انهم يندفعون بالتحريض. ثم أنه ليس لديهم حماس حقيقي في العمل. وهم يتلفون عدة الخيل. غير أنهم حرتوا على نحو لا بأس به. كل شيء سيكون على ما يرام. ولكن هل تشغل شؤون الضيعة بالك الآن؟

- المصيبة أن الظل معدوم لديكم - لاحظ اركاادي دون أن يجيب

على السؤال الأخير. فقال نيكولاي بتروفيتش:

- علقْتُ ستارة كبيرة على الشرفة من جهة الشمال، واصبح بالامكان تناول الغداء في الهواء الطلق.

- سيكون ذلك اشبه بالفلات الصيفية... ولكن لا يهم، تلك امور تافهة. فما اروع الهواء المنعش هنا! وما ازكى الروائح! يخيل اليّ أن الروائح الفواحة في هذه البقاع ليس لها مثيل في أي مكان في العالم. ثم ما اجمل السماء...

سكت اركادي فجأة. القى بنظرة منحرفة إلى الورا، ثم لزم الصمت. فقال نيكولاي بتروفيتش:

- بالطبع. ولدت في هذه الانحاء ولا بد أن يبدو لك كل شيء هنا في صبغة خاصة...

- كلا، يا ابتي، لا فارق في ذلك مهما كان المكان الذي يولد فيه المرء.
- ولكن...

- كلا، لا فارق بتاتا.

القى نيكولاي بتروفيتش نظرة جانبية على ابنه. ولم يستأنف الحديث بينهما إلا بعد أن قطعت العربية زهاء نصف كيلومتر، حيث بدأ نيكولاي بتروفيتش كلامه:

لا اتذكر كتبت لك ام لا؟ توفيت مريبتك القديمة يغوروف.

حقاً؟ لا للعجوز المسكينة! وهل بروكوفيتش على قيد الحياة؟

- أجل، فهو على عادته في الدمدمة. وعلى العموم لن تجد تغيرات كبيرة في مارينو.

- وهل الوكيل باق هو نفسه؟

- وكيل المزرعة هو الشخص الوحيد الذي استبدلته. قررت أن لا احتفظ بعد الآن بالاقنان السابقين المعتوقين أو، على الأقل، أن لا أكلفهم بأية مهمات ذات مسؤولية - وعند ذلك اشار اركادي بغمزة من عينه إلى بيوتر، فقال نيكولاي بتروفيتش بصوت يكاد يشبه الهمس: - (أنه معتوق فعلا) (٤) ولكنه وصيفي المقرب. ولدي الآن وكيل من المدينة. شخص فظين على ما يبدو. وقد خصصت له مائتين وخمسين روبلا في العام. - ثم أضاف نيكولاي بتروفيتش قائلا، وهو يمسح جبهته وحاجبيه بيده، الأمر الذي يدل دوما على استحيائه الداخلي - أخبرتك الآن بأنك لن تجد تغيرات في مارينو... والحال فليس الأمر كذلك تماما... وأرى من واجبي تنبيهك مسبقا، مع أن...

تلعثم في الحديث لحظة ثم واصل كلامه بالفرنسية:

- مع أن الأخلاقي الصارم قد يعتبر صراحتي هذه في غير محلها. ولكن لا يمكن إخفاء ذلك، هذا أولا، وثانيا أنت عارف بأن لدي على الدوام مبادئ خاصة بشأن موقف الاب من ابنه. وعلى كل حال لك الحق طبعا في أن تلومني. ففي مثل سني هذه... وباختصار، أقصد... أقصد تلك الفتاة التي ربما سمعت عنها...

- فينيتشكا؟ - سأل اركادي بلا تكلف.

أحمر وجه نيكولاي بتروفيتش خجلا.

- أرجوك، لا تذكر اسمها بصوت عال... أجل، هي... أنها تعيش الآن عندنا. افردت لها مكانا في الدار... كانت هناك غرفتان صغيرتان. وبالمناسبة فذلك أمر يمكن تغييره.

(٤) في الأصل بالفرنسية Il est libre، en effet

- ما الداعي لتغييره، يا ابتي؟

- صديقك سيحل ضيفا علينا... ومن المخجل...

- لا تقلق، رجاء، بخصوص بازاروف، فهو إنسان لا يهتم بهذه الاعتبارات.

- أنا قلق بخصوصك، أنت، اذن، - قال نيكولاي بتروفيتش ثم أضاف: - بناية الجناح رديئة، يا للمصيبة.

فعاجله ارКАДي قائلا:

- عفوا، يبدو وكأنك تعتذر، اتق الله يا ابتي.

- بالطبع، علي أن اتقي الله - اجاب نيكولاي بتروفيتش وهو يزداد احمرارا.

- كفاك، يا ابتي، كفاك، ارجوك! - ابتسم له ارКАДي برقة وحنان. «مَ يعتذر؟» - فكر في دخيلة نفسه وامتلات جوانحه بشعور من الرقة المتسامحة ازاء والده الوديع الطيب، بشعور يشوبه احساس خفي بالتفوق. - دعك من هذا. ارجوك - كرر من جديد وهو يستمتع عفويا بادراكه اهمية تطوره وحرية.

تطلع إليه نيكولاي بتروفيتش من بين أصابع يده التي ظل يمسح بها جبهته، واحس بوخزة في القلب... ولكنه أناح باللائمة على نفسه في الحال. ثم قال بعد صمت طويل:

- ها هي حقولنا.

فقال ارКАДي:

- يبدو لي أن تلك الغابة، في الامام، غابتنا، اليس كذلك؟

- بلى، غابتنا. ولكنني بعثها. وسوف تقتلع اشجارها في العام الحالي.

– لماذا بعثها؟

– كنت بحاجة إلى نقود، ثم أن هذه الاراضي ستحال إلى الفلاحين.

– أولئك الذين لا يدفعون لك الجزية؟

– هذا أمر يعود لهم. اعتقد أنهم سيدفعونها في وقت ما.

– اسفي على الغابة – قال اركادي وأخذ يتطلع إلى ما حواليه.

الأماكن التي اجتازوها لا تستحق نعت المناظر الخلابة. فالحقول تمتد بعيدا حتى الافق، وهي ترتفع قليلا تارة وتنخفض تارة أخرى، وفي بعض الجهات لاحت غابات غير كبيرة، وكانت المنخفضات المطرزة بشجيرات واطئة متباعدة، تتلوى فتعيد إلى الاذهان صورها المرسومة على الخرائط القديمة المتبقية من عهد يكاتيرينا(٥٣). وصادفتهم نهيرات ذات ضفاف متآكلة، وبرك صغيرة عليها سدود متداعية، وقرى فيها اكواخ واطئة تحت سقوف قائمة مهدمة حتى منتصفها في الغالب، ومستودعات للدراس مالت اركانها بجدرانها المجدولة من العيدان والاغصان وبواباتها المخلوعة المثابنة قرب الاجران الخاوية، وكنائس قرميدية تساقط طلاء جدرانها في بعض الاماكن، وأخرى خشبية ذات صلبان مائلة ومقابر مدمرة. أخذ الالم يحز في فؤاد اركادي، حتى لكان ما رآه قد لاح أمامه عمدا. فكل الفلاحين الذين صادفهم كانوا مشعثين على خيول هزيلة. وكانت اشجار الصفصاف تنتصب على جانبي الطريق بلحانها الممزق وأغصانها المكسرة، كالتسولين في الاسمال. وكانت بقرات معروقة متحشفة، كأنها منهوشة حتى العظام، تقضم العشب بنهم في المنخفضات. وبدت هذه البقرات العجاف وكأنما تخلصت توا من برائن رهيبة فتاكة. فأنار منظرها المزرى في وضح النهار الربيعي شبحا أبيض ملفعا بالزوابع الجليدية والصقيع والثلوج، شبح الشتاء اللانهائي الخالي من المسرات. وفكر اركادي: «كلا، ليست غنية هذه البقاع. فهي لا تدهش

المرء بثروتها ولا بالمواظبة على العمل. كلا، لا يجوز أن تبقى على هذه الحال. ينبغي اجراء تحويلات... ولكن كيف يمكن تحقيقها؟ ومن أين نبدأ؟...».

هكذا فكر اركادي... في حين كان الربيع في اوجه. كل شيء حواليه، من أشجار وشجيرات وأعشاب، في خضرة ذهبية يانعة، وكل شيء يتموج ويلمع فسيحاً رقيقاً في انفاس النسيم الدافئ الهادئة. وفي كل مكان تنساب أصوات القبرات الرنانة بلا انقطاع. والزقايق تارة تنعق محومة فوق المروج المنخفضة وتارة تتراكم صامتة من كومة ترابية إلى أخرى، وغربان القيقظ تمشي سوداء جميلة في خضرة سنابل الربيع الغضة الواظنة. كانت هذه الغربان تختفي في الجوارد الذي ابيضت سنابله قليلا، ثم تلوح رؤوسها في أمواج السنابل الدخانية اللون بين الفينة والفينة، أطل اركادي التطلع حتى تراخت تأملاته بالتدرج وأخذت تختفي... خلع معطفه والقى على ابيه نظرة مرحة من محيا فتى يافع جعلت الاب يعانقه من جديد، ويقول:

- لم يبق إلا القليل. فما أن نتسلق هذه الهضبة حتى يلوح المنزل للانظار. وسنعيش معك، يا اركاشا، برغد وهناء. سوف تساعدني في أمور الضيعة إذا كان ذلك لا يسبب لك ضجرا. ينبغي لنا الآن أن نتقارب على نحو اوثق وأن نتعرف على بعضنا البعض بصورة أفضل، أليس كذلك؟

فأجاب اركادي:

- بالطبع. ولكن ما اروع النهار اليوم!

- خصيصا لمجئتك يا حبيبي. فالربيع يختال ضاحكا. ولكنني أقول مع بوشكين في ملحمة «يفغيني أونيفين»:

أيها الربيع، يا فصل الغرام!

ما أشد حزني لمجيئك.

فأي...

- ار كادي! - تعالى من العربة الثانية صوت بازاروف - ابعث لي ثقابا، فليس لدي ما اشعل به الغليون.

لاذ نيكولاي بتروفيتش باذيال الصمت، بينما كان ار كادي قد استعد ليستمع إليه بشيء من الاعجاب وبشيء من المشاطرة ولكنه اخرج من جيبه على عجل علبة ثقاب فضية وبعثها مع بيوتر إلى بازاروف فصاح هذا من جديد:

- هل تريد سيجارا؟

- أجل - اجاب ار كادي.

عاد بيوتر إلى العربة وسلمه مع علبة الثقاب سيجارا قائما غليظاً دخنه ار كادي في الحال وصار ينفث حواليه دخان التبغ العتيق، ففاحت رائحة حادة لاذعة جعلت نيكولاي بتروفيتش الذي لم يجرب التدخين ولا مرة في حياته يشيح بوجهه عفويا، ولكن بصورة غير ملحوظة كيلا يغيظ ابنه. بعد ربع ساعة توقفت العربتان أمام مدخل دار خشبية جديدة مطلية بدهان رمادي وذات سطح حديدي أحمر اللون. كانت تلك هي ضيعة مارينو، أو دارة الاعزب، كما يسميها الفلاحون.

٤

لم يهرع حشد كبير من الخدم إلى المدخل لاستقبال الاسياد. فقد ظهرت بنت في الثانية عشرة من العمر تقريبا، وخرج على أثرها من الدار فتسى شبيهه كل الشبه ببيوتر في سترة خدم رمادية ذات ازرار معدنية كبيرة بيضاء. أنه وصيف بافل بتروفيتش كيرسانوف. فتح باب العربة المكشوفة

صامتاً، ثم حل ازرار ستارة العربية الأخرى. اجتاز نيكولاي بتروفيتش وابنه وبازاروف قاعة معتمة تكاد تكون خالية إلا من وجه امرأة شابة لاح للحظة من خلال بابها، ودخلوا غرفة الاستقبال الموثثة على احدث طراز.

- ها نحن في الدار، - قال نيكولاي بتروفيتش وخلع قبعته وراح ينفض شعره - أهم شيء الآن هو تناول طعام العشاء ثم الاستجمام.

- حقاً، حبذا لو تناولنا الطعام - عقب بازاروف وهو يعدل من قامته، ثم جلس على الاريقة.

- أجل، أجل، قدموا طعام العشاء، وباسرع ما يمكن. - طقطق نيكولاي بتروفيتش بقدميه بدون أي سبب ظاهر - ها هو بروكوفيتش بالمناسبة.

دخل رجل نحيف اسمر في حوالي الستين، اشيب الشعر في بزة وصيف بنية اللون ذات ازرار معدنية وعلى عنقه منديل وردي. ابتسم ابتسامة عريضة وقبل يد اركادي ثم انحنى للضيف وتراجع نحو الباب حيث اشبك يديه وراء ظهره.

فقال نيكولاي بتروفيتش:

- ها هو ولدي قد وصل أخيراً... فكيف يبدو في نظرك يا بروكوفيتش؟

- في أحسن حال يا سيدي - اجاب العجوز وكثر من جديد مبتسماً، لكنه قطب حاجبيه الكثيفين في الحال وقال بمهابة: - هل تأمرون باعداد المائدة؟

- أجل، أجل من فضلك. ولكن هلا توجهت، يا يفغيني فاسيليفيتش، إلى غرفتك في بادئ الأمر؟

- كلا، متشكر، لا داعي لذلك. - قال بازاروف ثم اضاف وهو

يخلع رداءه: يكفي أن تأمر بنقل حقيبتني إليها مع هذا اللباس.

- طيب. يا بروكوفيتش خذ معك السيد. (التقط بروكوفيتش معطف بازاروف بكلتا يديه، في شيء من الاستغراب، ورفع فوق رأسه عالياً وانصرف على أطراف أصابعه). وأنت، يا اركادي، هل ستذهب إلى غرفتك للحظة؟

- أجل، ينبغي ان انتظف - اجاب اركادي وكاد يتجه إلى الباب لولا أن دخل غرفة الاستقبال في تلك اللحظة رجل متوسط القامة في بدلة انجليزية قائمة وربطة عنق قصيرة حسب الموضة وجزمة واطئة لماعة. أنه بافل بتروفيتش كيرسانوف. مظهره يدل على أنه في حوالي الخامسة والاربعين: شعره الاشيب القصير يبعث لمعاً قائماً كالفضة الجديدة، ووجهه المتجهم الخالي من الغضون والمعتدل التقاسيم والصابني كل الصفاء، كما لو نحت بازميل خفيف دقيق، يحتفظ بآثار وسامة رائعة. وعيناه السوداوان الوضاءتان المستطيلتان بعض الشيء جميلتان على الخصوص. كانت ملامح عم اركادي الرشيق الاصيل الارومة تم احتفظت باعتدال قوام الفتوة والتطلع إلى الاعالي بعيداً عن الارض، ذلك التطلع الذي يختفي بأغلبه في سن الثلاثين.

اخرج بافل بتروفيتش من جيب سرواله يده الجميلة ذات الاظافر الوردية الطويلة، وقد بدت أكثر جمالا بتأثير الردن الابيض الناصع كالثلج والمشدود بازم عليه فص كبير واحد من حجر عين الشمس، فمدها إلى ابن أخيه. وبعد أن (صافحه)^(٥) على الطريقة الاوروبية قبله ثلاث قبلات على الطريقة الروسية، أي أنه لامس خديه ثلاث مرات بشاربيه الفواحين، وقال: «اهلاً وسهلاً».

(٥) في الأصل بالانجليزية «shake hands».

عَرَفَ نيكولاى بتروفيتش بازاروف عليه، فحنى بافل بتروفيتش قده
اللدن قليلا وانفرجت شفتاه عن ابتسامة خفيفة، ولكنه لم يمد له يده، بل
دسها في جيبه مجددا.

- طال الانتظار حتى ظننت انكم لن تصلوا اليوم - قال بصوت وديع
وهو يتمايل بلطف ويهز كتفيه قليلاً ويكشف عن أسنانه الرائعة البيضاء -
فهل حدث شيء في الطريق؟

- لم يحدث شيء - اجاب ارКАДي - سوى أننا تباطأنا قليلاً. ولذلك
فنحن جياع كالذئاب. استعجل بروكوفيتش، يا ابتي، أما أنا فسأعود في
الحال.

- تمهل، أنا ذاهب معك - هتف بازاروف وقفز من الارىكة فجأة.
وخرج مع ارКАДي. فسأل بافل بتروفيتش:
- من هذا؟

- صديق اركاشا، وهو شخص ذكي جداً، كما يقول.

- سيبقى في ضيافتنا؟

- أجل.

- الطويل الشعر هذا؟

- نعم، اجل.

نقر بافل بتروفيتش باظافره على الطاولة ثم قال:

- يخيل الي أن ارКАДي (أصبح أقل تكلفاً)^(٦) - ثم اردف قائلاً: - أنا
مسرور لعودته.

(٦) في الأصل بالفرنسية «est dégourdi».

لم يسهبوا في الكلام أثناء العشاء. وخصوصاً بازاروف الذي لم يقل شيئاً في الواقع، ولكنه أكل كثيراً. تحدث نيكولاوي بتروفيتش عن حوادث مختلفة من حياته المزرعية، على حد تعبيره، وتناول الاجراءات الحكومية المرتقبة، وتكلم عن اللجان وعن النواب وعن ضرورة اقتناء المكائن وهلمجرأ. وكان بافل بتروفيتش يجوب غرفة الطعام متوانيا جيئة وذهاباً (فهو لا يتناول طعام العشاء ابداً)، ونادراً ما يرتشف جرعة من قدحه المملوء بنبيد قاتم، وكان ييدي، على نحو اندر، ملاحظة ما، أو على الاصح تند عنه اصوات التعجب من طراز «أها! هيه!». ذكر اركادي بعض أبناء بطرسبورغ، ولكنه احس بشيء من عدم الارتياح الذي ينتاب الشاب عادة حينما يكف عن أن يكون طفلاً فيعود إلى المكان الذي اعتاد الآخرون أن يروه فيه ويعتبروه طفلاً. كان يمطط كلامه دوغما داع ويتحاشى ذكر كلمة «ابتي» حتى أنه استبدلها مرة بكلمة «الوالد» ونطقها في الواقع بصوت خافت، وصب في قدحه، بمزيد من عدم التكلف، قدراً أكبر مما كان يريد، ثم تجرع النبيد حتى الثمالة. وما كان لتحديد عنه عينا بروكوفيتش الذي لم يفعل غير أن راح يعلك شفثيه طوال الوقت. وبعد العشاء تفرقوا في الحال.

- عمك غريب الاطوار بعض الشيء - قال بازاروف لاركادي وهو جالس بردائه البيتي قرب سريره يمتص أنفاساً من غليونه القصير. - منتهى التأنق في الريف، يا للغرابة! ثم أن اظافره، اظافره تستحق أن ترسل إلى المعرض!

فأجاب اركادي:

- أنت لا تدري. كان في زمانه ليثاً. سأقص عليك قصته في وقت آخر. كان في منتهى الجمال، وكان محبوب النساء.

- هكذا اذن! يعني أنه لا يزال على عاداته القديمة. ولكن لا أحد هنا

يمكن اغواؤه مع الأسف. لاحظت أن ياقته منشأة على نحو مدهش، كما لو كانت من حجر، وذقنه حليق بكل عناية. أليس ذلك، يا اركادي، مثاراً للضحك؟

- ربما. ولكنه رجل طيب حقاً.

- أنه ظاهرة أكل الدهر عليها وشرب. أما أبوك فهو إنسان رائع بالفعل. عبثاً يتلو الأشعار، ومن المستبعد أنه يفهم شيئاً في أمور المزرعة، ولكنه طيب القلب.

- والدي إنسان من التبر الخالص.

- هل لاحظت أنه خجل؟

هز اركادي رأسه بالايجاب وكأنما لم يعتوره هو نفسه الخجل. فواصل بازاروف كلامه:

- عجيب أمرهم هؤلاء الرومانسيين الكهول! انهم يرهقون جهازهم العصبي إلى حد الانفعال... وعند ذاك يختل توازنهم. ولكن إلى اللقاء! باب غرفتي دون قفل. وفيها غسال انجليزي. هذا أمر يستحق الثناء. فالغسالات الانجليزية تعني التقدم!

انصرف بازاروف. واجتاح اركادي شعور بالفرحة. فالنوم لذيذ في المنزل الحبيب، في السرير المعتاد، تحت غطاء خاطئه يدان حبيبتان، ربما هما يدا المريية، يدان طيبتان حنونان لا تعرفان الكلل. تذكر اركادي مربيته يغوروننا فتنهد وتنمى لها النعيم في الآخرة... ولكنه لم يتهل من أجل نفسه.

سرعان ما اكتنفه الكرى هو وبازاروف. بيد أن الآخرين في الدار لم يراودهم النعاس امدأ طويلاً. كانت عودة الابن قد هيجت مشاعر نيكولاي بتروفيتش فاضطجع على سريره دون أن يطفى الشموع واطال



التفكير مسنداً رأسه بيده. أما أخوه فقد تجاوز منتصف الليل بوقت طويل وهو جالس على مقعد وثير واسع في مكتبه امام المدفأة الحائطية التي كان الفحم الحجري يستعر فيها بخفوت. لم يخلع بافل بتروفيتش ملبسه، سوى أنه استبدل جزمته الواطئة اللماعة بصندل صيني أحمر مكشوف المؤخرة. امسك بآخر عدد من (غالينيانى)^(٧)، ولكنه لم يقرأه كان يحدق في المدفأة حيث يرتعش الذهب الازرق مندلعاً تارة وخافتاً تارة أخرى...

الله يعلم أين تحوم افكاره المركزة، ولكنها لم تكن تجوب الماضي وحده: فقد كانت تقاطيع وجهه عابسة مكفهرة، الأمر الذي لا يحدث عندما ينشغل بال المرء بالذكريات وحدها. أما في الغرفة الخلفية الصغيرة فقد جلست على صندوق كبير امرأة شابة، هي فينيتشكا، في بلوزة زرقاء ومنديل أبيض يغطي شعرها الفاحم. كانت تارة تسمع، وتارة تغفو، وتارة تنظر إلى الباب المنفرج عن سرير صغير فيه طفل نائم تنهادر أنفاسه خفيفة رتيبة.



في صباح اليوم التالي استيقظ بازاروف قبل الآخرين وخرج من الدار. تطلع حواليه وفكر في نفسه: «أها! هذه الأماكن يعوزها الجمال». عندما فصل نيكولاى بتروفيتش ارضه من أراضي فلاحيه اضطر إلى انشاء الضيعة الجديدة على بقعة مستوية عارضة تماماً مساحتها زهاء أربعة هكتارات، فبنى داراً ومنشآت للخدمة ومزرعة، وغرس بستانا وحفر بركة وبثرين، إلا أن الشجيرات الغضة لم تزدهر بالشكل اللازم، وتجمعت في البركة

(٧) في الأصل Galignani. وهي جريدة يومية لبرالية أسسها جوفانى غالينيانى وصدرت بالانجليزية في باريس اعتباراً من عام ١٨١٤ - المترجم.

مياه قليلة جداً، وكان طعم ماء البثرين مالحاً بعض الشيء. ولم تنم كما يجب إلا تعريشة الاستراحة المكونة من الليلاك والاقاصيا، حيث كانوا يحتسون الشاي ويتناولون طعام الغداء أحياناً. جاب بازاروف في بضع دقائق جميع مماشى البستان ومر بزريبة الماشية والاسطبل وصادف اثنين من أبناء الخدم فتحدث معهما وأخذهما على الفور إلى المستنقع الصغير الواقع على بعد كيلومتر عن الضيعة بغية تصيد الضفادع.

فسأله أحد الولدين:

- ما حاجتك إلى الضفادع يا سيدي؟

فأجاب بازاروف الذي يجيد على نحو خاص كسب ثقة الناس الأدنى منه رغم استهائته بهم وعدم تسامحه معهم إطلاقاً:

- أنسي أشرح الضفدعة وراقب ما يجري في داخلها، وبما أننا، أنا وأنت، نفس الضفادع بفارق واحد هو أننا نسير على رجلين اثنتين فأنتي سأعرف ما يجري في داخلنا أيضاً.

- وما فائدة ذلك؟

- كيلا أخطئ عندما تمرض أنت واضطر أنا لمعالجتك.

- أنت دختور؟

- نعم.

- هل أنت سامع يا فاسكا؟ السيد يقول أننا والضفادع شيء واحد.

يا للغرابة!

- أنا أخاف منها، من الضفادع - قال فاسكا، وهو طفل في حوالي السابعة حافي القدمين بقميصه القوزاقي الرمادي ذي الياقة المنتصبة وشعره الابيض كالكتان.

- لماذا تخاف منها؟ فهل تعض؟

- هيا، ادخلا الماء أيها الفيلسوفان!

في تلك الأثناء استيقظ نيكولاي بتروفيتش هو الآخر وتوجه إلى اركادي فوجده مرتدياً ملابسه. خرج الاب وابنه إلى الشرفة المحجوبة بالستارة. وعلى المائدة قرب الدرايزون كان السماور يغلي بين باقات كبيرة من الليلاك. حضرت نفس البنت التي كانت بالامس أول من استقبل القادمين في المدخل وقالت بصوت رفيع:

- فينيتشكا متوعكة، ولا تستطيع الحضور. وطلبت أن استفسر هل يروق لكم أن تصبوا الشاي بأنفسكم أم يجب ارسال دونياشا لتصبه؟
- سأصبه بنفسي، بنفسي - أجاب نيكولاي بتروفيتش على عجل.
- أي شاي تحب، يا اركادي، بالقشدة أم بالليمون؟
- بالقشدة - أجاب اركادي ثم قال متسائلا بعد لحظة صمت: - يا ابتي...

ألقي نيكولاي بتروفيتش نظرة حائرة على ابنه وقال:

- ماذا؟

غض اركادي بصره وطفق يتكلم:

- اعذرني، يا ابتي، إذا بدأ لك سؤالي في غير محله. ولكن صراحتك بالامس تحملني على أن أكون صريحا... أفلا تزعل مني؟..
- تكلم.

- أنت تجعلني أجتاسر على أن أسألك... أليس السبب في عدم حضور فيني... أليس السبب في عدم حضورها لتصب الشاي هو وجودي أنا؟
اشاح نيكولاي بتروفيتش بوجهه قليلا، ثم قال أخيرا:

- ربما أنها تتصور... أنها تخجل...

داهم ار كادي اباه بنظرة سريعة وقال:

- لا داعي للخجل. فأنت تعرف، أولاً، طراز تفكيري (كان ار كادي مسروراً كل السرور لتلفظ هذه الكلمات). وثانياً - هل اريد أنا، يا ترى، أن أضيق على حياتك وعلى عاداتك قيد شعرة؟ ثم أنني واثق من أنك لا يمكن أن تختار السوء. فطالما سمحت لها بأن تعيش معك تحت سقف واحد فذلك يعني أنها تستحقه. وعلى كل حال فالابن ليس بحاكم على ابيه، وخصوصاً إذا كان الابن مثلي وإذا كان الاب مثلك أنت الذي لم تضيق على حريتي قيد اغملة.

كان صوت ار كادي يرتجف في بادئ الأمر. فقد أحس بشعور من التسامح والنبل، ولكنه ادرك في الوقت ذاته بأنه يتلو على ابيه ما يشبه الموعدة. إلا أن صوت المرء يؤثر عليه تأثيراً شديداً. ولذا تلفظ ار كادي الكلمات الاخيرة بصلافة، بل وعلى نحو مؤثر. فقال نيكولاي بتروفيتش بصوت خافت، وراحت اصابعه من جديد تفرك حاجبيه وجبهته:

- شكراً لك، يا ار كاشا. تصوراتك صائبة حقاً. فلو لم تكن هذه البنية جديرة، طبعاً... ذلك ليس نزوة عابرة. وليس من السهل علي أن اتكلم معك بهذا الخصوص، ولكنك تفهم جيداً أن من الصعب عليها أن تأتي بحضورك، وخصوصاً في اليوم الأول من وصولك.

- اذن فسأذهب إليها بنفسي - هتف ار كادي بنفحة جديدة من المشاعر النبيلة وقفز من كرسيه - وسوف ابين لها أن لا داعي للخجل مني.

نهض نيكولاي بتروفيتش هو الآخر وطفق يقول:

- ار كادي، أرجوك... لا تفعل ذلك... فأنا لم...

بيد أن ار كادي لم يسمعه، فقد ترك الشرفة راكضاً. لاحقه نيكولاي بتروفيتش بنظراته ثم هوى على الكرسي خجلاً. خفق قلبه... ومن

الصعب التأكيد بأنه تصور في تلك اللحظة غرابة العلاقات المرتقبة حتماً بينه وبين ابنه، أو أنه ادرك بأن اركادي ربما قدم له المزيد من الاحترام لو أنه لم يتناول هذه القضية بتاتاً، أو أنه لام نفسه على ضعفها وخورها. كانت جميع هذه المشاعر تعتمل في دخيلته، ولكن بشكل أحاسيس تكاد تكون غامضة، بينما الاحمرار لا يزايل وجهه، ولا يزال قلبه يخفق.

تهادت خطوات مستعجلة. دخل اركادي الشرفة تعلو وجهه مسحة من الطيبة والحنان وهتف متصراً:

- لقد تعارفنا، يا والدي! وهي متوعكة حقاً اليوم وسوف تأتي فيما بعد. ولكن لم تخبرني بأن لدي أخاً؟ لكنك قد قبلته مساء أمس كما قبلته الآن.

أراد نيكولاي بتروفيتش أن يقول شيئاً وأن ينهض ويفتح يديه ليحتضن ابنه... ولكن اركادي اندفع إليه يعانقه.

- ما هذا؟ هل تتعانقان من جديد؟ - دوى وراءهما صوت بافل بتروفيتش.

فرح الابن والابن بقدر واحد لظهوره في هذه اللحظة. فهناك حالات مؤثرة بود المرء أن يتخلص منها مع ذلك بأسرع ما يمكن. فقال نيكولاي بتروفيتش مرحاً:

- ما الذي يثير دهشتك؟ لقد طال انتظاري لاركاشا... ولم اشبع من التطلع إليه نهار أمس.

فقال بافل بتروفيتش:

- لست مندهشاً إطلاقاً. فأنا نفسي لا أمانع في معانقته.

اقترب اركادي من عمه واحس من جديد بلمسات شاربيه الفواحين على خديه. جلس بافل بتروفيتش إلى المائدة. وكان يرتدي بدلة صباحية

انيقة على النمط الانجليزي، وطربوشاً صغيراً يزهو على رأسه. كان هذا الطربوش وربطة العنق المعقودة بلا اعتناء ينمان عن طلاقة الحياة الريفية. بيد أن الياقة المنتصبة لقميصه الملون، كما يتطلب زي الصباح، قد انغرزت بلا رحمة. كالمعتاد، في ذقنه الحليق، وسأل العم من ابن اخيه:

- ابن صديقك الجديد؟

- خرج. فهو يستيقظ مبكراً ويتجول عادة. المهم أن لا تلتفتوا إليه. فهو لا يحب الرسميات.

- أجل، لاحظت ذلك. وهل سيبقي عندنا طويلاً؟ - سأل بافل بتروفيتش وبدأ يضع شيئاً من الزبدة على قطعة خبز دون استعجال.

- حسب الظروف. فقد عرج علينا في طريقه إلى ابيه.

- أين يقيم ابوه؟

- في مقاطعتنا، على بعد ثمانين كيلومتراً من هنا تقريباً. لديه هناك ضيعة غير كبيرة. وقد خدم في السابق طبيباً في أحد الافواج.

- أها... ذلك، اذن، ما جعلني اسائل نفسي أين سمعت بهذا اللقب: بازاروف؟.. يا نيكولا، أتذكر أن طبيباً لقبه بازاروف كان يخدم في فرقة ايينا، أليس كذلك؟

- أجل، أظن...

- بالضبط. يعني أن ذاك الطبيب هو أبوه، احم! - مسد بافل بتروفيتش شاربيه ثم سأل ممططاً كلامه: - ولكن من هو السيد بازاروف نفسه يا ترى؟

- تسأل من هو بازاروف؟! - قال اركادي وانفرجت شفته عن ابتسامة خبيثة - هل تريد، يا عمي العزيز، أن أخبرك من هو بازاروف؟ - اعمل معروفاً يا ابن اخي.

- أنه نهلستي.

- ماذا؟ - سأل نيكولاي بتروفيتش، بينما رفع بافل بتروفيتش سكينه وعلى طرفها الزبدة وظل على هذه الحال دون حراك. فكرر اركادي قائلاً:

- نهلستي.

فقال نيكولاي بتروفيتش:

- مصطلح نهلستي، على ما أظن، مشتق من الكلمة اللاتينية نيهيل «nihil»، أي لا شيء، عدم. وبالتالي فإن هذه الكلمة تعني إنساناً يرفض كل شيء، أليس كذلك؟

- الاصح: لا يحترم شيئاً - عقب بافل بتروفيتش وتابع وضع الزبدة على الخبز، فقال اركادي:

- أنه الإنسان الذي يعالج كل شيء من وجهة نظر انتقادية.

- أفليس ذلك سواء؟ - سأل بافل بتروفيتش؟

- كلا، ليس سواء. فالنهلستي هو الإنسان الذي لا يطأ على رأسه أمام أية شخصية مرموقة ولا يتقبل أي مبدأ دون تمحيص مهما كان الاحترام الذي يحظى به ذلك المبدأ.

- ثم ماذا؟ فهل ذلك شيء حسن؟

- هذا أمر يتوقف على الأشخاص، يا عمي، فهو قد يعود على البعض بالخير وقد ينقلب على البعض الآخر شراً مستطيراً.

- هكذا اذن. هذا أمر لا يعيننا، على ما اعتقد. فنحن أبناء الجيل السابق نتصور أن من المستحيل القيام بخطوة واحدة أو حتى مجرد التنفس بدون المبادئ، المبادئ المقبولة، كما تقول، بدون تمحيص،

(ولكنكم غيرتم ذلك كله)^(٨)، «الله يعطيكم العافية ورتبة جنرال». أما نحن فسوف نتطلع إليكم مغرمين بكم أيها السادة... لا أدري كيف تنطقون هذه الكلمة؟

... النهلستيون، - قال اركادي بوضوح.

- أجل. في السابق كان هناك الهيجليون، أما اليوم فقد ظهر النهلستيون. فلنر كيف ستعيشون في الفراغ الخالي من الهواء. أما الآن فدق الجرس رجاء، يا أخي نيكولاي، فقد حان موعد احتساء الكاكاو.

دق نيكولاي بتروفيتش الجرس وصاح: «دونياشا!». ولكن فينيتشكا نفسها ظهرت في الشرفة بدلاً من دونياشا. كانت امرأة غضة في حوالي الثالثة والعشرين من العمر. ناصعة البشرة بشعر فاحم وعينين سوداوين وشفتين حمراوين ممتلئتين كشفاه الأطفال ويدين رقيقتين. كانت ترتدي بدلة قطنية أنيقة. وكان منديل أزرق جديد قد استقر خفيفاً على كتفها المكورتين. حملت قدحاً كبيراً من الكاكاو فوضعتة أمام بافل بتروفيتش واعتراها الحياء كلياً: فنضح الدم الساخن كالموجة القانية على محياها المليح الرقيق. غضت بصرها وتوقفت قرب المائدة مستندة إليها باطراف أصابعها، وكأنما شعرت بأن مجيئها أمر مخجل، ولكنها في الوقت ذاته تتصور بأن لها الحق في أن تحضر.

قطب بافل بتروفيتش حاجبيه بصرامة، بينما ارتبك نيكولاي بتروفيتش، ثم قال الأول بصوت خافت:

- مرحباً، فينيتشكا!

- مرحباً يا سيدي، - اجابته بصوت خفيض رنان، ثم خرجت

(٨) في الأصل بالفرنسية (٨) Vous avez change tout cela

بهدهوء وهي تسترق النظر إلى اركادي الذي ابتسم لها بود. كانت تسير
متمائلة بعض الشيء، ولكن ذلك لم يكن يعييبها.

ساد الصمت الشرفة لحظات. وكان بافل بتروفيتش يرتشف الكاكاو،
ثم رفع رأسه فجأة وقال بصوت يكاد يكون همساً:

- ها هو النهلستي قادم.

بالفعل كان بازاروف يسير في الحديقة متخطياً جنينات الزهور. كان
معطفه القطني وسرواله ملطخين بالاوساخ، وقد علقت نبتة من نبات
المستنقع بقبعته المستديرة العتيقة فطوقت اسطوانتها. كان يحمل بيده
اليمنى كيساً صغيراً تهتز داخله كائنات حية، اقترب من الشرفة بسرعة
وحنى رأسه قائلاً:

- مرحباً أيها السادة. معذرة لتأخري عن الفطور. سأضع هؤلاء
الاسيرات في أماكنهن واعدود في الحال.

- ما هذا؟ أهو علق؟ - سأل بافل بتروفيتش.

- كلا. ضفادع.

- أتناكلها، أم تربيتها؟

- استعملها في التجارب، - قال بازاروف في غير اكرات وذهب إلى
الدار. فعقب بافل بتروفيتش:

- سيشرحها. يؤمن بالضفادع ولا يؤمن بالمبادئ.

القي اركادي نظرة آسفة على عمه، فهز نيكولاي بتروفيتش كتفيه
خلسة. وادرك بافل بتروفيتش نفسه بأن نكته غير موفقة فحول مجرى
الحديث إلى المزرعة وطفق يتكلم عن وكيلها الجديد الذي جاءه أمس
يتشكى من العامل «الازعر» فوما لأنه لا يطيع أحداً، وقال عنه الوكيل:
«سيعيش ويقضي نجه في غباوة مثل ايسوب الذي ساءت سمعته في كل
مكان».

عاد بازاروف. جلس إلى المائدة وشرع يحتسي الشاي باستعجال. تطلع إليه كلا الاخوين بصمت، بينما راح اركادي ينقل نظراته خلسة بين ابيه وعمه. وأخيراً سأل نيكولاي بتروفيتش:

- هل قطعت مسافة طويلة؟

- هناك مستنقع قرب اجمة الحور. وقد رأيت خمسة من طيور البكاسين، بوسعك أن تصادها يا اركادي.

- حضرتك ليس صياداً؟

- كلا.

- أنت تدرس الفيزياء، اليس كذلك؟ - سأل بافل بتروفيتش بدوره.

- أجل الفيزياء، بل العلوم الطبيعية على العموم.

- يقال أن الجرمن تفوقوا كثيراً في هذا الميدان خلال الآونة الأخيرة.

- أجل، الالمان أسأدتنا في ذلك - اجاب بازاروف بلا اكرات.

استخدم بافل بتروفيتش كلمة «الجرمن» بدلا من «الالمان» للسخرية، ولكن أحداً ما لم يلاحظ ذلك.

- هل تكن كل هذا الاحترام للالمان؟ - قال بافل بتروفيتش بتبجيل متكلف. فقد أخذ يشعر بانزعاج خفي، إذ أن استهانة بازاروف المتمادية ولسدت تدمراً في طبعه الارستقراطي. فأن ابن الطيب هذا لم يشعر بالخجل، بل وأجاب على نحو متقطع، دون رغبة، بصوت يشوبه شيء من الخشونة التي تكاد تقرب من الوقاحة.

- العلماء هناك إناس حاذقون.

- هكذا، اذن. أما بخصوص العلماء الروس فليس لديك، على ما يبدو، مثل هذا الاطراء، أليس كذلك؟
- أخشى أن يكون الأمر كذلك..

- هذا نكران ذات يستحق أكبر قدر من المديح - قال بافل بتروفيتش وهو يعدل قامته ويميل برأسه إلى الوراء - ولكن كيف قال لنا اركادي نيكولايفيتش قبل قليل أنك لا تعترف بأية شخصيات بارزة ولا تؤمن بها؟
- ما الذي يجعلني اعترف بها؟ وما الذي أو من به؟ عندما يعرض علي شيء معقول أوافق عليه، هذا كل ما في الأمر.

- وهل يعرض جميع الالمان شيئاً معقولاً؟ - سأل بافل بتروفيتش واكتسى وجهه بتعبير لا ابالي هائم كما لو كان قد حلق كلياً إلى ما وراء السحب.

- ليس جميعهم، - اجاب بازاروف بتناؤبة قصيرة دلت على أنه ليس راغباً في مواصلة الجدل الفارغ.

لقى بافل بتروفيتش نظرة على اركادي وكانما يريد أن يقول له:
«صديقك مهذب حقاً!»، ثم قال من جديد بشيء من الجهد:

- أما أنا فخطيئتي هي أني لا أخلع النعوت على الالمان. وما من داع للكلام عن الالمان الروسيين: فالكل يعلمون أي نوع من البشر هم. ولكنني لا استسيغ الالمان الالمانيين أيضاً. فالقدماء منهم كانوا يصلحون لشيء، عندما كان لديهم، مثلاً، شيلز و غوته... واخي نيكولاي معجب بهما خصوصاً. أما الآن فليس هناك غير الكيماويين والماديين...

- الكيماوي الحاذق أفضل بعشرين مرة من أي شاعر - قاطعه بازاروف. فقال بافل بتروفيتش رافعاً حاجبيه قليلاً وكانما ينوي أن يغط في النوم:

- هكذا، يعني أنك لا تعترف بالفن؟

- فن اكتساب المال، أو خير طريقة لعلاج البواسير! - هتف بازاروف
بضحكة ساخرة مستهينة.

- هكذا اذن، هكذا تفضل بالتنكيت. يعني أنك ترفض كل شيء.
ولا تؤمن إلا بالعلم. أليس كذلك؟

- اخبرتك بأني لا أومن بشيء. والعلم، ما هو العلم عموماً؟ هناك
علوم مثلما هناك صنائع والقاب. أما العلم عموماً فهو غير موجود على
الاطلاق.

- حسناً جداً. ولكن ماذا بخصوص القواعد الأخرى المقبولة في
حياة الناس؟ هل تلتزم بنفس هذا الاتجاه السلبي ازاءها؟

- ما هذا، أهو استجواب؟ - سأل بازاروف. فشحب لون بافل
بتروفيتش بعض الشيء... ورأى نيكولاي بتروفيتش أن من واجبه أن
يتدخل في الحديث:

- سوف نتحدث معك يا عزيزي يفغيني فاسيليفيتش فيما بعد
بتفصيل أكبر حول هذا الموضوع. وسوف نطلع على رأيك ونعرض رأينا.
ومن ناحيتي فأنا مسرور جداً لدراستك العلوم الطبيعية. سمعت أن لبيغ
اجرى اكتشافاً مدهشاً بخصوص تسميد الحقول. ويمكنك أن تساعدني
في اعمال الزراعة: فبوسعك أن تقدم لي نصيحة نافعة ما.

- أنا في خدمتك، يا نيكولاي بتروفيتش. ولكن شتان بيننا وبين
لبيغ! يتعين في البداية تعلم الابدجية ثم تناول الكتاب. أما نحن فلا نزال
غارقين في لجة الجهل.

«يبدو أنك نهلستي حقاً» - فكر نيكولاي بتروفيتش في نفسه، ثم
أضاف قائلاً:

- ومع ذلك اسمح لي أن استعين بك عند الاقتضاء. أما الآن، يا بافل، فقد حان الوقت، على ما اعتقد، للتداول مع وكيل المزرعة.

نهض بافل بتروفيتش من كرسيه وقال دون أن ينظر إلى أحد:

- ما اتعس أن يعيش المرء خمس سنوات في القرية بعيداً عن العقول العبقريّة! فهو يصبح أكثر بلادة. أنه يحاول أن لا ينسى ما تعلمه في الماضي، وعلى حين غرة يتضح له أن كل ذلك هراء، فيقال له أن الاذكاء لم يعودوا يدرسون مثل هذه السخافات وأنه هو مجرد طرطور متخلف. فما العمل؟! يبدو أن الشباب اذكي منا حقاً.

استدار بافل بتروفيتش ببطء على كعبيه وخرج متباطئاً فتبعه نيكولاي بتروفيتش. وحالما اغلق الباب بعد خروج الاخوين سأل بازاروف من اركادي ببرود:

- ماذا؟ هل هو على هذه الشاكلة دوماً؟

- فقال اركادي:

- اسمع، يا يفغيني، تحدثت معه بخشونة بالغة. لقد اهنته.

- فهل يتعين عليّ أن اداريهم، هؤلاء الارستقراطيين الريفيين؟! كل ذلك مجرد خيلاء وحماسة وعادات السباع. الاحرى به أن يتابع مهمته في بترسبورغ ما دام على هذه الطباع... آ. ما لنا وله، فلنتركه وشأنه. هل تعلم؟ لقد عثرت على نوع نادر جداً من الجعلان العوامة: «ديتيسكوس مارغيناتوس»^(٩). سأريك آياه:

فقال اركادي:

- وعدتك أن احكي لك قصته.

(٩) في الأصل باللاتينية *Dytiscus marginatus*.

- قصة الجعل؟

- كفى، يا يفغيني. قصة عمي. وسترى أنه ليس بذلك الإنسان الذي تتصوره. أنه يستحق الرثاء أكثر مما يستحق السخرية.

- لا أشك في ذلك. ولكن لماذا تشغل بالك به إلى هذا الحد؟

- كن منصفاً يا يفغيني.

- وما الداعي لذلك؟

- كلا، اسمعني...

وقص عليه اركادي قصة عمه التي يجدها القارئ في الفصل التالي.

٧

تلقي بافل بتروفيتش كيرسانوف تعليمه في المنزل أول الأمر، شأنه شأن اخيه الاصغر نيكولاي، ثم في «سلك الوصفاء». وكان منذ طفولته يتمتع بجمال رائع. زد على ذلك أنه كان معتداً بنفسه وساخرأً بعض الشيء وحاد الطبع بشكل يثير الضحك أحياناً. ولذا كان لا بد أن يروق للآخرين. حالما تخرج ضابطاً أخذ يظهر في كل المحافل. كان يحمل على الاكف، ويداري نفسه لحد الحماسة، بل ويتدلل ويتغنج، وما كان ذلك ليعيبه بشيء. فقد كانت النساء مفتونات به لحد الجنون، وكان الرجال ينعونونه بالمتألق ويحسدونه في سرهم. عاش، كما ذكرنا، في منزل واحد مع اخيه الذي أحبه حباً صادقاً، مع أنه لم يكن يشبهه بشيء. نيكولاي بتروفيتش ضئيل القوام يعرج قليلاً، وعيناه السوداوان غير الواسعتين جميلتان ولكنهما حزيتان بعض الشيء وشعره خفيف ناعم. كان يهوى الكسل، ولكنه يهوى المطالعة أيضاً ويخشى الظهور في المحافل. أما بافل بتروفيتش فلم يصرف ولا أمسية واحدة في المنزل، وقد اشتهر بالبسالة واللباقة (فهو الذي جعل الجمباز موضة لدى شباب المجتمع الراقي)، ولم

يقرأ غير خمسة أو ستة كتب فرنسية. وفي عامه الثامن والعشرين أصبح ضابطاً برتبة رائد تنتظره أفضل المناصب. ولكن كل شيء تغير فجأة.

في ذلك الحين كانت تظهر في مجتمع بطرسبورغ الراقى من حين لآخر امرأة لم يطوها النسيان حتى الآن. وهي الأميرة ر. كان لديها زوج مهذب مؤدب، ولكنه على شيء من الغباوة، ولم يكن لديها أطفال. كانت تسافر إلى الخارج فجأة، وتعود إلى روسيا فجأة. وعلى العموم كانت غريبة الأطوار، تعيش حياة متميزة. اشتهرت بأنها امرأة لعوب تغمر بولع كبير في مختلف أنواع الملذات، وترقص حتى الاغماء، وتقهقه وتنكت مع الشباب الذين تلتقيهم قبيل الغداء في غرفة استقبال شبه معتمة. أما في الليل فكانت تنتحب وتصلي، فلا يقر لها قرار، وغالباً ما تظل حتى الصباح تجوب الغرفة جيئة وذهاباً، غارقة في لجة الكتابة، أو تنكب، شاحبة باردة، على سفر المزامير. وحالما يحل النهار تتحول من جديد إلى واحدة من نساء المجتمع الراقى، وتتنقل وتضحك وتثرثر من جديد وكأنما تندفع لملاقاة كل ما يمكن أن يوفر لها ادنى قدر من التسلية. كانت ذات قوام مدهش. ضفيريتهما الذهبية اللون الثقيلة كالذهب تتدلى إلى أسفل الركبتين. ولكنه ما من أحد بوسعه أن يطلق عليها نعت الحسنة، فلم يكن في محياها شيء جميل غير عينيها، وليس عيناها بالضبط - فهما رماديتان غير واسعتين - بل نظرتهمما السريعة العميقة اللامبالية حتى البسالة والتأملية حتى الكتابة - أنها نظرة كلها الغاز. كان شيء ما مدهش يضيء في هذه النظرة حتى عندما تنفوه هي باتفه الالفاظ. وكانت ملابسها على قدر كبير من الاناقة. صادفها بافل بتروفيتش في احدى السهرات ورقص معها المازوركا، فلم تقل طوالها ولا كلمة واحدة ذات شأن، ووقع في هواها بشدة وعنف. وسرعان ما حقق هدفه هذه المرة أيضاً وهو الذي تعود على الانتصارات. إلا أن سهولة الفوز لم تخفف من غلوائه. على العكس، فقد تعلق تعلقاً أشد وأكثر مضضاً بهذه المرأة التي ظل فيها، على ما يبدو، شيء منشود

بعيد المنال لم يتوصل إليه أحد، حتى عندما تستسلم كلياً. ولا يعلم إلا الله بما كان يعيش في هذه الروح! لقد بدت وكأنها أسيرة قوى خفية مجهولة بالنسبة لها نفسها، قوى تتلاعب بها يحلو لها. وما كان بوسع ذكائها غير المفرط أن يسيطر على نزوات تلك القوى. كان سلوكها بمجملة عبارة عن طائفة من الحماقات. فالرسائل الوحيدة التي يمكن أن تثير شكوك زوجها بحق هي رسائل كتبها إلى شخص غريب عليها تقريباً، أما حبها فكان ينضح حزناً: لم تعد تضحك وممزح مع الذي اختارته، وصارت تستمع إليه وتحقق فيه متحيرة. وكانت تلك الحيرة تتحول أحياناً، بصورة مفاجئة على الاغلب، إلى رعب بارد، فيكتسي وجهها بتعبير وحشي موات، وتنطوي على نفسها في غرفة النوم فتغلقها وتجهش في نحيب مخنوق بوسع الوصيفة أن تستمع إليه عندما تلصق أذنها بقفل الباب. كان كيرسانوف، حينما يعود إلى منزله بعد لقاءات الغرام، يحس مراراً بكآبة مرة كالتى تعتصر القلب وممزق نياطه عادة بعد الاخفاق المطبق. وكان يسائل نفسه: «ماذا اريد أكثر من ذلك؟». ولكن الكآبة تعتصر قلبه. وذات مرة أهداها خامماً نحت أبو الهول الاسطوري على فسه. فسألته:

- ما هذا؟ أبو الهول؟

- أجل. وهو أنت.

- أنا؟ - سألته واحتوته على مهل بنظرها المليئة بالالغاز. ثم اضافت بسخرية غير متمادية، وظلت عيناها تسلطان عليه نفس تلك النظرة الغريبة:

- ألا تتصور أن ذلك اطراء بالغ؟

كان الأمر صعباً على بافل بتروفيتش حتى عندما احبته الاميرة ر. ولكنه كاد يجن عندما خفت حبها له عاجلاً. كان يتعذب ويغار عليها، ويلاحقها في كل مكان ولا يتركها تذوق طعم الهدوء، حتى سئمت من

لجأته وملاحقته فسافرت إلى الخارج. أحال نفسه على التقاعد بالرغم من رجاء اصدقائه ونصائح رؤسائه، ولحق بالاميرة، ف قضى أربعة أعوام في الغربة تارة يطاردها وتارة يفلتها عمداً. وأخذ يشعر بالخجل من نفسه وصار يكره نفسه بسبب تخاذله... ولكن ما من شيء كان بوسعه أن يعينه. فقد انغرزت في اعماق روحه حتى الجذور صورتها الجذابة، الغامضة التي لا تكاد تنطوي على أي معنى. وفي بادن عادت علاقتهما، ذات مرة، إلى سابق عهدهما. وخيل إليه أنها لم تكن تحبه فيما مضى ابداً بنفس القدر الذي تحبه به الآن... ولكن ما أن مر شهر حتى انتهت كل شيء: فقد اندلع اللهب للمرة الاخيرة ثم انطفأ إلى الابد. وعندما ادرك حتمية الفراق الذي لا مفر منه اراد، على الأقل، أن يظل صديقاً لها وكأنما الصداقة مع مثل هذه المرأة أمر ممكن... غادرت بادن خلصة وصارت منذ ذلك الحين تتحاشى كيرسانوف دوماً. أما هو فقد عاد إلى روسيا وحاول أن يعيش عيشته القديمة، ولكنه لم يعد قادراً على العودة إلى المجرى القديم. فراح يطوف من مكان لآخر كمن سلب عقله. كان لا يزال يظهر في المحافل ويحتفظ بجميع عادات الشخص المنتمي إلى المجتمع الراقي، وكان بوسعه أن يتفاخر بانتصارين جديدين أو ثلاثة، ولكنه لم يعد ينتظر شيئاً ذا شأن لا من نفسه ولا من الآخرين، ولم يتخذ أي اجراء يتستحق الذكر. داهمته الشيخوخة ووظف الشيب شعره. وصار يشعر بحاجة إلى قضاء الامسيات في النادي جالساً جلسته السوداوية المضجرة أو مناقشاً بلا مبالاة في معشر العزاب، وتلك، كما هو معروف، دلالة سوء. بديهي أنه لم يكن يفكر في الزواج حتى مجرد تفكير. مضت على هذا النحو عشر سنوات كالحلة عقيمة، مضت بسرعة، بسرعة مرعبة. فالوقت لا ينقضي في إيما مكان بأسرع مما في روسيا. ويقال أنه ينقضي في السجن فقط بصورة أسرع. ذات مرة، أثناء الغداء في النادي، عرف بافل بتروفيتش بوفاة الاميرة ر. التي قضت نحبها في باريس في حالة تقرب من الجنون.

نهض من المائدة وأخذ يجوب غرف النادي طويلاً، وكان يتوقف مسمراً قرب المقامرین، ولكنه لم يعد إلى المنزل قبل الموعد المعتاد. وبعد حين من الوقت تسلم مطروفاً باسمه. كان في المطروف الخاتم الذي أهده للأميرة. لقد رسمت على أبي الهول علامة صليب وامرت حامل المطروف بأن يقول له أن الصليب هو حل اللغز.

حدث ذلك في مطلع عام ١٨٤٨، في نفس الوقت الذي وصل فيه نيكولاي بتروفيتش إلى بطرسبورغ بعد وفاة زوجته. لم يكن بافل بتروفيتش قد تقابل مع أخيه منذ أن انتقل هذا إلى القرية: فقد وافق زفاف نيكولاي بتروفيتش الايام الأولى لتعرف بافل بتروفيتش على الاميرة. وعندما عاد من الخارج توجه إليه ناوياً البقاء عنده زهاء شهرين والاطلاع على حياته الهائثة، ولكنه لم يمكث لديه غير اسبوع واحد. فقد كان الفارق في أوضاع الاخوين كبيراً جداً. وفي عام ١٨٤٨ تقلص هذا الفارق: إذ فقد نيكولاي بتروفيتش زوجته وفقد بافل بتروفيتش ذكرياته. حاول بافل إلا يفكر بالاميرة بعد وفاتها. إلا أن نيكولاي ظل يحتفظ بشعور إنسان عاش الحياة على نحو صائب، فقد كان ابنه يتعرع أمام ناظره. أما بافل فهو، على العكس، اعزب مستوحش وقد دخل مرحلة كالحة معتمة، مرحلة الندامة التي تشبه الآمال والآمال التي تشبه الندامة، حيث مضى الشباب، بينما لم تحل الشيخوخة بعد.

كانت هذه المرحلة أصعب على بافل بتروفيتش مما على أي شخص آخر: فعندما فقد ماضيه فقد معه كل شيء.

قال له نيكولاي بتروفيتش ذات مرة:

- لا ادعوك إلى مارينو (اطلق نيكولاي بتروفيتش هذا الاسم على قرينه تكريماً لزوجته ماريانا)، فعندما كانت المرحومة على قيد الحياة شعرت هناك بالضجر، أما الآن فسيكون ضجرك أشد على ما اعتقد.

فأجاب بافل بتروفيتش:

– كنت آنذاك لا ازال احمق متملماً. أما الآن فقد هدأت، أن لم اقل صرت اذكي قليلاً. وأنا، على العكس، مستعد لاسكن عندك إلى الأبد، إذا سمحت.

وبدلاً من الجواب عانقه نيكولاي بتروفيتش. غير أن بافل بتروفيتش لم يشد العزم على تحقيق ما نواه إلا بعد عام ونصف من هذا الحديث. ولكنه عندما سكن القرية لم يغادرها حتى في فصول الشتاء الثلاثة التي قضاها نيكولاي بتروفيتش مع ابنه في بطرسبورغ. أخذ يطالع باللغة الانجليزية على الأكثر، بل وحول حياته كلها على النمط الانجليزي. صار نادراً ما يتقابل مع الجيران، ولا يغادر القرية إلا في الانتخابات حيث يصرف أغلب الوقت صامتاً، ما عدا بعض الحالات النادرة حيث يغيظ الاقطاعيين المتمسكين بالقديم ويخيفهم بالنزوات المتحررة دون أن يتقرب إلى ممثلي الجيل الجديد. وكان هؤلاء وأولئك يعتبرونه مغروراً معتداً بنفسه. بيد أن هؤلاء وأولئك كانوا يحترمونه لمسلكه الارستقراطي الممتاز وللشاعات عن انتصاراته ولأنه مهندم على اروع ما يكون، ولأنه ينزل دوماً في أفضل الغرف في ارقى الفنادق، ولأنه على العموم لا يتناول إلا الاطعمة الفاخرة، حتى أنه تغدى ذات مرة مع ولنغتون عند لودفينغ فيليب، ويحترمونه لأنه كان يحمل معه في ترحاله وتجواله حقيبة فضية لادوات الزينة وحوض استحمام متنقلاً، ولأنه يتطيب بعطور «كريمة» مدهشة غير معتادة، ولأنه يلعب الهويست^(١٠) بمهارة ويخسر فيه دوماً، وكانوا يحترمونه، أخيراً، لنزاهته التي لا تشوبها شائبة. وقد اعتبرته النساء ملنخولياً فاتناً، ولكنه ما عاد يعباً بالنساء...

(١٠) ضرب من لعب الورق. المترجم.

وقال ارКАДي في ختام حديثه:

- أرأيت، يا فيغيني، كم أنت مجحف بحق عمي! ثم أنه انقذ أبي مراراً من المصائب واعطاه كل نقوده. وحتى الضيعة، وهذا أمر ربما لا تدري به، غير مقسمة بينهما. بل هو مستعد لمساعدة أي كان. وبالمناسبة فهو يلتزم جانب الفلاحين دوماً. لكنه، والحق يقال، يتقزز منهم ويتشمم الكولونيا عندما يتكلم معهم...

- أمر واضح: اعصاب - قاطعه بازاروف.

- ربما. ولكن قلبه في منتهى الطيبة. ثم انه ليس بليداً ابداً. فما اثنى النصائح التي قدمها لي... وخصوصاً... وخصوصاً في الموقف من النساء. - طبعاً! من لدغته الافعى يخشى من جر الحبل. ليس ذلك جديداً علينا!

- خلاصة القول - واصل ارКАДي كلامه - أنه تعيس للغاية، صدقني. وأن احتقاره خطيئة.

- من يحقره؟ - اعترض بازاروف - ولكنني اعتقد أن الإنسان الذي قامر بحياته كلها على حب امرأة وتكدر، عندما خسر المقامرة، فانحدر إلى درجة أصبح معها عاجزاً عن القيام بأي شيء ليس رجلاً وليس ذكراً. تقول أنه تعيس، فأنت أعرف به، ولكن الحماققة لم تفارقه كلياً. أنا واثق من أنه لا يمزح عندما يتصور نفسه إنساناً ذكياً طيباً لكونه يقرأ وريقة غالينيانى ويخلص الفلاحين مرة في الشهر من العقوبة الجسدية.

- ولكن تذكر تربيته والعصر الذي عاش فيه.

- ما شأن التربية؟ على كل فرد أن يربي نفسه بنفسه، كما فعلت أنا، مثلاً... أما العصر، فما الداعي لأن اكون تحت سلطته؟ فليكن هو تحت سلطتي. كلا، يا أخي، ما ذلك إلا استهتار وحماققة! ثم ما هذه العلاقات

الغامضة بين الرجل والمرأة؟ أنا الفسليجين نعرف ماهية تلك العلاقات. راجع تشريح العين، فمن اين تنبع تلك النظرة المليئة بالالغاز، كما تقول؟ ما ذلك إلا رومانسية مصطنعة وهذر متعفن. الافضل أن نذهب لتفحص الجعل.

وتوجه الصديقان إلى غرفة بازاروف التي اكتفتها، منذ أن حل فيها، روائح طيبة وجراحية ممزوجة بنفح تبغ رخيص.

٨

لم يبق بافل بتروفيتش طويلاً أثناء التداول بين اخيه ووكيل المزرعة النحيف الفارع القامة ذي العينين المراوغتين والصوت العسلي الشبيه بصوت المسلول. كان الوكيل يرد على جميع ملاحظات نيكولاي بتروفيتش بقوله «طبعاً، يا سيدي، أمر معروف» ويحاول أن يصور جميع الفلاحين سكارى ولصوصاً. كانت المزرعة التي أصلحت على شاكلة جديدة مؤخرأً تصر كعجلة بدون تشحيم وتشقق كالأثاث المصنوع كيفما اتفق من خشب لم يجف بعد. لم يكن نيكولاي بتروفيتش يانساً، ولكنه كثيراً ما كان يتنهد ويتأمل: فهو يعرف أن الأمور لن تسير على ما يرام بدون مال، في حين أنه انفق جميع امواله تقريباً. وقد صدق اركاذي عندما قال ان بافل بتروفيتش اعان اخاه أكثر من مرة. فأن بافل بتروفيتش الذي رأى أخاه مراراً يشقى ويمعن التفكير في كيفية تدبير الأمور ولو بشكل ما، كان يقترب من النافذة ببطء ويدس يديه في جيبيه ويقول بصوت خافت: «استطيع ان اعطيك مالاً»^(١١)، ويسلم المال له بالفعل. لكنه في ذلك اليوم لم يكن لديه شيء من المال، ولذا فضل الانسحاب. كانت المشاحنات بشأن المزرعة تبعث

(١١) في الاصل بالفرنسية «(Mais je puie vous donner de l'argent)».

الغم فيه، وكان يخيل إليه دوماً أن نيكولاي بتروفيتش، بالرغم من حرصه ومثابرتة، لا يدير الامور كما يرام، مع أن بافل بتروفيتش ما كان بوسعه أن يشير بالتحديد إلى خطأ أخيه. وكان يفكر في نفسه: «ليس أخي عملياً بالقدر الكافي، فهم يخدعون». وكان نيكولاي بتروفيتش، على العكس، يقدر كل التقدير مواهب أخيه العملية وينشد لديه النصيح دوماً. كان يقول: «أنا إنسان ضعيف لين، عشت عمري في الريف، أما أنت فقد عشت طويلاً مع الناس. أنك تعرفهم جيداً ولديك نظرة صقر». وكان بافل بتروفيتش لا يرد على هذه الكلمات، بل يشيح بوجهه دون أن يبين لآخيه العكس.

ترك بافل بتروفيتش اخاه في مكتبه وسار في الرواق الذي يفصل القسم الامامي من الدار عن قسمها الخلفي. وعندما وصل إلى باب واطئ توقف متفكراً ثم قتل شاربه وطرق الباب.

- من الطارق؟ ادخلوا - رن صوت فينيتشكا.

- أنا - اجاب بافل بتروفيتش وفتح الباب.

نهضت فينيتشكا في الحال من الكرسي الذي كانت جالسة عليه مع طفلها، وسلمت الطفل إلى فتاة خرجت به فوراً من الغرفة، وعدلت منديلها على عجل.

- معذرة إذا كنت قد ضايقتك - طفق بافل بتروفيتش يتكلم دون أن ينظر إليها - أريد فقط أن أكلفك... سيذهب أحد ما إلى المدينة اليوم على ما اظن... اطلبي منه أن يشتري لي شاياً أخضر.

- سمعاً وطاعة يا سيدي - اجابت فينيتشكا - كم ترغبون أن نشترى؟

- نصف رطل يكفي، باعتقادي - اجاب ثم أضاف بعد أن القى نظرة عاجلة احاطت بما حواليه وانزلت على وجه فينيتشكا أيضاً - يبدو أن لديك تغيرات هنا. - واردف عندما رأى أن فينيتشكا لم تفهمه - هذه الستائر مثلاً.

- أجل، هذه الستائر، لقد تفضل بها علينا نيكولاي بتروفيتش.
ولكنها معلقة منذ زمان.

- أنا أيضاً لم ازرك منذ زمان. أما الآن فقد اصبحت غرفتك مريحة
تماماً.

- بفضل نيكولاي بتروفيتش - اجابت فينيتشكا همساً، فسألها بافل
بتروفيتش بتأدب ولكن بدون ادنى أثر للابتسام:

- هل هنا افضل مما في الجناح السابق؟

- أفضل، طبعاً.

- ومن اسكنوا بذلك هناك؟

- الغسالات.

- اها!

لزم بافل بتروفيتش الصمت. ففكرت فينيتشكا في نفسها: «سيذهب
الآن». ولكنه لم يذهب، فظلت واقفة أمامه متسمة تفرك اصابعها بخفة.
إلى أن قال أخيراً:

- لماذا اعطيتهما طُفلك! أنا أحب الاطفال، احضره لي.

احتقن محيا فينيتشكا من الحياء والسرور. كانت تخشى بافل بتروفيتش،
فهو لم يكلمها ولا مرة تقريباً. فنادت دونياشا قائلة:

- احضروا ميتيا (كانت فينيتشكا تخاطب كل من في الدار بصيغة
الجمع). لا بل تمهلوا: ينبغي أن البسه بدلة.

توجهت فينيتشكا نحو الباب، فبادرها بافل بتروفيتش:
- لا فرق.

- في الحال - اجابت فينيتشكا وخرجت برشاقة.

ظل بافل بتروفيتش وحيداً، فاخذ يتلفت هذه المرة باهتمام خاص إلى

ما حواليه. كانت الغرفة الواطئة الصغيرة التي يقف فيها نظيفة ومريحة للغاية، تفوح فيها رائحة الارضية التي طليت مؤخراً ورائحة الاقحوان والنعناع. وعلى طول الجدران صفت كراس ذات مساند خلفية بشكل قيثارات، كان الجنرال الراحل قد اشترها في بولنדה ابان احدى الحملات، وفي ركن من الغرفة انتصب سرير صغير فوقه حجاب من الشاش، إلى جانب صندوق مرصع بالمسامير وذي غطاء محذب. وفي الزاوية المقابلة اشتعل قنديل أمام ايقونة معتمة كبيرة للقديس نيقولاى الذي تدلت بشریط احمر على صدره بيضة فرفورية صغيرة مثبتة إلى هالته. وعلى رفي النافذتين زجاجات مربى الموسم المنصرم مغلقة بعناية، ويتسرب من خلالها ضوء أخضر، وقد كتبت فينيتشكا على اغطيتها الورقية بحروف كبيرة «عنب الثعلب». نيكولاى بتروفيتش يحب هذا النوع من المربى خصوصاً. وكان قفص يتدلى بحبل طويل من السقف وفيه حسون قصير الذيل يشقشق ويتفافز بلا كلل، والقفص يهتز ويرتعش بلا انقطاع، وتقع حبات القنب على الارضية بنقر خفيف. وعلى الحائط بين النافذتين علقت، فوق الصوان، صور فوتوغرافية لنيكولاى بتروفيتش في وضعيات مختلفة، وهي صور سيئة التقطها مصور متجول. وإلى جانبها صورة لفينيتشكا غير موفقة ابداً، إذ لم يكن يلوح منها غير وجه بلا عينين يتسم ابتسامة متوترة في اطار معتم. وفوقها صورة يرمولوف في معطف فضفاض من اللباد، وهو يلقي نظرة عابسة رهيبة على جبال القوقاز البعيدة من تحت خف حريري للدبايس علق فوقه وغطى جبهته كلها.

مرت خمس دقائق تقريباً. وكان يتهادى من الغرفة المجاورة خفيف وهمس. رفع بافل بتروفيتش من فوق الصوان كتاباً ملوثاً، هو أحد مجلدات رواية ماسالسكي «الرامة»، فتصفح عدة صفحات منه... فتح الباب ودخلت فينيتشكا تحمل ميتيا. كانت قد البسته قميصاً احمر بشریط مقصب على الياقة، ومشطت شعره ومسحت وجهه: كان يتنفس

بصعوبة ويندفع بجسمه كله ويلوح بيديه الصغيرتين كما يفعل جميع الاطفال الاصحاء. بيد أن القميص الاثيق أثر عليه، كما يبدو، فقد طفت على وجهه المنتفخ مسحة من الارتفاع. وكانت فينيتشكا قد صفت شعرها هي أيضاً. ارتدت مندبلاً أفضل. غير أنه كان بوسعها أن تظل كما كانت عليه. حقاً، فهل هناك أكثر جاذبية في الوجود من أم جميلة شابة مع طفل معافى؟

- يا لك من طفل ريان! - قال بافل بتروفيتش متساهلاً ودغدغ أسفل ذقن ميتيا بطرف ظفر سبابته الطويل. حدق الطفل في الحسون وابتسم.
- هذا عمك - قالت له فينيتشكا وقد مالت اليه بوجهها وهي تهزه هزة خفيفة، في حين وضعت دونياشا على رف النافذة بهدوء شمعة البخور المشتعلة والصقتها من الاسفل على قطعة نقد صغيرة. فسأل بافل بتروفيتش:

- كم شهراً بلغ يا ترى؟

- ستة شهور، وسيحل شهره السابع قريباً، في الحادي عشر.

- اليس الشهر الثامن؟ - تدخلت دونياشا بشيء من الاستحياء.

- كلا، السابع، كيف ذلك؟! - ابتسم الطفل من جديد وحدق في الصندوق ثم خطف انف امه وشفتيها فجأة باصابعه الخمس، فقالت فينيتشكا دون أن تبعد وجهها عن اصابعه: - مشاكس.

- يشبه اخي - لاحظ بافل بتروفيتش، ففكرت فينيتشكا في نفسها: «ومن عساه أن يشبه؟» فواصل بافل بتروفيتش كلامه وكأنه يخاطب نفسه: - أجل، شبه لا شك فيه. - ثم القى على فينيتشكا نظرة متفحصة تكاد تكون حزينة.

- هذا عمك - كررت هي همساً هذه المرة. وفجأة تعالي صوت نيكولاي بتروفيتش:

- اها! بافل! ها قد وجدتك!

التفت بافل بتروفيتش باستعجال وتجهم وجهه، إلا أن اخاه نظر إليه بفرح وامتنان جعلاه يرد بابتسامة من كل بد. ثم قال متطلعاً في ساعته:

- طفلك رائع. أما أنا فقد عرجت إلى هنا بخصوص الشاي...

خرج بافل بتروفيتش من الغرفة في الحال وقد اكتسى وجهه بمسحة من اللامبالاة. فسأل نيكولاي بتروفيتش من فينيتشكا:

- هل جاء بنفسه؟

- بنفسه، يا سيدي، طرق الباب ودخل.

- واركا دي، ألم يترك بعد تلك المرة؟

- كلا. إلا ينبغي أن انتقل إلى الجناح، يا نيكولاي بتروفيتش؟

- ما الداعي لذلك؟

- اعتقد أن ذلك سيكون أفضل الآن.

- ك... كلا - قال نيكولاي بتروفيتش متلعثماً ومسح جبهته - كان ينبغي القيام بذلك قبل الآن... مرحباً، يا عزيزتي - قال بانتعاش مفاجئ واقترب من الطفل فقبله في وجنته، ثم انحنى قليلاً ومس بشفتيه يد فينيتشكا التي بدت بيضاء كالحليب على قميص ميتيا الاحمر.

- ماذا دهاكم، يا نيكولاي بتروفيتش؟! - همست وغضت بصرها، ثم رفعت عينيها بهدوء... كان رائعاً تعبير عينيها عندما تسلط نظراتها المنبعثة من تحت الجبين وتضحك بحنان وبشيء من البلادة.

تعرف نيكولاي بتروفيتش على فينيتشكا بالشكل التالي: ذات مرة اضطر قبل ثلاثة اعوام أن يصرف الليل في خان بمدينة صغيرة نائية. وقد سر ودهش لنظافة الغرفة التي خصصت له ولنظافة شراشف الفراش،

فخطرت على باله فكرة: «لعل صاحبة الخان المانية». ولكنه اتضح له أن صاحبة الخان امرأة روسية في حوالي الخمسين من العمر ترتدي فستاناً أنيقاً وتحلى بمحيا ذكي مليح ولهجة رزينة. تحدث معها أثناء تناول الشاي، فاعجب بها كثيراً. كان نيكولاي بتروفيتش آنذاك قد انتقل توأ إلى داره الجديدة وما كان راغباً في ابقاء الاقنان معه، فصار يبحث عن اجراء. وكانت صاحبة الخان قد تشكت، بدورها، من قلة عدد القادمين إلى المدينة ومن مصاعب الدهر، فاقترح عليها أن تشتغل لديه بمثابة مدبرة المنزل، فوافقت. كان زوجها قد توفي منذ زمان وترك لها بنتاً وحيدة هي فينيتشكا. وبعد زهاء اسبوعين وصلت آرينا سافيشنا (وهذا هو اسم مدبرة المنزل الجديدة) مع ابنتها إلى مارينو وسكنت في الجناح. واتضح أن نيكولاي بتروفيتش قد وفق في الاختيار، فقد ربت آرينا شؤون الدار على ما يرام. أما فينيتشكا التي تجاوزت آنذاك السابعة عشرة من العمر فلم يتكلم عنها احد ونادراً ما كانت تُرى: فقد عاشت بهدوء وتواضع. وفي الآحاد فقط كان نيكولاي بتروفيتش يلاحظ في زاوية ما من زوايا كنيسة الابرشية جانباً من وجهها الابيض الرقيق. مر أكثر من عام على هذا المنوال.

ذات صباح حضرت آرينا إليه في المكتب وانحنت، على عاداتها، انحناء شديدة ورجته أن يعالج ابنتها التي اصابها شرارة من الفرن في عينها. كان نيكولاي بتروفيتش، شأنه شأن جميع الذين يلازمون منازلهم، قد مارس العلاج، حتى أنه اقتنى صندوق ادوية منزلياً. أمر آرينا أن تحضر المصابة فوراً. وعندما علمت فينيتشكا أن السيد يدعوها إليه اعترها جبن شديد، ولكنها تبعت امها مع ذلك. اقتادها نيكولاي بتروفيتش إلى النافذة وامسك رأسها بكلتا يديه. تفحص جيداً عينها المتورمة المحمرة ونصح باستخدام غسول اعده بنفسه في الحال، ثم مزق منديله إلى عدة قطع وبين لها كيف ينبغي غسل العين. استمعت إليه فينيتشكا ثم همت

بالخروج، إلا أن آرينا قالت لها: «قبلي يد السيد، يا حمقاء». ولم يمد لها نيكولاي بتروفيتش يده، بل قبلها هو، مرتبكاً، في مفرق شعر رأسها المنحني. وسرعان ما شفيت عين فينيتشكا، ولكن الانطباع الذي تركته في نيكولاي بتروفيتش لم يمح بسرعة. كان يلوح في مخيلته دوماً ذلك الوجه النضير الرقيق المتطلع بشيء من الخوف. وقد احس تحت راحتي يديه بذلك الشعر الناعم، وشهد تينك الشفتين العذراوين المنفرجتين قليلاً عن اسنان لؤلؤية تلمع ندية في الشمس. صار يتطلع إليها في الكنيسة باهتمام أكبر ويسعى إلى التحدث معها. كانت في بادئ الأمر تتجنبه، وذات مرة لمحته، قبيل المساء، في درب ضيق شقه المارة عبر حقل الجودار، فاندست بين السنابل الكثيفة العالية المختلطة بالشيخ وبازهار العنبر، كيلا تقع نظاره عليها. ولكنه لمح رأسها بين السنابل الذهبية وهي تتطلع كالوحش الصغير، فهتف برقة:

- مرحباً، يا فينيتشكا! أنا لا اعض.

- مرحباً. - همست دون أن تغادر كمينها.

وصارت تعود عليه شيئاً فشيئاً، لكنها ظلت تشعر بالخجل في حضوره، إلى أن توفيت أمها بالكوليرا. فإلى أين تتجه فينيتشكا؟ لقد ورثت عن أمها حب النظام والتعقل والرزانة. ولكن ما انضرتوتها وما أشد وحدتها! وما أطيب نيكولاي بتروفيتش وما أكثر تواضعه! أما الباقي فلا داعي لذكره...

- دخل أخي عليك هكذا ببساطة؟ طرق الباب ودخل؟! - سأها نيكولاي بتروفيتش.

- أجل، يا سيدي.

- تلك بإدارة حسنة. أعطيني ميتيا كي الابعه.

وأخذ نيكولاي بتروفيتش يقذفه حتى السقف تقريرا، مما أثار اشد المرح

لدى الطفل، كما أثار قدراً غير ضئيل من القلق لدى الام التي صارت تمد يديها نحو رجله العاريتين في كل قذفة يتلقاها.

أما بافل بتروفيتش فقد عاد إلى مكتبه الانيق، إلى الجدران المزينة بورق جميل ذي لون غريب، وبسجادة فارسية زاهية علققت عليها أسلحة، والاثاث الجوزي المنجد بحريير أخضر غامق، والمكتبة المصنوعة من خشب البلوط الاسود القديم (على طراز عصر النهضة)^(١٢). والتماثيل البرنزية الصغيرة على طاولة الكتابة الرائعة والمدفأة الحائطية... ارتمى على الاريغة واشبك يديه تحت رأسه وظل جامداً ينظر إلى السقف بما يشبه القنوط. ولا أحد يعلم ما إذا كان يريد أن يخفي حتى عن الجدران تلك المسحة التي طغت على وجهه أو ما إذا كان هناك سبب آخر جعله ينهض فيسدل الستائر الثقيلة على النوافذ، ثم يهوى على الاريغة من جديد.

٩

في نفس ذلك اليوم تعرف بازاروف على فينيتشكا. كان يتجول مع اركادي في البستان ويبين له السبب الذي منع بعض الشجيرات المغروسة فيه، وخصوصاً البلوط، من أن تمد جذورها:

- ينبغي غرس المزيد من أشجار الحور الفضي والشوح، بل والزيزفون واطافة شيء من التربة الخصبة إليها. - ثم واصل كلامه قائلاً: - لماذا نمت هذه التعريشة جيداً؟ ذلك لأن الاقاصيا والليلاك شجيرات طيبة لا تحتاج إلى رعاية. عجباً، هناك أناس.

كانت في التعريشة فينيتشكا ودونياشا وميتيا. توقف بازاروف،

(١٢) في الاصل بالفرنسية Renaissance.

وحسبى ار كادي رأسه لفينيتشكا، كما يحنيه لشخص من معارفه القدامى.
فسأله بازاروف حالما ابتعدا قليلا:

- من هذه؟ ما احلاها!

- عمن تتكلم؟

- ليس هناك غير واحدة حلوة.

اوضح له ار كادي باختصار وبشيء من الارتباك من هي فينيتشكا.
فقال بازاروف:

- اهها! لايبك ذوق جيد على ما يبدو. أنه يعجبني، والله! يا له من
مقدم! ولكن ينبغي أن أتعرف عليها - اضااف بازاروف واتجه عائداً نحو
التعريشة. فصاح به ار كادي مذعوراً:

- يفغيني! احذر، بالله عليك.

- لا تقلق. فنحن أناس محنكون، عشنا في المدن.

اقرب بازاروف من فينيتشكا فرفع قبعته وبدأ كلامه بانحناءة مؤدبة:
- اسمحي لي بأن اقدم نفسي: صديق ار كادي نيكولايفيتش، وأنا
إنسان وديع.

نهضت فينيتشكا من المقعد ونظرت إليه بصمت. فواصل بازاروف
كلامه:

- ما أروع هذا الطفل! لا تقلقي فأنا لم أحسد أحداً بعد. لماذا احمرت
وجنتاه إلى هذا الحد؟ هل بدأت اسنانه تبت أم ماذا؟

- أجل، يا سيدي. - أجابت فينيتشكا - ظهرت لديه أربع أسنان،
ولكن لثته تورمت من جديد.

- ناوليني اياه.... لا تخشي شيئاً، فأنا طيب.

أخذ بازاروف الطفل الذي لم يبد أية مقاومة ولم يرتعب، مما أثار دهشة فينيتشكا ودونياشا.

- ها أنا ذا أرى... لا بأس، كل شيء على ما يرام: سيكون حاد الأسنان. إذا حدث ما يسيء أخبريني. وأنت هل تشكين من شيء؟
- كلا، والحمد لله.

- الحمد أفضل من اسواه. وأنت؟ - اضاف بازاروف ملتفتا إلى دونياشا.

اكتفت دونياشا، وهي فتاة عبوس في الدار وضحوك فيما عداها، بان انفجرت ضاحكة رداً عليه.
- طيب. خذي طفلك العملاق.

اخذت فينيتشكا طفلها وقالت بصوت خافت:
- عجباً، ما اهداه معكم.

- كل الاطفال هادئون معي، فأنا أعرف سرهم - اجاب بازاروف، فعلقت دونياشا:

- الاطفال يشعرون بمن يحبهم.
وأكدت فينيتشكا ذلك قائلة:

- بالضبط. ميتيا لا يقبل أبداً أن يأخذه شخص آخر.

- وأنا، هل سيقبلني؟ - سأل اركادي الذي وقف بعيداً بعض الوقت ثم اقترب من التعريشة.

حاول اغراء ميتيا ليأتي إليه، ولكن هذا ازاح رأسه إلى الورا وشرع بالبكاء، مما جعل فينيتشكا ترتبك كثيراً. فقال اركادي متساهلاً:
- في مرة أخرى، عندما يتسع الوقت ليتعود علي.

ابتعد الصديقان، فسأل بازاروف:

- ما اسمها يا ترى؟

- فينيتشكا... فيدوسيا - اجابه ارКАДي.

- واسم ايها؟ ينبغي معرفته أيضا.

- نيكولا يفنا.

- (حسنًا) (١٣). يعجبني فيها أنها ليست خجولة جداً. يمكن لشخص

آخر، في أغلب الظن، أن يلومها على ذلك بالذات. ولكن ما هذا الهراء؟
م الخجل؟ أنها أم وهي محقة.

- هي محقة، لا شك، ولكن أبي... - قال ارКАДي.

- وهو محق أيضا - قاطعه بازاروف.

- كلا، لا اعتقد.

- يبدو أن وريثاً آخر لا يعجبك، أليس كذلك؟

- عيب عليك أن تظن بي ذلك - قال ارКАДي حانقا - أنني اعتبر

والدي غير محق ليس من هذه الناحية، بل اعتقد أنه ينبغي عليه أن يتزوجها.

- بخ، بخ! - قال بازاروف بهدوء - ما اعظم نبلنا! أنك لا تزال تعلق

أهمية على الزواج. لم أكن أتوقع منك ذلك.

خطا الصديقان بضع خطوات صامتتين. ثم شرع بازاروف يتكلم من

جديد:

- رأيت كل شيء في مزرعة ابيك. الدواب عجاف والخيول محطمة

الحوافر والمباني في حالة يرثى لها، والعاملون كسالى إلى أقصى حد. أما

(١٣) في الاصل باللاتينية Bene .

الوكيل فهو أما أحقق وأما محتال. لم أتأكد من ذلك بعد بالشكل اللازم.

- ما أشد صرامتك اليوم، يا يفغيني فاسيليفيتش!

- والفلاخون الطيبون يخدعون اباك من كل بد. أنت تعرف القول

المأثور: «الفلاح الروسي يأكل حتى ربه».

- اكاد اتفق مع عمي، فلديك فكرة سيئة تماماً عن الروس.

- وما أهمية ذلك! ليس في الروسي أفضل من فكرته السيئة عن

نفسه. المهم أن اثنين في اثنين يساوي أربعة. وما عدا ذلك فهو تفاهة.

- والطبيعة تفاهة أيضاً؟ - سأل اركادي وهو ينظر متأملاً في ابعاد

الحقول الزاهية وقد انارتها على نحو جميل شفاف أشعة الشمس الماتلة

إلى المغيب.

- الطبيعة كذلك تفاهة بالمعنى الذي تفهمها به انت. فالطبيعة ليست

معبداً، وإنما هي ورشة، والإنسان عامل فيها.

تهادت اليهما من الدار في تلك اللحظة أصوات فيولونسيل متباطئة.

كان شخص ما يعزف «انتظار» شوبرت متحمساً بالرغم من قلة مهارة

يده، وكانت الموسيقى العسلية تنساب في الهواء كالشهد. فسأل بازاروف

معجباً:

- من هذا يا ترى؟

- ابي.

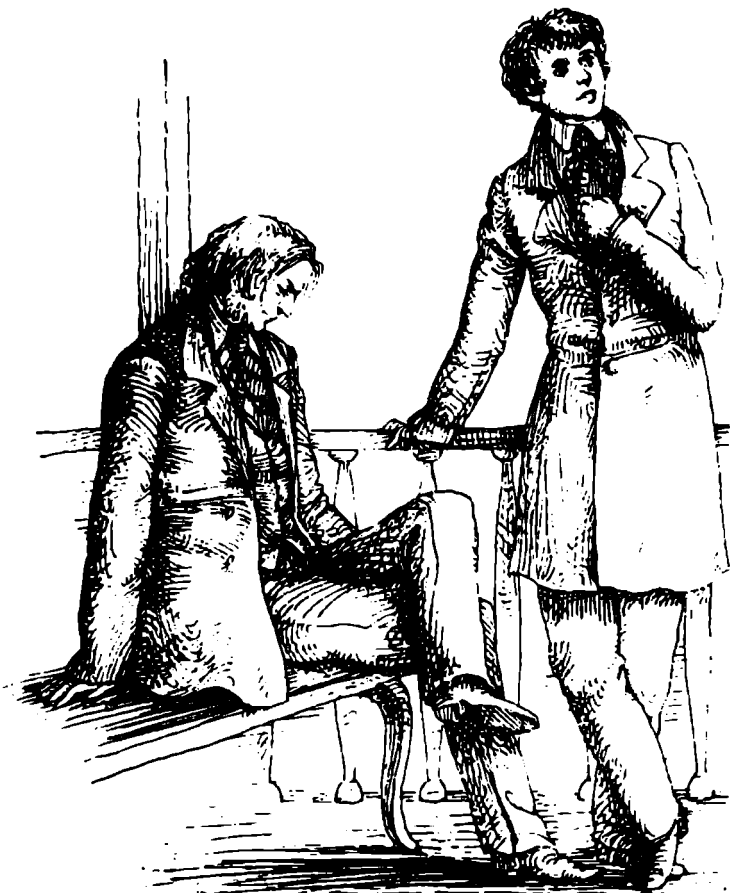
- أبوك يعزف على الفيولونسيل؟

- أجل.

- وكم عمره؟

- أربعة وأربعون.

قهقه بازاروف فجأة.



- ما الذي يضحكك؟

- كيف لا! شخص في الرابعة والاربعين، (رب عائلة)^(١٤) في الريف

يعزف على الفيولونسيل!

ظل بازاروف يقهقه، ولكن اركادي لم يتسهم هذه المرة بالرغم من كل اعجابه بصديقه ومعلمه.

١٠

مضى أسبوعان تقريباً. سارت الحياة في مارينو على منوالها: اركادي يتنعم وبازاروف يعمل. تعود الجميع في الدار على بازاروف وعلى أسلوبه المستهين والفاظه المبصرة المتقطعة. ورفعت الكلفة بينه وبين فينيتشكا خصوصاً، حتى أنها أمرت ذات ليلة بايقاظه من النوم لأن تشنجاً انتاب ميتيا. حضر بازاروف وعالج الطفل وقضى هناك زهاء ساعتين وهو على عادته تارة ينكت وتارة يتشاءب. غير أن بافل بتروفيتشس كره بازاروف بكل جوانحه. كان يعتبره متعالياً سليطاً ودهماوياً وقحاً. وخيل إليه أن بازاروف لا يحترمه ويكاد يحتقره هو بافل كيرسانوف! وكان نيكولاي بتروفيتشس يخشى «النهلستي» بعض الشيء ويرتاب في جدوى تأثيره على اركادي، ولكنه يستمع إلى احاديته باهتمام ويحضر باهتمام أيضاً تجاربه الفيزياوية والكيمياوية. كان بازاروف قد احضر معه مكرسكوباً وصار يصرف الساعات الطوال معه. وتعلق الخدم به أيضاً، بالرغم من أنه كان يمزح معهم لا أكثر. فقد احسوا بأنه، مع ذلك، اخ لهم وليس سيداً. كانت دونياشا تتضحك معه برغبة وتسلط عليه نظرات منحرفة ذات معنى عندما تهر به مسرعة «كالسمانة». وحتى بيوتر، ذلك الإنسان المغالي

(١٤) في الاصل باللاتينية Pater familias .

في التباهي والمفرط في الغباء بتجاعيده المتوترة دوماً على جبهته، والذي كان أحسن ما فيه هو أنه ذو نظرة تنطوي على الاحترام وأنه يقرأ تهيجا، وكثيراً ما ينظف بزته بالفرشاة، صار يبتسم وتفرج اساريره حالما يلتفت إليه بازاروف. كان أبناء الخدم والحشم يترაკضون وراء «الدختور» كالجراء. ولم يبغضه من الخدم غير بروكوفيتش العجوز الذي يقدم له الطعام على المائدة عابسا، وينعته «بالجزار» و «الوغد»، ويؤكد أنه، بفوديه الطويلين، خنزير حقيقي في دغل. وكان بروكوفيتش، على طريقتة الخاصة، ارستقراطياً ليس ادنى من بافل بتروفيتش.

حلت أفضل أيام العام، الأيام الأولى من يونيو. كان الطقس رائعا. غير أن الكوليرا كانت تتهدد وتتوعد من بعيد، ولكن سكان هذا اللواء اعتادوا على زيارتها. كان بازاروف ينهض مبكرا جدا ويتوجه إلى مسافة كيلومترين أو ثلاثة ليس لغرض التجوال - فلم يكن يطيق الجولات دون هدف - بل لغرض جمع الأعشاب والحشرات. وفي بعض الاحيان يصطحب اركادي، فيدور بينهما، عادة، في طريق العودة جدل اعتاد اركادي أن يكون الخاسر فيه بالرغم من أنه يتكلم أكثر من رفيقه.

ذات مرة تأخرا امدأ طويلاً. فخرج نيكولاوي بتروفيتش للقاءهما في البستان. وعندما اقترب من التعريشة سمع فجأة خطوات الشابين السريعة وصوتيهما. كانا يسيران في الجانب الآخر من التعريشة وليس بوسعهما أن يرياها. قال اركادي:

- معرفتك بابي غير كافية.

فاختبأ نيكولاوي بتروفيتش. في حين اجاب بازاروف:

- أبوك رجل طيب. ولكنه إنسان متقاعد حانت نهايته.

ارهف نيكولاوي بتروفيتش السمع... ولم يحر اركادي جوابا.

صرف «الإنسان المتقاعد» زهاء دقيقتين بلا حراك ثم عاد إلى الدار
خلسة وببطء. بينما واصل بازاروف كلامه:

- رأيتُه أول أمس وهو يقرأ أشعار بوشكين. قل له من فضلك أن ذلك
لا جدوى فيه. فهو ليس غلاماً: لقد حان الوقت لترك هذه التفاهة. فمن
الذي يرغب في أن يغدو رومانسياً في الآونة الراهنة؟! اعطه شيئاً ما جيداً
للقراءة.

- ماذا اعطيه؟

- اظن من الأفضل أن تعطيه في البداية «المادة والقوة»^(١٥) لبوخنر.

- رأيي من رأيك. فإن «المادة والقوة»^(١٦) مكتوب بلغة سلسلة - قال
اركادي مؤيداً.

بعد ظهر ذلك اليوم حدث نيكولاي بتروفيتش اخاه وهو جالس في
مكتبه:

- هكذا صرت واياك في عداد المتقاعدين، وقد حانت نهايتنا. من
يدري؟ ربما بازاروف على حق. ولكن الشيء الوحيد الذي يؤلمني،
واقولها صراحة، هو أنني كنت آمل بأن أعيش مع اركادي الآن بالذات بود
وونام، ولكن اتضح أنني بقيت متخلفاً، بينما تقدم هو إلى الامام، ولا يمكن
أن يفهم بعضنا بعضاً.

فهتف بافل بتروفيتش بنفاد صبر:

- ما الذي جعله يتقدم إلى الامام؟ وم يختلف اختلافاً كبيراً عنا؟

(١٥) في الاصل بالالمانية Stoff und kraft ، كتاب العالم الفيلسوفى الالماني فريدريك
بوخنر (١٨٢٤ - ١٨٩٩) - المترجم.
(١٦) في الاصل بالالمانية.

كل ذلك غرسه في ذهنه هذا السنيور النهلستي. أنني اكره هذا الطيب التافه، ويخيل إلى أنه دجال لا أكثر. أنا واثق من أنه لم ينجز في الفيزياء شيئاً بجميع ضفادعه.

– كلا، يا أخي، لا تقل ذلك. بازاروف ذكي وعلامة.

– ثم أن غروره شيء مقيت – قاطعه بافل بتروفيتش من جديد. فوافقه

اخوه:

– أجل، أنه مغرور. يبدو أن ذلك أمر لا مفر منه. ولكن الشيء الوحيد الذي لا افهمه هو أنني ابذل قصارى جهدي، على ما أظن، كيلا اتخلف عن العصر: دبرت أمور الفلاحين وانشأت مزرعة حتى صار الناس في اللواء كله ينعنونني بالاحمر، وأنا اطالع واتعلم وأحاول عموماً أن أكون على مستوى المتطلبات العصرية، ومع ذلك يقولون أن نهايتي قد حانت. بل أنني بنفسني أخذت أفكر، يا أخي، أن نهايتي قد حانت بالفعل.

– لماذا؟

– لأنني عندما كنت اليوم اقرأ بوشكين... وقعت في يدي ملحمة «العجبر»، على ما أتذكر... اقترب مني اركادي في الحال، وانتزع الكتاب بصمت وهدوء وبأسف حنون على وجهه كما لو انتزعه من طفل غرير ووضع امامي كتاباً آخر بالالمانية... ثم ابتسم وذهب وأخذ معه بوشكين.

– هكذا اذن! وأي كتاب اعطاك؟

– ها هو.

اخرج نيكولايت بتروفيتش من الجيب الخلفي لجزته الطبعة التاسعة من كراس بوختر بالذات.

قلبه بافل بتروفيتش بيديه، فقال:

– احم! اركادي مهتم بتربيتك. ماذا، هل حاولت أن تقرأه؟

- حاولت.

- وماذا؟

- فأما أنا غيبي، وأما أن هذا كله هراء. الأرجح أنني غيبي.

- ألم تنس الألمانية؟

- لا أزال أفهمها.

قلب بافل بتروفيتش الكتاب من جديد والقى على أخيه نظرة عابسة. ولزم كلاهما الصمت. ثم قال نيكولاي بتروفيتش في محاولة لتغيير مجرى الحديث على ما يبدو:

- بالمناسبة، تسلمت رسالة من كوليازين.

- من ماتفي ايليتش؟

- نعم. وصل لتفتيش اللواء. وأصبح من الكبار، ويريد، كما كتب، أن يرانا باعتبارنا اقرباءه وقد دعانا مع اركادي إلى المدينة.

- هل ستذهب؟ - سأل بافل بتروفيتش.

- كلا، وأنت؟

- لن اذهب أنا أيضا. ليس هناك ما يستحق أن نقطع أكثر من خمسين كيلومترا. (ماتيو)^(١٧) يريد أن يعرض علينا اجماده، فليذهب إلى الشيطان! يكفيه بخور اللواء وحده، ولا داعي لنحرق نحن أيضاً البخور أمامه. ثم ما قيمة المستشار السري؟! لو كنت واصلت هذه الخدمة الروتينية الغبية لغدوت الآن جنراً. زد على ذلك أنني وأياك متقاعدان.

- أجل، يا أخي، يبدو أن الوقت قد حان لاعداد التابوت وتصليب

(١٧) في الاصل بالفرنسية Mathieu، يقصد ماتفي كوليازين - المترجم.

اليدين على الصدر - قال نيكولاي بتروفيتش متنهدا. فدمدم أخوه:

- كلا، لن استسلم بهذه السرعة. أماننا بعد مناوشة مع هذا الطبيب الصعلوك، أنني أتوقع ذلك.

حدثت المناوشة في نفس ذلك اليوم أثناء احتساء شاي المساء. دخل بافل بتروفيتش غرفة الاستقبال مستعداً للمعركة. كان مستثاراً منفِعلاً، لا ينتظر غير توفر الحجة للانقضاض على العدو. ولكن الحجة لم تتوفر لامتد طويل. بازاروف على العموم قليل الكلام بحضور «العجوزين كيرسانوف» (هكذا نعت الاخوين). وفي ذلك المساء كان مزاجه متعكراً، فأخذ يحتسي الشاي، صامتاً، فنجاناً أثر آخر. وظل بافل بتروفيتش على أحر من الجمر حتى تحققت رغبته في آخر الأمر.

تطرق الحديث إلى أحد الاقطاعيين المجاورين. فقال بازاروف بلا مبالاة، وكان قد تقابل معه في بطرسبورغ: - «ارستقراطي مزيف دني». فبدأ بافل بتروفيتش كلامه وشفته ترتعشان:

- اسمح لي أن اسألك، هل تعني كلمتا «ارستقراطي» و «دني»، بمفهومك، شيئاً وحاداً؟

- قلت «ارستقراطي مزيف» - اجاب بازاروف وهو يرتشف بكسل جرعة من الشاي.

- بالضبط، ولكني اعتقد أن رأيك هو ذاته بخصوص الارستقراطيين الحقيقيين والارستقراطيين المزيفين على حد سواء. أرى من واجبي أن أعلن لك بانني لا اشاطرك هذا الرأي. واتجرأ على القول أن الجميع يعرفونني إنساناً لبرالياً محباً للتقدم، ولذلك بالذات فأنا احترم الارستقراطيين الحقيقيين. تذكر، يا سيدي الجليل، (رفع بازاروف بصره إلى بافل بتروفيتش لدى سماعه هذه الكلمات، فكرر هذا قوله بشدة) تذكر، يا سيدي الجليل، الارستقراطيين الانجليز. انهم لا يتنازلون عن ذرة من

حقوقهم، ولذلك فهم يحترمون حقوق الآخرين، انهم يطالبون بتنفيذ الواجبات ازاءهم ولذلك ينفذون واجباتهم هم. الارستقراطية منحت بريطانيا الحرية وهي تحافظ عليها.

فاعترض عليه بازاروف:

- سمعنا هذه الأغنية مرات عديدة. ولكن ما الذي تريد اثباته بهذا؟
- اريد بهيذا، يا سيدي الجليل، (كان بافل بتروفيتش حينما يغضب يقول متعمداً «هيذا»، «بهيذا»، مع أنه يعلم جيداً أن قواعد اللغة لا تسمح بذلك. وتجلت في هذه العادة الغريبة مخلفات تقاليد عهد الاسكندر. ففي الحالات النادرة التي كان كبار الشخصيات آنذاك يتكلمون فيها باللغة الأم كان بعضهم يستخدم كلمة «هيذا» والبعض الآخر كلمة «هوذا» بدلاً من «هذا»، ولسان حالهم يقول: نحن روس اقحاح ولكننا في الوقت ذاته وجهاء يجوز لنا أن نستهن بالقواعد المدرسية) اريد بهيذا أن اثبت أنه بدون شعور الكرامة الشخصية، وبدون احترام النفس - وهذه المشاعر متطورة لدى الارستقراطية - لا يمكن وجود أي اساس متين (لخير المجتمع)^(١٨).. للكيان الاجتماعي. أن شخصية الفرد، يا سيدي الجليل، هي الأمر الرئيسي. ويتعين على شخصية الإنسان أن تكون متينة كالصخرة لأن كل شيء يبنى عليها. وأنا اعلم جيداً بأنك، مثلاً، ترى عاداتي، وهندامي، وأناقتي في الاخير، امرا مضحكا، ولكنني أفعل ذلك كله بدافع من احترامي لنفسي، وبدافع من شعوري بالواجب، اجل، يا سيدي، بالواجب. انني أعيش في القرية، في الريف، ولكنني لا اتضع، فأنا احترم الإنسان الكامن في دخيلتي.

فقال بازاروف:

(١٨) في الاصل بالفرنسية bien public .

- اسمح لي، يا بافل بتروفيتش. أنك تحترم نفسك وتجلس مكتوف اليدين، فما نفع ذلك (لخير المجتمع؟) (١٩) بوسعك أن لا تحترم نفسك، مثلاً، فلا يتغير في الأمر شيء.

شحب لون بافل بتروفيتش:

- هذه مسألة أخرى تماماً. لست بحاجة لأوضح لك الآن لماذا اجلس مكتوف اليدين على حد تعبيرك. اكتفي بالقول أن النزعة الارستقراطية مبدأ، ولا يستطيع أن يعيش بدون مبادئ في عصرنا إلا اللاأخلاقيون أو الفارغون. قلت ذلك لاركادي في اليوم التالي من وصوله وكرره لك الآن. أليس كذلك يا نيكولاي؟

هز نيكولاي بتروفيتش رأسه بالايجاب، في حين قال بازاروف:

- ارستقراطية، لبرالية، - ما أكثر الكلمات الاجنبية... العديمة الجدوى! الروسي ليس بحاجة إلى هذه الكلمات مطلقاً.

- فما الذي هو بحاجة إليه باعتقادك؟ عندما نستمع إليك يخيل إلينا أننا خارج البشرية وخارج قوانينها. معذرة، أن منطق التاريخ يتطلب...
- ما نفع هذا المنطق؟ - قال بازاروف - نحن في غنى عنه.

- كيف؟

- بكل بساطة. أنت، على ما اعتقد، لا تحتاج إلى المنطق لكي تضع كسرة الخبز في فمك عندما تشعر بالجوع. فأين أنت، حينئذ، من تلك التجريدات؟

لوح بافل بتروفيتش بيده يائساً:

- أنسي لا أفهمك بعد هذا كله. أنت تهين الشعب الروسي. لا افهم

(١٩) في الأصل بالفرنسية.

كيف يمكن عدم الاعتراف بالمبادئ والاصول! فبأية قوة تعملون؟

- قلت لك، يا عمي، أننا لا نعتز بالشخصيات - تدخل اركادي في الحديث. فقال بازاروف:

- نحن نعمل مدفوعين بتأثير ما نعتبره نافعاً. وفي الحال الحاضر يعتبر الرفض انفع شيء. لذا فنحن نرفض.

- كل شيء؟

- كل شيء.

- كيف؟ ليس الفن والشعر فقط... بل وحتى ال... لا تجرأ على ذكره... يا للفضاعة...

- كل شيء - كرر بازاروف بمتهى الهدوء.

حذق فيه بافل بتروفيتش. فلم يكن يتوقع ذلك، بينما احتقن وجه اركادي من شعوره بالارتياح. فشرع نيكولايتروفيتش يتكلم:

- معذرة، انكم ترفضون كل شيء، أو على الاصح تهدمون كل شيء... ولكن يجب البناء أيضا.

- ليس ذلك من واجبنا. ينبغي تطهير المكان أولاً.

وأضاف اركادي بلهجة ذات شأن:

- حالة الشعب الراهنة تتطلب ذلك. وعلينا أن ننفذ هذه المطالب، فليس لنا حق في الانهماك بارضاء الانانية الفردية.

يبدو أن هذه العبارة الاخيرة لم تعجب بازاروف، فقد كانت تفوح منها رائحة الفلسفة، أي الرومانسية، ذلك لأن بازاروف نعت الفلسفة أيضا بالرومانسية، ولكنه لم ير ضرورة لدحض رأي تلميذه الفتى. بيد أن بافل بتروفيتش هتف بحماس مفاجئ:

- كلا، ثم كلا! لا أصدق بانكما، أيها السيدان، تعرفان الشعب الروسي حق المعرفة، وممثلان متطلباته ومطامحه! كلا، فالشعب الروسي ليس بالشكل الذي تصورانه. أنه يحترم قدسية التقاليد، ويمجد الآباء، ولا يمكن أن يعيش بدون إيمان...

فقاطعه بازاروف:

- لن أجادل في ذلك، بل اني مستعد للموافقة على انك محق فيه.

- وإذا كنت محقاً...

- ومع ذلك فهذا لا يدل على شيء.

- بالفعل، لا يدل على شيء - كرر اركادي هذا القول بثقة لاجب الشطرنج الماهر الذي توقع نقلة الخصم الخطرة، على ما يبدو، ولكنه لم يرتبك قيد شعرة. بيد أن بافل بتروفيتش دمدم مبهوتا:

- كيف لا يدل على شيء؟ أفلا يعني ذلك انكما ضد شعبكما؟

- فليكن. - هتف بازاروف - عندما يهدر الرعد يتصور الشعب أن الرسول ايليا يتجول على عربته في السماء. فماذا؟ هل علي أن اوافقه؟ ثم أنه روسي، وأنا؟ الست روسيا؟

- كلا، لست روسياً بعد كل ما قلته الآن! لا أستطيع أن اعتبرك روسياً.

فرد بازاروف بتفاخر وكبرياء:

- كان جدي يحرث الارض. اسأل أي فلاح من فلاحكم هل يعتبرك أنت أم يعتبرني أنا قريبا له؟ بل أنك لا تجيد حتى الكلام مع الفلاح. - أما أنت فتتكلم معه وتحتقره في الوقت ذاته.

- لا ضمير في ذلك اذا كان يستحق الاحتقار! أنت تلومني على اتجاھي

هذا، فمن قال لك أنه ظهر لدي بالصدفة، وأن مبعثه ليس هو نفس تلك الروح الشعبية التي تدافع عنها؟

- طبعاً! طبعاً! ما احوج الشعب إلى النهلستين!

- لا يحق لك أن تحكم هل هناك حاجة إلى النهلستين أم لا. ثم أنك تعتبر نفسك أيضاً شخصاً نافعاً.

- يا سادة، ارجوكم، يا سادة، لا تتعرضوا للاشخاص! - هتف نيكولاي بتروفيتش وهم بالنهوض. إلا أن بافل بتروفيتش ابتسم واضعا يده على كتف اخيه، فحمله على الجلوس من جديد. وقال له:

- لا تقلق. فأنالنا انحدر إلى ذلك بحكم الشعور بالكرامة التي يسخر منها، بقساوة، السيد... السيد الطيب. معذرة - واصل كلامه مخاطباً بازاروف من جديد - ربما تظن أن مذهبك هذا جديد، أليس كذلك؟ عبثاً تصوره على هذا النحو. فالمادية التي تبشر بها كانت على الالسنه اكثر من مرة، ولكن بطلانها كان يتضح على الدوام...

- وما هي كلمة اجنبية^(٢٠) أخرى! - قاطعه بازاروف وبدا عليه الغضب فاكتسى وجهه بلون نحاسي خشن - نحن لا نبشر بشيء، ذلك ليس من عاداتنا.

- فما الذي تفعلونه؟

- إليكم ما فعله: في السابق، في الماضي غير البعيد، كلنا نقول أن موظفينا يستلمون الرشاوى، وأنه ليست لدينا لا طرق ولا تجارة ولا قضاء عادل...

(٢٠) يقصد مصطلح «المادية» الذي هو بالروسية أيضاً لاتيني الاصل (materialism) - المترجم.

- أجل، أجل، انكم نقاد متشددون، هكذا يسمى ذلك على ما اظن.
أنا موافق على الكثير من انتقاداتكم، ولكن...

- ثم ادر كنا أن الثثرة، الثثرة وحدها عن عللنا من اسهل الامور،
وأن ذلك يؤدي إلى الابتذال والتحذلق فقط. ورأينا كذلك أن النابهين
من بيننا، أولئك الذين ينعون بالتقدميين والنقاد المتشددين، لا يصلحون
لشيء، وأنا غارقون في السخافات، وأنا نتشدد في الكلام عن الفن
والابداع العفوي، والنزعة البرلمانية والمحاماة وغير ذلك مما لا يعرفه
إلا الشيطان وحده، في حين أن المطلوب هو الخبز الكفاف. الخرافات
المرهقة تخنقنا، وشركاتنا المساهمة تفلس وتنهار لسبب واحد هو قلة
الناس النزيهين، والحرية التي تجهد الحكومة في تأمينها لا تكاد تعود
علينا بنفع لأن فلاحنا مستعد لأن يسرق نفسه بنفسه لا شيء إلا ليتجرع
المسكرات في الحانة.

فقاطعها بافل بتروفيتش:

- لذا اقتنعتم بهذا كله وقررتم أن لا تباشروا بأي عمل جدى.

- قررنا أن لا نباشر بأي عمل - كرر بازاروف متجهما.

لقد حزن لنفسه فجأة، فما الداعي للصراحة أمام هذا الاقطاعي...

- ما عدا الشتم والسباب، اليس كذلك؟

- ما عدا الشتم والسباب...

- وهذا يسمى نهلستية؟

- وهذا يسمى نهلستية - كرر بازاروف بتسلط شديد هذه المرة.

اغمض بافل بتروفيتش جفنيه بعض الشيء وقال بصوت بدا غريبا

لهدوته:

- هكذا اذن، يعني أن النهلستية دواء لكل داء. وانكم مخلصونا

وابطالنا. ولكن ماذا فعل الآخرون، النقاد الآخرون مثلاً، ليستحقوا
ملامتكم؟ افلا تثرثرون انتم أيضاً كالأخرين؟
فتمتم بازاروف:

- ربما لدينا خطايا أخرى، ولكن ليست هذه الخطيئة منها.

- فماذا اذن؟ هل تفعلون شيئاً يا ترى؟ أو هل تنوون فعل شيء؟

لم يجبه بازاروف. فارتعش بافل بتروفيتش منفعلًا، ولكنه سيطر على
نفسه في الحال ثم تابع كلامه:

- احم! انهم يفعلون، يهدمون... ولكن كيف يجوز الهدم دون
معرفة الغرض منه؟

- أننا نهدم، لأننا قوة - قال اركادي.

فالقى بافل بتروفيتش نظرة على ابن اخيه وابتسم ساخرًا. فكرر
اركادي وهو يعدل من قامته:

- أجل نحن قوة لا تطأطئ رأسها لاحد.

- مسكين! - جار بافل بتروفيتش، فلم يعد يطيق المزيد ابداً - هلا
فكرت ما فائدة مواعظك التافهة هذه في روسيا! كلا، حتى الملاك يمكن
أن يضيق ذرعا بذلك! قوة! القوة موجودة لدى القلموقي^(٢١) المتوحش
ولدى المغولي أيضاً، فما حاجتنا إليها؟ أننا نعتر بالحضارة، أجل، أجل يا
سيدي الجليل، نعتر بشمارها. فلا تقل لي أن هذه الثمار ضئيلة: أن (أردأ
رسام)^(٢٢) وأسوأ عازف من الذين يتسلمون خمسة كوبيكات لقاء الحفلة

(٢١) القلموق قبائل رعوية من اصل مغولي. يعيش الشعب القلموقسي حالياً في
جمهورية كلميكيا السوفيتية ذات الحكم الذاتي - المترجم.
(٢٢) في الاصل بالفرنسية un barbouilleur.

الواحدة أنما هما أكثر نفعاً منكم، لأنهما يمثلان الحضارة، ولا يمثلان القوة المغولية الفظة! تتصورون أنفسكم أناساً تقدميين، بينما لا يعوزكم غير الجلوس في خيمة القلموق! قوة! تذكروا أخيراً، أيها السادة الأقوياء، أن عددكم لا يزيد على أصابع اليد، بينما يشكل أولئك ملايين من الذين سيسحقونكم ولن يسمحوا لكم أن تدوسوا بأقدامكم أقدس أقداسهم!

فقال بازاروف: - إذا كانوا سيسحقوننا فليكن. ولكن تلك مسألة فيها نظر. ثم أن عددنا ليس بالقليل، كما تتصور.

- كيف؟ هل تفكرون بلا مزاح أن تغلبوا على شعب بكامله؟

- أنت تعرف أن موسكو احترقت من شمعة بخسة - اجاب بازاروف.

- هكذا اذن. من الكبرياء التي تكاد تشبه كبرياء الشيطان إلى التهكم. ذلك ما يولع به الشباب، وذلك ما تنصاع له افئدة الغلمان غير المحنكة! انظر، ها هو احدهم يجلس قربك، أنه يكاد يصلي لك، فمتع انظارك (اشاح اركادي بوجهه الذي تجهم). ثم أن هذه العدوى قد انتشرت بعيداً. قيل لي أن رسامينا في روما لا يترددون على الفاتيكان مطلقاً. ويكادون يعتبرون روفائيل أحمرق، ويعللون ذلك بكونه شخصية بارزة، بينما هم عاجزون عقيمون حتى القرف ولا يقودهم خيالهم إلى أبعد من «الفتاة عند النافورة» مهما بذلوا من جهد! ثم أن الفتاة تلك مرسومة باقح شكل. أنهم رائعون برأيك، اليس كذلك؟

فاعترض بازاروف قائلاً:

- برأيي أن روفائيل لا يساوي شروى نقير، وانهم ليسوا افضل منه.

- مرحى! مرحى! اسمع يا اركادي... على هذا النحو ينبغي للشباب العصريين أن يتكلموا! فكيف لا يقتدون بكم، يا ترى؟ في السابق كان الشباب مضطرين إلى التعلم، فلم يكونوا راغبين في أن يذيع صيتهم

كجهلة، ولذا كانوا، طبعاً، يجدون ويجهدون. أما الآن فيكفيهم أن يقولوا أن كل شيء في العالم تافه، وانتهى الأمر! لقد سر الشباب وفرحوا. وبالفعل، في السابق كانوا بلهاء لا غير، أما الآن فقد أصبحوا، على حين غرة، نهلستيين.

- ها قد خانك شعور الكرامة الشخصية المحمود - قال بازاروف ببرود، في حين اشتاط اركادي غضبا وبرقت عيناه - لقد نمادينا في الجدل إلى حد بعيد... ويخيل الي من الافضل وقفه. - ثم اضاف ناهضا - ساكون على استعداد للاتفاق معك حينما تقدم لي ولو مثالا واحدا في حياتنا الراهنة، العائلية أو الاجتماعية، لا يستحق الرفض بلا رحمة.

فهتف بافل بتروفيتش:

- سأقدم لك الملايين من هذه الامثلة، الملايين! لنأخذ على أقل تقدير، المشاعة.

التوت شفتا بازاروف عن ابتسامة ساخرة باردة:

- بخصوص المشاعة، الافضل أن تتكلم مع اخيك، فقد جرب عمليا، على ما يبدو، ما هي المشاعة وما هو التكافل وما هو الامتناع عن تعاطي المسكرات وهلمجرا.

- والعائلة، العائلة، أخيرا، بالشكل الذي هي عليه لدى فلاحينا! - صاح بافل بتروفيتش.

- وهذه المسألة أيضا الافضل لك، على ما اعتقد، أن لا تتناولها بالتفصيل. أفلم تسمع بالذين يجامعون كنتاجهم؟ خذ بنصيحتي، يا بافل بتروفيتش، امهل نفسك يومين، حالياً من المستبعد أن تجد ولو مثالا واحداً. تفحص كل فئات مجتمعا وفكر جيداً في كل واحدة منها، أما أنا واركادي فسوف...

- ... تسخر من كل شيء - قاطعه بافل بتروفيتش.

- كلا، سنشرح الضفادع. فلنذهب يا اركادي، إلى اللقاء أيها السادة!

خرج الصديقان وظل الاخوان وحيدين، فتطلعا إلى بعضهما البعض
أولا، ثم قال بافل بتروفيتش:

- هؤلاء هم شباب اليوم! وهؤلاء ورثتنا!

- ورثتنا - كرر نيكولاي بتروفيتش بحسرة وكآبة. ظل، طوال الجدال،
على أحر من الجمر، وكان يلقي على اركادي خلسة نظرات ممضة - هل
تدري ماذا تذكرت، يا أخي؟ ذات مرة اختلفت مع المرحومة امنا، فكانت
تصيح ولا تريد أن تستمع إلي... وقلت لها في آخر الامر أنها لا تستطيع أن
تفهمني وأنا ننتمي إلى جيلين مختلفين. لقد اغاظها هذا القول أشد الغيظ.
ففكرت أنا: ما العمل؟ الحبة مرة ولكن يجب ابتلاعها. وها هو دورنا قد
حان. فيمكن لورثتنا أن يقولوا لنا: لستم من جيلنا فابتلعوا الحبة المرة.

- أنك طيب القلب ومتواضع اكثر من اللازم - اعترض عليه بافل
بتروفيتش - فانا، على العكس، واثق من أنني واياك محقان اكثر بكثير
من هذين السيدين الصغيرين، بالرغم من أننا ربما نتكلم بلغة عتيقة بعض
الشيء ولا نمتلك مثل تلك الغطرسة الجسورة... ما أشد كبرياء الشباب
الراهن! فأن سألت أحدهم: أي نبيذ تريد، حلوا أم مزأ؟ يجيبك بصوت
جهير وبمسحة من الخيلاء على وجهه وكأنما الكون كله يتطلع إليه في تلك
اللحظة: «اعتدت على تفضيل النبيذ الحلو!»...

- هل تريدون المزيد من الشاي؟ - سألت فينيتشكا وقد دست رأسها
في شق الباب، إذ لم تكن تجرأ على دخول غرفة الاستقبال طالما تتعالى فيها
اصوات المتجادلين.

- كلا، يمكنك أن تأمري بنقل السماور - اجاب نيكولاي بتروفيتش
ونهض للقائهما. فقال له بافل بتروفيتش على نحو متقطع: (عم مساء) (٢٣)،
وذهب إلى مكتبه.

(٢٣) في الأصل بالفرنسية bon soir.

بعد نصف ساعة توجه نيكولاى بتروفيتش إلى تعريشته المحيية في البستان. واستولت عليه افكار حزينة. فقد تحسس بوضوح لأول مرة انفصال ابنه عنه. وتوقع أن الهوة بينهما ستتسع من يوم لآخر. فلا جدوى من قضائه أياما كاملة في شتاءات بطرسبورغ وهو يطالع احداث المؤلفات، ومن العبث أنه كان ينصت إلى احاديث الشبان ويفرح عندما يتسنى له أن يدس كلمة في حوارهم الفوار. وفكر في نفسه: «اخي يقول أننا محقان، وإذا تخيلنا عن أي أثر للغرور، فأنا شخصا ارى انهما أبعد عن الحقيقة منا، ولكنني في الوقت ذاته أشعر بأن لديهما ما ليس لدينا، وبأنهما متفوقان علينا بشيء ما... الفتوة؟ كلا: ليس الفتوة وحدها. أفلا يكمن تفوقهما في أن آثار الاقطاعية عندهما أقل مما عندنا؟».

طأطأ نيكولاى بتروفيتش رأسه ومسح وجهه بيده، وفكر من جديد: «ولكن كيف يمكن رفض الشعر؟ وعدم الاحساس بالفن والطبيعة؟...»

تطلع إلى ما حواليه وكأنما يريد أن يفهم كيف يمكن عدم الاحساس بالطبيعة. حل المساء، واختفت الشمس وراء حرج الحور المنبسط على بعد نصف كيلومتر من البستان: كانت ظلاله ممتد بلا نهاية عبر الحقول الساكنة. ومر فلاح على ظهر فرس بيضاء تسير خبيا في الدرب الضيق المعتم على طول الحرج. كان مرثيا كله بوضوح، كله حتى الرقعة على كتفه بالرغم من الظلال التي تلفعه. وكانت قوائم الفرس قد لاحت بوضوح يبعث على الانشراح. كانت أشعة الشمس بدورها تخترق الحرج وتنساب عبر الاجمة فتغمر جذوع الحور بضوء دافئ جعلها شبيهة بجذوع الصنوبر وجعل لون أوراقها نيليا فاتحا. وتشهق فوقها سماء زرقاء باهتة خضيبها الشفق بلمسات خفيفة. كانت سنونوات تحلق عاليا، وقد هدا النسيم

كليسا، وأخذت نحلات متخلفة تنز بكسل و خمول بين ازهار الليلاك .
وكان البرغش يتزاحم كعمود من الدخان على غصن منعزل اشراب بعيدا .
« ما اروع ذلك، يا الهي! » - فكر نيكولاي بتر وفيتش وكاد ينشد اشعاره
المحبية، ولكنه تذكر اركادي وكراس «المادة والقوة»^(٢٤) فلزم الصمت
وظل جالسا تتلاعب به الافكار اليتيمة على نحو محزون ومفرح معا. كان
يحب الاحلام، فقد طورت الحياة الريفية فيه القدرة على التمتع بالاحلام.
فهل مر زمن طويل عليه عندما كان يحلم على هذا النحو وهو ينتظر عودة
ابنه في الخان؟ بيد أن تغيراً جرى مذكاً، وتحددت العلاقات التي لم تكن
واضحة آنذاك... ولكن على أي نحو؟! لاحت امامه من جديد صورة
المرحومة زوجته، ليس بالشكل الذي عرفها فيه طوال سنين عديدة،
ربة بيت شاطرة طيبة، بل فتاة يافعة ذات قوام نحيف ونظرة متفحصة
عذراء وجديلة مفتولة بشدة فوق عنق طفولي. تذكر كيف رآها للمرة
الأولى. كان، وقتها، لا يزال طالبا. صادفها على سلم المنزل الذي يقيم
فيه. اصطدم بها صدفة، فالتفت ليعتذر منها ولكنه لم يستطع إلا أن يدمدم
بالفرنسية: (معذرة يا سيدي)^(٢٥) في حين طأطأت هي رأسها وابتسمت
ابتسامة ساخرة ثم ركضت فجأة كما لو كانت خائفة. وفي منعطف السلم
القت عليه نظرة خاطفة واكتسى محياها بمظهر الجد واصطبغ بالاحمرار.
وفيما بعد بدأت أول الزيارات الخجولة وانصاف الكلمات والابتسامات
المتسورة والحيرة والكآبة والانفعالات، وأخيرا تلك الفرحة اللاهثة... أين
تلاشى ذلك كله؟ تزوج منها وكان سعيدا مثل القليلين في المعمورة...
وفكر: « لم لا تعيش تلك اللحظات الحلوة الأولى عيشة أبدية لا تموت؟ ».
لم يحاول أن يوضح لنفسه فكرته هذه، ولكنه احس بأنه راغب في أن

(٢٤) في الأصل بالالمانية stoff und kraft .

(٢٥) في الاصل بالفرنسية Pardon, monsieur .

يمسك بزمن المسرات ذاك بشيء ما أقوى من الذاكرة، وكان يريد أن يلمس من جديد قوام زوجته ماريا ويتحسس دفاها وأنفاسها، وخيل إليه وكأنها قد اطلت عليه...

- يا نيكولاي بتروفيتش، أين أنتم؟ - صدح على مقربة منه صوت فينيتشكا.

فانتفض. ولم يشعر لا بالالم ولا بالخجل... لم يكن ليتقبل حتى فكرة المقارنة بين زوجته وفينيتشكا، ولكنه أسف لأنها عزمت على البحث عنه. فقد ذكره صوتها حالا بشعره الاشيب وشيخوخته وحاضره...

العالم السحري الذي كاد يلججه وكاد يظهر من امواج الماضي الضبابية اهتز فتبدد.

- أنا هنا. سأحضر، اذهبي - اجابها، وتبادرت إلى ذهنه فكرة بخصوص لهجة الجواب: «تلك هي آثار الاقطاعية». نظرت فينيتشكا إليه في التعريشة صامتة ثم اختفت، في حين لاحظ هو مندهشا أن الليل قد حل منذ أن غرق في أحلامه. كان كل شيء حو اليه قد اظلم وسكن، ولاح محيا فينيتشكا أمامه شاحباً ضئيلاً. نهض ليعود إلى الدار، ولكن فؤاده المترجرج ما كان ليهدأ بين جوانحه، فأخذ يتمشى طويلا حتى كاد يكل، في حين لم يخفت في دخيلته ذلك القلق الحزين التواق الغامض. ما كان أشد ضحك بازاروف عليه لو علم بما اعتمل في فؤاده آنذاك! وحتى اركادي ربما ادانه على ذلك! لقد انهمرت الدموع، دموع بلا سبب، من عينيه هو المهندس الزراعي والسيد الذي بلغ الرابعة والاربعين. أن ذلك افدح بمائة مرة من الفيولونسيل. واصل نيكولاي بتروفيتش سيره ولم يستطع أن يشد العزم على دخول الدار، ذلك العش المريح الوادع الذي يتطلع إليه بترحاب

من جميع نوافذه المضاءة. كان عاجزا عن مفارقة الظلمة والبستان
والاحساس بالنسيم العليل يداعب وجهه، وذلك الحزن والقلق...
في منتصف الدرب لاقى بافل بتروفيتش الذي سألته:

- ماذا بك؟ أنك شاحب كالشبح، أنت متوعك، فلم لا ترقد؟

اوضح له نيكولا ي بتروفيتش بايجاز حالته النفسية وانصرف. بلغ بافل
بتروفيتش آخر البستان، واخذ يتأمل. ثم رفع بصره هو أيضا إلى السماء.
لكن عينيه السوداوين الرائعتين لم تعكسا شيئا غير ضوء النجوم. فهو لم
يولد رومانسيا، ولم تكن روحه الجافة المتلهفة باناقة والنفورة من البشر
على النمط الفرنسي لتجيد الانصياع إلى الاحلام...

- هل تعلم، يا اركادي؟ تبادرت إلى ذهني فكرة رائعة - قال بازاروف
في تلك الليلة - ذكر أبوك اليوم أنه تسلم دعوة من قريك الوجيه. وأنه لا
ينوي السفر إليه، فهلا سافرنا وياك إلى مدينة ()، فذاك السيد يدعوك
أنت أيضا. إلا ترى كيف تحول الطقس هنا؟ فلترتحل ولنر المدينة. سنصرف
خمسة أيام أو ستة وكفى!

- وهل ستعود إلينا بعد ذلك؟

- كلا. أريد أن اسافر إلى والدي. فهو يقيم، كما تعلم، على مسافة
ثلاثين كيلومترا من تلك المدينة. لم اراه من زمان، وكذلك أمي. ينبغي أن
ازيل هم العجوزين. فهما طيبان، وخصوصا والدي المرح للغاية. وأنا
وحيدهما.

- وهل ستبقى عندهما طويلا؟

- لا اعتقد. ربما سيكون ذلك مملا.

- وهل ستمر بنا في طريق العودة؟

- لا ادري... سأفكر في ذلك. اتفقنا؟ هل سنسافر؟

— أجل — قال اركادي متكاسلا.

كان قد سر في دخيلته كل السرور لاقتراح صديقه، ولكنه رأى أن من واجبه اخفاء مشاعره. فما جدوى كونه نهليستياً اذن؟
في اليوم التالي سافر مع بازاروف إلى مدينة (). أسف الشباب في مارينو لسفرهما. حتى أن دونياشا اسقطت دمعة. إلا أن «العجوزين» تنفسا الصعداء.

١٢

يدير المدينة التي توجه إليها صاحبانا متصرف من الشباب، تقدمي ومتعسف في الوقت نفسه، كما يصادف كثيراً في روسيا. فقد استطاع أثناء العام الأول من حكمه أن يتشاجر ليس فقط مع زعيم نبلاء اللواء، يوزباشي الفرسان المتقاعد المضيف وصاحب حقل تربية الجياد، بل ومع موظفيه هو. واتسع نطاق النزاعات التي نشبت بهذا الخصوص حتى أن الوزارة في بطرسبورغ رأت في آخر الامر أن ترسل شخصاً مخولاً بكلفته بالنظر في القضية هناك. ووقع اختيار المسؤولين على ماتفي ايليتش كوليازين، وهو ابن كوليازين الذي رعى الاخوين كيرسانوف في غابر الزمان. وكان هو أيضاً من «الشباب»، أي أنه بلغ الاربعين مؤخراً، لكنه اصبح من رجالات الدولة أو يكاد، وكانت على صدره نجمتان. إلا أن احدي النجمتين اجنبية وليست من عداد الاوسمة السامية. كان يعتبر من دعاة التقدم شأنه شأن المتصرف الذي وصل للبت في امره، ولم يكن يشبه السواد الاعظم من الموظفين الكبار بعد أن اصبح واحدا منهم. كان مغروراً أشد الغرور، وكان زهوه بلا حدود، بيد أنه كان متساهلاً متسامحاً بسيط العادات، ذا نظرة تنم عن الرضا. وهو يضحك من كل قلبه حتى كاد يشتهر في بادئ الأمر بأنه «شخص طيب جدا». ولكنه يجيد في الحالات

الهامة ذر الرماد في العيون، كما يقال. وعندئذ كان يقول: «الحيوية ضرورية». (فالحيوية هي الخاصية الأولى لرجل الدولة)^(٢٦). وفيما عدا ذلك يظل مخدوعا عادة، فيمتطيه أي موظف لديه شيء من الخبرة. كان ماتفي ايليتش يكن اعمق الاحترام لغيره. ويحاول اقناع الجميع بأنه لا ينتمي إلى الروتينيين والبيروقراطيين المتخلفين، وأنه لا يدع أي مظهر هام للحياة الاجتماعية دون أن يلتفت إليه... كان مطلعاً خيراً اطلاع على امثال هذه الكلمات. حتى أنه كان يتابع، ولو بتعال واستهانة، تطور الادب الحديث، كما يفعل الرجل عندما ينضم أحياناً إلى موكب الصبيان الذي يصادفه في الطريق. لم يكن ماتفي ايليتش، في الواقع، يختلف كثيراً عن رجالات الدولة في عصر الاسكندر، أولئك الذين يطالعون في الصباح صفحة من كونديليكا استعداداً لحضور أمسية عند السيدة سفيتشينا التي كانت تقطن بطرسبورغ آنذاك، سوى أن أساليبه هي أساليب أخرى أكثر حداثة. كان من افراد الحاشية اللبقيين وكان محتالاً جداً ولا شيء أكثر من ذلك. فلم يكن يعرف شيئاً في شؤون الخدمة ولم يكن يمتلك حصافة، لكنه يجيد تدبير أموره الشخصية ولا يستطيع أحد أن يجاريه في ذلك، وهذا هو الأمر الرئيسي.

استقبل ماتفي ايليتش اركادي بطيبة القلب الملازمة للموظف الكبير المستنير، بل وبشيء من المداعبة. لكنه استغرب عندما علم أن قريبه اللذين دعاهما ظلاً في القرية. فقال: «أبوك غريب الاطوار دوما». وأخذ ينش بشراريب ردائه المنزلي المخملي الرائع، ثم توجه إلى موظف شاب في بزة مهندمة على افضل ما يكون وهتف به فجأة وبمسحة من الاهتمام: «ماذا؟». اعتدل الشاب الذي التصقت شفتاه ببعضهما من

(٢٦) في الأصل بالفرنسية L'énergie est la première qualité d'un homme d'état.

طول السكوت ونظر إلى رئيسه متحيراً. إلا أن ماتفي ايليتش صرف نظره عن مروؤسه بعد أن حيره. أن موظفينا الكبار يحبون على العموم تحيير مروؤسيهم، ثم أن الأساليب التي يلتجئون إليها لبلوغ هذا الهدف متنوعة للغاية. وبالمناسبة فأن الاسلوب التالي يحظى بانتشار واسع، إذ هو، كما يقول الانجليز، الاسلوب (المفضل)^(٢٧): يكف الموظف الكبير فجأة عن فهم ابسط الكلمات فيتظاهر بالصمم. ويسأل، مثلاً، أي يوم في الاسبوع الآن؟

فيجاب باكمل قدر من الاحترام: «اليوم هو الجمعة يا صاحب المعالي».

- آ؟ ماذا؟ ماذا تقول؟ - يكرر الموظف أسئلته على نحو متوتر.

- اليوم هو الجمعة، يا صاحب المعالي.

- كيف؟ ماذا؟ ما هي الجمعة؟ أية جمعة؟

- الجمعة، يا صاحب المعالي، يوم من أيام الاسبوع.

- ماذا؟ هل تتجراً على تعليمي؟

كان ماتفي ايليتش، مع ذلك، موظفاً كبيراً، بالرغم من أنه يعتبر ليبرالياً متحرراً. قال لاركادي:

- انصحك، يا صديقي، أن تقوم بزيارة إلى المتصرف. أنت تعرف أني انصحك بذلك ليس لأنني متمسك بالمفاهيم القديمة حول ضرورة التشريفات لدى السلطات، بل لمجرد أن المتصرف إنسان مستقيم، زد على ذلك أنك ربما ترغب في التعرف على المجتمع هنا... فلست دبا على ما اعتقد؟ أما هو فسوف يقيم حفلة ساهرة كبرى بعد غد.

فسأل اركادي:

(٢٧) في الأصل بالانجليزية «is quite a favourite».

- هل ستحضر الحفلة أنت؟

- أنه يقيمها من أجلي - قال ماتفي ايليتش بما يكاد يشبه الاسف. -
هل تجيد الرقص؟

- على نحو سيء.

- شيء مؤسف. فهنا توجد فانات، ثم أن من العيب على الشاب أن لا يجيد الرقص. اقول ذلك أيضا ليس بحكم المفاهيم القديمة، فأنا لا اعتقد أبدا بأن العقل ينبغي أن يكون في الرجلين، بيد أن البايرونية المقلدة مضحكة، (لقد ولى زمانها) (٢٨).

- ليس ذلك، يا عمي العزيز، بسبب البايرونية...

- سأعرفك على سيدات المدينة، وأحميك تحت جناحي، حيث ستجد الدفء، اليس كذلك؟ - قاطعه ماتفي ايليتش وقهقه بخيلاء.

دخل الخادم وأعلن عن وصول مدير الحزينة، وهو شيخ ذو عينين عسلتين وشفنتين متجدتين، يهوى الطبيعة إلى أقصى حد، وخصوصا في أيام الصيف حيث «تأخذ كل نحيلة رشفة من كل زهيرة» على حد تعبيره...

عاد اركادي، فوجد بازاروف في الخان الذي نزلاه. صرف وقتا طويلا في اقناعه بزيارة المتصرف، حتى قال بازاروف أخيرا: «ما في الأمر حيلة! ولا مجال للتراجع عما اقدمنا عليه! طالما وصلنا لمشاهدة الاقطاعيين فلنشاهدهم!». استقبل المتصرف الشابين بترحاب ولكنه لم يشر عليهما بالجلوس ولم يجلس هو الآخر. كان على الدوام في عجلة من امره. ففي الصباح يرتدي بدلته الرسمية وربطة عنق مشدودة على نحو خائق، ولا

(٢٨) - في الأصل بالفرنسية il a fait son temps.

يكمل طعامه وشرابه، بل يصدر اوامره طوال الوقت. وكان سكان اللواء يلمحون عادة إلى شخصيته الضعيفة. لقد دعا هذا المتصرف كيرسانوف وبازاروف لحضور الحفلة الساهرة التي سيقمها، ولكنه بعد دقيقتين دعاهما من جديد لحضور نفس الحفلة وخيل إليه هذه المرة أنهما شقيقان فسامهما بالاخوين كيساروف، وليس كيرسانوف.

كانا عائدتين إلى الخان من المتصرف عندما قفز فجأة من عربة خفيفة قربهما شخص قصير القامة في سترة مجرية مما يرتديه أنصار النزعة السلافية واندفع نحو بازاروف هاتفا: «يفغيني فاسيليفيتش!».

فقال بازاروف مواصلا سيره على الرصيف:

- آ! هذا أنت، يا سيد سيتنيكوف، يا للمصادفة!

- تصور، مصادفة بحت. - أجاب ذاك والتفت إلى العربة فلوح بيده للحوذي خمس مرات وصاح: - هيا اتبعنا، هيا! - ثم واصل كلامه قافزا عبر الساقية: - رجاني ابي... فلديه هنا تجارة... علمت اليوم بوصولكما فخرجت عليكما... (وبالفعل عندما عاد الصديقان إلى غرفتهما في الخان وجدا هناك بطاقة ذات زوايا معقوفة وعليها اسم سيتنيكوف بالفرنسية على جهة وبخط سلافي فني على الجهة الثانية). آمل انكما لستم عائدتين من المتصرف!

- لا تأمل في ذلك. فنحن عائدان منه بالذات.

- أها! سأذهب إليه أنا أيضا في هذه الحالة... يا يفغيني فاسيليفيتش، عرفني على صدي... على سيادته...

- سيتنيكوف، كيرسانوف - دمدم بازاروف دون أن يتوقف. فقال سيتنيكوف مبتسما وهو يسير على نحو جانبي ويشد باستعجال قفازيه الانيقين للغاية:

- مسرور جدا. سمعت الكثير جدا عن... أنا من قدامى معارف
يفغيني فاسيليفيتش، وبمكنتي القول بأنني تلميذه. وأنا مدين له بتحويلي
الفكري...

تطلع اركادي إلى تلميذ بازاروف. كانت مسحة من القلق والبلادة
تغطي الملامح الضئيلة والمستساغة في الوقت ذاته على وجهه الخليق.
كانت عينان غائرتان غير واسعتين تنظران بحدة واضطراب، وكان هو
يضحك باضطراب أيضاً، بهقهة متقطعة كما لو كانت متخشبة. ثم
واصل كلامه:

- هل تصدقني؟ عندما قال يفغيني فاسيليفيتش بحضوري لأول مرة
أنه يجب عدم الاعتراف بالشخصية احسست باعجاب لا حد له...
وكأنما تفتحت ابصاري! وفكرت في نفسي: «ها قد عثرت آخر الأمر
على إنسان!». وبالمناسبة ينبغي لك، يا يفغيني فاسيليفيتش، أن تزور
من كل بد واحدة من السيدات هنا، وهي قادرة كلياً على أن تفهمك،
وستكون زيارتك لها عيداً حقيقياً. اعتقد أنك سمعت بها، أليس كذلك؟
- من هي؟ - سأل بازاروف دون اكتراث.

- (ايدوكسي)^(٢٩)، يفدوكسيا كوكشينا. إنسانة رائعة، (متحررة)^(٣٠)
بكل معنى الكلمة، امرأة تقدمية. على فكرة، فلنذهب إليها سوية. أنها
تعيش على مقربة من هنا. وسوف نتناول الفطور عندها. فانتما لم تقظرا
بعد، اليس كذلك؟

- لم نفظر بعد.

- حسناً أنها افترقت عن زوجها، ولم تعد مرتبطة بأحد.

(٢٩) في الأصل بالفرنسية Eudoxie.

(٣٠) في الاصل بالفرنسية émancipée.

فقاطعه بازروف:

- هل هي مليحة؟

- ل... لا اعتقد.

- يا للشيطان! فلأني غرض تدعونا لزيارتها؟

- يالك من منكت... ستسقيننا قنينة شمبانيا. افليس ذلك كافيا؟

- هكذا اذن! يبدو أنك إنسان عملي حقا. وبالمناسبة، إلا يزال والدك

يتاجر بالمسكرات؟

- لا يزال - اجاب سيتنيكوف بعجلة وقهقهه بصريير كالأصاأة -

ماذا؟ هل تذهبان إليها؟

- لا أدري، في الواقع.

- اردت أن تشاهد الناس، فاذهب - قال اركادي بصوت كالهمس.

فسأل سيتنيكوف:

- وأنت، يا سيد كيرسانوف؟ تفضل أنت أيضا، فلا يمكن الذهاب

بدونك.

- كيف لنا أن ننهال عليها دفعة واحدة؟

- لا بأس. كوكشيننا إنسانة رائعة.

- وهل ستقدم لنا قنينة شمبانيا؟ - سأل بازروف. فأجابه سيتنيكوف:

- ثلاث قنان. انني اتعهد.

- بماذا؟

- برأسي.

- الافضل باموال ابيك. ومع ذلك فلنذهب.

الدار الصغيرة التي تسكنها افدوتيا نيكيثينا (أو يفدوكسيا) كوكشينا من دور النبلاء المبنية على الطراز المسكوبي، وهي تقع في أحد الشوارع التي احترقت مؤخرًا بمدينة. ومن المعروف أن مدن الألوية عندنا تحترق مرة كل خمسة أعوام. لاح فوق الرقعة المثبتة بصورة ماثلة على الباب مقبض جرس صغير. وفي الدهليز استقبلت القادمين امرأة ترتدي قلنسوة خفيفة. ربما هي وصيفة وربما هي رفيقة لصاحبة الدار، مما يدل على المطامح التقدمية لهذه الأخيرة. وسألها سيتنيكوف: افدوتيا نيكيثينا موجودة؟ فتعالى صوت رفيع من الغرفة المجاورة:

- هذا أنت يا (فكتور) (٣١)؟ ادخل.

وفي الحال اختفت المرأة ذات القلنسوة.

- لست لوحدي - قال سيتنيكوف وهو يخلع سترته المجرية الطويلة بحيوية، وقد ظهر تحتها شيء يشبه حشية التدفئة أو البطانة الفضفاضة. ثم القى نظرة متحمسة على اركادي وبازاروف، في حين اجاب الصوت:

- لا فرق. (ادخلوا) (٣٢).

دخل الشبان غرفة تشبه مكتب العمل أكثر مما تشبه غرفة الاستقبال. كانت الاوراق والرسائل واعداد سميكة من المجلات الروسية، وأغلبها غير مفتوح، منتشرة على الموائد المغبرة، وقد القيت في جميع الانحاء اعقاب السجائر البيضاء. وعلى اريكة جلدية جلست في وضع يشبه

(٣١) في الأصل بالفرنسية Victor.

(٣٢) في الاصل بالفرنسية Entrez.

الاضطجاع امرأة لا تزال في عمر الشباب، وهي شقراء مشعثة بعض الشيء في بدلة حريرية ليست على قدر من الاناقة، واساور كبيرة تطوق يديها القصيرتين ومنديل مخرم يلف رأسها. نهضت من الأريكة والقت على كتفها دون عناية معطفاً مخملياً مبطناً بفرو القاقم العتيق المائل إلى الاصفرار وقالت بكسل: «مرحباً يا (فكتور)»^(٣٣) وصافحت سيتنيكوف، بينما قال هو على نحو متقطع مقلداً بازاروف:

- بازاروف، كيرسانوف.

- على الرحب والسعة - اجابت كوكشينا، ثم ركزت على بازاروف نظرات من عينيها المستديرتين اللتين لاح بينهما أنف محمر صغير، اخنس كالتيتم، وازافت قائلة: - أنا اعرفك - وصافحته هو الآخر.

تقزز بازاروف. لم يكن في قوام هذه المرأة المتحررة الباهت الدقيق شيء قبيح أبداً. إلا أن تعبير وجهها يترك في الناظر إليها انطباعاً غير مريح. وكان بود المرء أن يسألها عفويًا: «ماذا؟ هل أنت جائعة؟ أو ضجرة؟ أو خجولة؟ لماذا أنت متوترة؟». كانت، شأنها شأن سيتنيكوف، تشعر على الدوام بالضيق النفسي. وهي تتكلم وتتحرك بلا أدنى أثر للتكلف، ولكن على نحو اخرق في الوقت ذاته. ولعلها تعتبر نفسها كائنًا بسيطاً طيب القلب، بيد أنه مهما فعلت من شيء، يخيل اليكم أن هذا الشيء بالذات هو ما لم تكن تريد فعله، فكل ما تفعله يبدو متعمداً، أي أنه لم يكن بسيطاً ولا طبيعياً.

- أجل، أجل، أنا اعرفك يا بازاروف - كررت القول (وكانت متمسكة بالعادة الملازمة لكثير من سيدات الالوية وسيدات موسكو في تسمية الرجال بألقابهم فقط منذ اليوم الأول لتعارف) - هل تريدون سيجارا؟

- بالطبع. - قال سيتنيكوف على الفور وقد جلس متراخياً على

(٣٣) في الاصل بالفرنسية Victor.

الكرسي رافعاً رجله إلى الأعلى - فليقدموا لنا الفطور، نحن جيا ع على نحو مرعب، بل وامري بتقديم قنينة من الشمبانيا.

- يا له من محب للنعيم! - قالت يفدو كسيا وضحكت (كانت لثتها العليا تعرى من فوق أسنانها عندما تضحك)، أليس كذلك، يا بازاروف؟ - فقال سيتنيكوف بشيء من الاستعلاء:

- أني أهوى الحياة المريحة وهذا لا يمنعي من أن أكون متحرراً.

- كلا، بمنعك! - هتفت يفدو كسيا، ولكنها امرت وصيفتا باعداد الفطور واحضار الشمبانيا. ثم أضافت مخاطبة بازاروف: - ما هو رأيك بهذا الخصوص؟ أنا واثقة من أنك توافقني.

- كلا - اعترض بازاروف - قطعة اللحم افضل من كسرة الخبز حتى من الناحية الكيماوية.

- هل تدرس الكيمياء؟ أنها هوايتي، حتى أني ابتدعت بنفسني نوعاً من الدهان.

- دهان؟ أنت؟

- أجل، أنا. ولأي غرض، هل تعلم؟ لصنع الدمى، كيلا تتحطم رؤوسها. فأنا إنسانة عملية أيضاً. ولكن ليس كل شيء جاهزاً بعد. ينبغي أن اطالع لبيغ. وبالمناسبة هل قرأت مقالة كيسلياكوف في «الوقائع الموسكوية» عن عمل النساء؟ اقرأها من فضلك فأنت تهتم بمسألة المرأة، وبالمدرسة أيضاً، أليس كذلك؟ ما الذي يمارسه صديقك؟ وما اسمه؟

كانت السيدة كوكشينا تنثر اسئلتها الواحد تلو الآخر باستهانة رقيقة دون أن تنتظر الجواب عليها، كما يتكلم الأطفال المدللون عادة مع مربياتهم.

- اسمي اركادي نيكولايفيتش كيرسانوف، وأنا لا أمانع شيئاً.

قهقهت يفدوكسيا.

- شيء مليح! ماذا؟ ألا تدخن؟ ادري، يا فكتور، باني زعلانة عليك؟!
- لأي سبب؟

- يقال أنك صرت ممدح جورج صاند من جديد. أنها امرأة متخلفة، ولا شيء غير ذلك! كيف يمكن مقارنتها مع امرسون؟! فليست لديها أية افكار لا عن التربية ولا عن الفلسفة ولا عن أي شيء. وأنا واثقة من أنها لم تسمع حتى بعلم الاجنة، فكيف يمكن بدون ذلك في عصرنا؟ (نشرت يفدوكسيا يديها). آه، يا للمقالة المدهشة التي كتبها يلسيفيتش بهذا الخصوص! أنه سيد عبقرى! (اعتادت يفدوكسيا دوماً على استخدام كلمة «سيد» بدلاً من «شخص»). يا زاروف، اجلس قربي على الارىكة. ربما أنت لا تدري بأني أخاف منك أشد الخوف.

- لماذا؟ اسمحي لي أن اعرف.

- أنك سيد خطر. ناقد لاذع. آه، يا إلهي! من المضحك أنني أتكلم كلما تتكلم اقطاعية في قرية نائية. وبالمناسبة، فأنا اقطاعية حقاً. ادير الضيعة بنفسى، ثم أن مختار القرية لدي، يروفي، لو تعلمون، سيد مدهش، مثل بطل كوبر «بانفايندر». ففيه شيء من عدم التصنع! قررت أن أعيش هنا نهائياً. أنها مدينة لا تطاق، أليس كذلك؟ ولكن ليس في الأمر حيلة!
فقال بازروف ببرود:

- مدينة كسائر المدن.

- اهتمامات ضئيلة، هذا هو الأمر الفظيخ! في السابق كنت اقضي الشتاء من كل عام في موسكو... أما الآن فهناك يعيش زوجي المسيو كوكشين. ثم أن موسكو الآن... لا أدري... لم تعد على ما يرام. أنني أفكر في السفر إلى الخارج. ففي العام الماضي كدت أتهدأ كلياً للسفر.

فسألها بازاروف:

- إلى باريس، أليس كذلك؟

- إلى باريس وهيديلبرغ.

- ما الداعي لهيديلبرغ؟

- كيف لا، فهناك بونزين!

لم يحر بازاروف جواباً.

- هل تعرف (بيير) (٣٤) سابوجنيكوف؟

- كلا، لا اعرفه.

- كيف؟ (بيير) سابوجنيكوف... أنه يزور ليديا خوستاتوفا على

الدوام.

- أنا لا اعرفها هي أيضاً.

- تعهد بأن يرافقتني. الحمد لله أنني حرة طليقة ليس لدي اطفال...

ماذا قلت؟: الحمد لله! فليكن. لا فرق.

لفت يفدوكسيا سيجارة بأصابعها المسمرة من أثر التبغ وبللتها بلسانها

ثم مصتها واشعلتها. دخلت الوصيصة تحمل صينية.

- ها هو طعام الفطور! تفضلوا إلى المائدة! يا فكتور افتح القنينة، فهذا

اختصاصك.

- أجل، اختصاصي - دمدم سيتنيكوف ثم ضحك بصريير كالصاصة

مرة أخرى.

- هل توجد هنا حسناوات؟ - سأل بازاروف وهو يجهز على القدرح

الثالث. فأجابت يفدوكسيا:

(٣٤) في الأصل بالفرنسية Pierre.

- أجل، ولكنهن جميعاً فارغات. فمثلاً، (صديقتي)^(٣٥) اودينتسوفاً، لا عيب في حسنها. ولكن مما يؤسف له أن سمعتها ليست على ما يرام... لا ضير في ذلك، ولكنها لا تتمتع بأية حرية للرأي، وأي اتساع في الافق... مطلقاً. ينبغي تغيير نظام التربية بمجمله. ولقد فكرت في ذلك. فنساونا تربين تربية سيئة للغاية.

- لن تفعلني لهن شيئاً - تدخل سيتنيكوف - ينبغي احتقارهن، وأنا احتقرهن تماماً! (كانت امكانية الاحتقار والافصاح عن هذا الاحتقار أحب شيء لدى سيتنيكوف. وكان في الواقع يتهجم على النساء دون أن يعلم بأنه سوف يضطر بعد بضعة أشهر أن يتزلف إلى زوجته لسبب واحد هو أنها ابنة الأمير دوردوليو سوف). فما من واحدة منهن تستطيع أن تفهم حديثنا هذا، وما من واحدة منهن تستحق بأن تتكلم، نحن الرجال الجادين، عنها!

- لسن بحاجة مطلقاً إلى فهم حديثنا - قال بازاروف، فتدخلت يفتدوكسيا:

- عن تكلم؟

- عن الحسنات.

- كيف؟! يعني أنك تؤيد رأي برودون، أليس كذلك؟

عدل بازاروف قوامه بكبرياء وقال:

- لا أؤيد آراء أحد اطلاقاً. فلدي آرائي الخاصة.

- فلتسقط الشخصيات! - صاح سيتنيكوف فرحاً بالمناسبة التي تهيأت له كي يعرب عن أفكاره بقوة، بحضور الشخص الذي يتزلف إليه.

(٣٥) في الاصل بالفرنسية mon amie.

- غير أن ماكولي نفسه - ارادت كوكشينا أن تتكلم، ولكن صوت سيتنيكوف دوى:

- فليسقط ماكولي! هل تدافعين عن هؤلاء النسوة؟

- ليس عن النسوة، بل عن حقوق المرأة التي اقسمت على الدفاع عنها حتى آخر قطرة من دمي.

- فليسقط! - ولكن سيتنيكوف توقف عن الهتاف، ثم اضاف:

- أنني لا أنكر هذه الحقوق.

- كلا، يخيل الي أنك من انصار النزعة السلافية البحت!

- لست منهم، بالرغم من أنني طبعاً...

- كلا، ثم كلا. أنك من أنصار النزعة السلافية، ومن المتمسكين

بالتعاليم المتزمتة البالية. لا يعوزك إلا سوط في اليد!

فقال بازاروف:

- السوط شيء حسن. ولكننا وصلنا إلى آخر قطرة...

- من ماذا؟ - قاطعته يفتدو كسيا.

- من الشمبانيا، يا يفتدو كسيا نيكي تشينا المجللة، من الشمبانيا، وليس

من دمك.

- لا أستطيع أن اسمع بلامبالاة أحداً يتهجم على النساء - واصلت

يفتدو كسيا كلامها - هذا أمر فظيع، فظيع. فبدلاً من أن تتهجموا عليهن

من الافضل أن تقرأوا كتاب ميشليه «عن الحب»^(٣٦). شيء رائع! أيها

(٣٦) في الأصل بالفرنسية «De l'amour». جول ميشليه (١٧٩٨ - ١٨٧٤)

كاتب ومؤرخ فرنسي. صدر كتابه المذكور عام ١٨٥٩. المترجم.

السادة، فلتحدث عن الحب. - قالت ذلك والقت يدها بفتور ورقة على وسادة الاربيكة المدعوكة. وخيم صمت فجائي. ثم قال بازاروف:
 - كلا، ما الداعي للكلام عن الحب. لقد ذكرت اسم اوديتسوف...
 هكذا سميتها، أليس كذلك؟ من هي هذه السيدة النبيلة؟
 - لا اروع منها! - قال سيتنيكوف بصرير كالصأصأة - سأقدم لها. ذكية، غنية، أرملة. ومن المؤسف أنها غير متطورة. بما فيه الكفاية. فمن اللازم لها أن تعرف بصورة اقرب على عزيزتنا يفتدوكسيا. اشرب نخبك، يا (يفدوكسي)^(٣٧) ! فلنقرع الكؤوس! - ثم أخذ سيتنيكوف يترنم بالفرنسية:

«Et tok, et tok, et tin - tin - tin!

Et tok, et toke, et tin - tin - tin!!»

فقالت كوكشينا:

- أنت عابث لعوب يا (فكتور)^(٣٨).

- استغرق الفطور وقتاً طويلاً. ولحقت بقنينة الشمبانيا الأولى ثانية وثالثة، بل ورابعة... كانت يفتدوكسيا تثرثر بلا انقطاع. وكان سيتنيكوف يماشها في الثرثرة. فقد تحدثا كثيراً عن الزواج، وعما إذا كان تقليداً وهمياً أو جريمة. وعن الناس الذين يولدون، هل هم متماثلون أم لا؟ وفيم يكمن التفرد الشخصي في الواقع؟ وأخيراً احتقنت يفتدوكسيا كلياً بما احتسته من نبيذ وأخذت تنقر بأظافرها المسطحة على مفاتيح البيانو المشوش وشرعت تنشد بصوت مبحوح بعضاً من أغاني العجر في البداية ثم موال سيمور-

(٣٧) في الاصل بالفرنسية Eudoxie.

(٣٨) في الاصل بالفرنسية.

شيف «غرناطة الناعسة»، بينما شد سيتنيكوف رأسه بوشاح ومثل دور
العشيق الولهان عندما غنت هي كلمات:

وتلتحم شفتاك بشفتي

في قبلة حري

نقد صبر ار كادي فقال أخيراً بصوت مسموع: «يا سادة، غدا الأمر
اشبه بدار المجاذيب».

أما بازاروف الذي كان نادراً ما يضيف كلمة ساخرة إلى الحوار - إذ
أنه مشغول بالشمبانيا أكثر من غيرها - فقد تئأب بصوت عال ونهض
ثم خرج مع ار كادي دون أن يودع صاحبة الدار. هرع سيتنيكوف في
أثرهما متسائلاً:

- ماذا؟ ماذا؟ - وأخذ يتملقهما ويتراكمض حولهما تارة من اليمين
وتارة من الشمال - ألم أقل لكما أنها شخصية رائعة؟! كثر الله من أمثالها!
أنها ظاهرة اخلاقية سامية في الواقع.

- ومؤسسة ايك هذه هل هي ظاهرة اخلاقية سامية أيضاً؟ - سأل
بازاروف وهو يشير باصبعه إلى الحانة التي مروا قربها في تلك اللحظة.

قهقه سيتنيكوف من جديد بصريز كالصأصة. كان يخجل كل الخجل
من منحدره العائلي، وما كان يدري هل يتعين عليه أن يعتبر كلمات
بازاروف الخشنة المفاجئة اطراء أم اهانة.

١٤

بعد بضعة أيام اقيمت الحفلة الساهرة لدى المتصرف. وكان ماتفي
ايليتش «بطل الحفلة» حقاً. فقد اعلن رئيس نبلاء اللواء على رؤوس
الاشهاد أنه جاء، في الواقع، احتراماً له، بينما واصل المتصرف «اصدار

الأوامر» حتى في الحفلة مع أنه ظل ساكناً بلا حراك. أما رقة ماتفي ايليتش في مخاطبة الآخرين فكانت تضاهي عظمتة بلا نقصان. كان يداري الجميع، بعضهم بنأمة من الاشتمزاز وبعضهم الآخر بمسحة من الاحترام، ويحاول جهده أن يبدو أمام السيدات. يظهر (الفارس الفرنسي الحقيقي)^(٣٩)، ويقهقه دون كلل بتلك الضحكة الرتيبة العريضة الرنانة التي تليق بالموظفين الكبار.

طبّط على ظهر اركادي وناداه بصوت عال «يا ابن اختنا العزيز»، وتفضل على بازاروف ذي البزة العتيقة على الشيء بنظرة هائمة عابرة ولكنها متساهلة انبعثت منه عبر وجنته، وبفحيح ترحيبي مبهم لم يفهم منه سوى «أنا...» «جدا...». وقدم اصبعه لسيتنيكوف كي يصافحه وابتسم له، وهو يشيخ عنه في الوقت ذاته. وقال «مفتون بك»^(٤٠) حتى لكوكشينا التي حضرت ترتدي قفازات قذرة وبدون تنورة الحفلات المتفتحة، غير أنها شكّت شعرها بدبوس طائر الجنة. كان هناك جمهور غفير من الناس. ولا نقص في عدد الرجال. كان المدنيون قد حوصروا بأغلبهم إلى الجدران، بينما راح العسكريون يرقصون ببالغ الجهد، وخصوصاً واحد منهم، كان قد عاش في باريس ستة أسابيع فتعلم مختلف الهتافات الفرنسية المتهورة من أمثال «يا للشيطان!» و «يا للعجب!» و «ها، ها، يا صغيرتي»^(٤١).

راح يتلفظ هذه الهتافات على أحسن ما يكون، بلهجة باريسية فاخرة، ولكنه، فيما عدا ذلك، كان يحطم اللغة الفرنسية تحطيماً، أي أنه يتكلم باللهجة الفرنسية - الروسية التي يسخر منها الفرنسيون عندما لا

(٣٩) في الأصل بالفرنسية en vrai chevalier français.

(٤٠) في الأصل بالفرنسية «Enchante».

(٤١) في الأصل بالفرنسية «Zut»، «Ah fichtree»، «Pst، Pst، mon bibi».

يشعرون بحاجة إلى أن يقولوا لنا في مجاملة بأننا نتكلم بلغتهم كما يتكلم الملائكة.

لم يكن اركادي يجيد الرقص، كما نعلم، أما بازاروف فلم يمارس الرقص مطلقاً. ولذلك انزويبا في ركن، فانضم إليهما سيتنيكوف الذي تظاهر بمسحة من السخرية المستنكفة وأخذ يطلق ملاحظات جارحة ويسلط نظرات وقحة على ما حو اليه، وبدا وكأنه يتمتع بلذة خالصة. وعلى حين غرة تبدلت سحنته فالتفت إلى اركادي وقال بشيء من الارتباك «وصلت اودينتسوفاً».

التفت اركادي فرأى امرأة فارعة القوام في بدلة سوداء توقفت عند باب الصلاة. ادھسته بروعة قدها المشوق. يداها العاريتان مستقرتان على نحو جميل إلى جانبي خصرها الاليف. واغصان الفوشية الخفيفة تتدلى على نحو جميل أيضاً من شعرها اللامع على كتفيها المنحدرتين. وعيناها الفاتحتان تبعثان من تحت جبينها الابيض البارز بعض الشيء نظرات ثاقبة هادئة، هادئة بالذات وليس متألمة. وشفاتها بتسيمان ابتسامة تكاد لا تلاحظ. كان يحياها ييث قوة ما، رقيقة حنوناً.

– هل تعرفها؟ – سأل اركادي من سيتنيكوف.

– أعرفها جيداً. أتريد أن اقدمك إليها؟

– حبذا... بعد هذه الرقصة.

تنبه بازاروف هو الآخر إلى اودينتسوفاً. فقال:

– ما هذا القدر؟ أنها لا تشبه الاخريات.

انتظر سيتنيكوف حتى انتهت الرقصة فاصطحب اركادي إلى اودينتسوفاً. ومن المشكوك فيه أنه كان يعرفها جيداً: فقد تلعثم في اقواله، بينما نظرت هي اليه بشيء من الاستغراب. إلا أن وجهها اكتسى بمسحة

من الترحاب عندما سمعت لقب ار كادي. فسألته عما إذا كان هو ابن نيكولاي بتروفيتش.

- بالضبط.

- رأيت والدك مرتين وسمعت عنه الكثير. يسرني جداً أن اتعرف عليك - واصلت كلامها.

وفي تلك اللحظة اقترب منها ضابط ودعاها لرقصة الكدريل. فوافقت.

- هل ترقصين يا ترى؟ - سألتها ار كادي باجلال.

- أجل. فلماذا تظن بأني لا ارقص؟ أم أني ابدو لك طاعنة في السن؟

- عفواً، كيف ذلك... ولكن في هذه الحالة اسمحي لي بأن ادعوك لرقصة المازوركا.

ابتسمت اوديتسوفاً متسامحة وقالت:

- تفضل. - وسلطت على ار كادي نظرة، أن لم تكن متعالية فهي شبيهة بنظرات الاخوات المتزوجات إلى اخوانهن الذين لا يزالون في مقتبل العمر.

لم تكن اوديتسوفاً أكبر من ار كادي بكثير. فقد دشنت عامها التاسع والعشرين ولكنه كان يشعر في حضورها بأنه تلميذ أو طالب، وكأنما الفرق في عمريهما أكبر من ذلك بكثير. اقترب منها ماتفي ايليتش ومظهره يدل على العظمة واقواله تم عن التزلف. فانزوى ار كادي جانباً ولكنه ظل يتطلع إليها. ولم تفارقها نظراته خلال رقصه الكدريل أيضاً. كانت تتكلم بلا تكلف مع مراقصها، مثلما تكلمت لتوها مع الموظف الكبير، وكانت تميل برأسها وانظارها بهدوء، وقد ضحكت مرتين بخفوت. كان انفها كبيراً بعض الشيء كأنوف جميع الروس تقريباً، ولم يكن لون بشرتها

صافياً لحد الكمال، ومع ذلك تصور ارКАДي أنه لم يقابل ابداً مثل هذه المرأة الرائعة. ولم تكن نغمات صوتها لتفارق مسمعه، وحتى طيات بدلتها بدت له على غير ما هي عليه لدى الاخريات، كانت اوسع وأكثر استقامة، وكانت حرركاتها متناسقة على نحو خاص وطبيعية في الوقت ذاته.

أحس ارКАДي بشيء من الوجع في الفؤاد حين تقدم إلى صاحبه عندما تهادت أولى انغام المازوركا، وعندما اراد أن يتكلم معها لم يفعل غير أن مسد شعره بيده دون أن يعثر على كلمة واحدة مناسبة. إلا أن وجله واضطرابه لم يستمر طويلاً، فقد انتقلت إليه عدوى الهدوء من اودينتسوف. ولم يمض ربع ساعة إلا وصار يتحدث بطلاقة عن ابيه وعمه وعن الحياة في بطرسبورغ وفي القرية. استمعت إليه اودينتسوف بأدب وانتباه، وكانت تفتح مروحتها وتغلقها بعض الشيء. كان ارКАДي يتوقف عن الثرثرة عندما يدعوها الراقصون للرقص. وبالمناسبة فقد دعاها سيتنيكوف مرتين. كانت تعود فتجلس من جديد وتلتقط المروحة، وحتى صدرها لم يكن يتنفس اسرع من المعتاد، بينما يواصل ارКАДي ثرثرته من جديد، وهو مغمور بفرحة وجوده قربها والتحدث إليها والتطلع إلى عينيها، وإلى جبينها الرائع، وإلى محياها البديع الذي ينم عن وجهة وذكاء. كانت قليلة الكلام، ولكن معرفتها بالحياة تجلت في كلماتها القليلة. ادرك ارКАДي من بعض ملاحظات هذه المرأة التشابه أنه تيسرت لها معرفة الكثير والتمعن في أمور جمة...

— من ذلك الذي كان واقفاً معك قبيل أن رافقك السيد سيتنيكوف الي؟ — سألته، فسألها ارКАДي بدوره:

— هل لاحظته؟ ما اجمله، أليس كذلك؟ أنه صديقي بازاروف.

وظفق ارКАДي يتحدث عن «صديقه».

تحدث عنه باسهاب واعجاب جعل اودينتسوف تلتفت إليه وتسلط

عليه نظرة متفحصة، في حين كانت المازوركا تقترب من نهايتها. ما اشد اسف اركادي لمفارقة صاحبتة: فقد صرف معها زهاء ساعة من احلى الاوقات! صحيح أنه كان طوال هذا الوقت يشعر وكأنها متفضلة عليه وكأنما ينبغي أن يكون ممتناً لها... إلا أن مثل هذا الشعور لا يثقل على الافئدة الفتية.

صمت الموسيقى.

فقال اودينتسوف ناهضة:

- (شكرا)^(٤٢). وعدتني بزيارتي، فاصطحب صديقك معك. وستكون في منتهى الطرافة رؤية شخص يتجاسر على عدم الايمان بشيء. اقترب المتصرف من اودينتسوف فأعلن أن العشاء جاهز وقدم لها يده وقد اكتسى وجهه بمسحة من الاهتمام. التفتت اودينتسوف، ذاهبة، لكي تبسم لاركادي وتحني له رأسها لآخر مرة. انحنى هو انحناء واطئة ولاحقها بنظراته (فكم اعجبه اعتدال قوامها الملمع بلمع رمادي من الحرير الاسودا) وفكر في نفسه: «في هذه اللحظة لم تعد تذكر وجودي»، واحس باستسلام رهيف يكتنف جوانحه...

- ماذا؟ - سأل بازاروف اركادي حالما عاد هذا إليه في الركن - هل تمتعت؟ قال لي أحد النبلاء الآن أن هذه السيدة «من الصنف المطواع» بيد أن ذلك النبيل احمق على ما يبدو. وفي رأيك هل هي «من الصنف المطواع» حقاً؟

فأجاب اركادي:

- أنني لا أفهم هذا النعت حق الفهم.

(٤٢) في الأصل بالفرنسية Merci.

– يا للبراءة العذرية!

– اذن فأنا لا أفهم نبيلك ذاك. اودينتسوفافاتنة جداً، دون شك، ولكنها تتصرف ببرود وصرامة بحيث...

– في الماء الساكن تختبئ العفاريت. – اجابه بازاروف. – تقول أنها تتصرف ببرود. وذلك ذوق رفيع. أنت تحب المرطبات، أليس كذلك؟
فدمدم اركادي:

– ربما لا يمكنني أن احكم على ذلك. أنها تريد أن تتعرف عليك ورجتني أن اصطحبك إليها.

– أتصور كيف بالغت في الحديث عني! ومع ذلك حسنا فعلت. خذني إليها، ولا فرق إذا كانت هي معبودة اهالي اللواء أو «متحررة» على شاكلة كوكشينا، فأن لديها كتفين لم ار مثلهما من زمان.

تألم اركادي لوقاحة بازاروف، ولكنه لام صديقه، كما يحدث غالباً، ليس على الشيء الذي ازعجه فيه... فسأله بهدوء:

– لم لا تريد للنساء أن يتمتعن بحرية الفكر؟!

– ذلك، يا أخي، لأني لاحظت أن القبيحات وحدهن يفكرن بحرية. توقف الكلام عند هذا الحد. وغادر الشابان المكان فور انتهاء العشاء. فشيعتهما كوكشينا بضحكة عصبية حاقدة، ولكن بشيء من الاستحياء، فقد اهينت كرامتها لأن هذا وذاك لم يلتفتا إليها. ظلت في الحفلة آخر الجميع، وفي الساعة الرابعة ليلاً رقصت مع سيتنيكوف المازوركا البولونية على الطريقة الباريسية. وبهذا المشهد الكبير الدلالة اختتمت حفلة المتصرف.

في اليوم التالي قال بازروف لاركادي وهما يرتحيان سلم الفندق الذي نزلت به اودينتسوفاً:

- سنرى إلى أية فصيلة من الثدييات تنتمي هذه المرأة. يخيل الي أن شيئاً ما هنا ليس على ما يرام.
فهتف أركادي:

- أنك تدهشني! كيف؟ كيف يجوز لك، أنت بازروف، أن تتمسك بتلك الاخلاق المتحجرة التي...

- يا لغرابة اطوارك! - قاطعه بازروف باستهانة. - أفلا تعرف أن تعبير «ليس على ما يرام» يعني في لهجتنا، وبالنسبة لنا، «على ما يرام»؟ أي أن هناك غنيمة ما. افلست أنت الذي قلت اليوم أنها تزوجت على نحو يثير الاستغراب، بالرغم من أن الزواج من عجوز غني ليس، في رأيي، بالأمر الغريب أبداً، بل هو، على العكس، خطوة حكيمة. أنني لا اصدق الاقاويل الشائعة في المدينة، ولكنني اميل إلى الاعتقاد، كما يقول متصرفنا المستنير، بأنها صادقة.

لم يجب اركادي بشيء، وطرق الباب. رافق وصيف شاب يرتدي بزة الخدم كلا الصديقين إلى غرفة واسعة مؤثثة على نحو سيئ، كما هو شأن كل الغرف في الفنادق الروسية، ولكنها تكاد تغص بالزهور. وسرعان ما ظهرت اودينتسوفاً نفسها في فستان صباحي بسيط. بدت أكثر فتوة في ضوء شمس الربيع. قدم اركادي لها بازروف، ولاحظ بدهشة خفية أن هذا قد ارتبك شيئاً، في حين ظلت اودينتسوفاً هادئة كلياً، مثلما كانت بالامس. واحس بازروف نفسه بأنه ارتبك، فاكتأب لذلك، وفكر في نفسه: «يا للعجب! ارتعبت من امرأة!» ثم ارمى على الكرسي بهيئة طليقة ليست افضل من هيئة سيتنيكوف، وشرع يتكلم

مغالياً في عدم التكلف، بينما لم تحول اودينتسوفاً عنه عينيها الصافيتين. ولدت أنا سيرغييفنا اودينتسوفاً من سيرغي نيكولايفيتش لوكيف المقامر والنصاب الوسيم المعروف الذي ذاع صيته طوال خمسة عشر عاماً تقريباً على سكني القرية، وسرعان ما وافته المنية هناك، فترك ثروة ضخيلة جداً لابنته أنا البالغة من العمر عشرين عاماً وكاترينا البالغة من العمر اثني عشر عاماً. وكانت امهما، وهي من سلالة الامراء خ... الذين احاق بهم الافلاس، قد توفيت في بطرسبورغ عندما كان زوجها لا يزال في اوج ازدهاره. كانت حالة أنا بعد وفاة ابيها عسيرة للغاية. فالتربية الممتازة التي تلقتها في بطرسبورغ لم تكن قد اعدتها لتحمل أعباء المعيشة والشؤون المنزلية ولا حياة الريف الخاوية. ولم تكن تعرف أحداً على الاطلاق في المنطقة كلها، وما كان بوسعها أن تلمس النصح من أحد. كان أبوها يتحاشى الاتصال بالجيران، فقد كان يحقرهم وكانوا هم يحقرونه كل على طريقته الخاصة. إلا أنها لم تفقد رشدها، فاستدعت على الفوز خالتها الأميرة افدوتيا ستيبانوفنا خ...، وهي عجوز شريرة متعجرفة استأثرت بأفضل الغرف حالما انتقلت إلى دار ابنة اختها وصارت تدمم وتذمر من الصباح إلى المساء، وحتى عندما تمشى في البستان تصطحب وصيفها الوحيد القن المتجهم بعمرته المثلثة وبزته المتهرئة الصفراء الضاربة إلى الخضرة والمقصابة بشریط ازرق. تحملت أنا بصبر كل نزوات خالتها، وواظبت على تربية اختها شيئاً فشيئاً، وكادت تستسلم لفكرة الذبول في الريف... إلا أن القدر اعد لها مصيراً آخر. فقد لمحها صدفة شخص ثري جداً اسمه اودينتسوف. كان في السادسة والاربعين من العمر، غريب الاطوار منقبض النفس، بديناً ثقيلاً متجهماً. ولكنه لم يكن بليداً ولا شريراً. اغرم بها وطلب يدها فوافقت على الزواج منه. غير أنه عاش معها زهاء ستة اعوام وقضى نحبه مخلقاً لها كل ثرواته. قضت أنا سيرغييفنا زهاء عام بعد وفاته دون أن تغادر القرية، ثم سافرت مع اختها إلى الخارج، ولكنها

زارت المانيا فقط فانتابها الحنين وعادت لتعيش في قرية نيكولسكويه المحيية إليها والتي تبعد زهاء اربعين كيلومتراً عن مدينة . لديها هناك دار فاخرة مؤثثة على نحو ممتاز وبستان رائع ذو مشاتل زجاجية: فالمرحوم اودينتسوف لم ييخل على نفسه بشيء. كانت أنا سيرغييفنا نادراً ما تسافر إلى المدينة لقضاء بعض الاشغال في أغلب الحالات، ولأمد قصير. ولم يكن الآخرون في اللواء يحبونها، فكانوا يستفظعون زواجها من اودينتسوف ويروجون مختلف الاشاعات عنها ويزعمون بأنها ساعدت أباهما في احاييله وغشه، وأنها لم تسافر إلى الخارج عبثاً، بل لغرض ستر عواقب وخيمة... وكان المتحدثون الغاضبون يضيفون إلى ذلك قائلين: «هل انتم فاهمون؟». كانوا يقولون أنها «اجتازت النار والحديد». وكان المنكس المعروف في اللواء كله يضيف إلى ذلك عادة: «... والانايب النحاسية أيضاً». وكانت كل هذه الاقاويل تبلغ مسامعها، ولكنها لا تعيرها اهتماماً. فهي ذات طبع طليق حازم.

جلست اودينتسوفاً متكئة على مؤخرة المقعد فوضعت يداً على يد وهي تستمع إلى بازاروف الذي تحدث كثيراً، خلافاً لعادته، وكان واضحاً أنه يحاول الهاء محدثه، مما اثار استغراب اركادي من جديد. لم يكن اركادي واثقاً مما إذا كان بازاروف قد بلغ مقصده أم لا. فمن الصعب الحكم، حسب تعابير وجه أنا سيرغييفنا، على الانطباعات التي تكونت لديها. إذ أن محياها احتفظ بتعبير واحد، رقيق بشوش، وومضت عينها بانتيباه هادئ لا يعكس صفوه شيء. كان تصنع بازاروف في اللحظات الأولى للزيارة قد اثار استياءها، كما تشير الاستياء الرائحة الكريهة أو الصوت الحاد، ولكنها ادركت في الحال أن ذلك بسبب الارتباك، فانفجرت اساريرها. كان شيء واحد فقط يثير نفورها وهو الابتذال، إلا أنه ما من أحد بوسعه أن يتهم بازاروف بالابتذال. وتعرض اركادي في ذلك اليوم للدهشة المرة تلو الاخرى. فقد كان يتوقع من بازاروف أن.

يتكلم مع اودينستوفا، كما يتكلم مع امرأة حصيصة، عن معتقداته وآرائه. فقد اعربت عن رغبتها في الاستماع إلى الشخص «الذي يتجاسر على عدم الايمان بشيء». ولكن بازاروف، بدلاً من ذلك، صار يتحدث عن الطب والصيدلة وعلم النبات. واتضح أن اودينستوفا لم تضع الوقت سدى في وحدتها: فقد طالعت طائفة من الكتب الجيدة، وكانت تتكلم بلغة روسية سليمة. سارت بالحديث إلى الكلام عن الموسيقى. لكنها لاحظت أن بازاروف لا يعترف بالفن، فعادت بشكل غير ملحوظ إلى علم النبات، مع أن اركادي تهيأ للكلام عن أهمية الانعام الشعبية. واستمرت اودينستوفا على معاملته كما يعامل الأخ الاصغر. خيل إليه أنها تقدر فيه طبيته وبساطة الفتوة لا أكثر. استغرق الحديث أكثر من ثلاث ساعات، وكان متأنياً متنوعاً حيويًا.

نهض الصديقان في آخر الأمر وودعا أنا سيرغييفنا فنظرت إليهما برقة وحنان ومدت يدها البيضاء الجميلة إلى احدهما ثم إلى الآخر، وفكرت قليلاً ثم قالت بابتسامة طيبة متهية:

— إذا كنتما، أيها السيدان، لا تخشيان الملل فتعالا إلى في نيكولسكويه. فهتف اركادي:

— شكراً، يا أنا سيرغييفنا، أني اعتبر ذلك منتهى السعادة...

— وأنت، يا مسيو بازاروف؟

اكتفى بازاروف بانحناءة، مما أثار دهشة اركادي للمرة الاخيرة، فقد لاحظ أن وجه صديقه قد احمر شيئاً.

وقال له في الشارع: — ماذا؟ إلا تزال على رأيك بخصوص «الصف المظوع»؟

— من يدري؟! إلا ترى كيف جمدت نفسها؟! — اعترض بازاروف،

ولكنه اضاف بعد قليل: - أنها دوقه متسلطة. لا يعوزها غير حلة طويلة الاذيال وتاج على الرأس.

- دوقاتنا لا يتكلمن الروسية بهذه الطلاقة.

- لقد ذقت الأمرين، يا اخي، وعركت الحياة مثلنا.

- ومع ذلك فهي في منتهى الروعة - قال اركادي. فواصل بازاروف كلامه: - ياله من بدن موفور. لا بد من نقله إلى طاولة التشريح على الفور.

- كفاك هذراً يا يفغيني! بالله عليك! بلغ السيل الزبي.

- لا ترعل، أيها الفتى الرقيق. قلنا لك جادين أنها من صنف ممتاز. وينبغي أن نذهب إليها.

- متى؟

- بعد غد مثلاً. فما الذي نفعه هنا؟ هل نظل نحتمي الشمبانيا مع كوكشينا؟ أم نستمع إلى قريبك الموظف اللبرالي الكبير؟.. سنشد الرحال بعد غد. ثم أن ضيعة أبي المتواضعة ليست بعيدة من هناك. نيكولسكويه تقع على طريق، أليس كذلك؟

- بلى.

- (حسنًا)^(٤٣). لا داعي للتواني، فلا يتوانى إلا الحمقى والمتظاهرون بالذكاء. أقول لك: أنه بدن موفور!

بعد ثلاثة أيام شد الصديقان الرحال إلى نيكولسكويه. كان النهار وضاء معتدل الحرارة. وكانت خيول البريد المتخمة تنهب الطريق بوتام، وهي تلوح دون عناء بذبولها المتتوية المتشابكة. أخذ اركادي يتطلع إلى

(٤٣) في الأصل باللاتينية Optime.

الطريق ويتسم دون سبب واضح. إلا أن بازاروف هتف فجأة:

- يمكنك أن تهنئي. فاليوم، الثاني والعشرين من يونيو، عيد ملاكي الحارس. وسرى إلى أي حد هو مهتم بي، - ثم اضاف بصوت خفيض:
- في البيت ينتظرونني اليوم... فلينتظروا، ما أهمية ذلك!؟

١٦

تقع الضيعة التي تقطنها أنا سيرغييفنا على هضبة مكشوفة معتدلة الانحدار على مسافة غير بعيدة عن كنيسة حجرية صفراء ذات سقف أخضر واعمدة بيضاء ومدخل مزين في اعلاه برسم جداري^(٤٤) يمثل «قيام المسيح» على الطراز «الايطالي». وكانت رائعة على الخصوص الملامح المستديرة في صورة محارب اسمر يرتدي خوذة فولاذية ويتصدر الرسم منبطحاً. ووراء الكنيسة امتدت القرية بصفين من اكواخ تبدو على بعضها مداخن فوق سطوح من القش. وكانت دار اودينتسوف مبنية بنفس طراز الكنيسة، وهو الطراز المعروف عندنا باسم الاسكندري. وهي مطلية كذلك بدهان اصفر ولها سطح اخضر واعمدة بيضاء وقوصرة مثلثة ذات شعار. وقد انشأ معماري اللواء كلتا البنائيتين بموافقة المرحوم اودينتسوف الذي لم يطبق التجديدات الفارغة الاعتبارية على حد تعبيره. وتحاذى الدار من كلا الجانبين اشجار البستان القديم المعتمة، ويؤدي إلى مدخلها ممر من اشجار الشوح المقلمة.

استقبل صاحبيننا في الدهليز وصيفان فارعا القامة، اسرع احدهما على الفور لاستدعاء كبير الوصفاء. كان هذا رجلاً بديناً في بزة رسمية سوداء. حضر في الحال ورافق الضيفين على السلم المفروش بالسجاد إلى غرفة

(٤٤) في الاصل بالايطالية al fresco.

خاصة فيها سريران مع جميع مستلزمات الزينة والغسيل. يبدو أن النظام سائد في الدار: فكل شيء نظيف، وفي كل الانحاء تفوح روائح مقبولة، كما في صالات الاستقبال في الوزارات.

قال كبير الوصفاء:

- آنا سيرغييفنا ترجو كما أن تشرفاها بعد نصف ساعة. فهل من أوامر أو توجيهات؟

فأجاب بازاروف:

- ليست لدينا أوامر، أيها المحترم، سوى قدح من الفودكا إذا تفضلت.
- سمعاً وطاعة يا سيدي - قال كبير الوصفاء بشيء من الاستغراب، وذهب مصراً بجزمته. فعلق بازاروف:

- يا له من اسلوب راق مهيب! أليس كذلك؟ أنها دوقة حقاً.

فاعترض اركادي:

- اية دوقة هي إذا كانت قد دعت لضيافتها منذ اللقاء الأول
ارستقراطيين شديدي البأس مثلنا؟!!

- وخصوصاً أنا، طبيب المستقبل، أين الطبيب وحفيد القندلفت...
أنت تعلم أنني حفيد قندلفت، أليس كذلك؟

- مثل سبيرانسكي - اضاف بازاروف بعد فترة صمت قصيرة وقد زم شفتيه... - ومع ذلك فقد دلت هذه السيدة نفسها. ما اشد دلالتها! أفلا يتعين علينا أن نرتدي بزة رسمية؟!!

اكتفى اركادي بأن هز كتفيه... ولكنه هو الآخر احس ببعض الارتباك.

بعد نصف ساعة دخل بازاروف واركادي غرفة الاستقبال. وهي

غرفة واسعة عالية السقف مؤثثة بأثاث فاخر تماماً ولكن بدون ذوق رفيع. الموبيليا الثقيلة الثمينة مصفوفة على طول الجدران المزينة بورق بني موشح بلون ذهبي. كان المرحوم اودينتسوف قد اقتناها في موسكو بواسطة صديقه ووكيله تاجر الخمر. وفوق الاريكة الوسطى علق صورة رجل اشقر مترهل، بدا وكأنه يسלט على الضيفين نظرة غير ودية. فهمس بازاروف لاركادي: «أنه هو على ما يبدو»، ثم اضاف وقد انكمش انفه: «ماذا؟ هل نهرب؟» إلا أن ربة البيت دخلت في تلك اللحظة. كانت ترتدي فستاناً خفيفاً. وكان شعرها المصفف على نحو املس وراء اذنيها قد اضى مسحة عذرية على محياها الطري الصافي.

بدأت كلامها قائلة:

— اشكر كما على الوفاء بالوعد. ارجو أن تقيما في ضيافتي. الاحوال هنا ليست سيئة في الواقع. وسأعرفكما على اختي. أنها تجيد العزف على البيانو. وهذا لا يعني شيئاً بالنسبة لك يا مسيو بازاروف، ولكنك، يا مسيو كيرسانوف، تحب الموسيقى كما يخيل الي. وبالإضافة إلى اختي تعيش عندي خالتي العجوز، وفي بعض الاحيان يزورنا أحد الجيران فلعب الورق. ذلك هو مجتمعنا كله. أما الآن فلنجلس.

تلفظت اودينتسوفاً هذه الخطبة القصيرة. منتهى الوضوح، كما لو كانت قد حفظتها عن ظهر قلب. ثم وجهت كلامها إلى اركادي، واتضح أن أمها كانت تعرف أم اركادي، بل وكانت حافظة سر حبها لنيكولاي بروفيتش. وتكلم اركادي بحماس عن المرحومة والدته، بينما انشغل بازاروف في تصفح الالبومات وفكر في نفسه: «كم صرت وديعاً!».

هرعت إلى غرفة الاستقبال كلبة سلوكية جميلة بطوق ازرق، واخذت تداعب الارضية بمخالبها. وعلى أثرها دخلت فتاة في حوالي الثامنة عشرة ذات شعر أسود ومحيا اسمر لطيف مستدير بعض الشيء وعينين سوداوين

واسعتين. كانت تحمل سلة مليئة بالزهور، فأومات إليها اودينتسوفاً بحركة من رأسها وقالت:
- هذه اختي كاتيا.

سلمت كاتيا على الحاضرين ثم جلست قرب اختها واخذت تصفف الزهور، بينما اقتربت الكلبة السلوقية، واسمها فيفي، من الضيفين وهي تهز ذيلها، ودست انفها البارد في يد احدهما ثم في يد الآخر. وسألت اودينتسوفاً اختها:

- هل جمعت كل هذه الزهور بنفسك؟

فأجابت كاتيا:

- أجل.

- وخالتنا، هل ستأتي لتناول الشاي؟

- ستأتي.

عندما تتكلم كاتيا تبتسم على نحو رقيق للغاية، باستحياء وصراحة وتنظر من الاسفل إلى الاعلى بشكل طروب وبشيء من الصرامة. كل شيء فيها لا يزال غصاً نضيراً: صوتها والزغب على وجهها كله واليدان الورديتان براحتيهما المائلتين إلى بياض والكتفان المضغوطتان بالكاد... كانت مصطبغة بالاحمرار دوماً وكانت تنفس بصورة متلاحقة سريعة.

التفتت اودينتسوفاً إلى بازاروف قائلة:

- أنك، يا يفغيني فاسيليفيتش، تقلب الصور بحكم اللياقة لا أكثر. فهي لا تثير اهتمامك. الافضل أن تقترب منا، فلنتجادل في أمر ما.

اقترب بازاروف وسأل:

- فيم نتجادل، يا سيدتي؟

- في كل ما تريد. واحذر بك بأني أحب الجدل كثيراً.

- أنت؟

- أجل. هل يدهشك ذلك؟ لماذا؟

- لأن طابعك، أن صح حكيم، هادئة باردة، في حين يتطلب الجدل ولعاً وانهماكاً.

- كيف استطعت أن تخير طبعي بهذه السرعة؟ أنني عنيدة ضعيفة الصبر. ومن الأفضل أن تستفسر من كاتيا عن ذلك. هذا أولاً. ثم اني انساق للولع بسهولة كبيرة.

نظر بازاروف إلى آنا سيرغييفنا وقال:

- ربما، فأنت اعرف، وما دمت تريدين المجادلة ففضلني. كنت أتطلع إلى مناظر سويسرا السكسونية في البومك، لكنك قلت لي أن هذا لا يمكن أن يشير اهتمامي. ولقد قلت ذلك لأنك لا تتصورين وجود شعور فني عندي. وبالفعل فهو غير موجود. لكن هذه المناظر يمكن أن تثير اهتمامي من الناحية الجيولوجية، من حيث تكون الجبال، مثلاً.

- عفواً. أنك، كجيولوجي، ستلجأ على الأغلب إلى الكتب، إلى المؤلفات المتخصصة، وليس إلى الرسوم.

- الرسم يبين لي بوضوح وإيجاز ما يتحدث عنه الكتاب في عشر صفحات كاملة.

لزمتم آنا سيرغييفنا الصمت لحظة، ثم قالت بعد أن استندت بكوعها إلى الطاولة فقربت وجهها من بازاروف:

- هل يعقل أنه ليست لديك ذرة من الشعور الفني. فكيف تستطيع الاستغناء عنه؟

- اسمحي لي أن أسألك: ما الحاجة إليه؟

- من أجل اجادة معرفة الناس ودراستهم على الأقل.

ضحك بازاروف بشيء من السخرية وقال:

- توجد لهذا الغرض، أولاً، الخبرة الحياتية، وثانياً، افيدك بأن لا جدوى من دراسة كل فرد على حدة. البشر متشابهون جسدياً وروحياً. ولدى كل منا دماغ وطحال وقلب ورتنان، وكلها مبنية بشكل واحد. وحتى ما يسمى بالسجايا الخلقية إنما هي واحدة لدى الجميع: فالفروق الطفيفة لا تعني شيئاً. يكفي وجود نموذج بشري واحد لكي يمكن الحكم على الآخرين جميعاً. فالبشرة كأشجار الغاب، وما من عالم نباتي يمارس دراسة كل شجرة على حدة.

رفعت كاتيا التي كانت تصف زهرة إلى زهرة دون استعجال انظارها متحيرة إلى بازاروف فاحتقن وجهها حمرة حتى الاذنين عندما اصطدمت نظرتها بنظرته السريعة المستهينة. أما أنا سيرغييفنا فقد هزت رأسها وقالت:

- إذا كانوا كأشجار الغاب فذلك يعني، برأيك، أنه لا فرق بين البليد والذكي، ولا فرق بين الإنسان الخير والشرير، أليس كذلك؟

- كلا، يوجد فرق، كما بين المريض والمعافي. فالرتنان لدى المصاب بالتدرن ليستا بمثل حالتهما لدينا، مع انهما مبنيتان بشكل واحد. ونحن نعرف على وجه التقريب بواعث العلل الجسدية، أما العلل الاخلاقية فسيبها التربية الفاسدة ومختلف التفاهات التي تتحشى بها أدمغة البشر منذ الصغر. سببها، باختصار، حالة المجتمع البشعة. فصححوا اوضاع المجتمع ولن تظل هناك علل.

كان بازاروف يتحدث بشكل بدا معه وكأنه يفكر في الوقت ذاته على النحو التالي: «لا فرق بين ما إذا كنت تصدقيني أم لا!». مسد فوديه بحركة بطيئة من اصابعه الطويلة، بينما راحت عيناه تجولان في الانحاء.

فقال آنا سيرغييفنا:

- تصور أنه لن يبقى هناك بلداء ولا أشرار بعد تصحيح المجتمع؟
- لدى توفر النظام الاجتماعي الصائب سيكون سواء، على أقل تقدير، ما إذا كان الانسان بليداً ذكياً، شريراً أو خيراً.
- أجل، فهمت. سيكون لدى الجميع نفس الطحال المتماثل.
- بالضبط، يا سيدتي الجليلة.
فالتفت اودينتسوفاً إلى اركادي متسائلة:
- وأنت، يا اركادي نيكولايفيتش، ما هو رأيك؟
فأجاب اركادي:
- انني متفق مع يفغيني.

نظرت إليه كاتيا عابسة. فقالت اودينتسوفاً:

- أنكما تثيران دهشتي، أيها السيدان. ولكننا سنواصل الحديث فيما بعد. فأن خالتي قادمة لتناول الشاي. وعلينا أن نرأف بحالها.
دخلت الاميرة خ...، خالة آنا سيرغييفنا، وهي امرأة قميئة نحيلة ذات وجه صغير منقبض وعينين شريرتين جامدتين تطلان من تحت شعر مستعار اشييب. انحنت للضيفين بالكاد وارتعت على المقعد المخملي الواسع الذي لا يحق لاحد غيرها أن يجلس عليه. وضعت كاتيا تكية تحت قدمي العجوز فلم تشكرها على ذلك بل ولم تنظر إليها، سوى أنها حركت يديها تحت الوشاح الاصفر الذي يغطي جسمها النحيف كله تقريباً. الاميرة تحب اللون الاصفر. فحتى قلنسوتها مزينة باشرطة صفراء صارخة. سألتها اودينتسوفاً رافعة صوتها أكثر من المعتاد:

- كيف قضيت ليلتك يا خالتي؟

- هذه الكلبة هنا أيضاً - دمدمت العجوز بدلاً من الجواب، وعندما لاحظت أن فيفي قامت بخطوتين مترددتين نحوها صاحت بها: -
اغربي! اغربي!

استدعت كاتيا فيفي وفتحت لها الباب:

فاندفعت فيفي الى الخارج فرحة على أمل أن احداً ما سيذهب للتنزه معها، ولكنها عندما ظلت وحدها وراء الباب اخذت تخدشه وتزعق بخفوت. عبست الاميرة، وهمت كاتيا بالخروج...

فقال اودينتسوفاً:

- اظن أن الشاي جاهز، أليس كذلك؟ أيها السيدان، هيا، يا خالتي تفضلي لتناول الشاي.

نهضت الاميرة صامته من مقعدها وخرجت في مقدمة الجميع من غرفة الاستقبال، فتوجه الآخرون على أثرها إلى غرفة الطعام. ازاح وصيف صغير مقعداً مخفوفاً بالوسائد عن المائدة وقد أثار صريفاً. هذا المقعد مخصص هو الآخر للاميرة فارثت عليه. صبت كاتيا الشاي وقدمت إليها أولاً قدحاً مزخرفاً بشعار ملون. وصبت العجوز لنفسها شيئاً من العسل في القدح (فكانت ترى أن احتساء الشاي بالسكر خطيئة وأنه يكلف غالباً مع أنها لم تنفق كوييكا واحداً على أي شيء). ثم سألت على حين غرة بصوت ابح وبلهجة ملتوية:

- ماذا كتب الامير ايفان؟

لم يجبها أحد. وسرعان ما أدرك بازاروف واركا دي أن أصحاب البيت لا يعيرونها اهتماماً بالرغم من احترامهم الظاهري لها. وفكر بازاروف في نفسه: «يحتفظون بها من أجل المظاهر لأنها من سلالة الامراء»... اقترحت آنا سيرغييفنا بعد تناول الشاي الذهاب للتنزه. إلا أن المطر بدأ يتساقط رذاذاً، فعاد الجميع إلى غرفة الاستقبال ما عدا الاميرة. وصل الجار

المحب للعب الورق. واسمه بورفيرى بلاتونيتش. وهو شخص بدين اشيب قصير القامة، مرح ومؤدب للغاية. كانت آنا سيرغييفنا تتحدث مع بازاروف أكثر من غيره فسألته عما إذا كان راغباً في أن ينازلهما في لعبة البرفرانس العتيقة. فوافق بازاروف معلناً أنه يتعين عليه أن يتعود على قتل الفراغ بلعب الورق كي يستعد مسبقاً للوظيفة التي تنتظره كطبيب في أحد الاقضية. فقالت آنا سيرغييفنا:

- ولكن حذار. فأنا وبورفيرى بلاتونيتش سنحطمك. - ثم اضافت قائلة: - أما أنت يا كاتيا فاعزفي شيئاً لاركادي نيكولايفيتش اذ أنه يهوى الموسيقى، وسوف نستمع إليها نحن أيضاً.

اقتربت كاتيا من البيانو على مضض. وتبعها اركادي على مضض أيضاً مع أنه يهوى الموسيقى فعلاً. فقد خيل إليه أن اودينتسوفاً تبعده عنها بينما اجتاح فؤاده، كما هو شأن أي شاب في عمره، ذلك الشعور الغامض المتلهف الشبيه ببوادر الحب. رفعت كاتيا غطاء البيانو وسألت بصوت خفيض دون أن تنظر إلى اركادي:

- ما الذي تريد أن اعزف؟

فأجاب اركادي بلا مبالاة:

- ما تشائين.

فكررت كاتيا السؤال دون أن تبدل جلستها:

- أية موسيقى تفضل؟

فأجاب اركادي بنفس اللهجة:

- الكلاسيكية.

- هل تحب موزارت؟

- أحب موزارت.

أحضرت كاتيا نوطات السوناتا الفانطازية لموزارت. وعزفتها على نحو ممتاز وأن بشيء من الصرامة والجفاف. جلست باستقامة وبلا حراك دون أن تحيد بنظرها عن النوطات وقد ضمت شفثيها بشدة، وفي آخر السوناتا احتقن وجهها وتدلّت خصلة صغيرة من شعرها المتهدل على حاجبها القائم.

اعجب ار كادي خصوصاً بالقسم الأخير من السوناتا الذي تظهر فيه بغتة، وسط فرحة النغم المنطلق الآسرة، انفعالات الكتابة المريرة، المساوية تقريباً... إلا أن افكار ار كادي التي اثارها أنغام موزارت لم تكن تحوم حول كاتيا. فعندما نظر إليها لم تخطر على باله غير فكرة واحدة: «هذه الفتاة تعزف على نحو لا بأس به، وهي نفسها لا بأس بها».

بعد أن انتهت كاتيا من عزف السوناتا سألت دون أن ترفع يديها عن مفاتيح البيانو: «كفاية؟».

فقال ار كادي أنه لا يجراً على تكليفها المزيد، وشرع يتكلم معها عن موزارت، وسألها عما إذا كانت قد اختارت هذه السوناتا بنفسها أم أن أحداً ما نصحها بذلك. إلا أن كاتيا كانت تجيبه باختصار. فقد انطوت على نفسها وتوقعت. عندما تتابها تلك الحالة يكتسى وجهها بمسحة من العناد الذي يقرب من البلادة. وما كانت لتخرج إلى السطح من قوقعتها إلا بعد فترة، لم تكن خجولة، لكنها كانت مرتابة وعلى شيء من الوجل من اختها التي ربتها، وما كانت هذه الأخيرة تعرف بذلك طبعاً. وانتهى الأمر بأر كادي إلى أن استدعى فيفي التي عادت وأخذ يمسد رأسها بابتسامة ملاطفة بحكم اللياقة لا أكثر. وراحت كاتيا تصفف ازهارها من جديد.

أما بازاروف فكان يتعرض لجزء تلو آخر. كانت أنا سير غيفنا تلعب الورق بمهارة، وكان بورفيري بلاتونيتش ماهراً أيضاً. لذا ظل بازاروف هو

المغلوب ولو قليلاً، إلا أن ذلك لم يكن بالأمر المريح له تماماً. وخلال العشاء عادت آنا سيرغييفنا إلى الكلام عن علم النبات حين قالت لبازاروف:
- فلنذهب للنزهة غداً منذ الصباح. أريد أن أعرف منك التسميات اللاتينية للنباتات البرية وخواصها.
- وما هي حاجتك إلى التسميات اللاتينية؟ - سأل بازاروف فأجابته هي:

- ينبغي أن يسود النظام كل شيء.

عندما خلا اركادي بصديقه في الغرفة المخصصة لهما هتف قائلاً:

- ما اروعها!

- أجل. آنا سيرغييفنا امرأة ذكية. لقد رأيت ما رأيت.

- بأي معنى تقول ذلك، يا يفغيني فاسيليفيتش؟

- بمعنى طيب، يا عزيزي! وأنا واثق من أنها تتصرف بضيعتها على

أفضل ما يكون. إلا أن المعجزة ليست هي وإنما اختها.

- كيف؟ تلك السمراء؟

- أجل، تلك السمراء. فهي النضارة التي لم يمسه أحد. أنها الخوف

والصمت وكل ما يرغب المرء فيه. وهي تستحق الاهتمام. يمكنك أن

تصنع منها ما تشاء. أما تلك فهي امرأة منحكة.

لم يرد اركادي على بازاروف بشيء. رقد كلاهما وفي ذهنه افكاره

الخاصة.

كانت آنا سيرغييفنا في ذلك المساء تفكر هي الأخرى بضيعتها.

أعجبها بازاروف بعدم تصنعه وبحدة احكامه. وجدت فيه شيئاً جديداً لم

تصادفه من قبل، في حين لا يعوزها الفضول.

كانت أنا سيرغييفنا كائنا غريب الاطوار لدرجة كبيرة. فهي لا تؤمن بأية خرافات وليس لديها أية معتقدات راسخة، لكنها لا تنازل لأحد ولا تتبع أحداً. لقد رأت الكثير، وأولعت بالكثير، ولكن ما من شيء يرضيها بالتمام والكمال، بل ومن المستبعد أنها كانت راغبة فيما يرضيها بالتمام والكمال. كان ذهنها حاداً ولا ابالياً في الوقت ذاته: لم تكن شكوكها لتخمد أبداً إلى حد النسيان، كما لم تكن لتأجج أبداً إلى حد القلق. ولو لم تكن ثرية مستقلة لربما انخرطت في المعركة وتذوقت طعم الهوى... لكنها كانت تعيش حياتها بيسر رغم الضجر الذي ينتابها أحياناً، وهي تواصل توديع أيامها الواحد تلو الآخر دون استعجال، ودون تهيج تقريباً. كانت الألوان المستبشرة تلوح أحياناً أمام ناظرها، لكنها تشعر بالارتياح لتلاشي تلك الألوان ولا تحس بالأسف لغيابها. كان تصورها يتجاوز حتى حدود ما تعتبره مبادئ الاخلاق المعتادة أمراً مسموحاً به، لكن دمها حتى في تلك الحالة يظل يجري باستقرار كالسابق في بدن الهادئ القويم الجذاب. ويصادف أنها، عندما تخرج من الحمام المعطر دافئة رقيقة كل الرقة، تأخذ في تأمل تفاهات الحياة وكدحها وشرورها... فيمتلئ فؤادها ببسالة مفاجئة، ويطفح بالمطامح النبيلة، ولكن أنا سيرغييفنا تنقبض وتتأوه حالما يهب نسيم من النافذة المواربة، فتكاد ترعل، ولا تعود بحاجة في تلك اللحظة إلا إلى شيء واحد هو أن لا يهب هذا النسيم الدنيء عليها.

كانت تريد شيئاً ما، شأنها شأن جميع النساء اللواتي لم يتسن لهن أن يتذوقن طعم الحب، ولكنها لا تعرف ماذا تريد بالضبط. وفي الواقع فهي لم تكن تريد شيئاً، بالرغم من توهمها بأنها تريد كل شيء. كانت بالكاد تطيق المرحوم اودينتسوف (فقد تزوجت منه لمصلحة، بالرغم من أنها ربما لم تكن لتوافق أن تصبح زوجة له لو لم تعتبره إنساناً طيباً) فولد لديها ذلك اشمسزاً خفياً من جميع الرجال، فلم تعد تصورهم إلا بشكل كائنات ثقيلة ذاوية متحشفة وملحاحة عاجزة. ذات مرة صادفت في مكان ما

في الخارج فتى سويدياً وسيماً. محياً تكسوه مسحة من الفروسية وعينين زرقاوين ظاهرتين تظللها جبهة عريضة. ترك فيها هذا الفتى أثراً شديداً، ولكن ذلك لم يمنعها من العودة إلى روسيا.

فكرت أنا سيرغييفنا في نفسها: «يا لهذا الطبيب من شخص غريب الاطوار!» وهي مضطجعة في فراشها الرائع على وسائد مخرمة تحت لحاف حريري خفيف. لقد ورثت عن ابيها بعضاً من ميله إلى الابهة. وهي تكن حباً جماً لأبيها الخاطى والطيب في الوقت ذاته. وكان هو متمباً بها، يمزح معها بود كالكند للنند، ويثق بها تمام الثقة ويلتمس النصح عندها. لكنها لا تتذكر أمها.

وفكرت من جديد: «يا لهذا الطبيب من شخص غريب الاطوار!». تمددت وابتسمت واشبكت يديها تحت رأسها، ثم جابت بنظراتها على عجل زهاء صفحتين من رواية فرنسية تافهة، وسقط الكتاب من يديها وغفت نظيفة باردة في بياضات نظيفة عاطرة.

في صباح اليوم التالي توجهت أنا سيرغييفنا مع بازاروف فور انتهاء الفطور لدراسة النباتات البرية ولم تعد لإقبييل الغداء. لم يترك اركادي المكان فصرف زهاء ساعة مع كاتيا دون أن يشعر بالملل، وقد اعربت هي نفسها عن استعدادها لتكرار سوناتا الامس، لكن قلبه انقبض في الحال عندما عادت اودينتسوفاً أخيراً وعندما رآها... كانت تسير في البستان بخطوات متعبة بعض الشيء، وكانت وجنتاها متوردتين وعيناها تلمعان بأسطع من المعتاد تحت قبعة القش المستديرة، كانت أصابعها تداعب عوداً رفيعاً لزهرة برية، وقد هبطت طرحتها الخفيفة على مرفقيها وتدلّت الاشرطة الرمادية العريضة من القبعة فلامست صدرها. كان بازاروف يسير خلفها واثقاً من نفسه وبلا اعتناء، كما هي عادته دوماً، إلا أن ملامح وجهه لم تعجب اركادي بالرغم من مرحها بل وحتى وقتها. توجه

بازاروف إلى غرفته بعد أن دمدم: «مرحباً!». أما اودينتسوف فقد شدت على يد اركادي شاردة البال ومرت ازاءه هي الأخرى.
ففكر اركادي: «لماذا قال لي مرحباً، أفلم نلتق اليوم؟»^(٤٥).

١٧

الزمن (وهذا أمر معروف) يطير كالطير أحياناً ويزحف كالسلحفاة أحياناً أخرى. إلا أن المرء يغدو على أحسن حال عندما لا يلاحظ كيف يمر الزمن: سريعاً أو بطيئاً. على هذه الحال بالذات صرف اركادي وبازاروف لدى اودينتسوف زهاء خمسة عشر يوماً. وساعد على ذلك ما اعتادت عليه هي من نظام في دارها وحياتها. كانت متمسكة بهذا النظام تمسكاً صارماً، وكانت تحمل الآخرين على الانصياع له. فكل شيء في غضون اليوم الواحد يجري في اوقاته المحددة. في تمام الثامنة صباحاً يلتئم الجمع لاحتساء الشاي. وفي الفترة بين الشاي والفطور يفعل كل ما يشاء، وكانت ربة البيت نفسها آنذاك تسوي الامور مع الوكيل (فلاحو الضيعة يعملون على أساس الجزية) ومع كبير الوصفاء وكبيرة مدبرات المنزل. وقبيل الغداء يلتئم الجمع من جديد لتجاذب اطراف الحديث أو للمطالعة. وكانت فترة المساء تخصص للتنزه ولعب الورق والموسيقى. وفي الساعة العاشرة والنصف توجه أنا سيرغييفنا إلى مضجعها لتنام بعد أن تصدر أوامرها بخصوص يوم غد. لم يرق لبازاروف تنظيم الحياة اليومية الرتيب هذا والمتسم بشيء من المراسيم الاحتفالية. كان يقول: «كان المرء يتدحرج على سكة حديد». ويعتبر الخدم بيزاتهم الخاصة

(٤٥) من عادات الروس أن يحيوا بعضهم البعض بكلمة «مرحبا» مرة واحدة في اليوم لا أكثر. - المترجم.

والوصفاء الخاشعين. بمثابة أهانة لمشاعره الديمقراطية. ويرى أنه ما دامت الأمور تسير على هذا الشكل فينبغي تناول الغداء على الطريقة الإنجليزية اذن: بيزات رسمية وربطات عنق بيضاء. وقد تداول في هذا الموضوع ذات مرة مع آنا سيرغييفنا التي اعتادت أن يعرض كل شخص أمامها آراءه بلا مواربة. استمعت إليه ثم قالت: «أنت محق من وجهة نظرك. ولربما أنسي، في هذه الحالة، ابدو اقطاعية حقاً. لكنه لا يجوز العيش في الريف على نحو مشوش، فالضجر سيقتلنا آنذاك». وواصلت العمل على هواها. كان بازاروف يتذمر من ذلك. لكن السبب الذي جعله واركادي يعيشان بيسر وسهولة عند اوديتسوف هو بالذات أن كل شيء في دارها «كأنما يتدحرج على سكة حديد». ومع ذلك حدث تغير لدى كلا الشابين منذ الايام الأولى لمكوئتهما في نيكولسكويه. فأن بازاروف الذي مالت إليه آنا سيرغييفنا، كما هو واضح، بالرغم من ندرة اتفاقها معه، صار يشعر بقلق لم يكن يعرف له أثراً في السابق: غدا سريع الانزعاج، قليل الرغبة في الكلام، وأخذ ينظر شزراً، ولا يقر له قرار، كما لو أنه يشعر بوخز خفي. أما اركادي الذي خيل إليه نهائياً بأنه وقع في غرام اوديتسوف فقد أخذ ينساق للكآبة الهادئة. ومع ذلك لم يمنعه هذه الكآبة من التقرب إلى كاتيا، بل وساعده على أن يقيم معها علاقات ودية رقيقة. فكر اركادي في نفسه: «تلك لا تقدرني! فليكن!.. أما هذا الكائن الطيب فلا يرفضني»، وتذوق قلبه من جديد حلاوة الاحاسيس المتسامحة. كانت كاتيا تخمن بأنه يبحث عن تهدئة للنفس. بمعاشرتها، فلم تحرمه ولم تحرم نفسها من اللذة العذرية الناجمة عن الصداقة المشوبة بشيء من الخجل والموشحة بشيء من الثقة. وما كان الاثنان ليحدثا بعضهما البعض بحضور آنا سيرغييفنا: كانت كاتيا تنكمش دوماً بتأثير نظرة اختها الثاقبة، أما اركادي فما كان باستطاعته، شأنه شأن اي محب، أن يلتفت إلى أي كائن آخر بحضور محبوبته، ولكنه لم يكن يشعر بالارتياح إلا لوجوده مع كاتيا وحدها.

كان يدرك بأنه عاجز عن إثارة اهتمام اودينتسوف، ولذا فهو يعاني من الوجل والحيرة عندما يبقى معها وحيداً. ولم تكن هي الأخرى تعرف ماذا ينبغي أن تقول له: فهو لا يزال يافعاً جداً بالنسبة لها. أما مع كاتيا فعلى العكس. كان اركادي يشعر وكأنه مع واحد من أهله، وكان متساهلاً معها، فلا يعيقها عن الاعراب عن الانطباعات التي تخلفها في نفسها الموسيقى ومطالعة القصص والاشعار وغير ذلك من التفاهات، دون أن يلاحظ أو يدرك أن هذه التفاهات تشغل باله هو أيضاً. ولم تكن كاتيا، من ناحيتها، لتعيقه عن الاستسلام للأحزان. كان اركادي يرتاح لكاتيا، وكانت اودينتسوف ترتاح لبازاروف ولذلك جرت العادة على أن يلتقي الاربعة لأمد قصير ثم يفترقوا فيتوجه كل زوج إلى جهته، وخصوصاً أثناء النزعات. كاتيا مغرمة بالطبيعة، واركادي يحب الطبيعة أيضاً بالرغم من أنه لم يجروء على الاعتراف بذلك. كانت اودينتسوف، شأنها في ذلك شأن بازاروف، غير مولعة بالطبيعة. ولم تمر الفرقة المستمرة تقريباً بين صاحبيننا دون أن تترك أثرها: فقد اخذت علاقتهما تتغير. كف بازاروف عن التحدث إلى اركادي بشأن اودينتسوف، بل وكف حتى عن نقد «عاداتها الارستقراطية»، ولكنه ظل كالسابق بمتدح كاتيا، سوى أنه نصح بتهذئة الميول العاطفية لديها. إلا أن مدائحها كانت مستعجلة ونصائحها جافة. وعلى العموم صار يتحدث مع اركادي أقل بكثير من السابق... لقد بدا وكأنه يتحاشاه ويخجل منه...

لاحظ اركادي ذلك كله، ولكنه احتفظ بملاحظاته لنفسه.

كان السبب الفعلي لهذا «التغير الطارئ» هو الشعور الذي اوحتة اودينتسوف لبازاروف، فصار يعذبه ويخرجه عن طوره، في حين كان بازاروف مستعداً للتخلي عنه في الحال بقهقهة مستهينة وشتائم وقحة لو أن أحداً ما لمح مجرد تلميح إلى احتمال وقوع ما يعتمل في دخيلته. كان بازاروف من أشد هواة النساء والجمال الانثوي، ولكنه نعت الحب

المثالي، أو الرومانسي على حد تعبيره، بالهراء وبالحماسة التي لا تغتفر، واعتبر المشاعر الفروسية بمثابة القبح أو المرض، واعرب أكثر من مرة عن استغرابه من عدم زج توغينبورغ^(٤٦) مع جميع شعراء الفروسية العاطفيين في دار المجاذيب. كان يقول: «إذا اعجبتك امرأة فحاول أن تحصل منها على مبتغاك، وإذا لم يكن هذا ممكناً، فلا داعي لشيء، حول وجهك عنها: فالكون غير متوقف عليها». لقد راقته له اودينتسوفاً. وكانت الاشاعات المنتشرة عنها وطلاقة افكارها واستقلالها وميلها دون شك إليه - كل ذلك كان لصالحه حسب الظاهر. لكنه سرعان ما ادرك بأنه «لن يحصل منها على مبتغاه»، وبأنه لا يمتلك القوى الكافية، ويا لدهشته، لتحويل وجهه عنها. كان دمه يفور حالما يتذكرها. وكان بوسعه أن يكبح دمه بسهولة، لكن شيئاً آخر اجتاحه، شيئاً ما كان يتوقعه أبداً، شيئاً كان يسخر هو منه دائماً، مما اهان كبرياءه أشد أهانة. وصار في احاديثه مع أنا سيرغيفنا يعرب بأكثر من السابق عن احتقاره اللابالي لكل ما هو رومانسي، ولكنه عندما يخلو بنفسه يشتاظ غضبا لوجود الرومانسي في دخيلته هو. وعند ذاك يتوجه إلى الغابة ويجوبها بخطوات واسعة محطماً الاغصان التي تصادفه ومسلطاً اللوم بصوت خافت على اودينتسوفاً وعلى نفسه، أو يرتقي بيدر العشب المجفف في العنبر ثم يغلط عينيه بعناء ليرغم نفسه على النوم، الأمر الذي لا يتيسر له على الدوام بالطبع. وعلى حين غرة يخيل إليه أن هاتين العينين الذكيتين ستحدقان في عينيه برقة، أجل برقة... وعند ذاك ينتابه الدوار، وينسى نفسه للحظة إلى أن يثور الحنق فيه من جديد. كان يلوم نفسه على مختلف أنواع الافكار «الشائنة»، كما لو أن الشيطان هو الذي اغواه. ويخيل إليه أحياناً أن تغيراً يطراً على اودينتسوفاً أيضاً، وأن شيئاً ما متميزاً صار يبدو على ملامح وجهها،

(٤٦) بطل ملحمة شيلر «الفارس توغينبورغ». - المترجم.

لربما... ولكنه آنذاك كان يضرب الأرض برجله عادة أو يصر على أسنانه ويهدد نفسه بقبضته.

والحال فإن بازاروف لم يكن على خطأ تماماً. لقد ادعش اودينتسوفاً وشغل بالها فصارت تفكر فيه كثيراً. لم تكن تشعر بالملل في غيابه ولم تكن تتوق إليه، لكن ظهوره ينعشها على الفور، وهي تنفرد به برغبة وتحدث إليه برغبة حتى عندما يغيظها أو ينال من ذوقها ومن عاداتها الرشيقة. كانت كأنما تريد أن تختبره وتختبر نفسها.

ذات مرة أعلن بصوت متجهم وعلى نحو مباغت، أثناء تجوله معها في البستان، أنه ينوي السفر قريباً إلى أبيه في القرية... شحب لونها وكأنما تعرض قلبها لوخزة، وخزة حادة أثارت دهشتها وجعلتها فيما بعد تفكر لأمد طويل فيما يعنيه ذلك. وما كان بازاروف ليعلن لها عن رحيله بغية اختبارها ومعرفة ما يمكن أن يؤول إليه ذلك: فهو لم يكن يلجأ إلى الكذب أبداً. إذ أنه تقابل في صباح ذلك اليوم مع خادمه السابق تيموفيتش الذي أصبح وكيلاً لأبيه. وهو عجوز ضئيل محنك ورشيق بشعره الأصفر الباهت ووجهه المتورد المسفوع وعينيه المنكمشتين المنطويتين على دمعتين دقيقتين. فعلى حين غرة مثل امام بازاروف تيموفيتش هذا بقفطانه القصير من الجوخ السميك الرمادي المائل إلى الزرقة، وجزمته المطلية بالقطران، وهو متمنطق بحزام جلدي مقطوع الطرفين. هتف به بازاروف قائلاً:

— هيا، مرحباً يا شيخ!

— مرحباً يا سيدي يفغيني فاسيلفيتش — أجاب العجوز وابتسم منشرحاً، فاكتسى وجهه فوراً بالتجاعيد والغضون.

— لم جئت؟ ارسلوك لاستدعائي، أليس كذلك؟

— معذرة، يا سيدي، كيف يجوز ذلك؟ — تمتم تيموفيتش (وقد تذكر الوصية الصارمة التي تلقاها من سيده الأب قبيل رحيله) — كنت متوجهاً

إلى المدينة لأداء بعض الشؤون، فسمعت بوجود حضرتكم، ولذا عرجت في طريقي، لأنظر إلى طلعتكم البهية... فكيف لي أن أقلقكم؟!!

- لا تكذب - قاطعه بازاروف - فهل يمر الطريق إلى المدينة من هنا؟
انكمش تيموفيتش ولم يحرج جواباً.

- كيف حال والدي؟ هل هو بصحة جيدة؟
- الحمد لله، يا سيدي.

- ووالدي؟

- ايرينا فلا سيفنا كذلك، والحمد لله.

- لا بد أنهما ينتظراني، أليس كذلك؟
مال العجوز برأسه الضئيل جانباً وقال:

- آه، يا يفغيني فاسيليفيتش، كيف لا ينتظران؟! الله شاهد على ما أقول. يتفطر القلب المأماً عندما أنظر إلى والديكم.

- كفى، كفى، لا تبالغ. قل لهما بأني سأحضر قريباً.

- سمعاً وطاعة، يا سيدي - اجاب تيموفيتش وتنفس الصعداء.

خرج من الدار وهو يرتدي عمرته ويشدها على رأسه بكلتا يديه. صعد إلى عربته الخفيفة المزرية التي تركها عند البوابة، ثم أسرع بها خبياً، ولكن ليس باتجاه المدينة.

في مساء ذلك اليوم كانت اودينتسوف جالسة في غرفتها مع بازاروف، بينما راح اركادي يجوب القاعة منصتاً إلى عزف كاتيا. وقبعت الاميرة في غرفتها في الطابق العلوي، فهي على العموم لا تطيق الضيوف، وخصوصاً هذين «الزوقحين الجديدين» كما وصفتهما. اعتادت أن تجلس منتفخة الاوداج في سائر غرف المنزل، ولكنها عندما تختلي في غرفتها

تنفجر أحياناً أمام وصيفتها بشتائم مقذعة بحيث تهتز قلنسوتها على رأسها مع شعرها المستعار من جراء الانفعال. وكانت اودينتسوفاً على علم بذلك.

بدأت كلامها متسائلة:

- كيف عزمت على السفر دون أن تفي بوعدك؟

انتفض بازاروف:

- أي وعد يا سيدتي؟

- هل نسيت؟ لقد اردت أن تقدم لي بضعة دروس في الكيمياء.

- لا حيلة في الأمر! والدي ينتظرنى. ولا يجوز أن أتأخر أكثر مما تأخرت. بالمناسبة يمكنك أن تقرأي كتاب ((مبادئ الكيمياء العامة)) من تأليف بيلوز وفريمي^(٤٧) فهو كتاب جيد بلغة واضحة. وستجدين فيه كل ما تحتاجين إليه.

- أفلا تتذكر أنك أكدت لي أن الكتاب لا يمكن أن يعوض عن...

نسيت تعبيرك، ولكنك تعرف ما أريد أن أقول... هل تتذكر؟

- لا حيلة في الأمر يا سيدتي! - كرر بازاروف.

فقال اودينتسوفاً بصوت اوطأ:

- ما الداعي للسفر؟

القى عليها بنظرة ومالت هي برأسها إلى مؤخرة المقعد وصلبت يديها العاريتين حتى المرفقين على صدرها. بدت شاحبة في ضوء الصباح

(٤٧) - في الأصل بالفرنسية Pelouse et Frérny «Notions générales de Chimie» جول بيلوز (١٨٠٧ - ١٨٦٧) وادموند فريمي (١٨١٤ - ١٨٩٤) عالمان فرنسيان صدر كتابهما في باريس عام ١٨٥٣.



الوحيد المغطى بأباجور من قماش مخرم. وكان فستان ابيض فضفاض يلفعها كلياً بطياته الناعمة، وبالكاد بدا طرفاً رجليها المتصالبتين أيضاً.

أجابها بازاروف بسؤال: وما الداعي للبقاء؟

التفتت اودينتسوفاً:

- كيف؟ أفلست مسروراً عندي؟ أم أنك تظن بأنه لن يأسف عليك

أحد هنا؟

- أنا واثق من ذلك.

صمتت اودينتسوفاً قليلاً ثم قالت:

- عبثاً تفكر هكذا. وبالمناسبة أنا لا أصدقك. فليس بإمكانك أن تقول

ذلك بجد - ظل بازاروف جالساً بلا حراك - لماذا الصمت، يا يفغيني

فاسيليفيتش؟

- ما الذي يمكنني أن أقوله لك؟ لا داعي للتأسف على الناس عموماً،

وعلي خصوصاً.

- لماذا؟

- أنا شخص مستقيم موحش، ولا أجد الكلام.

- أنك تنشد المديح يا يفغيني فاسيليفيتش.

- ليس ذلك من عاداتي، أفلا تعلمين أن التمتع بالجانب الجميل من

الحياة، ذلك الجانب الذي تعترزين به أنت، ليس في مقدوري؟

أخذت اودينتسوفاً تمضغ طرف منديلها اليدوي ثم قالت:

- فكر ما شاء لك. أما أنا فساأشعر بالضجر عندما تسافر.

فقال بازاروف:

- سيظل اركادي عندكم.

هزت اودينتسوها كتنفيها وكررت من جديد:

- سأشعر بالضجر.

- على كل حال لن تضجري لأمد طويل.

- لماذا تفترض ذلك؟

- لأنك قلت لي أن الضجر لا ينتابك إلا عندما يصيب الخلل النظام لديكم. وقد بنيت حياتك على نحو صائب لا خلل فيه، بحيث لن يبقى فيها مجال لا للضجر ولا للسأم... بل ولا لأية مشاعر مريرة.

- هل صحيح ما تقول؟ هل بنيت حياتي على نحو صائب حقاً؟

- كيف لا؟! الساعة، مثلاً، ستدق العاشرة بعد لحظات، وأنا أعرف مسبقاً أنك ستطرديني.

- كلا، لن أطرده، يا يفغيني فاسيليفيتش. بوسعك أن تبقى. افتح هذه النافذة... فقد ضاقت أنفاسي شيئاً.

نهض بازاروف ودفع النافذة فانفتحت مدوية على مصراعها... لم يكن يتوقع أنها ستفتح بهذه السهولة، ثم أن يديه ترتعشان. أطلت على الغرفة ليلة ناعمة حالكة بسماء سوداء تقريباً وأشجار ينبعث منها حفيف خفيف ونسيم طلق عليل تفوح منه رائحة طرية.

فقال اودينتسوها:

- اسحب الستارة واجلس. اريد أن اثرثر معك قبيل رحيلك. حدثني قليلاً عن شخصك، فأنت لا تتكلم عن نفسك أبداً.

- أحاول، يا آنا سيرغييفنا، أن أتحدث معك عن أشياء نافعة.

- أنت في منتهى التواضع... ولكن بودي أن أعرف شيئاً عنك، عن اسرتك، عن والدك الذي تتركنا من أجله.

ففكر بازاروف: «لماذا تقول مثل هذا الكلام؟» ثم نطق بصوت مسموع:

- ليس في ذلك ما يسر أبدأ. وخصوصاً بالنسبة لك. فنحن من سواد البشر...

- أما أنا فارستقراطية برأيك، أليس كذلك؟

رفع بازاروف بصره إليها وقال بحدة فيها شيء من المبالغة:

- بلى.

ضحكت بسخرية وقالت:

- يخيل الي أنك لا تعرفني إلا قليلاً، لا سيما وأنك تؤكد أن الناس جميعاً متشابهون ولا داعي لدراستهم. سوف أقص عليك قصة حياتي كاملة في وقت ما... ولكن حدثني عن حياتك أولاً.

فقال بازاروف:

- أنسي لا أعرفك إلا قليلاً. ربما أنت على حق. ولعل كل إنسان لغز في الواقع. فلو تناولناك أنت مثلاً، أنك تشعرين بالغرابة في المجتمع، وهو يثقل عليك، ومع ذلك دعوت طالبين ليسكننا عندك حيناً من الوقت. ثم لماذا تقيمين في الريف، أنت التي تتحلين بالحصافة والجمال؟

- كيف؟ ماذا قلت؟ أنا اتحلى... بالجمال؟

سألت اودينتسوفاً منتعشة. فعبس بازاروف ثم قال:

- لا فرق، اردت أن اقول أني لا أفهم جيداً لماذا تقيمين في الريف؟

- أنك لا تفهم... ولكنك تفسر ذلك لنفسك بشكل ما، اليس كذلك؟

- أجل... يخيل الي أنك باقية طوال الوقت في مكان واحد لأنك

دللت نفسك ولأنك تحبين أسباب الراحة حباً جماً، ولا تبالين بأي شيء

آخر.

ضحكت اودينتسوفاً من جديد:

- أنت لا تريد قطعاً أن تصدق بأني يمكن أن اولع؟..

فنظر إليها بازاروف عابساً:

- بحب الاستطلاع، ربما. ولكن ليس بشيء آخر.

-- حقاً؟ ها أنا افهم لماذا تألفنا. أن الطيور على أشكالها تقع.

- تألفنا... - دمدم بازاروف بصوت مكتوم.

- آه! لقد نسيت بأنك تنوي السفر.

نهض بازاروف. كان المصباح ينور بخفوت وسط الغرفة المنعزلة العاطرة التي اكتنفها الظلام بعض الشيء. وكانت طراوة الليل المستثيرة تتسرب عبر الستارة التي تتموج بين الفينة والفينة، ويتهادى الهمس الليلي السحري. لم تحرك اودينتسوفاً ساكناً، لكن اضطراباً خفياً أخذ يدب فيها تدريجياً... وانتقل هذا الاضطراب بالتدريج إلى بازاروف الذي ادرك أخيراً أنك اختلى بامرأة شابة رائعة... سألت متباطئة: - إلى أين أنت؟ لم يحجر جواباً وارتمى على الكرسي. فواصلت كلامها بنفس الصوت دون أن تحيد ببصرها عن النافذة:

- أنت تعتبرني إنسانة هادئة منعمة مدللة. بينما أنا واثقة من أنني في منتهى التعاسة.

- التعاسة! ما سببها؟ هل تستحق تلك الاقاويل الدنيئة أن تعيرها ادنى

اهتمام؟

عبست اودينتسوفاً، وأحزنها أن بازاروف فهمها على هذا النحو

فقال:

- هذه الاقاويل عاجزة حتى عن اثاره الضحك، يا يفغيني فاسيليفيتش.
وأنا أربأ بنفسى عن أجعلها تقلقنى. أنى تعيسة لأنى... لست راغبة فى العيش. أنت تنظر الى بارتياى، وتفكر أن التى تتكلم معك «ارستقراطية» غارقة فى الدانتىلا والثياب الفاخرة وجالسة على مقعد مخملى. لا أنكر أنى اهوى ما وصفته بأسباب الراحة، ومع ذلك لا ارغب كثيراً فى العيش. حاول أن توفق بين هذين الضدين كما يحلو لك. ولكن ذلك كله فى نظرك، رومانسية.

فهز بازروف رأسه وقال:

- أنك إنسانة حرة ثرية معافاة، فما الذى يعوزك؟ وماذا تريدن بعد؟
فكررت اودينتسوفاقوله وتنهدت:

- ماذا اريد! أنا مرهقة للغاية، ولقد شخت، حتى خيل الى أنى أعيش من زمان بعيد جداً. أجل، لقد شخت - اضاقت وهى تسحب بهدوء اطراف الطرحة فتغطي بها يديها العاريتين. تقابلت عيناها مع عينى بازروف، فاحمر محياها بعض الشيء:

- خلفت الكثير من الذكريات: الحياة فى بطرسبورغ، والثراء، ثم الفقر، ثم وفاة أبى، والزواج، ثم الرحلة إلى الخارج... الذكريات كثيرة، ولكن لا قيمة لها. وأمامى طريق طويل، طويل للغاية، بينما ليس لى هدف... ولذا فأنا لست راغبة فى السير.

- هل خابت آمالك إلى هذه الدرجة؟ - سألهأ بازروف، فأجابته متمهلة:

- كلا. ولكنى لست قانعة. يخيل الى لو أنى استطعت أن اتعلق بشيء ما تعلقاً شديداً...

فقاطعها بازروف:

- بودك أن تحبى، لكنك لا تستطيعين. وهذا هو مبعث تعاستك.

انشغلت اودينتسوفاً بتفقد ردي طرحتها، ثم تساءلت:

- ألا تستطيع أن أحب؟

- أمر مستبعد. ولكن عبثاً وصفت حالتك بالتعاسة. على العكس فالذي يحدث له ذلك يستحق الشفقة على الأكثر.

- من تعني؟

- الذي يحب.

- ومن أين لك أن تعرف؟

- بالسماع - اجاب بازاروف حانقاً، وفكر في نفسه: «أنتك تغنجين. أنتك ضجرة وتحرشين بي لعدم انشغالك بشيء، بينما أنا...» وكاد قلبه يتفطر حقاً. فقال وقد مال بجسمه كله إلى أمام وهو يتلاعب بأهداف المقعد:

- ثم أنتك متشدة جداً، على ما اعتقد.

- ربما. في رأيي: أما كل شيء، وأما لا شيء. حياة بحياة. فإذا استأثرت بحياتي هبني حياتك، وعند ذاك لن يكون هناك مجال للاسف ولن يكون هناك خط رجعة. وإلا فلا داعي لشيء.

فقال بازاروف:

- حقاً. هذا شرط مشروع. لكن ما يدهشني هو أنك حتى الآن... لم تعثري على ما ترغيبين.

- وهل تظن أن من السهل الاستسلام كلياً لأي شيء مهما كان؟

- ليس ذلك بالأمر السهل إذا أخذ المرء يتأمل، وينتظر، بل وقيم نفسه بنفسه، أي يعتز بها. أما الاستسلام بدون تفكير فهو في منتهى البساطة.

- كيف لا يعتز المرء بنفسه؟ فإذا لم تكن لي أية قيمة فمن، يا ترى،

بحاجة إلى اخلاصي؟

- ليس من شأني، بل من شأن الإنسان الآخر، أن يقدر قيمتي. الأمر الرئيسي هو اجادة الاستسلام.

مالت اودينتسوفاً إلى الامام قليلاً فابتعد ظهرها عن مؤخره المقعد، وقالت:

- أنك تتكلم وكأنما قد جربت ذلك كله.

- أقول هذا الكلام للمناسبة فقط. فأنت تعرفين، يا آنا سيرغييفنا، أن ذلك كله ليس من اختصاصي.

- ولكن بوسعك أنت أن تستسلم، أليس كذلك؟

- لا ادري. لا أريد التباهي.

لم تقل اودينتسوفاً شيئاً، فلزم بازاروف الصمت.

تهادت إليهما اصوات البيانو من غرفة الاستقبال. فقالت اودينتسوفاً:

- ما الذي جعل كاتيا تعزف في هذا الوقت المتأخر!؟

فنهض بازاروف وقال:

- أجل، الوقت متأخر بالفعل، وقد حان موعد نومك.

- تمهل، ما الداعي للعجلة؟.. أريد أن أقول لك كلمة واحدة.

- ما هي؟

- تمهل - قالت اودينتسوفاً همساً.

تجمدت نظرتها على بازاروف وكأنما هي تتفحصه باهتمام.

جاب الغرفة بعض الشيء ثم اقترب منها على حين غرة وقال

باستعجال «وداعاً» وشد على يدها بقوة كادت تجعلها تصرخ، ثم خرج. رفعت اصابعها المتلاصقة إلى شفيتها ونفخت عليها، ثم نهضت من المقعد بقفزة على الفور وتوجهت إلى الباب بخطوات سريعة وكأنما تريد إعادة بازاروف... دخلت إلى الغرفة في تلك اللحظة وصيفة تحمل دورقاً زجاجياً على صينية فضية. توقفت اودينتسوفاً وأشارت على الوصفة بالانصراف ثم جلست مجدداً وغرقت في التفكير من جديد. انفكت ضفيريتهما وتهدلت كأفعى سوداء على كتفها. ظل المصباح ينير غرفتها لأمد طويل، وظلت هي لأمد طويل بلا حراك، سوى أنها كانت تمسك باصابعها بين الفينة والفينة ذراعيها اللتين مسهما برد الليل.

أما بازاروف فقد عاد بعد زهاء ساعتين إلى غرفة نومه منكمشاً متجهماً وقد تبللت جزمته بالندى. وجد اركادي جالساً قرب الطاولة ويده كتاب وسترته مشدودة الازرار حتى العنق. فسأله بازاروف وكأنما في صوته نامة زعل:

- ألم تنم بعد؟

فقال اركادي دون أن يجيب على سؤاله:

- جلست طويلاً اليوم مع أنا سيرغييفنا.

- أجل، جلست معها عندما كنتما، أنت وكاتيا، تغزفان على البيانو.

- أنا لم أعزف... - اراد اركادي أن يواصل كلامه، ولكنه لزم الصمت. لقد أحس بأن الدموع ستتهمر من عينيه، ولكنه لا يريد البكاء أمام صديقه الساخر.

التالي ظل بازاروف جالساً لأمداً طويلاً وقد انحنى على قدحه. ثم نظر إليها فجأة... فالتفتت إليه وكأنما تلقت دفعة منه. خيل إليه أن وجهها قد شحب شيئاً خلال الليل. وسرعان ما انزوت في غرفتها حتى حان موعد الافطار. كان الطقس ممطراً منذ الصباح، ولم يكن بالامكان التنزه. فالتأم الجمع كله في غرفة الاستقبال. فبدأت الدهشة على وجه الاميرة، كما هي العادة، في بادئ الأمر، وكأنما اقترب هو جريرة معينة، ثم ركزت انظارها الحاقدة عليه، ولكنه لم يعبا بها.

فقال أنا سير غيفنا لبازاروف:

- فلنذهب إلى مكتبي... يا يفغيني فاسيليفيتش... أريد أن اسالك شيئاً... لقد ذكرت أمس اسم كتاب...

نهضت وتوجهت إلى الباب. فتلفتت الاميرة حوالها ولسان حالها يقول: «انظروا، انظروا، ما اشد دهشتي!» ثم ركزت انظارها من جديد على اركادي، ولكنه رفع صوته وتبادل النظرات مع كاتيا الجالسة قربه وواصل القراءة.

ادركت اودينتسوفاً مكتبها بخطوات سريعة. وتبعها بازاروف بخفة دون أن يرفع بصره، ولكنه كان يتلقف بمسمعه الحفيف الرقيق المنبعث من الفستان الحريري السائر أمامه. جلست اودينتسوفاً في نفس المقعد الذي جلست عليه بالأمس، وشغل بازاروف المكان الذي شغله بالأمس.

فقال هي بعد فترة صمت قصيرة:

- ما اسم ذلك الكتاب؟

فأجاب بازاروف:

- («مبادئ الكيمياء العامة» من تأليف بيلوز وفريمي) (٤٨). ويمكن أن أوصيك كذلك بدراسة: («المنهج الأولي في الفيزياء التجريبية» من تأليف غانو) (٤٩). فالرسوم في هذا الكتاب أكثر وضوحاً، وعلى العموم فإن هذا المنهج...

مدت او ديتسوها يدها وقالت:

- معذرة، يا يفغيني فاسيليفيتش، فقد دعوتك إلى هنا ليس بقصد مناقشة المناهج الدراسية. بودي أن نستأنف حديث البارحة. فقد انصرفت أنت على نحو مفاجئ... هل يزعجك ذلك؟

- أنا في خدمتك، يا آنا سيرغيفنا. ولكن عم تحدثنا البارحة يا ترى؟ صوبت او ديتسوها نظرة منحرفة إلى بازاروف:

- يخيل الي أننا تحدثنا عن السعادة. حدثت أنا عن نفسي. وبالمناسبة فقد ذكرت كلمة «السعادة». فاخبرني ما الذي يجعلنا، حتى عندما نتمتع بالموسيقى، مثلاً، أو بأمسية جيدة أو بحديث مع اناس طيبين، نتصور ذلك كله مجرد اشارة إلى سعادة لا حدود لها، سعادة موجودة في مكان ما، غير السعادة الفعلية، أي السعادة التي نتمتع بها نحن؟ ما السبب في ذلك؟ أم أنك ربما لا تشعر بشيء من هذا القبيل؟

فاعترض بازاروف:

- أنت تعرفين المثل القائل «الحال أفضل في ديار الآخرين». ثم أنك نفسك قلت البارحة بأنك غير قانعة. أما أنا فلا تتبادر إلى ذهني مثل هذه الافكار.

(٤٨) في الأصل بالفرنسية.

(٤٩) في الاصل بالفرنسية «Traité élémentaire de physique expérimentale» ادولف غانو عالم فيزيائي ورياضي (١٨٠٤ - ١٨٨٧).

- ربما تبدو لك مضحكة؟

- كلا، ولكنني لا أفكر بها.

- حقاً؟ أتعلم بأني تواقه جداً إلى معرفة ما تفكر به أنت؟

- كيف؟ أنني لا أفهمك.

- تصور، لقد اردت أن نتصارع من زمان. ولا داعي لأن أقول لك أنك لست من الناس العاديين. فأنت تعرف ذلك بنفسك. أنك لا تزال في طور الشباب والحياة كلها أمامك. فالأم تعد نفسك؟ وما هو المستقبل الذي ينتظرك؟ أقصد: أي هدف تنوي تحقيقه؟ وإلى أين تسير؟ وما الذي تنطوي عليه جوانحك؟ وباختصار: فمن أنت؟ وما هي هويتك؟

- أنك تثيرين دهشتي، يا آنا سيرغييفنا. أنت تعلمين بأني ادرس العلوم الطبيعية. أما من أنا...

- أجل، من أنت؟

- لقد أخبرتك بأني سأكون طبيباً في أحد الاقضية.

ندت عن آنا سيرغييفنا حركة غير متأنية:

- لماذا تقول ذلك؟ أنك لا تؤمن بما تقول. بوسع اركادي أن يجيبني

على هذا النحو، وليس أنت.

- فهل اركادي أسوأ...

- كفاك. هل يجوز أن تقتنع بمثل هذا العمل المتواضع؟ أولست أنت

الذي أكدت دوماً أن الطب غير موجود بالنسبة لك؟ كيف لك، بأنفتك المعروفة، أن تصبح طبيباً في أحد الأقضيه؟! أنك تجيبني على هذا النحو لكي تتخلص مني لأنك لا تثق بي قيد شعرة. ولكن هل تعلم، يا يفغيني فاسيليفيتش، بأنني يمكن أن افهمك: كنت بنفسك فقيرة أنوفا مثلك، ولربما اجتزت نفس المحن التي تجتازها.

- كل ذلك شيء طيب، يا آنا سيرغييفنا، ولكن معذرة... فأنا على العموم لم اعتد الحديث عن نفسي. ثم أن الهوة بينك وبينني سحيقة...
- أية هوة؟ ستقول لي من جديد أنني ارستقراطية، أليس كذلك؟ كفاك، يا يفغيني فاسيليفيتش! اظن أنني أثبت لك...

- ثم - قاطعها بازاروف - ثم ما الداعي للكلام والتفكير في مستقبل لا يعتمد علينا بقسمة الاعظم؟ فإذا حدث وعملت شيئاً مفيداً فذلك أمر رائع، وإذا لم يحدث فساكون، على الاقل، قانعاً بأنني لم اثرثر عبثاً قبل الاوان.

- أنت تنعت الحديث الودي بالثرثرة... أم أنك ربما لا تعتبرني، كامرأة، إنساناً يستحق ثقتك؟ فأنت تحتقرنا جميعاً.

- أنني، يا آنا سيرغييفنا، لا احتقرك بالذات، وأنت تعرفين ذلك.

- كلا، لا أعرف شيئاً... ولكن فلنفترض أنني افهم عدم رغبتك في الكلام من عملك المرتقب، بيد أن ما يعمل فيك الآن...

- يعمل! فهل أنا دولة أو مجتمع؟! على كل حال ليس ذلك أمراً هاماً. ثم هل يستطيع المرء أن يتكلم بصوت جهوري دوماً عن كل ما «يعمل» فيه؟

- أنا لا أفهم المانع في الافصاح عن كل ما يشعر به المرء.

- وهل تستطيعين ذلك أنت؟ - سألها بازاروف، فأجابت بعد تردد قصير:

- استطيع.

طأطأ بازاروف رأسه، وقال:

- أنت أسعد مني.

فألقت عليه أنا سيرغييفنا نظرة متسائلة، وواصلت كلامها:

- فليكن. ومع ذلك هناك شيء يقول لي أننا لم نتألف عبثاً، وأنا سنكون صديقين حميمين. أنا واثقة من أن توترك هذا، أن صح القول، أو تحفظك سيتلاشى في آخر المطاف.

- هل لاحظت لدي تحفظاً... أو توتراً على حد تعبيرك؟
- أجل.

نهض بازاروف واقترب من النافذة.

- وتريدون أن تعرفي سبب هذا التحفظ، وتعرفي ما يعتمل في دخيلتي؟
- أجل - كررت اودينتسوفاً بخوف غامض.

- ألن تزعلي مني؟
كلا.

- كلا؟ - كان بازاروف واقفاً وظهره إليها - فاعلمي اذن أني أحبك بغياء وجنون... هذا ما فعلته بي.

مدت اودينتسوفاً كلتا يديها إلى الامام، بينما التصقت جبهة بازاروف بزجاج النافذة. كان يتنفس بعسر، وكان بدنه يرتعش كلياً على ما يبدو. لكن ما انتابه لم يكن هو ارتعاشة وجل الشباب ولا الذعر اللذيذ من الاعتراف الاول. لقد نبض في دخيلته هوى شديد مرهق، هوى شبيه بالغيظ، ولربما هو الغيظ ذاته...

ارتعبت اودينتسوفاً من ذلك وشعرت بالعطف على بازاروف فقالت بصوت رنت فيه نغمة عفوية رقيقة:

- يفغيني فاسيليفيتش.

استدار بسرعة والقى عليها نظرة نهمه، ثم أمسك بكلتا يديها واحتضنها بغتة.

لم تتخلص من أحضانه فوراً. لكنها بعد لحظة صارت تقف بعيداً في الركن وتنظر إلى بازاروف من هناك. وهرع هو إليها...
فقالت برعب واستعجال:

- لم تفهمني.

وخيل إليها أنه لو خطا خطوة أخرى لصرخت... عض بازاروف شفته وانصرف.

بعد نصف ساعة سلمت الخادمة تذكرة من بازاروف إلى آنا سيرغييفنا. كان فيها سطر واحد لا غير: «هل يتعين علي السفر اليوم، أم يمكنني البقاء إلى غد؟» فأجابته آنا سيرغييفنا: «ما الداعي للسفر؟ لم أكن افهمك وأنت لم تفهمني» وفكرت: «أنتي لم أكن افهم نفسي أيضاً».

لم تغادر غرفتها حتى الغداء. كانت تجوبها جيئة وذهاباً، وقد اشبكت يديها خلف ظهرها. لم تكن تتوقف إلا نادراً أمام النافذة تارة وأمام المرأة تارة أخرى، لتمسح بالمنديل على نحو بطيء بقعة ساخنة خيل إليها أنها ظهرت على جيدها. كانت تسائل نفسها عما حدا بها إلى أن «تسعى»، على حد تعبير بازاروف، إلى جعله يصارحها، وعما إذا كانت تتوقع شيئاً... فقالت بصوت مسموع: «أنا المذنبه. ولكنني لم أكن اتوقع ذلك». غرقت في تأملاتها واحتقنت بصبغة حمراء حين تذكرت وجه بازاروف الذي بدا متوحشاً تقريباً عندما هرع إليها...

«أم ان... - نطقت بذلك فجأة ثم توقفت، فنفضت شعرها... وشاهدت نفسها في المرأة. بدارأسها المائل إلى الورا، بابتسامة خفية في عينيها وشفتيها المنفرجتين بالكاد، وكأنما يشير عليها في تلك اللحظة بشيء خجلت منه هي نفسها...»

فقررت في آخر الأمر: «كلا. الله يعلم إلام سيقودنا ذلك. لا تجوز المخاطرة. فالهدوء، مع ذلك، هو أفضل ما في الكون».

لم يتزعزع هدوؤها. ولكن الغم اعترها حتى أنها بكت مرة دون أن تعلم السبب. بيد أنها لم تبتك للشعور بالاهانة، فهي لم تشعر بأنها قد اهينت، وإنما تتصور نفسها، على الأكثر، مذنبه. فتأثير مختلف المشاعر الغامضة والاسف على الحياة الآفلة والرغبة في التجديد حملت نفسها على الوصول إلى خط معين وارغمتها على التطلع إلى ما وراءه، فرأت وراءه ليس هوة سحيقة، بل خواء... أو ما هو ابشع من الخواء.

١٩

مهما بلغت قدرة اودينتسوبا على ضبط نفسها وتجاوز مختلف الابطال، فقد شعرت بعدم الارتياح عندما حضرت للغداء في غرفة الطعام. وبالمناسبة فقد مضى الغداء بصورة مرضية نوعاً، حيث وصل بورفيرى بلاتونيتش واورد مختلف الاخبار المضحكة، إذ كان قد عاد من المدينة لتوه. وقال، فيما قال، أن المتصرف أمر معاونيه الخاصين أن يرتدوا المهاميز تحوطاً لما إذا كان سيرسلهم راكبين إلى مكان ما على جناح السرعة. وكان اركادي يتحدث مع كاتيا بصوت خافت ويداري الاميرة بتصنع. بينما لزم بازاروف الصمت متجهماً متعتاً. نظرت اودينتسوبا مرتين على نحو مباشر وبدون مواربة إلى وجهه السوداوي الصارم بعينه الخفيضتين واثرتصميم الانوف باد في كل ملامحه، وفكرت في نفسها: «كلا... ثم كلا...» بعد الغداء توجهت مع الجميع إلى البستان. وعندما لاحظت أن بازاروف يريد التحدث معها خطت بضع خطوات إلى الجانب وتوقفت. فاقترب منها وقال بصوت مكبوت دون أن يرفع إليها نظاره هنا أيضاً:

— يتعين علي أن اعتذر منك، يا آنا سيرغييفنا، فأنت غاضبة علي ولا

بد.

فأجابته اودينتسوبا:

- لست غاضبة عليك، يا يفغيني فاسيليفيتش، ولكنني متكدرة.

- وهذا اسوأ. على كل حال فقد عوقبت أنا بما فيه الكفاية. إذ ليس

هناك أكثر حماقة من موقفي، وأنت، على ما أظن، توافقينني في ذلك.

لقد كتبت لي: ما الداعي للسفر؟ بينما لا استطيع البقاء ولا أريده. ولن أكون هنا غداً.

- يا يفغيني فاسيليفيتش، لماذا...!

- لماذا اسافر؟

- كلا، ليس هذا ما أردت أن أقوله.

- الماضي لا يعود، يا أنا سيرغييفنا... وذلك شيء يجب أن يحدث

عاجلاً أم آجلاً. وبالتالي علي أن اسافر. أنني أعرف شرطاً واحداً يمكنني

أن أبقى إذا تحقق، ولكن ذلك الشرط لن يتحقق أبداً. فأنت، ومعذرة علي

تجاسري، لا تحبينني ولن تحبيني أبداً، أليس كذلك؟

لمعت عينا بازاروف للحظة من تحت حاجبيه القائمين.

لم تجبه أنا سيرغييفنا، وخطرت علي بالها فكرة: «أنا أخشى هذا

الإنسان». فقال بازاروف وكأنما حزر فكرتها:

- وداعاً.

وتوجه نحو الدار.

تبعته أنا سيرغييفنا بهدوء، ونادت كاتيا فاصطحبتها ممسكة بساعدها.

لم تفارقها حتى المساء. كما لم تلعب الورق، بل اخذت تضحك ساخرة،

الأمر الذي لم يناسب محياها الشاح المرتبك. تحير اركادي وصار يراقبها كما

يفعل الشبان عادة، فيسائل نفسه على الدوام: ما الذي يعنيه ذلك؟ انزوى

بازاروف في غرفته، ولكنه عاد لاحتساء الشاي. ارادت. أنا سيرغييفنا أن

تقول له كلمة طيبة، ولكنها لم تكن تعرف كيف تبدأ الكلام معه...

بيد أن حادثاً غير متوقع أخرجها من المأزق. فقد أعلن كبير الوصفاء عن قدوم سيتنيكوف.

يصعب على الكلمات أن تعبر عن السرعة الخرقاء التي اقتحم بها الغرفة داعية التقدم الشاب هذا. فبعد أن صمم، باللجاجة الملازمة له، على التوجه إلى القرية، إلى امرأة لا يعرفها إلا بالكاد و لم تكن قد دعتة لزيارتها أبداً، ولكنها تستضيف، حسب المعلومات التي وردته، شخصين ذكيين عزيزين عليه، فإنه مع ذلك شعر بالوجل ينتابه حتى العظام، وبدلاً من أن ينطق عبارات الاعتذار والتحية التي حفظها عن ظهر قلب مسبقاً دمدم سخافة وهذراً حيث زعم أن يفدوكسيا كوكشينا بعثته ليستفسر عن صحة آنا سيرغييفنا وأن اركادي نيكولايفيتش كان يثنى دوماً أعظم الثناء...

تلثم عندما لفظ هذه الكلمة ونسي نفسه حتى أنه جلس على قبعته. بيد أن أحداً لم يطرده، بل قدمته آنا سيرغييفنا إلى خالتها واختها، ولذا سرعان ما التقط أنفاسه واسترسل في الهذر. غالباً ما يصبح ظهور الابتذال امرأ نافعاً في الحياة: فهو يخفف من حدة الاوتار المشدودة جداً كما يخفف من المشاعر المتعالية أو المنفلتة، إذ تتجلى صلة القرى التي تربط بينها وبينه. بوصول سيتنيكوف أصبح كل شيء أكثر بلادة وأكثر بساطة على نحو ما، حتى أن الجميع تناولوا طعام العشاء بشهية أكبر وتفرقوا للنوم قبل نصف ساعة من المعتاد.

قال اركادي وهو مضطجع على الفراش لبازاروف الذي خلع ملابسه هو الآخر:

- بوسعي أن أكرر لك الآن ما قلته لي أنت ذات مرة: «لماذا أنت حزين إلى هذا الحد وكأنما اديت واجباً مقدساً؟».

منذ أمد غير طويل ساد العلاقات بين الشابين نوع من المداعبة المغالية في عدم التكلف، الأمر الذي يدل دوماً على التذمر الخفي أو على الشكوك

التي لم تجد لها متنفساً.

فقال بازاروف:

- سأسافر غداً إلى والدي.

فنهض ارКАДي قليلاً واستند إلى مرفقه. لقد دهش وفرح لسبب ما.
وقال:

- آها! هذا هو مبعث حزنك؟

فقال بازاروف متثابراً:

- من يعرف المزيد تداهمه الشيخوخة قبل الاوان.

فواصل ارКАДي كلامه:

- وأنا سيرغيّفنا، ما هو رأيها؟

- وما شأن أنا سيرغيّفنا؟

- أقصد هل ستسمح لك؟

- لست أجيراً عندها.

تأمل ارКАДي بعض الشيء، بينما رقد بازاروف ووجهه إلى الجدار.

مرت عدة دقائق في صمت. فهتف ارКАДي على حين غرة:

- يفيغيني!

- ماذا؟

- سأسافر غداً معك.

لم يجب بازاروف بشيء، فواصل ارКАДي كلامه:

- غير أنني سأذهب إلى أهلي. ستوجه معاً إلى قرية خوخلوفو، وهناك

تأخذ خيولاً من فيدوت. يسرني جداً أن أتعرف على والديك، ولكنني

أخشى أن اضيق عليهما وعليك. ثم أنك ستعود إلينا فيما بعد، أليس

كذلك؟

فقال بازاروف دون أن يستدير نحوه:

- تركت حاجياتي عندكم.

فكر اركادي في نفسه: «لم لا يسألني عن السبب في سفري على هذا النحو المفاجئ مثل سفره؟». وواصل تأملاته: «حقاً لماذا اسافر أنا ولماذا يسافر هو؟». ولم يستطع أن يجد جواباً مرضياً على أسئلته، بينما طفق قلبه بشيء ما لاذع. وأحس بأنه سيكون من العسير عليه مفارقة هذه الحياة التي اعتاد عليها. غير أن بقاءه لوحده أمر فيه شيء من الغرابة. فصار يحاجج نفسه: «لقد حدث بينهما شيء ما. فما الداعي لأن اثقل عليها بعد سفره؟ سوف تمل مني نهائياً، وسأفقد آخر ما لدي». وأخذ يتصور آناً سير غييفنا، ويتصور وجهاً آخر يلوح قليلاً من وراء محيا الارملة الشابة المليح.

«أسفي لكاتيا أيضاً!» - همس اركادي للوسادة التي سقطت عليها دمة... ثم نفض شعره بغتة وقال بصوت عال:
- أي شيطان جاء بسيتنيكوف البليد هذا؟

تحرك بازاروف في سريره، ثم قال:

- لا تزال أنت، يا أخي، غيباً على ما اعتقد. أن أمثال سيتنيكوف يلزموننا. فأنا بحاجة إلى أمثال هؤلاء البلداء، وعليك أن تفهم ذلك. هل يتعين على الآلهة أن ينشغلوا بالتفاهات؟..

«عجباً!» - فكر اركادي وانفجرت امامه هوة كبرياء بازاروف سحيقة لا قرار لها. «ذلك يعني أننا من عداد الآلهة، أو على الاصح أنت إله، وأنا من البلداء، أليس كذلك؟».

- أجل، لا تزال أنت غيباً - كرر بازاروف متجهماً.

لم تبد او ديتسوسفا دهشة كبيرة عندما اعلن اركادي في اليوم التالي عن عزمه عن السفر مع بازاروف. لقد بدت متعبة شاردة البال. وجهت

إليه كاتيا نظرة صامته جادة، بينما رسمت الاميرةشارة الصليب تحت وشاحها، وكان لا بد له أن يلاحظ ذلك. بيد أن سيتنيكوف بالذات أصبح في اشد الانزعاج. كان قد حضر بيد أن سيتنيكوف بالذات أصبح في اشد الانزعاج. كان قد حضر توألتناول الفطور في بدلة جديدة انيقة للغاية، وليست هذه المرة مما يرتديه أنصار النزعة السلافية. وفي يوم أمس دهش الشخص الذي عين لخدمته من كثرة الملابس التي جلبها معه. وها أن رفيقيه يغادرانه على حين غرة! تخطر بعض الشيء بخطوات متقاربة، ثم اندفع كآرنب مطارد في طرف الغابة، وأعلن فجأة بشيء من الذعر وبصوت يكاد يقرب من الصراخ أنه عازم على السفر أيضاً. ولم تحاول اودينتسوف اقناعه بالبقاء.

قال الشاب التعيس مخاطباً اركادي:

- عندي عربة مكشوفة مريحة جداً، وبوسعي أن اصطحبك، أما يفغيني فاسيليفيتش فيمكن أن يستقل عربتك، وسيكون ذلك أفضل.

- كيف؟ طريقك غير طريقي. والمسافة إلينا بعيدة.

- لا بأس، لا بأس، لدي متسع من الوقت، ثم على أن ادبر بعض الشؤون في تلك الناحية.

- شؤون تجارة المسكرات؟ - سأله اركادي بمنتهى الازدراء.

بيد أن سيتنيكوف كان في حالة من اليأس والقنوط حتى أنه لم يفقهه هذه المرة خلافاً لعادته. فكرر القول:

- أوكد لك أن العربة مريحة للغاية، وفيها مكان لنا.

فقال أنا سير غيفنا:

- لا تكدر المسيو سيتنيكوف بالممانعة.

نظر إليها اركادي وطأطأ رأسه بمهابة.

سافر الضيوف بعد الفطور. ودع بازاروف اودينتسوف فمدت له يدها

قائلة:

- سنلتقي مرة أخرى، أليس كذلك؟

فأجاب بازاروف:

- كما تأمرين.

- اذن سنلتقي.

كان اركاوي أول من خرج من الدار، فصعد إلى عربة سيتنيكوف. وساعده كبير الوصفاء في ذلك بكل اجلال، في حين كان بود اركاوي أن يصفعه أو ينتحب. واستقل بازاروف العربة الاخرى. عندما وصلوا إلى قرية خوخلوفو انتظر اركاوي حتى شد صاحب الخان فيدوت الخيول، فاقرب من عربة بازاروف وقال له بابتسامته المعهودة:

- يفغيني. خذني معك، اريد أن أذهب إليكم.

فتمتم بازاروف:

- اصعد.

كان سيتنيكوف وهو يتمشى حول عجلات مركبته ويصفر بحماس، قد فغر فمه عندما سمع تلك الكلمات، بينما سحب اركاوي بيروود حاجياته من عربة ذاك وصعد إلى عربة بازاروف فجلس قربه وحنى رأسه انحناءة تبجيل لسيتنيكوف وصاح: «هيا بنا!». تحركت العربة وسرعان ما اختفت عن الانظار... تطلع سيتنيكوف المرتبك أشد ارتباك إلى حوزيه، بيد أن ذاك كان يتلاعب بسوطه فوق ذيل الفرس. وعند ذاك قفز سيتنيكوف إلى عربته، زعق صارخاً على فلاحين مراقبه: «لبسا قبعتي كما أيها الاحمقان!»، وتوجه إلى المدينة حيث وصلها في ساعة متأخرة. وفي اليوم التالي انهال، لدى كوكشينا، وابل من اللوم المقذع على ذينك «المتكبرين الوقحين الكريهين».

عندما صعد اركادي إلى عربة بازاروف شد على يده بقوة ولم يقل شيئاً
لامد طويل. وبدا وكأن بازاروف قد فهم وقدر هذه الالتفاتة من رقيقه. لم
يكن قد ذاق طعم النوم ولا التدخين في الليلة المنصرمة، ولم يكن قد تناول
طعاماً يذكر منذ بضعة ايام. وتأت صفحة وجهه من تحت طاقيته مكفهرة
متجهمه. ثم قال أخيراً:

- ماذا، يا أخي، هلا اعطيتني سيجاراً... ثم انظر: أليس لساني أصفر؟
- اصفر.

- هكذا... حتى السيجار غير لذيذ. تفككت الماكنة.

- تغيرت حقاً في الآونة الاخيرة.

- لا بأس، سنتعافى. هناك شيء واحد محزن. فإن امي رقيقة القلب إلى
درجة، حتى أنها تتألم أشد الألم إذا لم ينتفخ بطني ولم آكل عشر مرات في
اليوم. أما أبي فلا بأس. لقد رأى ما رأى، وغربل الامور وتخلها. كلا، لا
يمكن التدخين - قال ذلك وقذف السيجار وسط غبار الطريق.

فسأله اركادي:

- المسافة إلى ضيعتك خمسة وعشرون كيلومتراً؟

- أجل. ولكن اسأل هذا الحكيم عنها.

وأشار إلى الفلاح الجالس على مقعد الخوذي، وهو من العاملين لدى
فيدوت.

بيد أن الحكيم اجاب بلهجة محلية: «من يدري؟ لم يقس أحد المسافة
هنا». وواصل شتائم بصوت خافت على فرس المقدمة التي كان تنهز
رأسها بتشنج.

وظفق بازاروف يتكلم:

- أجل، أجل، يا صديقي الفتى، أنه لدرس فيه عبرة لك. الشيطان وحده يعرف هذه الحماقة! كل شخص معلق بشعرة، ويمكن أن تنفج تحت هوة سحيقة في كل لحظة، بينما يتدع هو لنفسه مختلف المشاكل ويفسد حياته.

فسأله اركادي:

- الام تلمح؟

- ليس في ذلك تلميح. فأنا أقول صراحة أنني وأياك تصرفنا تصرفاً أحق. الأمر واضح تماماً. وقد لاحظت في المستشفى أن الذي يغضب على ألمه لا بد وأن يقهره.

فقال اركادي:

- لا أفهمك تماماً. يخيل لي أنه لم يكن هناك ما يمكن أن تتشكي منه.

- ما دمت لا تفهمني تماماً فأنا احيطك علماً بما يلي: برأيي أن قلع البلاط من الشارع أهون من السماح لامرأة بأن تمتلك قيد انملة. فذلك كله مجرد... - كاد بازاروف يتلفظ كلمته المحببة «رومانسية»، ولكنه امتنع وقال: - سخافة صرف. وسوف لن تصدقني إذا قلت لك الآن: لقد كنا في معشر نسائي، وكان ذلك أمراً مسراً، لكن ترك مثل هذا المعشر كالاستحمام بماء بارد في يوم قائط. فليس لدى الرجل وقت لممارسة هذه التفاهات. على الرجل أن يكون شرساً، كما يقول المثل الاسباني الرائع. فأنت مثلاً - اضاف بازاروف مخاطباً الفلاح الجالس في مقعد الحوذني - أنت، أيها الحصيف، هل لديك زوجة؟

التفت الفلاح إلى الصديقين بوجهه المسطح الاعشى:

- زوجة؟ طبعاً، فكيف يمكن بدونها؟

- وهل تضربها؟

- من، زوجتي؟ يصادف. فنحن لا نضرب بدون سبب.

- حسنا. وهي هل تضربك؟

هز الفلاح الاعنة:

- ما هذا الكلام، أيها السيد. ليس كل شيء يصلح للمزاح... -

زعل الفلاح على ما يبدو.

- هل أنت سامع يا اركادي نيكولايفيتش؟ أما نحن فقد ضربونا...

ذلك ما يعنيه أن يكون المرء مثقفاً.

ضحك اركادي بتكلف، بينما أشاح بازاروف بوجهه، ولم ينبس

ببنت شفة طوال ما تبقى من الطريق.

بدت الخمسة والعشرون كيلومتراً لاركادي بقدر خمسين. وأخيراً

لاحت على صفحة هضبة منحدره القرية الصغيرة التي يقطنها والدا

بازاروف. وإلى جانبها بدت وسط اجمة من صغار البتولا دار غير

كبيرة من دور النبلاء وسقفها مغطى بالقش. وعند أول بيت قروي كان

فلاحان مهندمان يتشاجران. فقد قال احدهما للآخر «أنت خنزير كبير

ولكنك اسوأ من الخنوص الصغير»، فقال الثاني «وزوجتك سحارة».

فقال بازاروف لاركادي:

- يمكنك الحكم من صيغة المخاطبة غير المتكلفة ومن لجهة الكلام

بأن فلاحي أبي لا يتعرضون لمضايقة شديدة. وبالمناسبة فهذا هو نفسه

يخرج إلى باحة الدار. لا بد وأنه سمع جرس العربة. أنه هو، هو طبعاً،

عرفته من قوامه. ولكن، يا للعجب كيف شاب، المسكين، إلى هذا الحد!

اطل بازاروف من العربة، واثراب ار كادي بعنقه من وراء ظهر رفيقه فرأى في مدخل الدار رجلاً نحيفاً فارغ القامة بشعر اشعث وأنف دقيق كمنقار الصقر، وهو يرتدي سترة عسكرية عتيقة مفتحة الازرار. كان واقفاً منفرج الساقين، يدخن غليوناً طويلاً، ويضيق عينيه بسبب أشعة الشمس.

توقفت الخيول.

فقال بازاروف الاب، وهو يواصل تدخينه مع أن الغليون يتراقص بين أصابعه: - ها قد وصلت أخيراً. هيا انزل، انزل، فلنتعاق.

عانق ابنه... فارتفع صوت نسائي مرتعش: «ينيوشا»^(٥٠)، «ينيوشا». فتح الباب على مصراعيه وظهرت على عتبه عجوز متكورة قصيرة القامة في قلنسوة بيضاء وبلوزة زاهية قصيرة. تأوهت وممايلت وكادت تسقط لولا أن اسندها بازاروف. طوقت يداها الممتلئتان عنقه على الفور والتصق رأسها بصدره، وساد الصمت كل شيء، ما عدا نشيجها المتقطع.

كان العجوز بازاروف يتنفس بصعوبة، وصار يضيق عينيه أكثر من السابق. ثم قال بعد أن التقت نظرتيه بنظرة ار كادي، في حين اشاح الفلاح الجالس على مقعد الحوذي بوجهه:

- كفاك، كفاك يا آرينا! لا داعي لذلك! ارجوك.

فتمتت العجوز:

- آه يا فاسيلي ايفانوفيتش! منذ متى لم ار حبيب قلبي وقرّة عيني نيوشا... - وابتعدت وجهها المتيم المدعوك المبلل بالدموع عن بازاروف

(٥٠) صيغة التحبيب من اسم يفغيني. - المترجم.

دون أن ترفع يديها عن عنقه، ونظرت إليه بعينين مغتبطتين، مضحكين بعض الشيء، ثم التصقت به من جديد. فقال فاسيلي ايفانوفيتش:

- كل ذلك في طبيعة الأشياء. ولكن من الأفضل أن ندخل البيت. فقد وصل ضيف مع يفغيني. - ثم اضاف مخاطباً اركادي، وحف برجله قليلاً - عفواً، أنت تعرف هذه الأمور. تلك هي نقطة ضعف المرأة. يا لقلب الأم...

قال ذلك وارتعشت شفتاه وحاجباه، وكان ذقنه يهتز اهتزازاً... بيد أنه كان، على ما يبدو، راغباً في ضبط مشاعره والتظاهر بشيء من اللامبالاة. فانحنى له اركادي. وقال بازاروف:

- فعلاً، فلندخل يا ماما.

واقتراد إلى الدار العجوز التي خارت قواها اجلسها في مقعد مريح، وعانق اباه من جديد على عجل وقدم له اركادي.

فقال فاسيلي ايفانوفيتش:

- يسعدني من صميم القلب أن نتعارف، ولكن لا تلمني، فكل شيء هنا بسيط على الطراز العسكري. يا آرينا فلا سيفنا، اعملي معروفاً، وروحي عن نفسك. فما هذا الخور؟ لا بد وأن السيد الضيف يلومك على ذلك.

فقال العجوز والدموع تنهمر من عينيها:

- يا عزيزي... لم اتشرف بعد بمعرفة اسمك واسم ابيك...

فقال فاسيلي ايفانوفيتش بصوت خافت له وزنه:

- اركادي نيكولايفيتش.

فقال العجوز بعد أن تمخضت ومالت برأسها ذات اليمين وذات الشمال ومسحت عيناً بعد أخرى بكل عناية:

- اعذرني أنا الغبية. اعذرني. كنت أفكر بأني سأموت دون أن يطول بي العمر لأرى قر... قرّة عيني.
فقال فاسيلي ايفانوفيتش:
- ها قد رأيت، يا سيدتي.

ثم التفت إلى بنت حافية القدمين في حوالي الثالثة عشرة من العمر ترتدي فستاناً قطنياً أحمر صارخاً، وهي تتطلع بخوف من شق الباب، ونادها قائلاً:

- تانيوشا. احضري للسيدة قدحاً من الماء بالصينية، هل أنت سامعة؟
- ثم أضاف بشيء من المداعبة العتيقة الطراز: أما أنتما أيها السيدان فاسمحا لي أن ادعوكما إلى مكتب المحارب القديم المتقاعد.
وأنت آرينا فلاسيفنا متنهدة:

- تعال لاعانقك مرة أخرى يا ينيوشا. - انحنى إليها بازاروف - كم أصبحت جميلة!

فقال فاسيلي ايفانوفيتش:

- لست واثقاً من جماله، ولكنه غدا رجلاً من خيرة الرجال، كما يقال. أما الآن فأمل، يا آرينا فلاسيفنا، أنك بعد أن اشبعت قلب الامومة سوف تهتمين باشباع ضيفيك العزيزين، فالبلبل، كما تعرفين، لا يقتات على الحكايات.

نهضت العجوز من المقعد وقالت:

- في الحال، يا فاسيلي ايفانوفيتش، ستكون المائدة جاهزة. سأذهب بنفسي إلى المطبخ وسأمر باعداد السماور. سيكون كل شيء على ما يرام. منذ ثلاث سنوات لم أراه ولم اطعمه ولم اسقه، فهل ذلك بالأمر الهين؟
- ارجوك ياربة البيت، ابذلي جهدك، فلا تجلبي الملامة على نفسك.

أما انتم أيها السيدان فارجو كما أن تبعاني. وها هو تيموفيتش جاء ليحييك يا يفغيني. فهو أيضاً قد سر، ولا بد، أليس كذلك أيها العجوز؟ اتبعوني رجاء.

سار فاسيلي ايفانوفيتش في المقدمة حركاً متملماً وهو يحف ويخشخش بحذائه البالي.

كانت داره تضم ست غرف صغيرة لا غير. وكانت احداها، وهي الغرفة التي اقتاد إليها صاحبينا، تسمى بالمكتب. كانت طاولة بقوائم سميكة تحتل كل الفسحة بين النافذتين. وعلى الطاولة اكداس اوراق اسودت من الغبار والقدم حتى بدت كالمشوية بالدخان. وعلى الجدران بنادق ومجالد تركية وسيف وخريطتان جغرافيتان وبعض الرسوم التشريحية وصورة هوفيلاند وطغراء مصنوعة من الشعر في اطار اسود ودبلوما مزججة. وكانت هناك اريكة جلدية مخسوفة في ناحية ومزقة في ناحية أخرى بين صوانين هائلين من خشب البتولا الكاريلية. وكانت الرفوف غاصة، على غير انتظام، بالكتب والعلب والطيور المحنطة والقناني والزجاجات الصغيرة. وفي أحد الاركان ماكنة كهربائية معطبة.

بدأ فاسيلي ايفانوفيتش كلامه:

- ذكرت لك يا زائري العزيز أننا نعيش هنا كما في المخيمات العسكرية المكشوفة...
فقاطعه بازاروف:

- كفاك، علام تعتذر؟ اركادي يعرف جيداً بأنك لست قارون وأنك لا تمتلك قصرأ. ولكن أين سيقيم؟ تلك هي المشكلة.

- كيف يا يفغيني؟ لدينا في الجناح غرفة ممتازة. وسيرتاح فيها كلياً.
- ماذا؟ هل بنيت جناحاً؟

فتدخل تيموفيتش قائلاً:

- كيف لا يا سيدي؟ هناك في مبنى الحمام.

- أي قرب الحمام - اضاف فاسيلي ايفانوفيتش على عجل - فالوقت صيف... سأذهب إلى هناك في الحال لاعطي بعض التعليمات. هلا احضرت، يا تيموفيتش، حاجياتهما! أما أنت، يا يفغيني، فاترك لك مكثبي طبعاً (لكل ما له)^(٥١).

فقال بازاروف حالما خرج فاسيلي ايفانوفيتش:

- يا له من عجوز ظريف. أنه في منتهى الطيبة. وهو غريب الاطوار مثل ابيك، ولكن على طراز آخر. أنه كثير الثرثرة.

فقال اركادي:

- وأمك أيضاً امرأة رائعة على ما يبدو.

- أجل، أنها طيبة القلب. وسوف ترى أي غداء ستقدم لنا.

فقال تيموفيتش وقد دخل لتوه حاملاً حقيبة بازاروف:

- لم نتوقع وصولكما اليوم، يا عزيزي، فلم نحضر لحم البقر.

- سنستغني عن لحم البقر ما دام غير موجود. فالفقر ليس عيباً كما يقال.

فسأله اركادي على نحو غير متوقع:

- كم نسمة يمتلك ابوك؟

- الضيعة ليست له، فهي ملك لوالدتي، وعدد الفلاحين، على ما

اتذكر، خمسة عشر.

(٥١) في الأصل باللاتينية Suum cuique.

- بل اثنان وعشرون - قال تيموفيتش بعدم ارتياح.

تهادى حفيف حذاء، وظهر فاسيلي ايفانوفيتش من جديد، وأعلن كالمنتصر:

- بعد بضع دقائق ستكون غرفتك جاهزة يا اركادي... نيكولايفيتش. هذا هو اسم ابيك على ما اعتقد، أليس كذلك؟ - ثم اضاف مشيراً إلى غلام قصير الشعر في قفطان أزرق ممزق عند المرفقين وفي جزمة ليست له: - هذا خادمك. واسمه فيدكا. اعتذر مرة أخرى، مع أن ولدي لا يسمح بالاعتذار، فالصبي يجيد: على الأقل، شحن الغليون. أنت تدخن، أليس كذلك؟

- أنا ادخن السجائر أكثر. - اجاب اركادي.

- ذلك في منتهى الحكمة. وأنا شخصياً أفضل السجائر، ولكن من الصعب جداً الحصول عليها في بقاعنا النائية هذه.

فقاطعه بازاروف من جديد:

- كفاك مسكنة. من الأفضل أن تجلس هنا على الاركة لاستطيع التطلع إليك.

ضحك فاسيلي ايفانوفيتش وجلس. كان وجهه يشبه وجه ابنه لدرجة كبيرة، سوى أن جبهته اوطأ واضيق، وفمه اوسع قليلاً. كان دائم الحركة، يهز كتفيه بلا كلل وكأنما الثوب ضيق تحت ابطيه. ويطرف كثيراً ويسعل بين الفينة والفينة ويحرك اصابعه، في حين يتميز ابنه بشيء من الهدوء اللابالي.

تحدث فاسيلي ايفانوفيتش:

- تقول، يا يفغيني أي المسكن! كلا، لا تظن بأي كأنما اريد أن اتشكى لضيفنا من عشيتنا في طرف منعزل بعيد. فأنا على العكس أرى أنه لا

يوجد طرف بعيد بالنسبة للإنسان المفكر. وأنا، على الأقل، أحاول، قدر
الإمكان، أن أواكب العصر، فلا أترك الطحالب تغطيني، كما يقال.
أخرج فاسيلي ايفانوفيتش من جيبه منديلاً حريراً أصفر جديداً، كان
قد أخذه عندما ذهب لترتيب غرفة اركادي، وواصل كلامه وهو يلوح
بالمنديل:

- ناهيك عن أي، مثلاً، حولت الفلاحين للعمل حسب الجزية
واعطيتهم ارضي مناصفة في المحصول، بالرغم من الاضرار المحسوسة
التي اتكبتها نتيجة لذلك. فقد اعتبرت هذا واجباً علي، فالعقل السليم
نفسه يتطلب ذلك، مع أن الكثيرين من الملاك الآخرين لا يفكرون به. وأنا
اهتم بالعلوم والتعليم.

فقال بازاروف:

- أجل، أرى لديك «صديق العافية» لعام ألف ثمانمئة وخمسة
وخمسين.

فقال فاسيلي ايفانوفيتش باستعجال:

- يرسلها لي أحد أصدقائي القدامى. - ثم اضاف موجهماً كلامه
إلى اركادي على الاكثر، و اشار إلى رأس صغير من الجبس انتصب على
الصوان وقسم إلى مستطيلات مرقمة وقال: - نحن، مثلاً، نعرف ماهي
فراصة الدماغ^(٥٢). ولم يبق شينلين وراديماخير مجهولين لدينا.

فسأل بازاروف:

- أفلا يزالون في هذا اللواء يصدقون راديماخير؟

(٥٢) نظرية غير علمية للتدليل على السجاي الشخصية والملكات الذهنية من دراسة
شكل الجمجمة. - المترجم.

سعل فاسيلي ايفانوفيتش وقال:

- في اللواء... انتم اعرف طبعاً، أيها السادة. فمن أين لنا أن نلحق بكم؟ سوف تحلون أنتم بالذات محلنا. حتى في زمني بدا هو فمان ونظريته للاخلاق وبراون ومذهبه الحيوي شخصين مضحكين للغاية، ولكن صيتهما ذاع أيضاً في حينه. وحل شخص ما جديد لديكم محل رادماخير وأنتم تطأئون رؤوسكم أمامه. لكنه ربما سيكون هو الآخر مثاراً للسخرية بعد عشرين عاماً.

فقال بازاروف:

- ازيدك علماً بأننا الآن نسخر من الطب عموماً ولا نطأطي رؤوسنا أمام أحد.

- كيف؟ أفلا تريد أن تصبح طبيباً؟

- بلى، فليس في ذلك تعارض.

دس فاسيلي ايفانوفيتش اصبعه الوسطى في غليونه، فلا يزال هناك شيء من الرماد الساخن. وقال:

- ربما، ربما. لن اجاد في ذلك. فمن أنا؟ مجرد طبيب عسكري متقاعد. وقد تحولت الآن إلى مهندس زراعي. - ثم وجه كلامه إلى اركادي من جديد: - خدمت في لواء جدك. أجل رأيت في حياتي الكثير. فما أكثر المجتمعات التي حضرتها والشخصيات التي صادقتها! أنتي، أنا الذي تراني الآن أمامك، قد جسست نبض الامير فيتغينشتين وجوكوفسكي! وكنت اعرف فرداً فرداً جميع الذين كانوا في الجيش الجنوبي، هل أنت فاهم؟ (وهنا زم فاسيلي ايفانوفيتش شفته متباهياً). ولكن عملي ثانوي لا شأن له. فلا يطلب مني غير اجدادة الموضع وكفى! أما جدك فكان عسكرياً حقيقياً وإنساناً مبعجلاً للغاية.

فقال بازاروف متكاسلاً:

- قل الحقيقة: كان في منتهى الحماسة.

- آه يا يفغيني! اية الفاظ تنطق؟! ارحم حالي... بالطبع، لم يكن الجنرال كيرسانوف في عداد اولئك...

فقاطعه بازاروف:

- اتركه وشأنه. عندما اقتربت من هنا سررت لاجمتك، اجمه البتولا. لقد شهقت وارتفعت كثيراً.

انتعش فاسيلي ايفانوفيتش وقال:

- هل لاحظت كيف ازدهر البستان؟! غرست بنفسي كل شجرة فيه. وتوجد فاكهة وثمار وأعشاب طيبة. ومهما كان رأيكم أيها السادة الشباب فإن العجوز باراتسيلس نطق بالحقيقة عينها حينما قال: (بالاعشاب والكلمات والاحجار...^(٥٣)). تخليت عن ممارسة التطيب، كما تعلم. غير أنني مضطر إلى العودة إليه مرتين في الاسبوع. فعندما يلتمس الناس المشورة لا يمكن طردهم. ويصادف أن يحتاج الفقراء إلى اسعاف، بينما لا يوجد هنا اطباء على الاطلاق. تصور أن أحد الجيران، وهو رائد متقاعد، يمارس التطيب أيضاً. وعندما سألت عما إذا كان قد درس الطب أم لا، قيل لي: كلا، لم يدرسه. إنما يمارسه عملاً بالمعروف... ها - ها، عملاً بالمعروف! أرايت؟ ها - ها! ها - ها!

فقال بازاروف متجهماً:

- فيدكا! املاً غليونني!

(٥٣) في الأصل باللاتينية in herbis، verbis et lapidibus لعله يقصد امكان المعالجة بها. - المترجم.

ثم واصل فاسيلي ايغانوفيتش كلامه بشيء من الاسف:

- ذات مرة وصل طبيب لعيادة مريض ولكن هذا الأخير (التحق بالاجداد^(٥٤)) فلم يسمح الوصيف للطبيب بالدخول وقال له: لا حاجة. ولم يكن الطبيب يتوقع ذلك فسأله مرتبكاً: «ماذا؟ هل فاق السيد قبيل الوفاة؟» - «اجل». - «وهل فاق كثيراً؟» - «كثيراً». - «ذلك شيء حسن». وعاد ادراجه. ها - ها - ها!

ضحك العجوز لوحده. وارتسمت ابتسامة متكلفة على محيا اركادي، بينما اكتفى بازاروف بأن اخذ نفساً من غليونه. استمر الحديث على هذا النحو زهاء ساعة. وتيسر وقت لاركادي كي يذهب إلى غرفته ويعود، فأتضح له أنها غرفة ملابس الاستحمام، ولكنها مريحة ونظيفة للغاية. وأخيراً دخلت تانيوشا وأعلنت أن الغداء جاهز. نهض فاسيلي ايغانوفيتش أولاً، وقال:

- فلنذهب أيها السادة! معذرة إذا كنت قد اضجرتكما، ولعل ربة بيتي تلمي حاجتكما أكثر مني.

كان الغداء فاخراً، بل وسخياً، بالرغم من الاستعجال في اعداده. غير أن النيذ لم يكن على المستوى المطلوب أن صح القول. كان طعم نيذ الهيريس القاتم الذي اشتره تيموفيتش من بائع يعرفه في المدينة شبيهاً بطعم النحاس أو صمغ الصنوبر. وكان الذباب قد لعب دوره أيضاً. في الاوقات العادية كان الخادم الصغير يطرد الذباب بغصن اخضر كبير، إلا أن فاسيلي ايغانوفيتش ابعده هذه المرة كي لا يتعرض للاملامة من قبل الجليل الفتى. وتسنى لآرينا فلاسيفنا أن تتزين، فقد ارتدت قلنسوة عالية بأشرطة حريرية ووشاحاً ازرق موشى. انتحب من جديد حالما وقع نظرها على

(٥٤) في الاصل باللاتينية ad patres.

ابنها ينيوشا، غير أن زوجها لم يضطر إلى تهدئتها، فقد عجلت هي نفسها بمسح دموعها كي لا يتل الوشاح. تناول الشابان الطعام وحدهما، إذ أن أهل البيت تغدو قبل حين. وسهر على الخدمة فيدكا الذي بدا مرهقاً بالجزمة غير المعادة، وعاونته في ذلك انفيسكوشكا وهي امرأة عوراء ذات ملامح تنم عن البسالة، تؤدي وظائف مدبرة المنزل ومربية الدواجن والغسالة. أخذ فاسيلي ايفانوفيتش طوال الغداء يتمشى في الغرفة ويتحدث بسرور بل وبغبطة عن المخاوف الوحيدة التي اوحى بها اليه سياسة نابليون والمسألة الايطالية المشوشة. ولم تكن آرينا فلاسيفنا لتلتفت إلى اركادي ولم تستحبه على تناول الطعام، فقد اسندت بقبضتها وجهها المستدير الذي اضفت عليه شفتاها المتفتختان القرمزيتان والشامات على وجنتيها وفوق حاجبيها مسحة من الطيبة المتناهية، وركزت انظارها على ابنها وراحت تنهد طوال الوقت. كانت تتحرق إلى معرفة المدة التي سيقضيها بين ظهرانيهم، ولكنها تخشى أن تسأله عن ذلك. فكرت في نفسها: «ماذا لو قال يومين؟!» - وكاد قلبها يتوقف عن الوجدان. بعد تناول المقليات اختفى فاسيلي ايفانوفيتش لحظة، ثم عاد يحمل قنينة شمبانيا مفتوحة وهتف قائلاً: «مع أننا نعيش في الريف البعيد فلدينا ما نسلي أنفسنا به في المناسبات!». صب الشمبانيا في ثلاث كؤوس كبيرة وقدم صغير ورفع نخب «الزاترين الكريمين» وتجرع كأسه دفعة واحدة كما يفعل العسكريون وارغم آرينا فلاسيفنا على احتساء القدح حتى الثمالة. وعندما جاء دور المربي رأى اركادي الذي لا يطيق أي شيء سكري أن من واجبه أن يتذوق اربعة انواع مختلفة كانت قد اعدت مؤخرأ، لا سيما وأن بازاروف رفض المربي رفضاً قاطعاً ودخن سيجارة في الحال. ثم ظهر على المائدة الشاي مع القشدة والزبدة والبسكويت. وبعد ذلك اقتاد فاسيلي ايفانوفيتش الجميع إلى البستان للتمتع بجمال المساء. وعندما مروا بأحد المقاعد همس لاركادي:

- في هذا المكان اهوى التفلسف وامتع بغروب الشمس كما يليق بالنسك. وهناك، على مسافة أبعد، غرست عدداً من الاشجار المحببة إلى هوراس.

فسأل بازروف الذي انصت إليه:

- اية اشجار تلك؟

- أنها بالطبع... الاقاصيا.

بدأ بازروف يتشاءب، فقال فاسيلي ايفانوفيتش:

- اعتقد أنه حان الوقت للرحالتين كي يعانقا مورفيوس^(٥٥).

فقال بازروف على الفور:

- أي حان الوقت للنوم! هذا رأي صائب. فقد حان الوقت حقاً.

ودع أمه قبلها في جبينها وعانقته هي أيضاً، ثم رسمت علامة الصليب خلسة، من وراء ظهره، ثلاث مرات. رافق فاسيلي ايفانوفيتش اركادي إلى غرفته وتمنى له «استجماماً هنيئاً كالذي تذوقته أنا عندما كنت في عمركم السعيد». وبالفعل فقد غط اركادي في نوم هادئ في غرفة الملابس التي تفوح فيها رائحة التعناع وكان جدجدان يتناوبان الصرير على نحو منوم ورائ المدفأة. ترك فاسيلي ايفانوفيتش اركادي وتوجه إلى مكتبه فاتكأ على الاريقة عند رجلي ابنه. كان ينوي التحدث معه، ولكن بازروف أبعدته على الفور وقال أنه راغب في النوم، بينما لم يغمض له جفن حتى الصباح. فتح عينيه باتساع وصار يحدق في الظلمة حانقاً: فلم تكن لذكريات الطفولة سلطة عليه، زد على ذلك أنه لم يتخلص بعد من الانطباعات المريرة الأخيرة. وصلت آرينا فلاسيفنا وابتهلت في البداية

(٥٥) - اله الاحلام في الميثولوجيا اليونانية. - المترجم.

ما شاءت، ثم تحدثت لأمد طويل جداً مع انفيسوشكا التي وقفت متسمة أمام سيدتها وغرزت فيها عينها الوحيدة وعرضت عليها بهمس سحري كل ملاحظاتها وآرائها بخصوص يفغيني فاسيليفيتش. ألم الدورار برأس العجوز من الفرحة والنيذ ودخان السجائر، وحاول زوجها أن يتكلم معها، ولكنه صرف النظر عن ذلك فلوح بيده يائساً.

آرينا فلاسيفنا نبيلة روسية حقاً من نبيلات الماضي. وكان ينبغي أن تعيش قبل مائتي عام في عهد موسكو القديمة. فهي متدينة للغاية ورقيقة الشعور، تؤمن بكل أنواع الفأل والعرافة والتعاويذ والاحلام، وتؤمن بالدرأويش والجن والعفاريت، وبمصادفات السوء وعين الحسود والادوية الشعبية وملح الخميس، وبقرب حلول نهاية العالم، وتعتقد أن محصول الحنطة السوداء يكون جيداً إذا لم تطفأ الشموع أثناء صلاة الليل في عيد الفصح، وأن الفطر لا ينمو بعد أن تراه عين الإنسان، وأن الشيطان يحوم حول المياه، وأن هناك بقعة من الدم على صدر كل يهودي. كانت تخشى الفئران والافاعي والضفادع والعصافير والعلق والرعد والماء البارد وهبوب الريح، والجياد والماعز والاشخاص المغر والقطط السود، وتعتبر الجداجد والكلاب حيوانات نجسة، ولا تأكل لحم العجول والحمام والارنب والسرطان والجن والبطيخ الأحمر، لأن البطيخ المفتوح يذكرها برأس يوحنا المعمدان. وما كانت لتستطيع الكلام عن المحار بدون ارتعاش. كانت نهمة أكولاً، ولكنها تلتزم بالصيام كل الالتزام. وكانت تنام عشر ساعات في اليوم، ولا تنام مطلقاً إذا داهم الصداع فاسيلي ايفانوفيتش. ولم تقرأ أي كتاب ما عدا «الكسيس، أو كوخ في الغاب». وكانت تحبر رسالة واحدة أو رسالتين لا أكثر في العام. لكنها تجيد تدبير الامور المنزلية وتجفيف الفاكهة واعداد المربى، مع أن يدها لم تمس شيئاً، ومع أنها لا تتحرك من مكانها عموماً إلا بشق الانفس. كانت آرينا فلاسيفنا في منتهى الطيبة، ولم تكن غبية أبداً على طريقته الخاصة. فهي تعرف

أن في الكون اسياً يجب أن يأمر وأناساً بسطاء يجب أن يخدموا،
ولذلك لا تستكف عن التزلف ولا عن الركوع لحد ملامسة الأرض،
ولكنها تعامل مرئوسيتها بلطف ووداعة، ولا تترك أي متسول دون أن
تصدق عليه، ولا تلوم أحداً على الاطلاق، مع أنها تحب الخوض في
مناقشة سلوك الناس. كانت في شبابها مليحة للغاية، وكانت تعزف على
الكلافيكورد^(٥٦) وتكلم الفرنسية بعض الشيء، ولكنها أصبحت بدينة
ونسيت الموسيقى واللغة الفرنسية خلال الرحلات طوال سنين عديدة
مع فاسيلي ايفانوفيتش الذي تزوجته مرغمة. وهي تحب ابنها حباً جماً
وتخشاه كل الخشية. وقد تخلت عن ادارة الضيعة لزوجها، فلم تعد تهتم
بشيء فيها، سوى أنها صارت تتأوه وتنش بمنديلها وترفع حاجبها أعلى
فأعلى مرتبة كلما شرع عجوزها يتحدث عن التحويلات المرتقبة وعن
مشاريعه. كانت متريية تتوقع على الدوام شراً مستطيراً، وسرعان ما تنهمر
دموعها حالماً تذكر شيئاً محزناً... أن عدد أمثال هؤلاء النسوة يتضاءل
الآن. والله وحده يعلم ما إذا كان يجب أن نفرح لذلك أم لا!

٢١

نهض اركاذي من الفراش وفتح النافذة على مصراعها. وأول ما
وقعت عليه نظاره هو... فاسيلي ايفانوفيتش. كان العجوز في جبة
شرقية، مما يرتديه اهالي بخاري، وراح يجهد في البستنة متمنطقاً بمنديل.
وعندما لمح ضيفه الشاب بادره مستنداً إلى الرفش:

— عم صباحاً! كيف قضيت ليلتك؟

(٥٦) — آلة موسيقية وترية مزودة بلوحة مفاتيح. تعتبر الاصل الذي تطورت عنه
البيانو. — المترجم.

- على اروع ما يكون.

- أما أنا فكما ترى، مثل شنشينا توس، أعد جنينة للشلجم الافلي المتأخر. لقد حل الآن، والحمد لله، زمان يتعين فيه على كل شخص أن يهيئ الاغذية لنفسه بيديه، فلا مجال للتعويل على الآخرين: ينبغي للمرء أن يعمل بنفسه. ويعني ذلك أن جان جاك روسو محق. كان بوسعك، يا سيدي، أن تراني قبل نصف ساعة بهيئة أخرى تماماً. فقد تشكت احدي الفلاحات من الزحار - كما يسمونه، أي من الدزنتري - كما نسميه نحن، ففعلت لها... كيف لي أن أجد التعبير الافضل؟! حققتها بالافيون، ثم اقتلعت سن امرأة أخرى واقترحت عليها استخدام الأثير... لكنها رفضت. أنني افعل ذلك كله (بجانا)^(٥٧) كهاو. وبالمناسبة ليس في ذلك ما يثير العجب، فأنا (إنسان جديد)^(٥٨) من الدهماء ولست، كزوجتي الكريمة، من النبلاء ابا عن جد... هلا تفضلت إلى هنا، في الظل، لتنشق النسيم العليل قبيل شاي الصباح!؟

خرج اركادي إليه فقال فاسيلي ايفانوفيتش رافعاً يده بالتحية، على الطريقة العسكرية، إلى الطاقية العتيقة المتسخة التي تغطي رأسه:

- أهلاً وسهلاً بك مرة أخرى! لقد تعودت أنت، كما اعلم، على الابهة وأسباب الراحة، ولكن حتى عظماء العالم لا يستنكفون من قضاء بعض الوقت تحت سقف كوخ.

فقال اركادي بصوت مرتفع:

- عفواً، أين أنا من عظماء العالم؟ ثم أي لم أتعود على الابهة.

فاعترض فاسيلي ايفانوفيتش بتأدب:

(٥٧) - في الأصل باللاتينية gratis.

(٥٨) - في الاصل باللاتينية homo novus.

- كلا، كلا. فمع أي محال الآن إلى الارشيف، ولكنني عشت في المجتمع الراقي أيضاً، وأنا أعرف الطير من تحليقه. أنا نفساني وسيمائي على طريقتي الخاصة. واتجاسر على القول بأي لو لم أملك هذه الموهبة لانتهى أمري من زمان، ولسحقت أنا الإنسان الصغير. وأقول لك بلا محاباة أن الصداقة التي الحظها بينك وبين ولدي تبعث السرور حقاً في نفسي. لقد رأيته الآن. فهو، كعادته، وهذا أمر معروف لك ولا بد، قد نهض مبكراً وراح يجوب الاطراف. اسمح لي أن استفسر منك: هل تعرفت على ابني يفغيني من زمان؟

- منذ الشتاء المنصرم.

- هكذا اذن. اسمح لي أن اسألك مرة أخرى، ولكن ألا تجلس؟ اسمح لي كأب أن اسألك: ما هو رأيك بابني يفغيني؟
فأجاب اركادي بحماس:

- ابنك واحد من اروع الناس الذين تيسر لي أن اقابلهم في أي وقت. اتسعت عينا فاسيلي ايفانوفيتش فجأة، واحمرت وجنتاه بعض الشيء. وسقط الرفش من يديه. ثم واصل كلامه:
- هكذا اذن، تتصور...

فعاجله اركادي:

- أنا واثق أن مستقبلاً عظيماً ينتظر ابنك، وأنه سيرفع رأسك. تأكدت من ذلك منذ لقائنا الأول.

- كيف... كيف كان ذلك؟ - نطق فاسيلي ايفانوفيتش هذه الكلمات بالكاد. وانفجرت شفثاه عن ابتسامة عريضة معجبة لم تفارقهما بعد ذلك.

- تريد أن تعرف كيف التقينا؟

- نعم... وعلى العموم...

راح ار كادي يتحدث عن بازاروف بحماس واعجاب أكبر مما في ذلك المساء عندما رقص المازور كما مع اودينتسوفاً.

استمع إليه فاسيلي ايفانوفيتش واطال الاستماع، ثم تمخض ولف المنديل بكلتا يديه وسعل، ونقش شعره، وأخيراً لم يتمالك نفسه فانحنى على ار كادي وقبله في كتفه. ثم قال دون أن تفارقه ابتسامته:

– افرحتني جداً. وعلي أن أقول لك باني... أوله ابني، ناهيك عن عجوزي، فهي أم، وهذا أمر معروف، لكنني لا أجروء بحضوره على أن اعرب عن مشاعري لأنه لا يحب ذلك. فهو خصم لكل العواطف، حتى أن الكثيرين يلومونه على تصلب الطباع هذا ويرون فيه علامة الغرور أو انعدام الشعور، إلا أن أمثاله لا يمكن أن يقاسوا بالمعيار المعتاد، أليس كذلك؟ وعلى سبيل المثال فأن شخصاً غيره لا بد وأن ينفق اموال والديه بلا انقطاع، أما هو فلم يأخذ منا، والله ولا كوبيكاً زائداً، هل تصدق؟
فقال ار كادي:

– أنه إنسان نزيه غير اناني.

– غير اناني بالفعل. وأنا، يا ار كادي نيكولايفيتش، لا أولهه فحسب، بل افتخر به. ومن دواعي اعتزازي أن ترد ضمن سيرة حياته. عمر الزمن الكلمات التالية: «ابن طيب عسكري بسيط ولكن اباه استطاع أن يكتشف مواهبه مبكراً ولم ييخل بشيء من اجل تربيته...» – قال العجوز ذلك بصوت متقطع.

فشد ار كادي على يده.

وبعد فترة صمت سأل فاسيلي ايفانوفيتش:

– ماذا ترى؟ سيبلغ الشهرة التي تتبأ بها له ليس في مجال الطب، أليس كذلك؟

- ليس في مجال الطب طبعاً، مع أنه سيكون في هذا الميدان أيضاً واحداً من المع العلماء.

- ففي أي مجال، يا اركادي نيكولايفيتش؟

- من الصعب التكهن بذلك حالياً، ولكنه سيكون شهيراً.

- سيكون شهيراً! - كرر العجوز وغرق في تأملاته.

مرت انفيسكوشكا ازاءهما حاملة طبقاً كبيراً من توت العليق اليناع

وقالت:

- امرتي آرينا فلاسيفنا أن ادعوكما لاحتساء الشاي.

فانتفض فاسيلي ايفانوفيتش وقال:

- هل سيقدم التوت مع القشدة الباردة؟

- أجل، يا سيدي.

- فلتكن باردة حقاً. لا تعبأ بالرسميات، يا اركادي نيكولايفيتش،

خذ المزيد. لماذا لم يحضر يفغيني بعد؟

- أنا هنا - دوى صوت بازاروف الذي اطل من غرفة اركادي.

التفت فاسيلي ايفانوفيتش على عجل وقال:

- أها! اردت أن تزور رفيقك، ولكنك تأخرت (يا صديقي) (٥٩)، فقد

كانت لنا معه محادثة طويلة. أما الآن فينبغي أن نذهب لاحتساء الشاي:

أمك تدعوننا. وبالمناسبة فأنا أريد أن أتحدث معك.

- عم؟

- في القرية فلاح يعاني من اليرقان...

(٥٩) - في الأصل باللاتينية amice.

– أي داء الصفر، أليس كذلك؟

– بلى، أنه يعاني من يرقان مزمن يكاد يكون عضالاً. وقد نصحته بتناول حشيشة القنطريون وعشبة القديس يوحنا وارغمته على أكل الجزر واعطيته شيئاً من الصودا، ولكن ذلك كله مجرد ادوية مسكنة، يجب اعطاؤه شيئاً ناجعاً. ومع أنك تسخر من الطب فأنا واثق من أنك يمكن أن تقدم لي نصيحة حصيفة. لكننا سنتكلم عن ذلك فيما بعد، أما الآن فهيا لتناول الشاي.

نهض فاسيلي ايفانوفيتش نشيطاً من المصطبة وانشد بيتين من «روبرت»:

سنشرع لنا قانونا، قانوناً

لعيشة سعي... سعي... سعيدة!

فعلق بازاروف مبتعداً عن النافذة:

– يا لها من قدرة رائعة على الحياة؟

انصف النهار. وبدت الشمس لافحة من وراء حجاب رقيق من الغيوم البيضاء. كان الصمت يلفح كل شيء، ما عدا الديكة التي تتصايح بحماسة في القرية مثيرة في فؤاد كل من يسمعها أحساساً غريباً بالنعاس والضجر. وفي مكان ما في أعالي الأشجار رن، كهتاف متباك، نعيق نسر فتسي لجوج. اضطجع اركادي وبازاروف في ظل كومة غير عالية من الاعشاب المجففة، بعد أن افترشا حزمتين من حشيش يابس مخشخش احتفظ بشيء من خضرته وعبقه.

قال بازاروف:

– شجرة الحور تلك تذكرني بطفولتي، فهي تنمو على طرف الحفرة التي تبقت من المستودع القرميدي. كنت آنذاك واثقاً من أن لدى الحفرة

والشجرة طلسماً خاصاً: فلم اشعر بالضجر أبداً قربهما. ولم أكن أفهم
آنذاك أنني لم أشعر بالضجر لأنني كنت طفلاً. أما الآن فأنا إنسان راشد ولا
يوثر علي الطلسم.

فسأله اركادي:

- كم من الوقت قضيت هنا؟

- زهاء عامين متتاليين. وفيما بعد صرنا نأتي إلى هنا بين حين وآخر.
فقد عشنا حياة الترحل، إذ كنا نجوب المدن أكثر من غيرها.

- وهل الدار مبنية من زمان؟

- نعم، بناها جدي، والدامي.

- ومن هو جدك هذا؟

- الشيطان وحده يعلم. كان رائداً على ما اعتقد، خدم عند
سوفوروف، وكان يتحدث دوماً عن عبور الألب. كان يكذب ولا بد.
- ولذلك علقت صورة سوفوروف في غرفة الاستقبال لديكم. أنني
أحب الدور الصغيرة العتيقة والدافئة مثل داركم، ثم أن لها رائحة خاصة
متميزة.

فقال بازاروف متثابراً:

- يفوح منها زيت القناديل والهندقوق. أما عن الذباب في هذه الدورة
الجميلة... فحدث ولا حرج!

بعد فترة قصيرة سأل اركادي:

- قل لي هل كنت تتعرض لمضايقات في الطفولة؟

- أنت ترى والدي. أنهما ليسا متشددين.

- أنت تحبهما يا يفغيني، أليس كذلك؟

- طبعاً، يا اركادي!

- أنهما متميان بك!

لاذ بازروف باذيال الصمت، ثم دس يديه تحت رأسه وقال أخيراً:

- هل تحزر بم افكر؟

- كلا. بم؟

- افكر أن والدي يعيشان بهناء! فأبي في الستين وهو مشغول باشغاله ويتحدث عن الادوية «المسكنة» ويعالج الناس ويتسامح مع الفلاحين، وباختصار، فهو يعيش حياة مرحلة. وأمي تعيش بهناء أيضاً. فيومها مشحون بالمشاغل والتأوهات والتحسرات إلى درجة لا تترك لها متسعاً من الوقت للتقاط النفس. أما أنا...

- وأنت؟

- أما أنا فأفكر: ها أنا ذا اضطجع هنا في ظل الكومة... والمحل الضيق الذي اشغله هنا ضئيل جداً بالمقارنة مع ما تبقى من المكان حيث أنا غير موجود ولا شأن لأحد بي، ثم أن ذلك القسم من الزمن الذي سأعيشه ضئيل جداً بالمقارنة مع الخلود حيث لم أكن موجوداً ولن أوجد... في حين أن هذه الذرة، هذه النقطة الهندسية، يدور فيها دم ويعمل فيها دماغ يريد شيئاً ما... فيا للفضاعة! ويا للسخف!

- عفواً! أن ما ذكرته ينطبق عموماً على جميع البشر... فعاجله بازروف قائلاً:

- أنت على حق. اردت أن أقول أنهما. أعني والدي، مشغولان ولا يفكران بتفاهتهما، وهي لا تزكم انفيهما... أما أنا... فلا أحس بغير الضجر والغضب.

- الغضب؟ لماذا الغضب؟

- لماذا؟ كيف لماذا؟ فهل نسيت؟

- أنني أتذكر كل شيء. ومع ذلك لا اعترف بحقك في الغضب. أنت تعيس، لا اجادل في ذلك، ولكن...

- آ! يبدو لي أنك، يا ار كادي نيكولايفيتش، تفهم الحب مثل جميع الشباب العصريين: تعالي، تعالي يا دجاجة! ولكن حالما تبدأ الدجاجة بالاقتراب تطلق أنت ساقيك للريح! لست من هذا الطراز. ولكن كفانا كلاماً عن ذلك. فمن العيب الكلام عما نحن عاجزون عنه. - استدار على جنبه - أها! يا لشجاعة هذه النملة التي تجر ذبابة محتضرة. واصلي عملك، يا اختي، واصليه! فبالرغم من مقاومتها انتهزي فرصة كونك، كحيوان، تتمتعين بحق عدم الاعتراف بمشاعر المؤاساة، خلافاً للإنسان الذي يحطم نفسه بنفسه!

- لا يليق بك هذا الكلام يا يفغيني! فمتى حطمت أنت نفسك؟

رفع بازاروف رأسه وقال:

- أنني افتخر بذلك. فما دمت لم احطم نفسي بنفسي، فلن تحطمني امرأة. هذا هو القول الفصل! خلاص! ولن تسمع مني كلمة واحدة عن ذلك بعد الآن.

ظل الصديقان صامتين بعض الوقت.

ثم طقق بازاروف يتكلم:

- أجل، الإنسان كائن غريب الاطوار. عندما تلقي نظرة جانبية، عن بعد، على الحياة الصماء التي يعيشها «الآباء» هنا يخيل إليك أنه لا أفضل منها! فيكفي أن تأكل وتشرب حتى تتصور بأنك تسلك السلوك الاصبوب والاكثرتعقلاً. كلا! الضجر نسيستولي عليك. وبود المرء أن يعاشر الناس، ولو اضطر إلى لومهم، فلا يد من المعاشرة.

فقال ار كادي متأملاً:

- ينبغي تنظيم الحياة بحيث تكون لكل لحظة فيها اهمية.
- لا اعتراض على ذلك. فالشيء المهم حلوه بالرغم من الزيف الذي يرافقه أحياناً. ويمكن التسامح حتى مع الاشياء التافهة... ولكن المشاحنات... المشاحنات هي الطامة الكبرى.
- المشاحنات غير موجودة بالنسبة للإنسان إذا كان لا يريد الاعتراف بها طبعاً.
- احم... لقد قلت الآن عبارة مبتذلة مضادة.
- ماذا؟ ما الذي تقصده بهذه التسمية؟
- إليك ما اقصده: إذا قلنا، مثلاً، أن التعليم نافع، فتلك عبارة مبتذلة، وإذا قلنا أن التعليم ضار، فتلك عبارة مبتذلة مضادة، فهي، حسب الظاهر، أكثر اناقة، ولكنها نفس الشيء في الواقع.
- ولكن أين الحقيقة؟ وفي أي جانب هي؟
- أين؟ سأجيبك كالصدي: أين الحقيقة؟
- مزاجك سوداوي اليوم يا يفغيني.
- حقاً؟ لا بد وأن الشمس قد لفحتني، ثم أنني أكلت الكثير من توت العليق.
- اذن فلا بأس بأن تغفو قليلاً.
- أجل. ولكن لا تنظر الي: فأن وجه أي إنسان يبدو بليداً أثناء النوم.
- هل تعبر بالألما يفكر به الآخرون عنك؟
- لا ادري بماذا اجيبك. فالإنسان الحقيقي لا ينبغي أن يفكر بذلك. والإنسان الحقيقي ليس هو الذي يفكر فيه الآخرون، بل هو الذي

يخضعون له أو يكرهونه.

- يا للغرابة! فأنا لا اكره احداً - قال اركادي بعد أن تفكر قليلاً.

- أما أنا فأكره كثيرين. أنت شخص رقيق رخو العود، فأين منك الكره؟! أنك خجول لا تعول على نفسك كثيراً...

- وأنت؟ - قاطعه اركادي - هل تعول على نفسك؟ وهل تقدر نفسك كثيراً؟

لزم بازاروف الصمت فترة. ثم قال متمهلاً:

- عندما أقابل شخصاً لا يستسلم لي فسوف أغير رأيي عن نفسي.
أما الكره فأنا، مثلاً، قلت اليوم حينما مررنا ببيت مختار القرية فيليب - وهو بيت أبيض جميل - قلت أن روسيا ستبلغ الكمال عندما تكون لدى أبسط فلاح مثل هذه البناية، وأن على كل منا أن يساعد في ذلك... عند ذاك كرهت أنا هذا الفلاح البسيط، فيليب أو سيدور، الذي يتعين علي أن أبذل جهدي من أجله، أما هو فلن يقدم الي حتى كلمة شكر... ثم ما حاجتي الي شكره؟ حسناً، سيعيش هو في بيت أبيض، وسينبت على قبوري الشوك، وماذا بعد؟

- كفارك يا يفغيني... من يستمع إليك اليوم يتفق مرغماً مع أولئك الذين يلوموننا على انعدام المبادئ.

- أنت تتكلم مثل عمك. ليست هناك مبادئ اطلاقاً، بل هناك الاحساسات، وكل شيء متوقف عليها. وأنت لم تدرك ذلك حتى الآن.

- كيف ذلك؟

- أنه كذلك بالذات. خذني مثلاً: أنني أمسك باتجاه الرفض، وذلك بحكم الاحساسات. فالرفض يبعث السرور في نفسي، ودماعي مبني على هذا الاساس، ذلك كل شيء! فما الذي يجعل الكيمياء تعجبني؟

وما الذي يجعلك تحب التفاح؟ - ذلك أيضاً بحكم الاحساسات. فالأمر سواء. ولن يتغلغل البشر إلى أعماق من ذلك أبداً. ولن يقول ذلك أي كان. وحتى أنا لن أقوله لك مرة أخرى.

- والنزاهة هل هي احساس أيضاً؟

- كيف لا؟!

- يفغيني! - شرع ار كادي يتكلم بصوت حزين. فقاطعه بازاروف:

- آ؟ ماذا؟ لم يعجبك ذلك؟ كلا، يا أخي! فطالما قررت أن تحش كل شيء فحش رجلك أيضاً!.. علي وعلى اعدائي يارب! ولكننا تمادينا في التفلسف. قال بوشكين «الطبيعة تبعث صمت الكرى».

فاعترض ار كادي:

- لم يقل بوشكين شيئاً من هذا القبيل مطلقاً.

- لم يقل. كان باستطاعته وكان يتعين عليه كشاعر أن يقول ذلك. وبالمناسبة فقد ادى الخدمة العسكرية ولا بد.

- لم يكن بوشكين عسكرياً أبداً!

- كيف لا؟ فعلى كل صفحة لديه تجد «إلى المعركة! إلى المعركة! دفاعاً عن كرامة روسيا!».

- وما هذه الاساطير التي تبتدعها؟! ذلك افتراء.

- افتراء؟ فليكن! أبهذه الكلمة تريد أن تخيفني؟! مهما افترينا على الإنسان فهو في الواقع يستحق أكثر من ذلك بعشرين مرة.

- من الأفضل أن ينام! - قال ار كادي بزعل.

فأجاب بازاروف:

- بكل سرور.

يبد أن النعاس لم يراودهما. واجتاحت فؤاديهما شعور يكاد يكون
عدائياً. وبعد خمس دقائق فتحا عيونهما وتبادلا النظرات صامتتين.

ثم قال اركادي فجأة:

- انظرا! انفصلت ورقة اسفندان جافة وها هي تسقط على الارض
بشكل يشبه كل الشبه تحليق الفراشة. أفليس ذلك غريباً؟ أن أكثر الامور
كآبة وموتاً شبيهه بأكثرها مرحاً وحياء. فهتف بازاروف:

- يا صديقي اركادي نيكولا يفيتش! ارجو منك شيئاً واحداً: لا تتكلم
على نحو جميل.

- أنني أتكلم بقدر استطاعتي... ثم أن ذلك تعسف في آخر الامر.
تبادرت إلى ذهني فكرة فما الذي يمنعني من أن أعرب عنها؟

- هكذا اذن. فما الذي يمنعني أنا أيضاً من أن أعرب عن فكرتي؟ أنني
أرى أن الكلام على نحو جميل أمر معيب.

- فما هو الأمر غير المعيب؟ الشتائم؟

- هه! يبدو لي أنك تنوي أن تقتفي حقاً أثار عمك العزيز. فما اشد
فرحة ذلك الابله لو أنه سمعك!

- بم وصفت عمي بافل بتروفيتش؟

- وصفته بما يستحق: بالابله.

- ذلك أمر لا يطاق! - هتف اركادي.

فقال بازاروف بهدوء:

- أها! ثارت فيك مشاعر القربى. لقد لاحظت أنها راسخة في الناس
بتصلب وعناد. فالإنسان مستعد للتخلي عن كل شيء، ولمفارقة كل
الاوهام، ولكن الاعتراف، مثلاً، بأن أخاه الذي يسرق مناديل الغير لص

أنا هو فوق طاقته. وبالفعل، فهل يمكن أن لا يكون أخي عبقرياً إذا كان هو أخابي بالذات؟ ...

فاعترض اركادي منفِعلاً:

- أن ما أثار في هو شعور العدالة البسيط، وليس مشاعر القربى، ولكنه طالما أنك لا تفهم هذا الشعور وليس لديك هذا الاحساس، فليس باستطاعتك أن تحكم عليه.

- وبعبارة أخرى: أن اركادي كيرسانوف فوق مستوى فهمي. لذا اطأطي رأسي والوذ بالصمت.

- كفاك، ارجوك يا يفغيني. سوف نتشاجر في آخر الأمر.

- آه يا اركادي! اعمل معروفاً، فلتشاجر مرة كما يرام، حتى النفس الأخير، حتى الابداء.

- يخيل الي أننا، على هذا النحو، سننتهي الى ...

فعاجله بازاروف:

- ... أن نتلاكم؟ أليس كذلك؟ لا بأس أن نتلاكم هنا، على العشب، في هذا الجو الشاعري بعيداً عن العالم وعن أنظار الناس. ولكنك لن تقوى علي. فسوف اتشبت بنحرك على الفور ...

نشر بازاروف اصابعه الطويلة المتصلبة ... واستدار اركادي واستعد للمقاومة مازحاً ... لكن وجه صديقه بدا له شريراً للغاية وخيل إليه أن خطراً فعلياً يتهدده في ابتسامة شفوية الساخرة المصطنعة وفي عينيه المتوقدتين، مما جعله يحس بوجل لا ارادي ...

- أها! هنا اختفيتما! - دوى في تلك اللحظة صوت فاسيلي ايفانوفيتش. جاء الطبيب العسكري العجوز مرتدياً سترة قطنية بيتية الصنع وقبعة من القش بيتية الصنع أيضاً - بحثت عنكما طويلاً ... ولكنكما

اخترت ما مكاناً ممتازاً وانشغلتما بعمل رائع، حيث تتطلعان إلى «السماء»
راقدين على «الأرض»... أفلا ينطوي ذلك على أهمية خاصة؟!
فقال بازاروف:

- أنني لا أنظر إلى السماء إلا عندما تتناوبي عطسة. - ثم التفت إلى
اركادي واطاف هامساً: - من المؤسف أنه حال بيننا.

فهمس اركادي وشد على يد صديقه خلسة:

- كفاك. فأن أية صداقة لن تصمد طويلاً لمثل هذه الاشتباكات.

فقال فاسيلي ايفانوفيتش آنذاك وهو يهز رأسه وقد استند بيديه
المتصالبتين على عصا معقوفة بتفنن صنعها بنفسه ووضع مقبضاً لها
بشكل رأس تركي معمم.

- أنني اتطلع إليكما يا عزيزي ولا اشبع منكما. فكم فيكما من
قوة وشباب مزدهر وقابليات ومواهب! انكما... مثل كاستوروس
وبولوكس^(٦٠) بالضبط!

فقال بازاروف:

- ها قد استشهدت بالميثولوجيا! واضح تماماً أنك كنت في حينه
متضلعاً في اللاتينية! فلقد فزت، على ما اتذكر، بالميدالية الفضية لقاء
الانشاء، أليس كذلك؟

- توأمان بالضبط! - قال فاسيلي ايفانوفيتش.

- ولكن كفاك رقة، يا ابتي.

فقال العجوز:

(٦٠) ابنا زيوس، توأمان. - المترجم.

- ذلك مسموح به مرة في العمر. وبالمناسبة فقد بحثت عنكما أيها السيدان لا لأعبر لكما عن المجاملات، بل لأخبركما، أولاً، بأننا سنتناول طعام الغداء قريباً، وثانياً، أردت أن احذرك يا يفغيني... فأنت انسان ذكي تعرف الناس، والنساء كذلك، لذا سوف تتسامح... ارادت أمك أن تؤدي مراسيم الصلاة بمناسبة مجيئك. ولا تتصور بأني أدعوك لحضور هذه المراسيم، فق انتهت، ولكن الاب الكسي...

- خوري؟

- أجل. الخوري سوف... يتغدى عندنا... لم أكن اتوقع ذلك، حتى أني نصحته بعدم... ولكني لم انجح... فهو لم يفهمني... ثم أن آرينا فلاسيفنا... علماً بأنه إنسان متعقل وفي منتهى الطيبة.

فسأل بازاروف:

- لن يأكل حصتي من الغداء، أليس كذلك؟

فقال فاسيلي ايفانوفيتش ضاحكاً:

- كيف؟

- أنا لا اطالب، اذن، بأكثر من ذلك. وأنا مستعد للجلوس إلى المائدة مع أي كان.

عدل فاسيلي ايفانوفيتش قبعته، وقال:

- أنا واثق مسبقاً من أنك أعلى مستوى من جميع الخرافات. فحتى أنا العجوز في سني الثانية والستين اخلو من تلك الخرافات. (لم يتجرأ فاسيلي ايفانوفيتش على الاعتراف بأنه نفسه رغب في اداء الصلاة... كان متديناً لا أقل من زوجته) أما الأب الكسي فقد كان راغباً أشد الرغبة في التعرف عليك. وسوف يعجبك، سترى ذلك بنفسك. وهو لا يعتذر عن لعب الورق... حتى أنه... وهذا سر بيننا... يدخن غليوناً.

- ما العمل؟ سنلعب القمار بعد الغداء وسوف أغلبه.

- هيه، من يعيش يرا! فتلك مسألة فيها نظر.

- ماذا؟ هل تستعيد ذكريات الماضي؟ - سأل بازاروف بنبرة متعمدة.

فاحمرت وجنتا فاسيلي اي فانوفيتش البرنزيتان على نحو مبهم وقال:

- عيب عليك يا يفغيني... ما فات فات. نعم، أنا مستعد للاعتراف

أمام اركادي نيكولايفيتش بأنني كنت مولعاً بذلك في فتوتي. نعم.

ولكنني دفعت الثمن! ما أشد حرارة الجو. اسمح لي أن أجلس قربكما.

فلن اثقل عليكم، أليس كذلك؟

- مطلقاً - اجاب اركادي.

ارمى فاسيلي اي فانوفيتش على العشب متأوهاً، ثم طفق يتكلم:

- مضجعكما الحالي، يا سيدي الجليلين، يذكرني بحياتي في المخيمات

العسكرية ومراكز التضמיד في مكان ما قرب اكوام العشب. وكان ذلك

في أحسن الاحوال - وندت عنه تنهدة - فلقد اجتزت كثيراً من المحن

في حياتي. وعلى سبيل المثال احدثكما، إذا سمحتما، عن وباء الطاعون

في بيسارابيا.

فعاجله بازاروف قائلاً:

- ذلك الذي منحت وسام فلاديمير من أجله؟ نعرف ذلك جيداً...

وبالمناسبة فلماذا لا تحمل الوسام؟

- قلت لك بأني لا اعبأ بالخرفات - دمدم فاسيلي اي فانوفيتش (وهو

الذي أمر يوم أمس فقط بانتزاع شريط الوسام الاحمر من سترته)، وراح

يتحدث عن وباء الطاعون. ثم همس لاركادي بغتة وهو يشير إلى

بازاروف وقد غمز بطيبة قلب: - لقد غفا - ثم اضاف بصوت عال: -

يفغيني! انهض! فلنذهب لتناول الغداء...

اتضح أن الاب الكسي، وهو رجل مكتنز مرموق بشعره الكثيف المشط بدقة وزناره المطرز على غفارته الحريرية البنفسجية، يتحلى بقدر كبير من المهارة والفظنة. فقد بادر إلى مصافحة اركادي وبازاروف وكأنه يدرك مسبقاً بأنهما ليسا بحاجة إلى تبريكاته، وقد تصرف عموماً بلا تكلف.

فلم يفضح نفسه ولم يمس الآخرين. وقد سخر على نحو مناسب من اللغة اللاتينية المدرسية ودافع عن اسقفه، وارتشف قدحين من النبيذ ورفض القدرح الثالث. وتناول من اركادي سيجاراً ولكنه لم يدخنه، بل قال انه سيأخذه معه إلى البيت. كان شيء واحد لا يعث على الارتياح فيه، وهو أنه يرفع يده ببطء وحذر بين حين وآخر لیتصيد الذباب على وجهه، ثم يهرسه أحياناً. وقد جلس إلى المائدة الخضراء معبراً عن ارتياحه باعتدال، وانتهى إلى أن غلب بازاروف روبلين وخمسين كوبيكاً ورقية: فأن عائلة آرينا فلاسيفنا لم تكن تعرف الحساب بالنقود الفضية... جلست الأم كعادتها ازاء ابنها (و لم تساهم في لعب الورق) فاسندت خدها بقبضتها كالسابق، ولم تكن تهض إلا لكي تأمر باحضار صنف جديد من اصناف الطعام. كانت تخشى مداراة بازاروف الذي لم يبدو منه ما يشجعها على المداراة، ثم أن فاسيلي ايفانوفيتش نصحها هو الآخر بأن لا «تزعج» ابنها كثيراً. وأكد لها «أن الشباب لا يرغبون في ذلك» (ولا داعي للكلام عن غداء ذلك اليوم: فقد ارتحل تيموفيتش بنفسه منذ الفجر لكي يفتني لحم بقر من نوع تشيركاسي خاص، وتوجه مختار القرية إلى جهة أخرى لاقتناء سمك البربوط والراف والسرطان، وتسلمت الفلاحات اثنتين واربعين كوبيكاً نحاسياً لقاء الفطر وحده). بيد أن عيني آرينا فلاسيفنا المتطلعتين إلى بازاروف على الدوام لم تعبرا عن الولاء والحنان وحدهما: فقد لاحت فيهما كآبة ممزوجة بالفضول والرعب، ولاح فيهما شيء من العتاب الوادع.

وبالمناسبة فقد كان بازاروف في شغل شاغل عن تفحص ما تعبر عنه
عينها امه. فكان نادراً ما يخاطبها وي طرح عليها سؤالاً ما موجزاً. طلب
منها أن تقدم له يدها «كفأل حسن» في لعب الورق، فوضعت يدها
الريقة بهدوء على راحته الواسعة المتصلبة.

وبعد قليل سألته:

- ماذا؟ هل اعانك ذلك؟

فأجاب بابتسامة ساخرة مستهينة:

- أصبح الأمر أسوأ.

فقال الاب الكسي متظاهراً بالتأسف ومسد لحيته الجميلة:

- أنه يجازف كثيراً.

فتدخل فاسيلي ايفانوفيتش الذي لعب بالآس قائلاً:

- تلك قاعدة نابليونية، يا ابانا، قاعدة نابليون.

فقال الاب الكسي وهو يغطي الآس بورقة القشوش الراححة:

- أنها هي التي قادته إلى جزيرة سانت هيلانة^(٦١).

وسألت آرينا فلاسيفنا:

- ألا ترغب في عصير عنب الثعلب، يا ينيوشا؟

فاكتفى بازاروف بأن هز كتفيه.

وفي اليوم التالي قال لأركادي:

- كلا! سارتحل غداً. لقد ضجرت. اريد أن اعمل ولكن العمل هنا

(٦١) منفي نابليون. - المترجم.

مستحيل. سأذهب إلى قريبتكم من جديد، فقد تركت جميع مستحضراتي عندكم. هناك يمكنني أن أنفرد على الأقل. أما هنا فإن أبي يؤكد لي: «مكتبي تحت تصرفك، ولن يشوش عليك أحد»، ولكنه هو بالذات لا يفارقني لحظة. ثم أن انفرادي عنه أمر لا يليق. وأمي هي الأخرى... فأنا اسمعها تنتهد من وراء الجدار، وعندما أخرج إليها لا أجد ما أقوله لها.

فقال اركاوي:

- سوف تتألم هي كثيراً، وهو أيضاً.

- سأعود إليهما مرة أخرى.

- متى؟

- في طريقي إلى بطرسبورغ.

- أنني متأسف لأملك خصوصاً.

- ماذا؟ هل اشترتك بالثمار؟

غض اركاوي بصره.

- أنت لا تعرف أمك جيداً يا يفغيني. فهي ليست امرأة رائعة فقط،

بل هي ذكية جداً في الواقع. تحدثت معي زهاء نصف ساعة صباح اليوم، وكان حديثها حقيقياً ممتعاً.

- لا بد وأنها تحدثت عني طوال الوقت، أليس كذلك؟

- لم يكن الحديث عنك وحدك.

- ربما. أنت أعرف. وما دامت المرأة تستطيع أن تتجاذب أطراف

الحديث طوال نصف ساعة فتلك دلالة حسنة. ومع ذلك سأرتحل.

- لن يكون سهلاً عليك أن تخبرهما بهذا النبأ. فهما يتحدثان دوماً

عما سنفعله هنا بعد أسبوعين.



- ليس سهلاً. كيف اغواني الشيطان أن اتحرش بأبي هذا اليوم؟!
كان قد أمر مؤخراً بضرب أحد فلاحيه العاملين بالجزية، وحسناً فعل.
أجل، أجل، لا تنظر الي مستفظعاً، حسناً فعل فذاك الفلاح لص وسكير
رهيب، لكن أبي لم يكن يتوقع مطلقاً بأني سأسمع بذلك. لقد ارتبك أشد
الارتباك، أما أنا فسوف اضطرر إلى ايلامه زيادة عن ذلك... ولكن لا
بأس! هذا أمر يمكن تحمله.

قال بازاروف «لا بأس!»، ولكنه لم يتجرأ على اشعار فاسيلي
ايفانوفيتش بنيته إلا بعد مرور يوم كامل. فبعد أن ودعه أخيراً في المكتب
قال بتشاؤبة متصنعة:

- آ... كدت انسى أن أقول لك... فليسلوا خيولنا غداً إلى فيدوت
لتستريح عنده^(٦٢).

دهش فاسيلي ايفانوفيتش:

- ماذا؟ هل يغادرنا السيد كيرسانوف؟

- أجل، وأنا معه.

تبدلت سحنة فاسيلي ايفانوفيتش في الحال:

- أنت تنوي السفر؟

- أجل... علي أن أرحل. ارجوك أن تأمرهم بخصوص الخيول.

فقال العجوز متلعثماً:

- حسناً... سنرسل الخيول لتستريح... حسناً... ولكن، ولكن..

كيف ذلك؟

(٦٢) بغية استخدامها فيما بعد بدلا من الخيول المتعبة في منتصف الطريق. - المترجم.

- علي أن أرحل إليه لوقت قصير. وسأعود إلى هنا فيما بعد.

- أجل! لوقت قصير... حسناً - اخرج فاسيلي ايفانوفيتش منديله وتمخط منحياً حتى كاد يلامس الأرض - ما العمل؟ سيكون ذلك... جاهزاً. ظننت أنك ستبقى عندنا... أمداً أطول. فأن ثلاثة أيام... بعد ثلاث سنوات... شيء قليل، قليل، يا يفغيني!

- أقول لك أني سأعود قريباً. من الضروري أن أرحل.

- ما دام ذلك ضرورياً... فما العمل؟ ينبغي أداء الواجب قبل كل شيء... اذن سترسل الخيول، أليس كذلك؟ حسناً. بديهي أننا، أنا وآرينا، لم نتوقع ذلك. فهي قد طلبت زهوراً من جارتها واراقت أن تزين غرفتك. (لم يذكر فاسيلي ايفانوفيتش شيئاً عن أنه كان ينهض مع بزوغ الفجر كل صباح ويجتمع إلى تيموفيتش، وقوفاً، ورجلاه في حذائه دون جوارب، ويخرج باصابعه المرتعشة ورقة نقدية بالية أثر أخرى، فيكلفه باقتناء مختلف المشتريات، مؤكداً بصورة خاصة على الاطعمة والنيبذ الأحمر الذي اعجب به الشباب أشد الاعجاب كما يبدو) الحرية أهم شيء. وتلك هي قاعدتي... فلا ينبغي التضيق على أحد... لا...

وصمت فجأة ثم اتجه نحو الباب.

- سنلتقي قريباً، يا ابتي، اعدك.

إلا أن فاسيلي ايفانوفيتش لوح بيده يائساً وخرج دون أن يلتفت. عاد إلى غرفة النوم فوجد زوجته في الفراش، وأخذ يصلي همساً كيلا يوقظها. لكنها استيقظت، وسألته:

- هذا أنت، يا فاسيلي ايفانوفيتش؟

- نعم، ايتها الأم!

- هل أنت قادم من نيوشا؟ أتدري؟ أخشى أن لا ينام نوماً هادئاً على

الاربيكة. طلبت من انفيشوشكا أن تفرش له حشيتك السفرية ووسائد جديدة. وبودي أن اعطيه حشيتنا الريش، ولكنه، على ما اذكر، لا يحب الفراش الوثير.

- لا تقلقي، أيتها الأم، فهو مرتاح. يا الهي، امح خطايانا واعف عنا.
- واصل صلاته بصوت خفيض. لقد رأف فاسيلي ايفانوفيتش ببعجوزه فلم يخبرها في الليل بالمصيبة التي ستلم بها.

سافر بازاروف واركادي في اليوم التالي. خيمت الكآبة على كل من في السدار منذ الصباح. كانت صحون قد تساقطت من يدي انفيشوشكا، وحتى فيسدا كاتحير وانتهى إلى أن خلع جزمته. كان فاسيلي ايفانوفيتش مضطرباً أكثر من أي وقت مضى: كان يتمالك نفسه على ما يبدو، ويتكلم بصوت مرتفع ويطلقق برجليه، لكن وجهه قد ذبل وذوى، وصارت نظراته تتجنب ولده. انتحبت آرينا فلاسيفنا بخفوت، وكادت تستسلم للحيرة وعدم ضبط النفس لدرجة أكبر لولا أن صرف زوجها في الصباح الباكر ساعتين كاملتين في اقناعها وتهديتها. وبعد أن تخلص بازاروف، أخيراً، من الديدن اللتين طوقاه، وقطع وعوداً متكررة بأنه سيعود في وقت لا يتجاوز الشهر مطلقاً، وصعد إلى العربة، وترحلت خيولها ودق جرسها الصغير وتحركت عجلاتها، ولم يعد هناك داع لملاحظتها بالنظرات، فسكن الغبار الذي اثارته، وعاد تيموفيتش محني الظهر كلياً يجرح قدميه مترنحاً في مشيته إلى غرفته الصغيرة، وبعد أن ظل العجوزان وحيدين في دارهما التي بدت، هي الأخرى، منكمشة هرمة على نحو مباغت، ارغمى فاسيلي ايفانوفيتش الذي كان قبل بضع لحظات يلوح بمعديله متماسكاً في مدخل السدار، على الكرسي وتدلّى رأسه على صدره ومتمم: «تركنا، تركنا، ضجر منا وبقي الآن وحيداً، وحيداً، كالاصبع!»
- كرر هذا القول مراراً، وكان كل مرة يدفع بيده إلى الامام وسبابته منتصبه. وعند ذاك اقتربت منه آرينا فلاسيفنا ومالت برأسها الاشب إلى

رأسه الاشبب أيضاً وقالت: «ما العمل يا فاسيلي! الابن كسرة مقطوعة من رغيف. وهو كالصقر يحط متى شاء ويحلق متى شاء، أما نحن فمثل نبتتين من الفطر عند تجويف في جذع شجرة، نجلس جنباً إلى جنب ولا نتزحزح من مكاننا. لكنني سأظل مخصصة لك إلى الأبد، مثلما أنت مخلص لي».

رفع فاسيلي ايفانوفيتش يديه عن وجهه وعانق زوجته ورفيقة حياته بشدة لم يعانقها بمثلها حتى في زمن الشباب: فقد خفت عليه احزانه.

٢٢

وصل صاحبانا إلى فيدوت صامتين، فلم يتبادلا إلا كلمات لا شأن لها بين الحين والآخر. لم يكن بازاروف راضياً عن نفسه تماماً. وما كان اركادي راضياً عنه. زد على ذلك أنه أحس بكآبة لا مبرر لها تعتصر قلبه. وهي كآبة لا يعرفها إلا من هم في ريعان الصبا. استبدل الخوذي الخيول وصعد إلى مقعده وسأل: إلى اليمين أم الشمال؟

ارتعش اركادي. الطريق إلى اليمين يؤدي إلى المدينة ومنها إلى داره. أما الطريق إلى الشمال فيؤدي إلى اودينتسوفنا.

التفت إلى بازاروف وسأله:

- يفتيني، إلى الشمال؟

فأشاح بازاروف بوجهه ودمدم:

- ما هذه حماقة؟

فأجاب اركادي:

- أنا أعرف أنها حماقة. لا ضير في ذلك. فهل هذه هي حماقتنا

الأولى؟

خفض بازاروف عمرته حتى غطت جزءاً من جبهته، ثم قال أخيراً:

- كما تشاء.

فصاح ارКАДي:

- إلى الشمال!

اسرعت العربية باتجاه نيكولسكويه. إلا أن الصديقين اللذين قررا اقتراف تلك الحماقة قد صمنا بعناد أشد من السابق حتى لكانهما حانقان.

ادركا من كيفية استقبال كبير الوصفاء لهما في مدخل دار اودينتسوفا أنهما تصرفا بغير حكمة عندما انصاعا لفكرة راودتهما على حين غرة. فمن الواضح أن أحداً ما لم يكن يتوقع قدومهما انتظرا طويلاً في غرفة الاستقبال واكتسى وجهاهما بمسحة من البلادة. وأخيراً حضرت اودينتسوفا. رحبت بهما بلطفها المعتاد لكنها دهشت لعودتهما السريعة، ولم تكن، كما بدا من تباطؤ حركاتها ولهجتها، في غاية السرور لذلك. وأسرع الشبان للأعلان بأنهما عرجا عليها في طريقهما إلى المدينة التي سيتوجهان إليها بعد زهاء أربع ساعات. فاكفت هي بأن تأوهت متعجبة بعض الشيء ورجت ارКАДي أن ينقل تحياتها إلى أبيه وبعثت في طلب خالتها. حضرت الأميرة ناعسة، مما اضفى مزيداً من الحنق على ملامح وجهها الهرم المتغضن. وكانت كاتيا كما في رؤية آنا سيرغييفنا سواء بسواء على أقل تقدير. انقضت الساعات الاربع في احاديث لا أهمية لها عن كيت وكيت، وكانت آنا سيرغييفنا تستمع وتتكلم دون أن تبتسم. ولم تتحرك المشاعر الودية السابقة في فؤادها، على ما يبدو، إلا خلال الوداع، حيث قالت:

- انتابتني الكتابة في الآونة الأخيرة، ولكن لا تهتما بذلك، تعالالي معاً بعد حين من الزمن.

رد عليها بازاروف وارКАДي بانحناء صامته، وصعدا إلى مركبتهما

واتجهها إلى البيت في مارينو دون أن يتوقفا في إيما مكان. وصلا بسلام في مساء اليوم التالي. وطوال الطريق كله لم يذكر لا هذا ولا ذاك حتى اسم اودينتسوفنا. ولم يفتح بازروف على الخصوص فمه طوال الوقت تقريباً حيث راح يتطلع بقساوة متوترة إلى جانبي الطريق.

سر الجميع في مارينو لوصولهما غاية السرور. فأن غياب اركادي ذلك الأمد الطويل أخذ يقلق نيكولاي بتروفيتش الذي هتف وطبب برجليه وتقافز على الارىكة عندما ركضت إليه فينيتشكا بعينين براقيتين وأعلنت عن وصول «السيد الشاين». وحتى بافل بتروفيتش احس ببعض الاضطراب المفرح وابتسم مساحماً وهو يشد على يدي الجوالين العائدين. وبدأت الأحاديث والتساؤلات. وتكلم اركادي أكثر من غيره وخصوصاً أثناء العشاء الذي استمر لأمد طويل بعد منتصف الليل. أمر نيكولاي بتروفيتش بتقديم بضع قنان من جعة البورتر المركزية التي جلبت لئوها من موسكو. وافرط هو في الشراب حتى غدت وجنتاه قرمزيتين وراح يضحك بقهقهة فيها شيء من ضحك الأطفال أو الضحك العصبي. واجتاحت الفرحة الخدم أيضاً. فكانت دونياشا تراكض إلى هنا وهناك كالمهووسة، وهي تصفق الابواب بين الحين والآخر. وحاول بيوتر، حتى في الساعة الثالثة بعد منتصف الليل، أن يعزف فالس القوزاق على القيثارة. كانت الأوثار تنوح بلطف في الجو الجامد، ولكن الوصيف المتعلم لم يعزف أي شيء على ما يرام ما عدا بعض النغمات الاولية القصيرة: فالطبيعة لم تمنحه موهبة موسيقية ولا أية موهبة أخرى.

بيد أن الحياة في مارينو لم تكن تجري على نحو طيب تماماً. كانت حالة نيكولاي بتروفيتش المسكين تسوء أحياناً. وكانت الهموم في المزرعة تزداد من يوم لآخر، وهي هموم مشوشة لا تبعث على السرور. وغدا التعامل مع الاجراء أمراً لا يطاق. فالبعض منهم يطالبون بتصفية الحساب أو زيادة الأجور، بينما يترك البعض الآخر العمل مستأثراً بالعربون. كانت الخيول

عرضة للأمراض، وعدتها تتلف بلمح البصر. كانت الأعمال تنفذ بدون اتقان، واتضح أن الآلة الدارسة التي جلبت من موسكو غير صالحة بسبب ثقلها. أما الآلة الأخرى فقد أصابها العطب منذ تشغيلها للمرة الأولى. واحترق نصف حظيرة الماشية لأن عجوزاً أعمياء من الخدم خرجت أثناء هبوب الريح تحمل جذوة «لتدخين» بقرتها... غير أن هذه العجوز نفسها أكدت بأن سبب المصيبة هو نية السيد في استحداث ارجبان وألبان لا مثيل لها. وعلى حين غرة انتاب الكسل وكيل المزرعة حتى أنه أخذ يترهل كما يترهل كل روسي يعيش في بحوحة. وحالما يرى نيكولاي بتروفيتش قادماً من بعيد يلقي بخشبة على خنوص يمر راكضاً قربه أو يهدد غلاماً شبه عار، وذلك ليبين له جده واجتهاده، لكنه في الواقع كان ينام أكثر الاوقات. ولم يكن الفلاحون العاملون بالجزية يدفعون النقود في الموعد المحدد، وكانوا يسرقون الاخشاب. وفي كل ليلة تقريباً كان الحرس يتصيدون خيول الفلاحين ترعى في مروج «المزرعة»، وأحياناً كانوا يقتادونها منهم بعراك. وقد فرض نيكولاي بتروفيتش غرامة نقدية على اتلاف المزرعات، لكن الأمور تنتهي عادة بأن تصرف تلك الخيول يوماً أو يومين في حظيرة السيد ثم تعاد إلى أصحابها. زد على ذلك أن الفلاحين اخذوا يتشاجرون فيما بينهم: صار الاخوة يطالبون بالتقسيم، ولم تستطع زوجاتهم أن يتعايشن في منزل واحد، وكان العراك ينشب بينهم فجأة، فيعم هرج ومرج على حين غرة كما لو أن أحداً قد أمر بذلك، ويهرع الجميع إلى مدخل المكتب مندفعين إلى السيد مخمورين بوجوه مخدشة في الغالب وهم يطالبون بمحاكمة وعقاب. وترتفع ضجة وعويل وتختلط صأصة النسوة المنتحبات بشتائم الرجال. كان يتعين الفصل بين الاطراف المتعادية، ولا بد من الصياح حتى يبع الصوت مع أن الصائح يعلم مسبقاً أنه لا يمكن التوصل إلى حل صائب. لم تكن الايدي العاملة كافية لجمع الغلة: فالفلاح الغني الوسيم المجاور وعد بأن يحضر

الحصادين مقابل روبلين عن كل هكتار، ولكنه خدع نيكولاي بتروفيتش بدناءة. وطلبت فلاحات السيد اجوراً مرتفعة للغاية، بينما أخذ القمح يتناثر من السنابل. أخفق الحصاد، في حين صار مجلس الوصاية يهدد ويطالب بدفع الفائدة المثوية بالتمام والكمال فوراً...

كان نيكولاي بتروفيتش يكرر بقنوط:

- خارت قواي! ليس بوسعي أن اعارك، ولا أستطيع الاستنجاد بالشرطة، فالمبادئ تحول دون ذلك. بينما لن ينجز أحد شيئاً بدون الخوف من العقاب!

- (هدوء، هدوء!) (٦٣)- كان بافل بتروفيتش يجيبه، ولكنه هو نفسه يدمدم ويعبس وينتف شاربيه.

أما بازاروف فكان بعيداً عن هذه «المشاحنات»، بل وما كان مضطراً، كضيف، أن يتدخل في شؤون الغير. فمنذ اليوم التالي لوصوله إلى مارينو انهمك بمعالجة ضفادعه ونقاياته ومستحضراته الكيماوية وصرف الوقت كله في ذلك. في حين رأى ار كادي، على العكس، أن من واجبه أن يساعد اباه أو أن يتظاهر على الأقل بالاستعداد لمساعدته. كان يستمع إليه بصبر، وقدم له ذات مرة نصيحة لا لكي يعمل بها أحد، بل لكي يعلن عن مساهمته بشكل ما. ولم يكن تدبير أمور المزرعة ليثير اشمئزازه: فهو يحلم، بارتياح، بممارسة النشاط الزراعي. بيد أن أفكاراً أخرى شغلت باله آنذاك. كانت أفكار ار كادي، ويا لدهشته هو، تحوم طوال الوقت حول نيكولسكويه. كان في السابق يكتفي بهز الكتفين لو أن أحداً قال له بأنه يمكن أن يشعر بالضجر من العيش مع بازاروف تحت سقف واحد، ناهيك عن سقف الوالدين. أما الآن فقد غدا ضجراً حقاً، وصار شيء ما

(٦٣)- في الأصل بالفرنسية Du calme, du calme.

يدعوه إلى بعيد. قرر أن يتمشى حتى الارهاق، لكن ذلك لم يجده نفعاً. تحدث مع ابيه نيكولاي بتروفيتش ذات مرة فعلم أن لديه بضع رسائل ممتعة جدا كانت قد بعثت بها أم اودينتسوفنا إلى المرحومة زوجته منذ زمان بعيد، ولم يتركه وشأنه إلا بعد أن تسلم منه تلك الرسائل التي اضطر نيكولاي بتروفيتش على التفتيش عنها في زهاء عشرين من الادراج والصناديق المختلفة. وعندما غدا اركاذي مالكا لهذه الوريقات البالية استقر بعض الشيء كما لو تراءى له الهدف الذي يتعين عليه بلوغه. وصار يهمس بلا كلل «لقد قالت بنفسها: تعالا الي معا... سأسافر، سأسافر، وليكن ما يكون!». لكنه يتذكر الزيارة الأخيرة والاستقبال الفاتر وارتبائه السابق فيعتره الوجل. وأخيراً سيطرت عليه «عسى ولعل» ورغبة الشباب الخفية في تذوق طعم سعادته وتجربة قواه على انفراد بدون أية وصاية مهما كان مصدرها. لم تمض على عودته إلى مارينو عشرة أيام حتى عاد من جديد إلى المدينة، بحجة دراسة نظام مدارس الآحاد، ومن هناك عرج على نيكولسكويه. كان يستعجل الحوذى بلا انقطاع وهو ينهب الدرب إلى هناك كضابط شاب توجه إلى المعركة: كان مرتعبا مرحا. وهو ينتظر الوصول بفارغ الصبر. ويؤكد لنفسه «الأمر الأهم هو أن لا أفكر بشيء». وقد وقع اختياره على حوذى مغوار، كان يتوقف أمام كل حانة قائلاً: «هل نتجرع؟» أو «فلنتجرع!»، ولكنه بعد أن «يتجرع» لا يعود يرادف بالجياذ. وها قد لا أخيراً السقف العالي لتلك الدار المعروفة... وفكر اركاذي على الفور: «ماذا فعلت؟ ولكن لا مجال للعودة!». وراحت الخيول الثلاث تنهب الدرب بوثام والحوذى يستحثها بصفيره. ها هو الجسر الصغير قد جلجل تحت السنايك والعجلات، وها هو ممشى أشجار الشوح الحليقة المقلمة... ومرق فستان نسائي وردي وسط الخضرة الداكنة وتطلع وجه فتى من تحت اهداب مظلة خفيفة... أنها كاتيا، عرفها وعرفته. أمر اركاذي الحوذى بوقف الخيول المنطلقة، فقفز من

المركبة واقترب منها. فقالت بعد أن احتقن وجهها كله بالتدريج: «هذا انت! فلنذهب إلى أختي، أنها هنا، في البستان. وسوف تسر لرؤيتك».

اقتادت كاتيا ار كادي إلى البستان. وكان اللقاء معها فالأ حسنا جدا كما خيل إليه، فقد سر لها كما لو كانت من أهله. وجرت الأمور على اروع ما يكون: بدون كبير الوصفاء وبدون مراسيم. ففي منعطف الممشى لمح أنا سير غيفنا التي كانت واقفة وظهرها إليه. وعندما سمعت الخطى استدارت بهدوء.

كاد ار كادي يرتبك من جديد، إلا أن أولى الكلمات التي فاهت بها جعلته يهدأ في الحال. «مرحباً، أيها الهارب!» - قالت بصوتها المتناسق الحنون وتوجهت للقاءه باسمه بعينين شبه مغمضتين من الشمس والريح: «أين عثرت عليه يا كاتيا؟». فبدأ هو كلامه:

- جئت إليك، يا أنا سير غيفنا، بشيء لا تتوقعينه أبداً...

- جئت الي بنفسك، وهذا أفضل شيء.

٢٣

كان بازاروف قد ودع ار كادي متأسفا متهمكا ولمح له بأنه لا يمكن أن يخدع قيد ائمة بخصوص الهدف الحقيقي لهذه الزيارة، ثم اعتكف نهائيا، حيث انتابته حمى العمل. لم يعد يتجادل مع بافل بتروفيتش، لا سيما وأن هذا صار يتخذ بحضوره هيئة ارتسقاطية مفرطة ويعرب عن آرائه بأصوات متقطعة أكثر مما بكلمات. ومرة واحدة فقط كاد بافل بتروفيتش ينخرط في مساجلة مع النهلستي بصدد المسألة الشائعة آنذاك عن حقوق نبلاء منطقة البلطيق، لكنه توقف فجأة وقال بتأدب فاتر:

- على كل حال، ليس بوسعنا أن نفهم بعضنا بعضا. فأنا، على أقل تقدير، عاجز عن أن اتشرف بفهمك.

- كيف لا؟! - هدف بازاروف - الإنسان قادر على فهم كل شيء حتى اختلاج الاثير وما يحدث على الشمس، لكنه عاجز عن أن يفهم كيف يتمخط إنسان آخر بشكل يختلف عن تمخطه هو.

فقال بافل بتروفيتش متسائلا:

- هل هذا شيء ظريف؟ - وانزوى جانبا. بيد أنه كان في بعض الأحيان يستأذن من بازاروف لحضور تجاربه. حتى أنه ذات مرة قرب وجهه المعطر والمضخم بعقاير ممتازة من المجهر لكي يرى كيف التهمت نقاعية شفاقة ذرة خضراء وانشغلت بمضغها بواسطة قبضات صغيرة ورشيقة جدا موجودة في حلقومها. إلا أن نيكولاي بتروفيتش أكثر من أخيه ترددا على بازاروف. كان بوده أن يحضر كل يوم «للتعلم»، على حد تعبيره، لولا مشاغل المزرعة التي تلهيه. ولم يكن يضايق الباحث الشاب، فهو ينزوي في أحد أركان الحجرة ويتطلع بانتباه، ونادرا ما يسمح لنفسه بطرح سؤال متهيب. وكان يسعى أثناء تناول طعام الغداء والعشاء إلى توجيه الكلام نحو الفيزياء والجيولوجيا والكيمياء، وذلك لأن جميع الأمور الأخرى، حتى ما يتعلق منها بشؤون المزرعة، ناهيك عن المسائل السياسية، يمكن أن تؤدي إلى عدم ارتياح الطرفين، أن لم نقل إلى الصدامات بينهما. وقد خمن نيكولاي بتروفيتش أن حقد أخيه على بازاروف لم يتقلص قيد شعرة. ثم أن حادثة تافهة، من بين الحوادث العديدة الأخرى، قد أكدت تخمينه هذا. أخذت الكوليرا تظهر في بعض الأماكن المجاورة، بل و«انتزعت» اثنين من سكان مارينو نفسها. وذات ليلة تعرض بافل بتروفيتش لنوبة شديدة. تعذب حتى الصباح ولكنه لم يلجأ إلى خدمات بازاروف. وعندما رآه في اليوم التالي وسأله بازاروف «لماذا لم يرسل في

طلبه؟» أجابه، وهو لا يزال شاحبا كليا، ولكنه تنظف جيدا وحلق ذقنه: «الم تقل بنفسك، على ما أتذكر، أنك لا تؤمن بالطب؟». مرت الايام على هذا المنول، وكان بازاروف يعمل عمشابة وتجهم... في حين تضم دار نيكولاي بتروفيتش كائنا بوسعها أن يروح عن بازاروف همومه، وعلى الاصح أن يتجاذب معه اطراف الحديث بسرور... وهذا الكائن هو فينيتشكا.

كان يتقابل معها في أغلب الحالات أثناء الصباح الباكر في البستان أو في الباحة. لم يكن يتردد على غرفتها. ولم تكن هي تقترب من غرفته إلا مرة واحدة سألته فيها عند الباب عما إذا كان يتعين عليها أن تغسل ميتيا أم لا؟ كانت تثق به، ولا تخشاه، بل كانت تتصرف بحضوره دون تكلف وبطلاقة أكثر مما بحضور نيكولاي بتروفيتش نفسه. ومن الصعب معرفة السبب في ذلك. لعلها كانت تحس بصروة لا شعورية أن بازاروف خال مما يميز النبلاء، من كل ما هو رفيع يستهويها ويخيفها في الوقت ذاته. لقد كان هو في انظارها طبيبا ممتازا وانسانا بسيطا سواء بسواء. كانت لا تشعر بالضيق من وجوده وهي تداري طفلها. ذات مرة أخذ الدوار برأسها فجأة واصابها الصداع فتلقت من يده ملعقة الدواء. كانت، بحضور نيكولاي بتروفيتش، كالغريبة على بازاروف: ولم تكن تفعل ذلك بسبب الدهاء بل بشعور من اللياق لا اكثر. وصارت تخشى بافل بتروفيتش أكثر من أي وقت مضى. فقد أخذ منذ حين يراقبها ويظهر بغتة وراء ظهرها كما لو انفطرت عنه الأرض ببدلته الانجليزية ووجهه العبوس الجامد ويديه المخبأتين في جيبيه. ولقد تشكت فينيتشكا إلى دونياشا قائلة: «تنتابني الرجفة منه». فأجابت دونياشا بتنهدة وراحت تفكر بإنسان آخر «خال من العواطف». لقد غدا بازاروف، دون علم منه، طاغية قاسيا سيطر على فؤادها.

كانت فينيتشكا معجبة ببازاروف، وكان هو معجبا بها، حتى أن

سحنة وجهه تتغير عندما يتحدث إليها: فتكسب تعبيراً صافياً يكاد يكون طيباً، ويختلط بأهماله المعتاد شيء من الاهتمام الملقح بالفكاهة. كانت فينيتشكا تزداد جمالاً من يوم لآخر. ففي حياة النساء الشابات تصادف مرحلة يبدأ فيها بالازدهار والتفتح كورود الصيف. وقد حلت هذه المرحلة بالنسبة لفينيتشكا. فكل شيء يساعد على ذلك، حتى قيظ يوليو الذي خيم آنذاك. كانت ترتدي فستاناً خفيفاً أبيض تبدو فيه أكثر بياضاً وخفة. ولم تكن السمرة لتعلق ببشرتها، في حين صبغ الحر الذي لم تستطع أن تحتمي منه وجنتيها واذنيها بالحمرة، واضفى على جسدها كله سكونا هادئاً وصار ينعكس في عينيها الجميلتين بشكل فتور ناعس. لم تعد قادرة على ممارسة أيما عمل تقريبا، كانت يداها تكادان تلتصقان بركبتيها. وكادت تكف عن المشي، فصارت تتأوه وتشكى بعجز لعوب.

كان نيكولاي بتروفيتش يقول لها:

— من الأفضل أن تستحمي كثيراً.

انشأ مسبحاً واسعاً فوقه ظلة من قماش سميك في واحدة من بركة التي لم ينضب ماؤها بعد.

— آه، يا نيكولاي بتروفيتش! يموت الإنسان قبل أن يصل إلى البركة، وعندما يعود منها يموت أيضاً. فالبستان خال من الظلال.

— حقاً، ليست هناك ظلال — يجيئها نيكولاي بتروفيتش ويمسح حاجبيه.

ذات مرة، عاد بازاروف من جولته في الساعة السابعة صباحاً فوجد فينيتشكا في تعريشة الليلاك التي ذوت زهورها من زمان، لكنها ظلت كثيفة خضراء. كانت جالسة على المصطبة وقد لفت رأسها، كعادتها، بمندبل أبيض، وقربها حزمة كبيرة من ورود حمراء وبيضاء لا تزال ندية. حياها فقالت:

- آآ يفغيني فاسيليفيتش!

ورفعت طرف منديلها لكي تلقي نظرة عليه فتعرت يدها حتى المرفق.

- ماذا تفعلين هنا؟ تضررين باقة؟ - سأل بازاروف وجلس قربها.

- أجل، باقة لمائدة الفطور. نيكولاوي بتروفيتش يحب ذلك.

- الفطور لا يزال بعيدا. ما أكثر هذه الورود!

- قطفتها الآن، لأن من الصعب الخروج فيما بعد بسبب الحر. فالآن

فقط يمكن أن نتنسم الهواء. اصابني ضعف شديد من هذا الحر. واخشى أن امرض بسببه.

- ما هذه الأوهام؟! دعيني اجس نبضك - التقط بازاروف يدها

وبحث عن العرق فوجده يدق بانسجام حتى أنه لم يحسب دقاته. ثم قال:

- ستعيشين مائة عام.

- آه، الله يستر! - هتفت فينيتشكا.

- لماذا؟ إلا تريدن أن تمشي طويلا؟

- مائة عام! هذا كثير! جدتنا بلغت الخامسة والثمانين، فما كان اعظم

آامها! غدت سوداء صماء حدياء تسعل طوال الوقت. كانت عالية على نفسها. فما نفع هذه الحياة؟!

- تفضلين البقاء شابة، أليس كذلك؟

- وإلا فما الداعي لذلك؟

- ما هي أفضلية الشباب؟ خبريني!

- كيف؟ فأنا الآن شابة استطيع أن افعل كل شيء بنفسني، اروح

واغدو واحضر ما يلزم ولا احتاج إلى طلب المعونة من أحد... فهل هناك

أفضل من ذلك؟

- أما أنا فسيان لدي شابا كنت أم شيخا.

- كيف تقولون سيان؟ ما تقولونه أمر مدهش.

- احكمي بنفسك يا فينيتشكا، ما نفع فتوتي؟ أنني أعيش وحيدا،

اعزب...

- ذلك يتوقف عليكم دوما.

- ليس علي... تلك هي القضية! حبذا لو رأف أحد بحالي.

القت فينيتشكا نظرة جانبية على بازاروف ولم تقل شيئا. وبعد فترة

صمت سألته:

- ما هذا الكتاب الذي معكم؟

- هذا؟ كتاب علمي معقد.

- هل تدرسون طوال الوقت؟ ألا يضجركم ذلك؟ يخيل الي انكم

تعرفون كل شيء.

- ليس كل شيء، على ما يرام. هاك، اقراي قليلا.

- لن أفهم من ذلك ذرة. هل هو كتاب روسي؟ - سألت فينيتشكا

وهي تتلقى بيديها المجلد الثقيل - ما أثقله!

- روسي.

- لن أفهم منه شيئا مع ذلك.

- لا أقصد بأن تفهمي. أريد فقط أن اتطلع إليك عندما تقرأين. فأثناء

ذلك تتحرك ارنبة انفك بشكل لطيف جدا.

ضحكت فينيتشكا وتركت الكتاب بعد أن كانت قد تهيأت لتقرأ

بصوت خافت المقالة التي فتحت عليها وهي عن «خلاصة القطران»...

فانزلق الكتاب من المصطبة إلى الأرض. فقال بازاروف:

- يعجبني كذلك أن اراك تضحكين.

- ماذا تقولون؟

- ويعجبني ان اسمعك تتكلمين، كخبر جدول.

أشاحت فينيتشكا بوجهها، ثم قالت وهي تمس الورود باصابعها:

- ما حاجتكم إلى الاستماع الي؟ لقد دارت احاديث بينكم وبين نساء نييلان ذكيات.

- آه، يا فينيتشكا، صدقيني أن كل النييلات الذكيات في العالم لا يساوين مرفقك.

- ماذا تقولون؟ - همست فينيتشكا وضغطت يديها إلى بدنها.

رفع بازاروف الكتاب من الأرض.

- ما هذا كتاب طبي، لماذا القيت به؟

- طبي؟ - سألت فينيتشكا واستدارت نحوه - هل تعلمون؟ ميتيا نام

نوما هانئا منذ أن اعطيتموني تلك القطرات، هل تذكرون؟ لا ادري كيف اشكركم على ذلك. ما اطيبيكم!

فقال بازاروف ساخرا:

- في الحقيقة ينبغي الدفع للأطباء. فهم، كما تعلمين، أناس نفعيون.

رفعت فينيتشكا إلى بازاروف عينها فبدأت أكثر سوادا بسبب الانعكاس

الضارب إلى البياض والذي وقع على القسم العلوي من وجهها. ولم تكن تعرف ما إذا كان جادا أم مازحا.

- إذا اردتم فنحن على كل استعداد... سأطلب من نيكولاي

بتروفيتش...

- تظنين بأنني اريد نقودا؟ - قاطعها بازاروف - كلا، أنني اريد منك

شيئا غير النقود.

- ماذا اذن؟ - سألت هي.

- ماذا؟ احزري - قال بازروف.

- كيف لي أن أحزر؟! -

- اذن فسأقول لك. أنني أريد... واحدة من هذه الورود

ضحكت فينيتشكا من جديد حتى أنها ضربت كفا على كف. فقد بدت لها أمنية بازروف مسلية للغاية. كانت تضحك وتشعر في الوقت نفسه بأن ذلك اطراء لها. وكان بازروف يحدق فيها. وقالت أخيرا بعد أن انحنت على المصطبة وراحت تنتقي الورود:

- تفضلوا، تفضلوا، أية وردة تريدون حمراء أم بيضاء؟

- حمراء وغير كبيرة جدا.

عدلت من قامتها وقالت:

- خذوا.

ولكنها سرعان ما سحبت يدها الممدودة وعضت على شفيتها ونظرت إلى مدخل التعريشة ثم أخذت تتسمع. فسأل بازروف:

- ماذا؟ هل هو نيكولاي بتروفيتش؟

- كلا... ذهب إلى الحقل... ثم أنني لا اخشاه... ولكن بافل بتروفيتش. خيل الي...

- ماذا؟

- خيل الي أنه هو الذي يتمشى هنا. كلا... لا أحد. خذوا - سلمت فينيتشكا الوردة إلى بازروف.

- لماذا تخافين من بافل بتروفيتش؟

- أنه يخيفني دوما. لا يقول شيئا ولكنه ينظر الي بغموض. ثم انكم

أيضا لا تحبونه. هل تذكرون كيف كنتم في السابق تتجادلون معه. لا ادري
عم كنتم تتجادلون ولكني رأيت كيف تتلاعبون به هكذا، ثم هكذا...
اومات فينيتشكا بيديها إلى كيفية تلاعب بازاروف ببافل بتروفيتش،
كما خيل إليها.

ضحك بازاروف ثم سأها:

- لو فرضنا أنه تفوق علي فهل كنت ستدافعين عني؟

- كيف لي أن ادافع عنكم؟ كلا، لن يقوى عليكم أحد.

- حقا؟ أما أنا فاعرف يدا تستطيع أن تقهرني بأصبع واحد إذا ارادت.

- أية يد هذه؟

- إلا تعرفينها؟ شمي هذه الوردة التي اعطيتنيها.

اشرأبت فينيتشكا وقربت وجهها من الوردة... انزلق المنديل من
رأسها على الكتفين، ولاح خضم ناعم من الشعر الأسود اللامع المشعث
بعض الشيء.

- تمهلي، أريد أن اشمها معك - قال بازاروف وانحنى عليها فطبع قبلة
شديدة على شفتيها المتفتحتين. ارتعدت، وانشبت كلتا يديها في صدره،
لكن مقاومتها كانت ضعيفة فتسنى له أن يكرر قبلته ولأمد أطول.

تعالى سعال جاف من وراء الليلاك. ابتعدت فينيتشكا إلى طرف
المصطبة الآخر بلمح البصر. وبان بافل بتروفيتش فانحنى قليلا وقال بكآبة
حاقدة «انتما هنا»، ثم ابتعد. التقطت فينيتشكا كل الورد في الحال
وخرجت من التعريشة هامسة: «حرام يا يفغيني فاسيليفيتش». ورنت في
همسها ملامة غير منفعلة.

تذكر بازاروف المشهد الاخر مع اودينتسوف فأنبه ضميره وشعر بكآبة

وبشيء من الاحتقار. لكنه نفذ رأسه على الفور وهنأ نفسه ساخراً «على الانتماء الرسمي إلى سلك العشاق» وتوجه إلى غرفته.

أما بافل بتروفيتش فقد خرج من البستان ووصل إلى الغابة بخطاه المتباطئة. ظل هناك امدًا طويلًا، وعندما عاد لتناول الفطور سأله نيكولاي بتروفيتش بكل اهتمام عن صحته. فقد غدا وجهه في غاية القتامة. وأجاب بافل بتروفيتش بهدوء:

- أنت تعلم بأني أعاني أحياناً من داء الصفراء.

٢٤

بعد زهاء ساعتين طرق بافل بتروفيتش باب بازاروف.

- استمبحك عذرا لاني الهيك عن مشاغلك العلمية - قال وجلس على كرسي قرب النافذة واستند بكلتا يديه إلى عصا ذات مقبض من العاج (وهو يتمشى عادة بدون تلك العصا) - لكنني مضطر لاستعطافك بأن تخصص لي من وقتك خمس دقائق... لا أكثر.

- وقتي كله في خدمتك - اجاب بازاروف وقد تبدلت سحته حالمًا اجتاز بافل بتروفيتش عتبة بابه.

- تكفيني خمس دقائق. جئت لا طرح عليك سؤالاً.

- عم، يا ترى؟

- تفضل واستمع. أول ما حللت أنت في دار أخي، عندما لم أكن قد حرمت نفسي من متعة التحدث معك، تعين علي أن استمع إلى محاججاتك بشأن العديد من الاشياء، ولكن الكلام، بقدر ما اذكر، لم يتناول بيننا ولا بحضوري أبدا مسألة المنازلات، والمبارزة عموماً. فاسمح لي أن أعرف رأيك بهذا الخصوص.

كان بازاروف الذي نهض لاستقبال بافل بتروفيتش في البداية قد جلس على طرف الطاولة وكشف يديه. فقال:

- إليك رأيي. المباراة سخافة من الناحية النظرية. ولكنها شيء آخر من الناحية العملية.

- يعني تريد أن تقول، إذا كنت قد فهمتك جيدا، أنك لن تسمح لأحد في الواقع بأن يهينك دون أن تطالب بمبارزته بالرغم من رأيك النظري بهذا الخصوص، أليس كذلك؟
- لقد حذرت فكرتي تماما.

- حسنا جدا يا سيدي. يسرني كل السرور أن اسمع ذلك منك.
كلماتك تنقذني من الجهول.

- تريد أن تقول: من التردد.

- الأمر سيان يا سيدي. أنني اتكلم بالشكل الذي يفهمني به الآخرون.
فأنا... ليست من جردان المدارس والكليات. كلماتك تحررني من بعض الضروريات المحزنة. لقد صممت على أن اتبارز معك.

جحظت عينا بازاروف:

- معي أنا؟

- معك بالذات.

- معذرة، لأي سبب؟

فواصل بافل بتروفيتش كلامه:

- بوسعي أن اوضح لك السبب، ولكنني أفضل السكوت عليه. أنك برأيي، شخص نافل هنا. وأنا لا أطيق وجودك، انني احتقرك. وإذا كان ذلك لا يكفيك...

لمعت عينا بافل بتروفيتش... والتهيت عينا بازاروف أيضا، فقال
مدمدا:

- حسنا جدا يا سيدي. لا داعي للمزيد من التوضيح. لقد راودك وهم
بان تجرب علي فروسيتك. وبوسعي أن ارفض منحك هذه المتعة. ولكن
لا بأس، فليكن!

- أنني ممتن لك كل الامتنان. - اجاب بافل بتروفيتش - ويمكنني
الآن أن آمل بأنك تتقبل التحدي دون أن تحملني على اللجوء إلى اجراءات
العنف.

- أي اللجوء إلى هذه العصا، إذا تكلمنا بدون مجاز، اليس كذلك؟ -
سأل بازاروف بيروود - ذلك عين الصواب. فليس هناك مطلقا ما يدعوك
إلى اهانتني. ثم أن ذلك ليس بدون مخاطر. بوسعك أن تظل جنتلمانا...
وأنا اتقبل تحديك كما يفعل الجنتلمان أيضاً.

- حسناً - قال بافل بتروفيتش ووضع العصا في ركن الغرفة - سنذكر
الآن بضع كلمات بشأن شروط مبارزتنا، ولكن بودي أن أعرف أولا ما
إذا كنت ترى ضرورة للجوء إلى شكليات الخصام البسيط الذي يمكن أن
يغدو حجة للتحدي.

- كلا. الافضل بدون شكليات.

- وأنا من هذا الرأي أيضاً. ويخيل الي كذلك أن لا داعي للتعق في
الاسباب الحقيقية لنزاعنا. فنحن لا نطبق بعضنا البعض. فهل من داع إلى
المزيد؟!

- حقا، هل من داع إلى المزيد؟! - كرر بازاروف متهمكا.

- أما بخصوص شروط المبارزة، فبحكم عدم وجود شاهدين لدينا...
من أين لنا العثور عليهما؟

- أجل، من أين لنا العثور عليهما؟

- ... فأنسي أتشرف بأن اقترح عليك ما يلي: نتبارز غدا في وقت مبكر، في السادسة مثلا، وراء الاجمة، بمسدسين وعلى مسافة عشر خطوات...

- عشر خطوات؟ يعني أننا نحقد على بعضنا البعض بقدر هذه المسافة.

- من الممكن ثماني خطوات - قال بافل بتروفيتش.

- ممكن. لم لا؟!!

- نطلق الرصاص مرتين، ونحوطا للطوارئ يضع كل منا في جيبه رسالة يلقي فيها على نفسه مسؤولية وفاته.

- ذلك ما لا اوافق عليه تماما - قال بازروف - أنه يشبه الروايات الفرنسية. ولا يطابق الواقع.

- ربما. ولكن ليس من المريح التعرض لتهمة القتل، اليس كذلك؟

- أجل. ولكن هناك وسيلة لتلافي هذه الملامة الكئيبة. أن يكون لدينا شاهدان رسميان، ولكن من الممكن احضار شاهد عادي واحد.

- من هو يا ترى؟

- بيوتر.

- أي بيوتر هذا؟

- وصيف أخيك. أنه شخص ارتقى إلى مستوى التعلم العصري، وهو يؤدي واجبه بكل ما تتطلبه هذه الحالات من لياقة.

- يخيل الي أنك ممزح يا سيدي الجليل.

- أبدا. إذا ناقشت اقتراحي ستأكد من أنه اقتراح وجيه وبسيط. فتلك

مسألة لا يمكن اخفاء آثارها. أما بيوتر فأتعهد باعداده بالشكل اللازم وإيصاله إلى ساحة المعركة.

- أنك لا تزال تمزح - قال بافل بتروفيتش ناهضاً - ولكن بعد الاستعداد الذي أبديته متفضلاً لا يحق لي أن اعترض عليك... وهكذا دبرنا كل شيء... وبالمناسبة هل لديك مسدسان؟

- من أين لي، يا بافل بتروفيتش؟ فأنا لست عسكرياً.

- اذن اقترح أن نستخدم مسدسي. وكن على ثقة بأنني لم استعملهما منذ خمس سنوات.

- هذا نبأ يبعث على السرور لدرجة كبيرة.

التقط بافل بتروفيتش عصاه...

- لا يتبقى علي، أيها السيد الجليل، بعد ذلك إلا أن اشكرك واتركك تعود إلى اشغالك. يشرفني أن انحنى مودعاً.

- إلى لقاء سعيد، يا سيدي الجليل - قال بازاروف مودعاً ضيفه.

خرج بافل بتروفيتش، فوقف بازاروف أمام الباب لحظة، ثم هتف فجأة: «تقوا! يا للشيطان! ما أجمل ذلك وما اغباه! أية ملهاة مثلنا؟! الكلاب المدربة ترقص على قوائمها الخلفية بهذا الشكل. وما كان بالامكان الرقص، فلربما سولت له نفسه أن يضربني، وعند ذاك... (شحب لون بازاروف لهذه الفكرة، وفارت فيه عزة النفس). عند ذاك ساكون مضطراً إلى خنقه كقط صغير». عاد إلى مهجره، لكن قلبه يتفطر، وفارقه الهدوء اللازم للمراقبة والبحث.

وفكر في نفسه: «لقد رأنا اليوم، ولكن هل يدافع عن أخيه حقاً؟ ثم ما أهمية القبلة؟ لا بد وأن هناك سبباً آخر. يا الهي! أليس هو مغرماً بها؟! بالطبع، بالطبع. أمر واضح وضوح النهار. ما اخرج الموقف! شيء فظيع!

فظيع من كل الوجوه. ينبغي أن اعرض جيبني للرصاص، وأن اسافر على كل حال. هذا أولاً. ثم هناك اركادي... وهذا الحمل الويدع نيكولاي بتروفيتش. شيء فظيع، فظيع».

مر النهار بهدوء باهت أكثر من المعتاد. واختفى أثر فينيتشكا وكأنما لم تكن موجودة في هذا العالم. قبعت في غرفتها كفأرة في جحر. وبدا نيكولاي بتروفيتش مهموماً. فقد ورده نبأ ظهور داء السناج في قمحه الذي علق عليه آماله بخاصة. وكان بافل بتروفيتش بمجاملته الجليدية ثقيلًا على الجميع، حتى على بروكوفيتش. بدأ بازروف بتحرير رسالة إلى أبيه، ولكنه مزقها والقى بها تحت الطاولة. وفكر في نفسه «إذا مت فسوف يعلمان. ولكنني لن أموت. فسوف اجول طويلاً في هذا العالم». طلب من بيوتر أن يأتي إليه عند بزوغ فجر الغد من أجل قضية هامة. وتصور بيوتر أن بازروف يريد أن يصطحبه إلى بطرسبورغ. خلد بازروف إلى النوم في ساعة متأخرة، واخذت أحلام مشوشة تعذبه طوال الليل... كانت اودينسوفاتدور أمامه، وكانت هي أمه في الوقت نفسه، وتبعثها قطة ذات شوارب سوداء، وهذه القطة هي فينيتشكا. وبداله بافل بتروفيتش بشكل دغل كثيف عليه أن يتبارز معه من كل بد. ايقظه بيوتر في الرابعة صباحاً، فارتدى ملابسه على الفور وخرج معه.

كان الصباح منعشاً رائعاً. وكانت سحابات صغيرة متموجة تتناثر على زرقة صافية شاحبة، واستقر ندى رقيق على الاوراق والاعشاب وبيوت العناكب وصار يلعب كالفضة. لاحت الارض الندية القائمة وكأنها تحتفظ بآثار الفجر الحمراء، وكانت اغاريد القبرات تصدح من كل ارجاء السماء. بلغ بازروف الاجمة فجلس في الظل على طرفها، وعند ذلك فقط كشف لبيوتر عن الخدمة التي ينتظرها منه. ارتعب الوصيف حتى الموت، ولكن بازروف هذا من روعه مؤكداً له بأنه ليس عليه إلا أن يقف بعيداً ويتطلع، وبأنه لا يتحمل أية مسؤولية. واضاف قائلاً: «ولكن فكر

أنت، أي دور هام ستضطلع به!». أشار بيوتر بيديه إشارة يائسة واطرق برأسه ممتقعا شاحبا واستند إلى جذع بتولا.

الطريق من مارينو يلتف حول الغابة الصغيرة، وهو مغطى بغبار خفيف لم تمسه عجلة ولا رجل منذ يوم أمس. كان بازاروف ينظر عفويا إلى طول هذا الطريق ويقتلع عشبا ويقضمه ويفكر في نفسه مكررا: «يا للغباوة!». وجعله برد الصباح يرتعش مرتين أو ثلاثا... نظر إليه بيوتر بكآبة، فاكتفى بازاروف بابتسامة ساخرة: فهو ليس جبانا.

تهادى وقع سنابك على الطريق... ولاح فلاح من وراء الأشجار. كان يقود حصانين معقلين امامه. وعندما مر قرب بازاروف نظر إليه نظرة غريبة دون أن يرفع قبعته، الأمر الذي حير بيوتر باعتباره فالأ غير حسن. وفكر بازاروف في نفسه «لقد نهض هذا مبكرا أيضا، ولكنه على الأقل من أجل العمل. أما نحن فلأي غرض؟».

- يخيل الي أنه قادم، يا سيدي - همس بيوتر فجأة.

رفع بازاروف رأسه فرأى بافل بتروفيتش في سترة خفيفة مخططة بمربعات وسروال ناصع كالثلج. كان يسير مسرعا في الطريق، وقد تأبط صندوقا مغلفا بقماش أخضر.

- معذرة، فقد جعلتكما تنتظران على ما اظن، - قال منحنيا لبازاروف في البداية، ثم لبيوتر الذي غدا في تلك اللحظة يحترم فيه شيئا من قبيل الشاهد - ما اردت ايقاظ وصيفي.

- لا بأس. لقد وصلنا نحن أيضاً للتو - أجاب بازاروف.

- آآ حسنا! - تلفت بافل بتروفيتش حو اليه - لا أحد هناك. لن يعيقنا أحد... هل نبدأ؟

- أجل.

- أعتقد أنك لا تطالب بإيضاحات جديدة؟

- كلا.

- هل تريد أن تشحنهما؟ - سأفعل بترفيتش وهو يخرج المسدسين من الصندوق.

- كلا. اشحنهما بنفسك، أما أنا فسأقيس المسافة. رجلاي اطول -
اضاف بازاروف ساخرا - واحد، اثنان، ثلاثة...

- يفغيني فاسيليفيتش - تمتم بيوتر بصعوبة (إذا كان يرتعش كالمحموم)
- الأمر لكما. سأبتعد.

- اربعة... خمسة... ابتعد، يا اخي، ابتعد. يمكنك أن تقف وراء
شجرة، بل وسد اذنيك، ولكن لا تغمض عينيك. وحالما يسقط احدنا
اركض نحوه وارفعه. ستة... سبعة... ثمانية... - توقف بازاروف وقال
مخاطبا بافل بترفيتش: - كفاية؟ أم اضيف خطوتين؟
- كما تشاء - قال ذاك وهو يعبئ الرصاصة الثانية.

- اذن فلنضف خطوتين اخريين - ورسوم بازاروف بطرف جزمته
خطين على الارض - هما الخطان الفاصلان. وبالمناسبة فكم خطوة
ينبغي لكل منا أن يبتعد عن خطه؟ هذه مسألة هامة أيضاً، ولكننا لم نناقشها
بالامس.

- عشر خطوات على ما اعتقد - اجاب بافل بترفيتش وقدم كلا
المسدسين إلى بازاروف - تفضل بالاختيار.

- حسنا. ولكن إلتوافقني يا بافل بترفيتش على أن مبارزتنا غربية
إلى حد مضحك. انظر إلى الوجه البليد لشاهدنا، مثلاً.

- أنت ترغب في المزاح دوما - اجاب بافل بترفيتش انني لا انكر

غرابة مبارزتنا، ولكنني أرى من واجبي أن احذرك بأني انوي المبارزة بكل جد. (فليسمع كل من لديه اذنان!) (٦٤).

– هيه! لا يخامرني شك في أننا عزمنا على ابادة بعضنا البعض. ولكن ما الذي يمنعنا من الضحك والتوفيق بين (المنفعة والمسرة) (٦٥)؟ هكذا اذن: تكلمني بالفرنسية واكلمك باللاتينية.

– سأتبارز بكل جد – كرر بافل بتروفيتش القول واتجه إلى مكانه. وحسب بازاروف من جهته عشر خطوات عن خطه وتوقف. فسأله بافل بتروفيتش:

– هل أنت مستعد؟

– تماما.

– يمكننا أن نتقارب.

تحرك بازاروف بهدوء إلى الامام فأتجه بافل بتروفيتش نحوه وقد دس يده اليسرى في جيبيه ورفع فوهة المسدس بالتدريج... ففكر بازاروف «أنه يهدف نحو انفي مباشرة، ويفعل ذلك بكل عناية، ياله من قاطع طريق! ولكن ذلك احساس غير مسر. الأفضل أن اتطلع إلى سلسلة ساعته...». صر شيء ما بحدة قرب اذن بازاروف، ودوت اطلاقه في اللحظة ذاتها. وخطرت في ذهنه فكرة «ما دمت قد سمعت فلا خطر هناك». خطأ خطوة أخرى وضغط على الزناد دون تهديف.

ارتجف بافل بتروفيتش رجفة خفيفة وامسك فخذيه بيده. وشخب الدم على بنطاله الابيض.

(٦٤) في الأصل بالفرنسية A bon entendeur، salut.

(٦٥) في الاصل باللاتينية utile dulci.

القى بازاروف المسدس جانبا وهرع إلى خصمه فسأله:

- هل جرحت؟

فقال بافل بتروفيتش:

- كان من حقي أن تدعوني إلى الخط الفاصل. أما الجرح فهو ظفيف لكل منا، حسب الشروط، حق في اطلاقه أخرى.

- ولكن معذرة، فلنؤجل ذلك إلى المرة التالية - اجاب بازاروف واسند بافل بتروفيتش الذي بدأ لونه يشحب - فانا الآن لست مبارزا، بل أنا طبيب علي قبل كل شيء أن افحص جرحك. بيوتر! تعال إلى هنا. بيوتر! أين اختفيت؟

فقال بافل بتروفيتش بصوت متقطع:

- كل ذلك سخف... أنا لست بحاجة إلى معونة أحد. ينبغي... مرة أخرى... - أراد أن يمكسك بشاربه، ولكن قواه خارت، فغارت عيناه، وفقد وعيه.

- يا للغرابة! اغماء! لأي سبب؟ - هتف بازاروف، وهو يضع بافل بتروفيتش على العشب - فلننظر ماذا حدث؟ - اخرج منديلا ومسح الدم وتحسس الجرح... ودمدم: - العظم سليم، والرصاصة اخترقت اللحم سطحيا، ولم تلتف إلا عضلة vastus externus. سيكون بوسعه أن يرقص بعد ثلاثة أسابيع!.. ومع ذلك اغمي عليه! يا لهؤلاء الناس العصبيين! ما اشد نعومة بشرتهم!

- هل قتل يا سيدي؟ - حف صوت بيوتر اللاهج وراء ظهره. فالتفت

بازاروف:

- احضر قليلا من المساء، يا اخي، بسرعة. أما هو فسيعيش اطول من

عمرك وعمري.

إلا أن الخادم العصري المكتمل لم يفهم كلماته، على ما يبدو، فظل واقفا دون حراك. فتح بافل بتروفيتش عينيه ببطء. فهمس بيوتر: «أنه يحتضرا!» وراح يرسم علامة الصليب.

- أنت على حق... ياله من وجه بليد! - قال السيد الجريح بابتسامة مكرهة.

- اذهب لاحضار الماء، يا للشيطان! - صار بازاروف.

- لا داعي... كان ذلك مجرد (دوار)^(٦٦) للحظة... ساعدني في الجلوس... هكذا... يكفي لف هذا الخدش بشيء ما وعند ذاك سأذهب إلى المنزل ماشيا، وإلا فيمكن ارسال عربة مكشوفة. أما المباراة فيمكن أن لا تستأنف إذا شئت. لقد تصرفت بنبل... هذا اليوم، اليوم فقط، لاحظ ذلك.

- لا داعي لتذكر الماضي - قال بازاروف - أما المستقبل فلا داعي كذلك لتدويخ الرأس بشأنه، لأنني انوي الارتحال دون ابطاء. دعني اضمد لك رجلك الآن. جرحك لا خطر فيه، ومع ذلك من الافضل وقف النزيف. ولكن من الضروري في بادئ الأمر اعادة الوعي إلى بيوتر.

هز بازاروف بيوتر من ياقته وارسله لاحضار العربة.

فقال له بافل بتروفيتش:

- احذر، لا ترعب أخي، واياك أن تخبره.

اسرع بيوتر راكضاً لاحضار العربة، بينما جلس كلا الخصمين على الارض ولزما الصمت. حاول بافل بتروفيتش أن لا ينظر إلى بازاروف، فلم يكن راغبا في التصالح معه رغم كل شيء. كان خجلا من غطرسته ومن اخفاقه. كان خجلا من هذه البدعة التي اختلقها مع أنه كان يشعر بانها لن

(٦٦) - في الأصل بالفرنسية Verige.

تنتهي على نحو أفضل مما انتهت إليه. وراح يهدئ نفسه: «لن يبقى هنا على الأقل، والحمد لله». استمر الصمت ثقيلًا مرهقًا. وكان كلاهما في حال سيئة. السرور لدى الاصدقاء، ولكنه غير مريح مطلقاً للخصوم، وخصوصاً عندما لا يمكن تسوية الأمر ولا الافتراق.

سأل بازاروف أخيراً:

– هل آلمك التضמיד؟

– كلا، لا بأس، رائع – اجاب بافل بتروفيتش، ثم اضاف بعد قليل:
– لن نستطيع خدع أخي، ولا بد من اخباره بأننا تحارشنا بسبب السياسة.
فقال بازاروف:

– حسنا جدا. بوسعك أن تخبره بأني شتمت جميع الموالين للانجليز
وكان هذا هو سبب المباراة.

– طيب. ما الذي يظنه بنا هذا الشخص، على حد اعتقادك؟ – واصل
بافل بتروفيتش كلامه مشيراً إلى نفس ذلك الفلاح الذي اقتاد الحصانين
المعقلين حيال بازاروف لبضع دقائق قبل المباراة، ثم عاد في نفس الطريق
ورفع قبعته عندما رأى «السيدين». فأجاب بازاروف:

– من يدري؟! أنه لا يظن شيئاً، على الاغلب. فالفلاح الروسي هو
ذلك المجهول الخفي الذي تحدثت عنه كثيراً السيدة رادكليف في زمان ما.
فمن الذي يفهمه؟ أنه هو لا يفهم نفسه.

– آ! هذا هو رأيك؟! – طفق بافل بتروفيتش يتكلم، ولكنه هتف
فجأة: – انظر، ماذا فعل صاحبك الابله بيوترا ها هو أخي قادم إلى هنا!
التفت بازاروف فرأى نيكولاي بتروفيتش بوجهه الشاحب جالسا
في العربة. قفز من العربة قبل أن تتوقف وهرع إلى أخيه. وقال بصوت
متهدج:

- ما يعني ذلك؟ يا يفغيني فاسيليفيتش، قل لي من فضلك ما هذا؟

فأجاب بافل بتروفيتش:

- لا شيء، عبثا اقلقوك. لقد تناقشنا قليلا أنا والسيد بازاروف، وقد دفعت الثمن أنا بعض الشيء.

- لأي سبب حدث ذلك، بالله عليكم؟

- كيف لي أن أوضح الأمر؟ السيد بازاروف تحدث بغير احترام عن السيد روبرت بيل. وأضيف فورا بأني أنا وحدي المذنب في كل شيء، فأنا الذي تحدثته وقد تصرف السيد بازاروف تصرفا ممتازا.

- هذا دم، كيف؟!!

- وهل كنت تظن أن ماء يجري في عروقي؟ هذا الفصاد نافع لي. أليس كذلك يا دكتور؟ ساعدني في ركوب العربة ولا تجعل الأفكار السوداء تسيطر عليك. فسوف اشفى غدا. هكذا. رائع. تحرك يا حودي. سار نيكولاي بتروفيتش وراء العربة. وكاد بازاروف يتخلف... فقال له نيكولاي بتروفيتش:

- ارجوك أن تعتنى بأخي إلى أن يأتي إلينا من المدينة طبيب آخر.
طأطأ بازاروف رأسه صامتا.

وبعد ساعة كان بافل بتروفيتش راقدًا على السرير ورجله مضمدة بمهارة. عم الهرج والمرج الدار. واصيبت فينيتشكا بالدوار. وكان نيكولاي بتروفيتش يتألم في السر، بينما راح اخوه يضحك ويطلق النكات، وخصوصا مع بازاروف. وقد ارتدى قميصا قطنيا خفيفا مع سترة الصباح الانيقة وطربوش. لم يسمح بانزال ستائر النوافذ واعرب على نحو طريف عن اسفه لضرورة الامتناع عن تناول الطعام.

ولكن حرارته ارتفعت أثناء الليل، وانتابه الصداع. وصل طبيب من

المدينة. (لم يستمع نيكولاي بتروفيتش إلى نصيحة أخيه بعدم استدعاء الطبيب. ثم أن بازاروف نفسه اراد ذلك، كان قد قبع في غرفته طوال النهار مصفراً حانقاً ولم يغادرها إلا ليعود المريض لامد قصير. صادف فينيتشكا مرتين، بيد أنها كانت تهرب منه مرتبة). نصح الطبيب الجديد المريض بتناول اشربة مرطبة، وأكد بالمناسبة، رأي بازاروف من أنه لا يتوقع أي خطر. وقال له نيكولاي بتروفيتش أن أخاه جرح نفسه بسبب قلة حذره. فأجاب الدكتور: «هيه!»، ولكنه اضاف، عندما تسلم في الحال خمسة وعشرين روبلا من الفضة: «حقاً! هذا أمر غالباً ما يحدث، بالضبط».

لم يخلع أحد في الدار ملابسه ولم ينام. كان نيكولاي بتروفيتش يتردد على أخيه بين الفينة والفينة سائراً على اطراف اصابعه، ويخرج منه على اطراف أصابعه أيضاً كانت تنتاب ذاك الغيوبة أو يئن بخفوت ويقول له بالفرنسية (ناموا)^(٦٧)، ويطلب شراباً. وقد رجا نيكولاي بتروفيتش فينيتشكا مرة أن تحمل إليه قدحاً من شراب الليمون فحذق بافل بتروفيتش فيها وتجرع القدح حتى الثمالة. وعند الصباح اشتدت حرارته قليلاً وانتابه هذيان خفيف. في بادئ الأمر تلفظ بافل بتروفيتش بكلمات غير مترابطة، ثم فتح عينيه فجأة، وقال عندما رأى أخاه قرب السرير منحنيا عليه بعناية:

- ألا ترى، يا نيكولاي، أن فينيتشكا تشبه نيللي بعض الشبه؟

- من هي نيللي هذه، يا بافل؟

- كيف تسأل من هي؟ أنها الأميرة... وخصوصاً في القسم العلوي من الوجه. (من نفس القبيل)^(٦٨).

(٦٧)- في الأصل بالفرنسية Couchez-vous.

(٦٨)- في الأصل بالفرنسية C'est de la meme famille.

لم يحمر نيكولاي بتروفيتش جواباً، بل تعجب في سره من حيوية العواطف القديمة لدى الإنسان. وفكر: «ها انبجست بعد كل هذا الزمان».

وقال بافل بتروفيتش بأنين وهو يضع يديه وراء رأسه كئيباً:

- آه كم أحب هذا الكائن الفارغ! - ثم متمم بعد عدة لحظات: - لن اسمح لأي شخص وقح أن يتجرأ على المساس...

تنهد نيكولاي بتروفيتش، فلم يكن يدرك من يعني أخوه بهذه الكلمات.

جاءه بازاروف في الساعة الثامنة من اليوم التالي. وقد اتسع له الوقت كي يجمع حاجياته ويطلق سراح ضفادعه وحشراتهِ وطبوره كلها.

فقال نيكولاي بتروفيتش وهو ينهض لاستقباله:

- جئت لتودعني؟

- بالضبط يا سيدي.

- أنني افهمك واستحسن تصرفك تماماً. فأخي المسكين مذنب، طبعاً. وقد تلقى جزاءه. وقال لي بنفسه أنه وضعك في موقف يستحيل معه أن تفعل غير ما فعلت. أنا واثق من أنك لم تستطع أن تتحاشى هذه المبالغة التي... التي تعزى بقدر ما إلى مجرد التناحر المستمر بين نظرتيكما المتبادلتين (أخذ نيكولاي بتروفيتش يخلط بين الكلمات). أن أخي إنسان من الطراز القديم، وهو عنيد سريع الغضب... والحمد لله على هذه النهاية. ثم أنني اتخذت كل الاجراءات اللازمة لتلافي اشاعة...

فقال بازاروف باستهانة:

- سأترك لك عنواني فيما إذا حدثت ورطة.

- آمل أن لا تقع أية ورطة يا يفغيني فاسيليفيتش... ويوسفني جداً أن

وجودك في داري قد انتهت... عفوا، قد انتهى على هذا النحو. ومما يزيد في اسفي أن اركادي...

- انني سأراه لا بد - اعترض بازاروف الذي تثير فيه كل انواع «التوضيحات» و «الاعتذارات» دوما شعورا بنفاد الصبر - وفي حالة العكس ارجوك أن تبلغه تحياتي واعتذاري.

- وأنا ارجوك... - اجاب نيكولاي بتروفيتش مطاطنا رأسه. ولكن بازاروف لم ينتظر ختام عبارته فانصرف.

عندما عرف بافل بتروفيتش باستعداد بازاروف للسفر اعرب عن رغبته في أن يراه ويشد على يده. إلا أن بازاروف ظل هذه المرة أيضا باردا كالجليد. فهو يعلم أن بافل بتروفيتش يريد أن يظهر بمظهر النبل. ولم يتسن لبازاروف أن يودع فينيتشكا. فقد تبادل معها النظرات فقط عبر النافذة. وبداله يحياها كثيرا. فقال في سره: «ستهلك على الاغلب!.. ولربما ستنجو على نحو ما». أما بيوتر فقد تأثر لدرجة كبيرة حتى صار ينتحب على كتف بازاروف إلى أن خفف عليه هذا بسؤاله «عما إذا كانت دموعه قد انهمرت أم لا»، في حين اضطرت دونياشا للالتجاء إلى الاجمة كي تخفي انفعالها. ارتقى المسؤول عن كل هذه الآلام عربة النقل واشعل سيجارا. عندما تماثلت أمام عينيه لآخر مرة عند منعطف الطريق، ضيعة كيرسانوف الممتدة بخط واحد مع دارها الجديدة اكتفى بازاروف بأن بصق وغمتم: «ارستقراطيون ملاعين» وتلفف بمعطفه على نحو اوثق.

سرعان ما تحسنت صحة بافل بتروفيتش، ولكنه اضطر للملازمة الفراش حوالي اسبوع. وقد تحمل الاسر، على حد تعبيره، بصبر واناة، بيد أنه افرط في الاهتمام بالزينة وطلب مرارا أن يرش بالكولونيا. كان نيكولاي بتروفيتش يقرأه المجلات، بينما استمرت فينيتشكا على خدمته كالسابق، حيث كانت تحمل اليه المرق وشراب الليمون والبيض البرشت

والشاي، ولكن رعباً خفياً كان ينتابها كلما دخلت غرفته. فأن تصرف بافل بتروفيتش غير المتوقع قد اربع كل من في الدار، وارعبها هي أكثر الجميع. وظل بروكوفيتش هو الشخص الوحيد الذي لم يضطرب وراح يقول أن الأسياد في زمانه أيضاً كانوا يتبارزون. «كان السادة النبلاء فقط يتبارزون فيما بينهم. أما أمثال هؤلاء السفلة فكانوا يأمرؤن بمعاقتهم في الاسطبل لقاء خشونتهم».

لم تتعرض فينيتشكا لتأنيب الضمير تقريبا، إلا أن فكرة السبب الحقيقي للنزاع كانت تعذبها بين الحين والآخر. ثم أن بافل بتروفيتش يسلط عليها نظرات غريبة... بحيث كانت تشعر بعينيه تحديقان فيها حتى عندما تدير له ظهرها. وقد اصابها الهزال بسبب القلق الداخلي الذي لا يفارقها، واصبحت، كما هي العادة، أكثر رقة وجمالا.

ذات صباح كان بافل بتروفيتش في حالة جيدة فانتقل من السرير إلى الاريقة، بينما توجه نيكولاي بتروفيتش إلى البيدر بعد ان استفسر عن صحته. حملت فينيتشكا قده الشاي ووضعتة على الطاولة وهمت بالخروج. لكن بافل بتروفيتش اوقفها قائلاً:

- لم أنت مستعجلة يا فينيتشكا؟ عندك شغل آخر؟
- كلا... أجل يا سيدي ينبغي أن نصب الشاي هناك.
- ستصبه دونياشا بدونك. أنا مريض فاجلسي معي قليلا. وبالمناسبة فأنا أريد التحدث إليك.

جلست فينيتشكا صامته على المقعد. فقال بافل بتروفيتش وهو يمسد شاربه:

- اسمعي، منذ زمان اردت أن أسألك: يخيل الي أنك تخافين مني. حقاً؟

– أنا يا سيدي؟

– نعم، أنت. أنك لا تنظرين إلي أبدا وكأنما لست بريئة.

احمرت فينيتشكا، ولكنها نظرت إلى بافل بتروفيتش الذي بدا لها غريبا بعض الشيء. فارتجف قلبها قليلا. وسألها هو:

– أنت بريئة أليس كذلك؟

فهمست هي:

– لم لا؟

– من يدري؟! وعلى كل حال، فازاء من يمكن أن تكوني مذنبه؟ ازائي أنا؟ أمر غير معقول. أزاء أشخاص آخرين في المنزل؟ شيء غير ممكن أيضا. لم يبق إلا أخي، ولكنك تحبينه، أليس كذلك؟
– أحبه.

– بكل روحك وفؤادك؟

– أنني أحب نيكولاي بتروفيتش بكل فؤادي.

– حقا؟ انظري الي يا عزيزتي (هذه هي المرة الأولى التي يخاطبها فيها بهذه الصيغة...) أنت تعلمين أن الكذب خطيئة كبرى!

– أنني لا أكذب، يا بافل بتروفيتش. كيف لي أن لا أحب نيكولاي بتروفيتش؟ أنني لست بحاجة إلى الحياة بدونه!

– ولن تستبدليه بأحد؟

– بمن استطيع أن استبدله؟

– من يدري؟ لنفرض، بهذا السيد الذي ارتحل من هنا.

نهضت فينيتشكا:

– يا الهي! لماذا تعذبونني يا بافل بتروفيتش؟ ما الذي فعلته لكم؟ كيف يمكن قول ذلك؟..

فقال بافل بتروفيتش بصوت حزين:

- فينيتشكا، لقد رأيت... .

- ما الذي رأيتموه يا سيدي؟

- هناك... في التعريشة.

احمرت فينيتشكا حتى الشعر، حتى الاذنين. وقالت بصعوبة:

- ما ذنبي في ذلك؟

فنهض بافل بتروفيتش قليلا:

- ألسنت مذبذبة؟ كلا؟ أبدا؟

- أنسي أحب نيكولاي بتروفيتش وحده في هذا العالم وسأحبه إلى الأبد: - قالت فينيتشكا بقوة مفاجئة، بينما اختنقت بعبراتها، - أما ما رأيتموه فسأقول في يوم القيامة بأني لم أكن مذبذبة فيه أبدا. ومن الأفضل أن أموت الآن ما دامت تحوم حولي الشبهات والظنون بأني اكفر بنعمة نيكولاي بتروفيتش... .

إلا أن صوتها خانها هنا، واحست في الوقت ذاته بان بافل بتروفيتش أخذ يدها وشد عليها... نظرت إليه وتجمدت على تلك الحال. لقد غدا أكثر شحوبا من السابق، وكانت عيناه تلمعان. والاعرب من ذلك أن دمعة وحيدة ثقيلة انحدرت على خده. ثم قال بهمس وحنان:

- فينيتشكا! احبي أخي، احبيه! أنه إنسان في منتهى الطيبة! ولا تخوينه من أجل أي شخص في الكون، ولا تسمعي كلاما من أي كان! فكري أنت: ما افظع أن يحب المرء دون أن يكون محبوبا! لا تتركي أبدا أخي المسكين نيكولاي!

جفت دموع فينيتشكا وفارقها الخوف من أثر دهشتها العظيمة. ولكن ما أشد ما ارتعبت عندما الصق بافل بتروفيتش، بافل بتروفيتش

نفسه، يدها إلى شفتيه وانحنى عليها، لا ليقبلها، بل ليتنهد مرتعشا بين
الفينة والأخرى.

«يا الهي! هل اصابته نوبة؟..» - فكرت في نفسها بينما نبضت فيه
أثناء تلك اللحظة حياته الموات كلها.

صر السلم تحت خطوات سريعة... فدفعها بعيدا عنه والقى برأسه على
الوسادة. فتح الباب فظهر نيكولاي بتروفيتش مرحا غضا مورد الخدين.
وكان ميتيا الغض المتورد كأبيه يتراقص على صدره في قميص لا غير،
وتشتبك رجلاه العاريتان بالازرار الكبيرة لمعطف ابيه الريفى.

هرعت إليه فينيتشكا على الفور وطوقته مع ميتيا بيديها ومال رأسها
على كتفه. دهش نيكولاي بتروفيتش: فأن فينيتشكا المتواضعة الخجول لم
تكن تلاطفه مطلقا بحضور شخص ثالث.

- ماذا دهاك؟ - سألها والتفت إلى أخيه وهو يسلمها ميتيا. ثم اقترب
من بافل بتروفيتش وقال مستفسرا:

- هل ساءت حالتك؟

فدس هذا وجهه في المنديل القطني وقال:

- كلا... بالعكس، حالتي أفضل بكثير.

- عبثا استعجلت في الانتقال إلى الأريكة - قال نيكولاي بتروفيتش،
ثم اضاف ملتفتا إلى فينيتشكا: - إلى أين أنت؟ - ولكنها كانت قد صفقت
الباب خارجة - جئت لاريك طفلي العملاق. لقد اشتاق إلى عمه. فلماذا
أخذته هي؟ ولكن ماذا دهاك؟ هل حدث بينكما شيء؟

فقال بافل بتروفيتش بصيغة مهيبة:

- يا أخي!

ارتعش نيكولاى بتروفيتش مرتعباً دون أن يعرف السبب. فكرر
بافل بتروفيتش قوله:

– يا أخى، اقطع عهداً بأنك ستنفذ طلباً لى.

– أى طلب؟ قل.

– أنه طلب هام جداً، عليه تتوقف، كما اعتقد، سعادة حياتك كلها.
طوال هذا الوقت كنت أفكر كثيراً بما أريد أن أقوله لك الآن... أخى
أد واجبك، واجب الإنسان النزيه النبيل، وضع حداً للغواية والقدوة
السيئة من جانبك، وأنت من أفضل الناس!

– ما الذى تعنيه يا بافل؟

– تزوج من فينيشكا رسمياً... أنها تحبك، وهى أم لابنك.

تراجع نيكولاى بتروفيتش خطوة و صفق يدا بيد.

– أهذا أنت الذى يقول ذلك؟ أنت بافل الذى كنت اعتبره دوماً
ألد خصم لهذا النوع من الزواج! أهذا أنت الذى يتكلم؟ إلا تعلم بأن
الشيء الوحيد الذى منعى من أداء ما وصفته أنت محقاً بواجبى إنما هو
احترامى لك؟!

– عبثاً كنت تحترمنى اذن – اعترض بافل بتروفيتش بابتسامة كئيبه
– أكاد اعتقد بأن بازاروف محق عندما لامنى على النزعة الارستقراطية.
كلا، يا أخى العزيز، كفانا تظاهراً وتفكيراً بالمجتمع الراقى: فقد غدونا
كهولاً متواضعين، و حان الوقت لكى نضع جانباً كل الهموم الباطلة،
ونؤدى واجبنا بالذات، كما تقول أنت. وسوف ترى أننا سنلقى
السعادة فضلاً عن ذلك.

هرع نيكولاى بتروفيتش ليعانق اخاه هاتفاً:

– لقد فتحت عينى نهائياً! وليس عبثاً أى كنت أؤكد دوماً بأنك

اطيب واذكى إنسان في العالم. وأنا أرى الآن أن حلمك يضاهي نبلك.
فقاطعه بافل بتروفيتش:

- على مهلك، على مهلك. لا تدعس رجل أخيك الحليم الذي تبارز
وهو في الخمسين من العمر تقريبا كما يفعل ملازم ثان. هكذا اذن، تقرر
الأمر: ستكون فينيتشكا... (عديلة لي) (٦٩).

- آه، يا عزيزي بافل! ولكن ماذا سيقول اركادي؟

- اركادي؟ ما عساه أن يقول؟! سيفرح. أنه لا يؤيد الزواج، ولكنه
سيسر للشعور بالمساواة. وبالفعل فما الداعي للفرقة (في القرن التاسع
عشر) (٧٠)؟

- آه، بافل، بافل! دعني اقبلك مرة أخرى. ولا تخف فساكون حذرا.
تعانق الشقيقان. ثم سأل بافل بتروفيتش:

- ماذا ترى، إلا يتعين اخبارها بنيتك في الحال؟

فاعترض نيكولاي بتروفيتش:

- ما الداعي للعجلة؟ فهل دار بينكما حديث بهذا الخصوص؟

-- حديث بيننا؟ (ما هذه الفكرة؟) (٧١)

- طيب. ينبغي أن تشفى أولا، أما هذه القضية فليست آنية. ينبغي

التفكير في الأمر جيدا...

- ولكنك صممت، أليس كذلك؟

(٦٩) في الأصل بالفرنسية belle-sœur.

(٧٠) في الأصل بالفرنسية au dix-neuvième siècle.

(٧١) في الأصل بالفرنسية Quelle idée.

- طبعاً. صممت. وأنا ممتن لك من الفؤاد. سأتركك الآن، إذ ينبغي أن ترتاح، فأن أي انفعال يؤذيك... ولكننا سنتحدث في الأمر فيما بعد. حاول أن تغفو، يا حبيبي، والله يعافيك!

فكر بافل بتروفيتش عندما ظل لوحده: «لماذا يشكرني؟ وكأننا لم يكن ذلك متوقفاً عليه هو! أما أنا فسأرتحل، حالما يتزوج، إلى مكان ما بعيد، إلى درزدن أو فلورنسة، وسأظل هناك إلى أن افطس».

بلل بافل بتروفيتش جبهته بالكولونيا وغمض عينيه. كان رأسه الجميل النحيل المضاء بنور النهار الساطع مستقراً على الوسادة البيضاء كرأس جثة... بل كان هو جثة هامدة في الواقع.

٢٥

في ظل شجرة دردار باسقة في بستان نيكولسكويه جلست كاتيا مع اركادي على مصطبة معشوشبة، وعلى الأرض قربهما ربضت الكلبة فيفي ولوت جسمها الطويل على نحو رشيق بالشكل الذي يعنقه الصيادون «برقدة الارنب». لزم اركادي الصمت وكذلك كاتيا. امسك بكتاب مفتوح بالكاد، في حين راحت هي تلتقط من السلة ما تبقى فيها من فئات الرغيف الأبيض وتلقي به إلى مجموعة صغيرة من العصافير كانت تتقافز وتزقزق بما يلازمها من تهور وجبن عند قدميها تماماً. كان نسيم خفيف يداعب أوراق الدردار ويحرك بهدوء بقعا ضوئية ذهبية باهتة إلى قدام وإلى وراء في الممشى القائم وعلى ظهر فيفي الاصفر. وكان ظل متوازن ينسكب على اركادي وكاتيا. ومن حين لآخر يلمع شريط من الضوء الساطع في شعرها. لزم الصمت، ولكن تقارباً مطمئناً تجلى في صمتهما وفي هيئة جلوسهما معاً: كان كل منهما كأنما لا يفكر بجاره، ولكنه مسرور في الخفاء لقربه منه. تغير محياهما منذ أن رأيناهما في آخر

مرة: فقد بدا ار كادي أكثر هدوءاً، بينما بدت كاتيا أكثر حيوية وجرأة.

ثم تحدث ار كادي:

– الا ترين أن الدر دار اسم على مسمى؟! فليس هناك شجرة تضاهيها في خفتها وشفافيتها.

رفعت كاتيا بصرها إلى أعلى وقالت: «أجل»، بينما فكر ار كادي في نفسه: «أنها لا تلو مني، مثل بازاروف، على كلامي الجميل». ثم قالت كاتيا مشيرة من عينيها إلى الكتاب في يد ار كادي:

– لا أحب هايني عندما يضحك ولا عندما يبكي. أنني أجهه عندما يغرق في التأملات والاحزان.

– أما أنا فأجهه عندما يضحك. – قال ار كادي.

– تلك آثار قديمة من اتجاهك الساخر... (ففكر ار كادي: «آثار قديمة! ماذا لو سمع بازاروف ذلك!») تمهل قليلاً، وسوف تغير آراءك.

– من يغير آرائني، أنت؟

– أختي، وبور فيري بلاتونيتش الذي لم تعد تتشاجر معه، وخالتي التي رافقتها إلى الكنيسة أول أمس.

– ما كان بوسعي أن ارفض! أما أنا سيرغيينا فهي نفسها، كما تذكرين، كانت متفقة مع يفغيني في أمور كثيرة.

– كانت أختي آنذاك متأثرة به مثلك تماماً.

– آنذاك؟ مثلي؟ هل لاحظت أنني صرت اتخلص من تأثيره؟

لاذت كاتيا بالصمت، فواصل ار كادي كلامه:

– اعرف أنه لم يعجبك بتاتاً.

– ليس بوسعي أن أحكم عليه.

- هل تعلمين، يا كاتيا، بأنني كل مرة اسمع فيها هذا الجواب لا أثق به؟.. فليس هناك إنسان لا يستطيع كل منا أن يحكم عليه! ذلك مجرد تملص.

- أقول لك الحقيقة... لا أستطيع القول بأنه لا يعجبني... ولكنني أحس بأنه غريب علي وبأني غريبة عليه.. بل وحتى أنت غريب عليه.
- لماذا؟

- كيف اجيب؟.. أنه بري مفترس، بينما نحن أليفون.

- وأنا أليف أيضاً؟

او مات كاتيا برأسها إيماءة ايجاب.

فحك ار كادي ما وراء اذنه وقال:

- اسمعي، يا كاتيا، ذلك في الواقع أمر مغيظ.

- هل تريد أن تكون مفترساً؟

- كلا، ولكنني أرغب أن أكون نشيطاً شديد البأس.

- هذا أمر لا يخضع للرغبة... صديقك، مثلاً، لا يرغب في ذلك، ولكنه موجود فيه.

- احم! أنت تعتقدين بأنه أثر على آنا سير غييفنا تأثيراً كبيراً، أليس كذلك؟

- بلى. ولكن لا أحد يستطيع أن يغلبها لأمد طويل - اضافت كاتيا بصوت خافت.

- لماذا تظنين ذلك؟

- انفتها شديدة... كلا، ليس ذلك ما اقصده... أنها تعتر باستقلالها غاية الاعتزاز.

- فمن لا يعترز به؟ - قال اركادي وفكر: «وما نفعه؟». وفكرت كاتيا أيضاً: «وما نفعه؟». أن أفكاراً متماثلة تتبادر دوماً إلى أذهان الشباب الذين كثيراً ما يلتقون بود.

ابتسم اركادي، واقترب قليلاً من كاتيا، فقال همساً:

- أنك تخافين منها بعض الشيء، أليس كذلك؟ اعترفي.

- ممن؟

- منها - كرر اركادي بلهجة ذات وزن.

- وأنت؟ - سألته كاتيا بدورها.

- وأنا أيضاً. لاحظي، قلت: وأنا أيضاً.

هددته كاتيا بسبابتها قائلة:

- ذلك يثير دهشتي. فأن اختي لم تكن تميل إليك في أي وقت أفضل

مما هي الآن. أنها تميل إليك أكثر بكثير مما في زيارتك الأولى.

- حقاً؟!

- ألم تلاحظ ذلك؟ ألا يبعث السرور فيك؟

تفكر اركادي قليلاً ثم قال:

- ما الذي جعلني استحق عطف آنا سيرغييفنا؟ هل السبب أنني

احضرت لها رسائل والدتك؟

- أجل. وهناك أسباب أخرى لن أقولها لك.

- لماذا؟

- لن أقولها.

- آه! اعرف ذلك. أنك عنيدة جداً.

- أجل، عنيدة.

- وشديدة الملاحظة.

القت كاتيا على ار كادي نظرة جانبية.

- ربما يثير ذلك غضبك؟ بم تفكر؟

- من أين لك هذه القابلية على الملاحظة الشديدة الموجودة لديك

فعلاً؟! أنك تر تعين لابسط الأمور ولا تثقين بأحد وتحاشين الجميع...

- عشت لو حدي أمدأ طويلاً، لذا صرت اطيّل التأمل. ولكن هل أنا

اتحاشي الجميع قاطبة؟

القي ار كادي نظرة ممتنة على كاتيا. وواصل كلامه:

- ذلك شيء رائع. ولكن الناس في مثل حالتك، أريد أن أقول الذين

يملكون ما تملكين، نادراً ما يتمتعون بهذه المهابة. فالحقيقة يصعب عليها

أن تصل إليهم، كما يصعب عليها أن تصل إلى القياصرة.

- ولكنني لست غنية.

استغرب ار كادي قولها ولم يفهم في الحال. وخطرت على باله فكرة:

«حقاً، فالضيعة كلها تعود لاختها!». ولم تكن هذه الفكرة مريرة بالنسبة

له. فقال:

- ما أحسن لهجة قولك هذا!

- ماذا؟

- قلت ذلك بأطيب وابسط شكل دون خجل ولا تباه. وبالمناسبة فأنا

أتصور أن الإنسان الذي يعلم ويقول أنه فقير ينبغي أن ينطوي على شيء

خاص، على بعض الغرور.

- أنسي لا أشعر بشيء من ذلك بفضل أختي. ولم أشر إلى حالتي المادية

إلا لأن الحديث ساقني إلى ذلك.

- حسناً. ولكن اعترفي، أليس لديك شيء من الغرور الذي ذكرته توأ.

- مثلاً؟

- مثلاً، استميتك عذراً على سؤالي: أنك لن تتزوجي من شخص غني، أليس كذلك؟

- إذا وقعت في هواه... كلا، يخيل إلي أنني لن أتزوج منه حتى إذا وقعت في هواه.

- هكذا اذن - هتف ار كادي، ثم أضاف بعد برهة: - ما الذي يجعلك ترفضين الزواج منه؟

- حتى الاغنية تتحدث عن عدم التكافؤ.

- ربما تريدين التسلط، أم...

- كلا ما الداعي لذلك؟ بالعكس، أنني على استعداد للانصياع، ولكن عدم التكافؤ شيء ثقيل. أما الانصياع المقترن باحترام النفس فأمر مفهوم، أنه السعادة. ولكن حالة الخضوع والتبعية... كلا فأنا غارقة فيها.

- غارقة فيها... - كرر ار كادي قول كاتيا وواصل كلامه: - أجل، أجل. ليس عبثاً أنك وأنا سيرغييفنا من صلب واحد. فأنت مستقلة مثلما هي. ولكنك أكثر انطواء. أنا واثق من أنك لن تبادري أبداً إلى الاعراب عن مشاعرك مهما كانت عميقة ومقدسة...

- وكيف يكون الأمر على غير ذلك؟ - سألت كاتيا.

- أنكما على نفس القدر من الفطنة. ولديك نفس القدر من قوة الطباع كما لديها، أن لم أقل أكثر منها...

- لا تقارن بيني وبين أختي من فضلك - قاطعته كاتيا على عجل - فذلك ليس بصالحني أبداً. يبدو وكأنك قد نسيت أن أختي حسناء ذكية. ولا يجدر بك، أنت يا ار كادي نيكولايفيتش على الخصوص... أن تقول

مثل هذه الكلمات، ويمثل هذه الملامح الجادة.

- ماذا تعنين بقولك: لا يجدر بي على الخصوص؟ وما الذي يجعلك

تعتقدين بأني امزح؟

- أنت ممزح طبعاً.

- حقاً؟ ولكن ماذا لو كنت واثقاً مما أقول: وماذا لو كنت أعتقد بأني لم

اعبر عن ذلك بعد بالشكل اللازم؟!؟

- أنني لا أفهمك.

- حقاً؟ ها أنا أرى الآن بأني بالغت كثيراً في امتداح قدرتك على

الملاحظة.

- كيف؟

لم يجب اركادي بشيء، واشاح بوجهه، بينما وجدت كاتيا في السلة قليلا
من فتات الرغيف وراحت تلقي به إلى العصافير. إلا أن حركة يدها كانت
شديدة، فصارت العصافير تطير بعيداً قبل أن يتسنى لها أن تلتقط الفتات.

وقال اركادي فجأة:

- كاتيا! ربما لن تعبأي، بما سأقول. ولكن اعلمي بأني لن استبدلك لا

باختك ولا بأي كان في هذا العالم.

ثم نهض وابتعد مستعجلاً، كما لو كان قد ارتعب من الكلمات التي

افلتها لسانه.

أما كاتيا فقد تراخت كلتا يديها وهوتا مع السلة على ركبتيها، وطأطأت
رأسها وراحت تنظر طويلاً إلى الجهة التي انصرف إليها اركادي. ظهرت
بوادر الحمرة القانية على وجنتيها، لكن الابتسامة لم تعرف سبيلها إلى شفثيها،
وكانت عيناها تعبران عن الحيرة وعن شعور آخر لا يزال غير معروف الهوية.

ودوى قربها صوت آنا سيرغيفنا:

- أنت لو حدك؟ خيل الي أنك توجهت إلى البستان مع اركادي.

حولت كاتيا نظرتها على مهل إلى اختها (التي وقفت على المشى بملابسها الانيقة، بل الفاخرة، وراحت تداعب اذني فيفي بطرف مظلتها المفتوحة) وقالت على مهل أيضاً: - لو حدي.

- ارى أنك - اجابت تلك ضاحكة - يبدو أنه ذهب إلى غرفته.
- أجل.

- هل كنتما تقرأن معا؟

- أجل.

لامست أنا سير غيفنا ذقن كاتيا ورفعت وجهها قليلاً: - ألم تتشاجرا؟
- كلا. اجابت كاتيا وازاحت يد اختها برفق.

- ما هذه اللهجة المهيبة في الجواب؟! ظننت أني سأجده هنا لا طرح عليه أن يتمشى معي. فقد طلب مني ذلك مراراً. احضروا لك حذاء من المدينة، اذهبي وقيسيهِ. فقد لاحظت يوم أمس أن احذيتك القديمة قد بليت كلياً. وأنت على العموم لا تولين ذلك ما يستحقه من اهتمام، بينما لديك ساقان رائعتان! ويداك حلوتان أيضاً... ولكنهما كبيرتان، لذا ينبغي الاستفادة من الساقين، ولكنك لست لعوباً.

واصلت أنا سير غيفنا سيرها على المشى بحفيف ينبعث من فستانها الجميل. نهضت كاتيا من المصطبة والتقطت هايني وذهبت أيضاً، ولكن لا لكي تقيس الحذاء.

فكرت في نفسها وهي ترتقي ببطء وخفة درجات سلم الشرفة الحجري الذي سخنته الشمس: «ساقان رائعتان. تقولين: ساقان رائعتان... وسوف يقع عندهما».

واعترأها الحجل في الحال فصعدت راكضة برشاقة. اجتاز اركادي

الرواق متجهماً إلى غرفته، فلحق به كبير الوصفاء وافاد بأن السيد بازروف ينتظره فيها.

فتمتم اركادي وكاد الرعب يستولي عليه:

- يفغيني؟ هل وصل من زمان؟

- وصل توأ وأمر بأن لا أخبر أنا سيرغييفنا عنه. طلب أن أوصله إليكم مباشرة.

«ماذا؟ هل حلت بأهلي مصيبة ما؟» - فكر اركادي، وركض على السلم مستعجلاً وفتح الباب في الحال. كان منظر بازروف قد جعله يهدأ فوراً، مع أن العين الثاقبة بوسعها، على ما يبدو، أن تستشف في الهيئة النحيلة للضيف غير المنتظر وفي ملامحه النشيطة كالسابق علائم الاضطراب الداخلي. كان جالساً على رف النافذة وعمرته على رأسه ومعطفه المغبر على كتفيه. ولم ينهض حتى عندما هرع إليه اركادي وعانقه بصخب واستغراب.

- لم اتوقع مجيئك مطلقاً! ما الذي دفعك؟! - كرر اركادي وهو يجول في الغرفة كما لو كان يتصور نفسه مسروراً وراغباً في اظهار سروره - كل شيء عندنا على ما يرام؟ وهل الجميع بخير؟

- كل شيء عندكم على ما يرام، ولكن ليس الجميع بخير - تمتم بازروف - كفاك هذراً، اطلب لي عصيراً واجلس واستمع إلى ما سأقوله لك بعبارات قليلة ولكن شديدة الواقع على ما اعتقد.

سكن اركادي، بينما حدثه بازروف عن مبارزته مع بافل بتروفيتش. دهش اركادي أشد الدهشة، بل وحزن بعض الشيء، لكنه لم ير ضرورة للاعراب عن ذلك. واكتفى بالسؤال عما إذا كان جرح عمه غير خطر حقاً. وعندما تلقى الجواب بأن الجرح مثير جداً ولكن ليس من الناحية

الطيبة، ابتسم على مضض، وانتابه شيء من الرعب والخجل. وبدأ بازاروف وكأنما قد فهمه، فقال:

- أجل، يا أخي، تلك عاقبة العيش مع الاقطاعيين. فالمرء مضطر إلى أن يغدو مثلهم ويساهم في جولات الفروسية. - واضاف بازاروف في الختام - شددت الرحال إلى «الآباء» وعرجت... لكسي احيطك علماً بذلك. كان بوسعي أن أقول شيئاً من هذا القبيل لولا أنني اعتبر الكذب بلا جدوى حماقة. كلا، الشيطان وحده يعلم لماذا... جئت إلى هنا. من المجدي للإنسان، كما أعتقد، أن يمسك أحياناً بناصيته ويجتث نفسه كما يجتث الفجل من التربة. وهذا ما فعلته أنا مؤخراً... ولكنني رغبت في أن القى نظرة أخرى على ما افتقرت عنه، على تلك التربة التي كنت غائصاً فيها.

فاعترض ار كادي قلقاً:

- آمل بأن هذه الكلمات لا تشملني. آمل بأنك لا تفكر في الافتراق عني.

لقى عليه بازاروف نظرة ثاقبة كادت تنغرز فيه:

- هل تعتقد بأن ذلك سيؤمك؟ يخيل الي أنك نفسك قد فارقنتني. أنت على قدر كبير من الطراوة والنظافة... لا بد وأن امورك مع آنا سيرغييفنا سائرة على ما يرام.

- أية أمور لي مع آنا سيرغييفنا؟

- أفلم تصل من المدينة إلى هنا من أجلها يا طائري الصغير؟ وبالمناسبة كيف حال مدارس الآحاد هناك؟.. ماذا؟ أفلمت متيماً بها؟ أم أنه حان الوقت للتواضع؟

- يفغيني، أنت تعلم بأني كنت على الدوام صريحاً معك. وأؤكد لك، وأقسم بالله، أنك على خطأ.

- احم! كلمة واحدة. - قال بازاروف بصوت خافت - لا داعي للغضب. فذلك أمر لا يعنيني مطلقاً. وبوسع الرومانسي أن يقول: احس بأننا على مفترق الطرق. أما أنا فأقول ببساطة، أننا مللنا بعضنا البعض. - يفغيني...

- لا ضير في ذلك، يا حبيبي. في العالم أشياء أكثر قيمة ولكنها تبعث على الملل أيضاً! أما الآن، أفلا يجدر بنا أن نتوابع؟! منذ أن وصلت إلى هنا أشعر بأني على اسوأ حال، كما لو قرأت المزيد من رسائل غوغول إلى عقلية متصرف كالوغا، وبالمناسبة فأني لم أطلب حل الخيول. - كيف؟ هذا مستحيل.

- لماذا؟

- ذلك أقصى حد من عدم اللياقة ازاء أنا سيرغييفنا التي سترغب في رؤيتك من كل يد. ناهيك عن أثر في نفسي أنا. - أنك متوهم.

- على العكس، أنا واثق منه - قال اركادي معترضاً - ثم ما الداعي للتصنع؟ وما دمنا بهذا الصدد، أفلم تأت إلى هنا من أجلها؟ - ربما، ولكنك متوهم مع ذلك.

غير أن اركادي كان على حق. فقد رغبت أنا سيرغييفنا في رؤية بازاروف وبعثت كبير الوصفاء ليدعوه إليها. استبدل بازاروف ملابسه قبل أن يتوجه إليها. واتضح أنه وضع بدلته الجديدة بين حاجياته بحيث يسهل التقاطها.

استقبلته اودينتسوف في غرفة الاستقبال وليس في الغرفة التي أعرب فيها، على نحو مباغت، عن حبه لها. ومدت له بلطف أصابع يدها، ولكن مسحة من التوتر العفوي كانت عالقة بمحياها.

فعاجلها بازاروف قائلاً:

- يا أنا سيرغييفنا، علي في المقام الأول أن أهدئك. فأمامك واحد من البشر الفانين أدرك خطاه من زمان ويأمل بأن الآخرين أيضاً قد نسوا حماقته. أنني مسافر لامد طويل، ومع أي لست كائناً رقيق القلب، فمن المحزن أن احمل معي فكرة تؤكد لي أنك تتذكرينني باشمئزاز. أأست محقاً؟

تنفست أنا سيرغييفنا الصعداء كشخص ارتقى لتوه جبلاً عالياً، وانعشت الابتسامة محياها. مدت يدها لبازاروف مجدداً وصافحته قائلة:

- الويل لمن يتذكر الغيظ الماضي، لا سيما وأني، إذا قلت الحق، أخطأت أنا أيضاً آنذاك بشيء ما، أن لم يكن بالتغنج. وباختصار: فلنبق أصدقاء كالسابق. كان ذلك حلماً، أليس كذلك؟ فمن يتذكر الاحلام يا ترى؟

- من يتذكرها؟ لا سيما وأن الحب شعور متكلف...
- حقاً؟ يسرني كل السرور أن اسمع ذلك.

هكذا تكلمت أنا سيرغييفنا، وهكذا تكلم بازاروف. وفكر كلاهما بأنهما يقولان الحقيقة. فهل كانت كلماتهما تنطوي على الحقيقة، الحقيقة كاملة؟ ذلك أمر لم يكونا يعلمان به هما، ناهيك عن المؤلف. بيد أنهما تجاذبا اطراف الحديث وكأتما قد صدقا بعضهما البعض كلياً.

وسألت أنا سيرغييفنا بازاروف، عرضاً، عما كان يفعله عند آل كيرسانوف. وكاد يحدثها عن مبارزته مع بافل بتروفيتش، لكنه احجم عن ذلك خشية أن تظن بأنه يحاول أن يتصنع أموراً مثيرة، فأجابها بأنه كان يعمل طوال الوقت. فقالت أنا سيرغييفنا:

- أما أنا فقد استولت علي الكتابة في بادئ الأمر، والله وحده يعرف السبب، حتى أنني صممت على السفر إلى الخارج. هل تتصور؟!.. ثم

انقشع ذلك كله، حيث وصل صديقك ارКАДي نيكولايفيتش فعدت من جديد إلى حالتى المعتادة، إلى دورى الحقيقى.

– أى دور، يا ترى؟

دور المربية والمرشدة والأم، سمه كيفما تشاء. وبالمناسبة هل تعلم بأننى فى السابق لم أكن أفهم جيداً الصداقة الحميمة بينك وبين ارКАДي نيكولايفيتش. كنت أظن بأنه إنسان ليس ذا شأن كبير. أما الآن فقد عرفته على نحو أفضل واقتنعت بأنه ذكى... والأمر الأهم هو أنه فى ريعان الشباب... ليس مثلنا يا يفغينى فاسيليفيتش.

فسأل بازاروف:

– ألا يزال يتهيب بحضورك؟

– هل كان... – بدأت آنا سيرغييفنا كلامها، ولكنها تفكرت قليلاً، واطافت: – أصبح أكثر اطمئناناً، وصار يتحدث معى. فى السابق كان يتحاشانى. وبالمناسبة فأنا أيضاً لم أكن أبحث عن سبيل لمعاشرته. فهو وكاتيا صديقان حميمان.

شعر بازاروف بالاسف وفكر فى نفسه: «لا يمكن للمرأة أن لا تحتال!». ثم قال بابتسامة ساخرة فاترة:

– تقولين أنه كان يتحاشاك. ولكن، على ما يبدو، لم يبق خافياً عليك أنه يحبك، أليس كذلك؟

– ماذا؟ وهو أيضاً؟ – انفلت السؤال من لسان آنا سيرغييفنا.

– وهو أيضاً. – كرر بازاروف بانحناءة وادعة – هل من المعقول أنك لم تكونى تعرفين ذلك، وأنى أخبرتك نبأ جديد؟

غضت آنا سيرغييفنا بصرها وقالت:

– أنت على خطأ يا يفغينى فاسيليفيتش.

- لا أظن. ولكن ربما ما كان يتعين علي أن أذكر ذلك.

ثم أضاف في سره: «ولذا لا تتحايلي بعد الآن».

- لم لا تذكره؟! لكنني اعتقد بأنك، في هذه الحالة أيضاً، تعلق أهمية كبيرة على الانطباع العابر. ويخيل إلي انك تميل إلى المبالغة.

- من الأفضل، يا أنا سيرغييفنا، أن لا نتحدث عن ذلك.

- لماذا؟! - اعترضت عليه، ولكنها حولت الحديث إلى جانب آخر.

كانت مع ذلك تشعر بالحنجمل من بازاروف، بالرغم من أنها قالت له وافنعت نفسها بأن النسيان قد طوى كل شيء. وعندما كانت تتحدث معه بأبسط شكل، وحتى عندما كانت تمزح معه، شعرت بأن الخوف يأخذ بخناقها بعض الشيء. فالتاس على ظهر الباخرة في البحر، يتكلمون ويضحكون بلا اكتراث، ويتجاذبون أطراف الحديث كما على الأرض الصلبة، ولكنه حالما تتوقف الباخرة للحظة، وحالما تظهر أقل اشارة إلى شيء ما غير معتاد تلوح على جميع الوجوه فوراً مسحة القلق التي تدل على الاحساس الدائم بالخطر المستمر.

استغرق حديث أنا سيرغييفنا مع بازاروف أمداً قصيراً. فقد اخذت تتأمل وصارت تجيب على نحو غير مركز، ثم اقترحت عليه أخيراً الانتقال إلى الصالة حيث وجدا الاميرة وكاتيا. فسألت ربة البيت: «أين ار كادي نيكولايفيتش؟» وبعثت في طلبه عندما علمت بأنه لم يظهر منذ أكثر من ساعة. لم يعثروا عليه في الحال: فقد اعتكف في لجة البستان وجلس غارقاً في أفكاره مسنداً ذقنه إلى يديه المتصالبتين. كانت أفكاره عميقة هامة، ولكن غير حزيننة. كان يعلم أن أنا سيرغييفنا قد اختلت ببازاروف، فلم يشعر بالغيرة كما في السابق، بل، على العكس، كان وجهه مشرقاً بهدوء، وبدا وكأنه مسرور ومستغرب لشيء ما، ومصمم على أمر ما.

ما كان المرحوم اودينتسوف يهوى التجديد، ولكنه كان يتقبل «مظاهر الذوق الرفيع»، ولذا انشأ في بستانه، بين المشتل المدفأ والبركة، بناية من القرميد الروسي تشبه الرواق اليوناني القديم. وعلى الجدار الخلفي الاصم لهذا الرواق أو الكاليري، حفرت ستة محاريب لتمثيل كان اودينتسوف ينوي جلبها من الخارج. وكان على هذه التماثيل أن تجسد: الانفراد والصمت والتأمل والمخنوليا والحشمة والحساسية. جلب أحد هذه التماثيل، وهو تمثال الهة الصمت واصبعها على شفيتها، ونصب في محرابه. لكن اطفال الخدم كسروا أنف التمثال في اليوم ذاته. ومع أن الجصاص المجاور اعتزم أن ينحت له أنفا «أفضل بمرتين من السابق»، فقد أمر اودينتسوف برفعه. ولذا احتل التمثال مكانه في ركن مستودع الطاحونة، حيث ظل هناك سنين طويلة يثير الرعب الوسواسي لدى الفلاحات. وتغطي الجانب المامي من الرواق بشجيرات كثيفة، فلا يلوح فوق بحر من الخضرة إلا تيجان الاعمدة. كان الجو في الرواق بارداً حتى في الظهيرة. ولم تكن أنا سيرغييفنا تهوى التردد على هذا المكان منذ أن رأته فيه أفعى، إلا أن كاتيا غالباً ما تجلس على المصطبة الحجرية الواسعة المبنية عند أحد المحاريب. كانت، وسط النضارة والظلال، تطالع أو تعمل أو تنساق للاحساس بالسكون المطبق، ذلك الاحساس المعروف لكل شخص، على ما يبدو، وتكمن روعته في التوقع الايكام اللاشعوري تقريبا لموجة الحياة العريضة التي تنداح بلا انقطاع حولنا وفي دخيلتنا.

في اليوم التالي لوصول بازاروف جلست كاتيا على مصطبتها المفضلة، وجلس اركادي قريبا من جديد. فقد رجاها أن تصطحبه إلى «الكاليري».

بقي على موعد الفطور زهاء الساعة. وحل الضحى اللافح محل الصباح الندي. وظل محيا اركادي محتفظاً بمسحة الأمس، وكانت كاتيا مهمومة.

فبعد احتساء الشاي مباشرة استدعتها اختها إلى مكتبها ونصحتها، بعد شيء من الملاحظة التمهيديّة (الأمر الذي كان دوماً يخيف كاتيا لدرجة ما) بأن تلتزم الحذر في سلوكها مع اركادي، وتحاشي خصوصاً الاحاديث الانفرادية معه، مما لاحظته خالتها وكل من في الدار كما زعمت. زد على ذلك أن أنا سيرغييفنا كانت معتكرة المزاج مساء أمس، بل وأن كاتيا نفسها كانت تشعر بالخجل وكأنما اقترفت ذنباً. وعندما لبت طلب اركادي قطعت على نفسها عهداً بأن تلك هي آخر مرة. وبدأ اركادي كلامه بشيء من الحياء وعدم التكلف في الوقت ذاته:

- كاتيا! منذ أن اسعدني الحظ في التواجد وأياك في دار واحدة تحدثت معك عن أمور كثيرة، بينما ظلت مسألة واحدة هامة جداً بالنسبة لي... لم أتناولها بعد. - ثم أضاف قائلاً وهو يلاحظ ويتحاشى نظرة كاتيا المتسائلة المسلطة عليه: - لقد قلت هنا أمس أنني تغيرت. وبالفعل فقد تغيرت لدرجة كبيرة، وأنت تعرفين ذلك أفضل من أي إنسان آخر، فأنا مدين لك، في الواقع، بهذا التغيير.

- أنا؟! لي؟!... - عمت كاتيا.

فواصل اركادي كلامه:

- أنني لم أعد غلاماً متعجباً كما كنت عندما وصلت إلى هنا. وليس عبثاً أني بلغت الثالثة والعشرين. وأنا لا أزال كالسابق راغباً في أن أعدو إنساناً نافعاً وأن اكرس كل قواي للحقيقة، ولكنني لم أعد ابحت عن مثلي العليا حيثما كنت ابحت عنها في الماضي. فهي تلوح لي... اقرب بكثير. ولم أكن قبل الآن أفهم نفسي، فقد كنت اتوخى حل مهمات فوق طاقتي... وقد تفتحت عيناى مؤخراً بفضل شعور واحد... أنني لا أتكلم بشكل واضح تماماً، ولكنني آمل بأنك ستفهميني...

لم تحر كاتيا جواباً، ولكنها كفت عن التحديق في اركادي، وتكلم هو

من جديد بصوت أكثر اضطراباً، في حين واصل شرشور بين أوراق البتولا ترتيل انشودته بلامبالاة:

- أعتقد أن من واجب كل إنسان شريف أن يكون صريحاً منتهى الصراحة مع الناس الذين... مع الذين... وباختصار مع الأشخاص الاعزاء عليه، ولذلك فأني... أني أنوي...

وهنا خانت البلاغة اركادي، فاضطرب وتلعثم واضطر إلى الصمت قليلاً. لم ترفع كاتيا بصرها طوال الوقت. وبدا وكأنها لم تفهم الام يقود محدثها هذا الكلام، فظلت تنتظر شيئاً. ثم بدأ اركادي كلامه بعد أن استجمع قواه من جديد:

- أتوقع بأني سأثير دهشتك. لا سيما وأن هذا الشعور يمسك أنت على نحو ما... لاحظني: على نحو ما... لقد لمتني أمس، حسبما أتذكر، على قلة جدتي - واصل اركادي كلامه ومظهره يشبه مظهر شخص تورط في مستقع و صار يشعر بأنه يغوص فيه مع كل خطوة يخطوها، ولكنه مع ذلك يستعجل إلى الامام على أمل الخلاص بأسرع ما يمكن، - أن هذه الملامة كثيراً ما توجه إلى الشباب... وتسلط عليهم... حتى عندما لا يعودون يستحقونها. ولو كنت امتلك المزيد من الثقة بالنفس... ((ساعديني، ساعديني قليلاً!)) - فكر اركادي يائساً، ولكن كاتيا ظلت كالسابق مشيحة بوجهها) ولو كان باستطاعتي أن آمل...

- لو كان باستطاعتي أن اثق بما تقول... - تهادى في تلك اللحظة صوت آنا سيرغييفنا الصافي.

صمت اركادي في الحال، بينما شحب لون كاتيا. كان المشى يحاذي الشجيرات التي تحجب الرواق. وكانت آنا سيرغييفنا تمشى هناك بمرافقة بازاروف. وما كان بوسع كاتيا واركادي أن يرياها، ولكنهما سمعا كل كلمة، مع حفيف الفستان، بل وحتى الانفاس. سارا يضع خطوات



وتوقفاً، كما لو كان ذلك عمداً، في مواجهة الرواق مباشرة. وواصلت أنا سير غييفنا كلامها:

- ألا ترى أننا نحن الاثنين على خطأ؟ لم نعد في ريعان الشباب، وخصوصاً أنا. عشنا عمراً، وتعبنا، وكلانا - فما الداعي للتواضع؟ - ذكي، فقد اهتمنا ببعضنا البعض في بادئ الأمر، وثار لدينا الفضول... وبعد ذلك...

- وبعد ذلك نفقت أنا - عاجلها بازاروف.

- أنت تعرف أن هذا ليس هو السبب في خلافنا. ومهما يكن من أمر، فالسبب الرئيسي هو أننا لم نكن بحاجة ماسة إلى بعضنا البعض. ففينا الكثير من... التماثل، أن صح القول. ولم نفهم ذلك في الحال. أما اركادي فعلى العكس...

- هل أنت بحاجة إليه؟ - سألها بازاروف.

- كفاك يا يفغيني فاسيليفيتش. أنت تقول بأنه يشعر بميل نحوي. وقد خيل لي دوماً أنه معجب بي. وأنا اعلم بأي يمكن أن أكون بمثابة مربية له، ولكن لا اخفي عليك أنني صرت أفكر به لدرجة أكبر. ففي هذا الشعور الفتى الغض شيء ما رائع....

- كلمة جذاب أكثر مناسبة لهذه الحال - قاطعها بازاروف، وكانت فورة المرارة واضحة في صوته المكبوت الهادئ. - تحدث اركادي أمس معي ببعض التحفظ فلم يقل شيئاً عنك ولا عن اختك... وتلك إشارة هامة.

فقالت أنا سير غييفنا:

- أنه يعامل كاتيا معاملة الاخ لاخته. وهذا شيء يعجبني فيه، مع أنه ربما لا يجدر بي أن أسمح بمثل هذا التقارب بينهما.

- هل ذلك هو شعور الاخت ازاء اختها؟ - سأل بازاروف متمهلاً.
- طبعاً... لماذا توقفتنا؟ فلنذهب، ما أغرب هذا الحديث بيننا، أليس كذلك؟ وهل كنت أتوقع بأنني سأحدث معك على هذا النحو؟ أنت تعرف بأنني أخشاك... وأنا في الوقت ذاته اثق بك لأنك، في الواقع، طيب القلب تماماً.

- لست طيب القلب ابداً. هذا أولاً. وثانياً: لقد فقدت أية أهمية بالنسبة لك. ولذا تقولين بأنني طيب القلب... لا فرق بين ذلك وبين وضع اكليل من الزهور على رأس الميت.

- يفغيني فاسيليفيتش، لست لدينا سلطة على... - تكلمت آنا سيرغييفنا، إلا أن الريح هبت ووشوشت الاوراق وطارت كلماتها بعيداً. ثم قال بازاروف بعد برهة:

- أنت حرة طليقة.

ولم يعد بالامكان سماع الحوار، فقد ابتعدت الخطوات... وسكن كل شيء.

التفت اركادي إلى كاتيا وكانت جالسة بنفس الوضعية، لكنها طأطأت رأسها بدرجة أكبر. فقال بصوت مرتعش وهو يشد يداً على يد:

- كاتيا! أحبك إلى الابد دون رجعة، ولا أحد أحداً غيرك. كنت أريد أن أقول لك ذلك واعرف رأيك فيه. أنني التمس يدك لأنني لست غنياً ولأنني أشعر بالاستعداد لتحمل كل التضحيات... لماذا لا تجيبين؟ ألا تصدقيني؟ هل تظنين بأنني أقول شيئاً طائشاً؟ ولكن تذكرني هذه الأيام الأخيرة! أفلم تقتنعي من زمان بأن كل شيء ما عداك، افهميني، كل شيء اختفى من زمان دون أن يترك أثراً؟ تطلعي الي، انطقي ولو بكلمة واحدة... أنني أحب... أحبك... صدقيني!

ألقت كاتيا على ار كادي نظرة صافية ذات شأن، وكادت تبتسم بعد تأمل عميق، ثم قالت:
- حسناً.

قفز ار كادي من المصطبة:

- حسناً؟ هل قلت: حسناً، يا كاتيا؟! ماذا تعني هذه الكلمة؟ هل تعني
أني أحبك وأنتك تصدقيني، أم... أم... أم...؟ أنا أخشى من اكمال السؤال.

- حسناً - كررت كاتيا، ولكنه فهمها هذه المرة. فتلقف يديها
الكبيرتين الرائعتين وضغطهما على صدره وهو يتنفس بعسر من شدة
التأثر والاعجاب. كانت ساقاه بالكاد تحملانه، وراح يكرر: «كاتيا،
كاتيا...». أما هي فقد بكت على نحو عذري، ثم ضحكت بهدوء
لدموعها. من لم ير مثل هذه الدموع في عيني المحبوب لا يعرف، بعد،
مدى السعادة التي يمكن للإنسان على الأرض أن يتذوقها وهو متجمد
كلياً بسبب الامتان والحياء.

في ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي بعثت أنا سيرغييفنا في طلب
بازاروف. حضر إلى مكتبها فسلمته بضحكة متكلفة ورقة بريدية مطوية.
وكانت تلك رسالة من ار كادي يلتمس فيها يد اختها.

قرأ بازاروف الرسالة بلمح البصر وبذل جهده كي لا يعرب عن شعور
الشماتة الذي استولى عليه في الحال. ثم قال:

- هكذا اذن. ولكنك، كما يخيل الي، كنت حتى يوم أمس تعتقدن
بأنه يحب كاتيا حب الاخ لاخته. فما الذي تنوين فعله الآن؟

- ماذا تنصحنني أنت؟ - سألته أنا سيرغييفنا وهي تتابع ضحكتها.

فأجابها بازاروف بضحكة أيضاً، مع أنه لم يكن مسروراً أبداً، وما كان
راغباً في الضحك على الاطلاق، كما لم تكن راغبة فيه هي:

- اظن أن من الضروري تبريك الشابين. فهما زوج طيب من كل النواحي. ثروة كيرسانوف لا يستهان بها، وهو وحيد ابيه، ثم أن اياه طيب القلب ولن يعترض.

جابت اودينتسوف الغرفة، وكان الاحمرار والشحوب يتناوبان في الظهور على محياها. ثم قالت:

- هل تعتقد بذلك؟ حسناً! لا ارى مانعاً... وأنا مسرورة لكاتيا.. ولاركادي نيكولايفيتش... بديهي أنني سأنتظر جواب ابيه. وسوف ابعثه هو إليه. اتضح أني كنت بالأمس على حق عندما قلت لك بأننا لم نعد من الشباب... فكيف لم ألحظ شيئاً؟ ذلك ما يثير دهشتي!

ضحكت أنا سيرغييفنا من جديد واشاحت بوجهها في الحال. فقال بازاروف وقد ضحك هو الآخر:

- أصبح شباب اليوم أكثر تحايلاً.
وبعد برهة من الصمت قال مجدداً:

- وداعاً. اتمنى لك أن تنجز هذا الأمر على أفضل ما يكون. أما أنا فسأفرح من بعيد.

- ماذا؟ هل ستسافر؟ ما الذي يمنعك الآن من البقاء؟ ابق... فالحديث معك ذو شجون... كما لو كان المرء يسير على شفا هوة سحيقة. في البداية ينتابه الوجع، وفيما بعد لا يدري من أين تأتيه الشجاعة. ابق.

- شكراً لك يا آنا سيرغييفنا على هذا العرض، وعلى امتداح مواهبي الحوارية. ولكن يخيل الي أني صرفت وقتاً طويلاً جداً في التواجد في وسط غريب علي. فالأسماك الطائرة تستطيع البقاء في الجو بعض الوقت، ولكنها سرعان ما تقع على الماء من جديد. فاسمحي لي أن اندفع أنا أيضاً إلى بيتي.

تطلعت اودينتسوففا إلى بازاروف. كانت ابتسامة ساخرة مريرة ترسم على وجهه الشاحب المتشنج. وفكرت في نفسها «كان يحبني!». واحست بالعطف عليه، فمدت له يدها بشعور من الود.

فهمها هو، فقال متراجعاً خطوة إلى الوراء:

- كلا! أنني إنسان فقير، ولكنني لم اتقبل الصدقات حتى الآن. وداعاً يا سيدتي، معك العافية.

فقالت أنا سيرغييفنا بحركة عفوية:

- أنا واثقة من أن هذا ليس لقاءنا الأخير.

- ربما. فكل شيء ممكن في هذا العالم - أجاب بازاروف وانحنى لها وانصرف.

وفي اليوم ذاته قال لاركادي وهو جالس القرفصاء يعد حقييته:

- ها قد صممت على بناء عش لك، أليس كذلك؟ لا بأس، ذلك شيء حسن. ولكن عبثاً تحايلت. كنت أتوقع منك وجهة أخرى تماماً. أم أن ذلك ربما كان مبالغاً لك؟

فأجاب اركادي:

- لم أكن أتوقعه بالضبط عندما فارقتك. ولكن لماذا تتحايلى أنت وتقول «شيء حسن»، كما لو أنني لا اعرف أريك بالزواج؟

- آه، يا صديقي العزيز! ما هذه التعابير؟! لاحظ ما افعل: في الحقيقة مكان فارغ وأنا احشوه بالقش. وكذا الأمر في حقيية حياتنا، نحشوها بأي شيء كان على شرط أن لا يظلم فيها فراغ. لا تزعل، ارجوك، فأنت تذكر، على ما يبدو، رأيي في كاتيا. فأن سواها من الفتيات يشتهرن بالذكاء لمجرد أنهن يتأوهن بذكاء. أما فتاتك فلن تتنازل عن حق لها، بل وسوف تضبطك أنت. وهذا أمر طبيعي. - صفق غطاء الحقيية ونهض

- أما الآن فأكرر القول مودعاً... ولا داعي لخداع النفس: أودعك إلى الأبد. ولقد شعرت أنت بذلك... وتصرفت بحصافة. فأنت لم تخلق لحياتنا المريعة اللاذعة، حياة العزوبة. وليست فيك وقاحة ولا حقد، بل لديك بسالة الشباب وحماس الشباب. وهذا أمر لا يصلح لنا. فالنبلاء، من أمثالك، لا يمكنهم أن يسيروا إلى أبعد من الاستكانة الكريمة أو الفوران الكريم، بينما ذلك شيء تافه. وأنتم، مثلاً، لا تحاربون، لكنكم تتصورون أنفسكم فرساناً، أما نحن فنبتغي المعركة حقاً. أين أنت من ذلك؟! أن غبارنا يؤذي عينيك، وأوساخنا تلوثك، بل وأنت لم تبلغ مستوانا، فأنت معجب بنفسك عفويًا، ويبعث السرور فيك كونك تلوم نفسك بنفسك. ذلك شيء ممل بالنسبة لنا. فنحن بحاجة إلى التنديد بالآخرين! نحن بحاجة إلى تحطيم الآخرين! أنك شاب رائع، ولكنك، مع ذلك، مجرد نبيل لبرالي رقيق.

فتمتم ار كادي حزينا:

- تودعني إلى الأبد، يا يفغيني، وليست لديك كلمات أخرى تقولها لي؟

حك بازاروف قفاه وقال:

- لدي، يا ار كادي، لدي كلمات أخرى، ولكني لن أقولها لأنها رومانسية، بكل ما فيها من لطافة تافهة. ولكن عجل أنت بالزواج وابن عشك، وانجب المزيد من الاطفال. وسوف يكونون اذكيا لمجرد أنهم سيولدون في الوقت المناسب، وليس مثلما ولدنا أنا وأنت. أها! ارى الخيول جاهزة. آن الاوان. لقد ودعت الجميع... ماذا؟ هل نتعانق؟ ارمى ار كادي على رقبة معلمه وصديقه السابق فانهمرت الدموع من عينيه.

وقال بازاروف بهدوء:

- ذلك هو فعل الفتوة! أنني أعلق آمالي على كاتيا. فسوف توأسيك

بسرعة!

وعندما صعد إلى العربة قال لاركادي:

- وداعاً يا أخي! - ثم أشار إلى زاغين جاثمين جنباً إلى جنب على

سقف الاسطبل واطاف قائلاً: - انظر! وتعلم!

فسأل اركادي:

- ماذا يعني ذلك؟

- كيف؟ هل أنت ضعيف إلى هذا الحد في علم الطبيعة؟ أم أنك نسيت

أن الزاغ أفضل طير يحافظ على الاواصر العائلية؟ إليك مثلاً يحتذى! ..

وداعاً، سنيور!

هدرت العربة وتهادت.

لقد قال بازاروف الحقيقة. فعندما تحدث اركادي مع كاتيا في المساء

نسي معلمه كلياً، وصار يخضع لها بالتدريج. شعرت كاتيا بذلك ولم

تستغرب له. كان يتعين عليه أن يرتحل في اليوم التالي إلى مارينو، إلى

نيكولاي بتروفيتش. ولم ترغب أنا سيرغييفنا في التضييق على الشابين،

لكنها لم تتركهما وحيدين لأمد طويل بسبب من اللياقة لا غير. وقد ابعدت

عنهما، بكل لطف، الأميرة التي تلقت نبأ الخطوبة بهياج ونحيب. في

بادئ الأمر كانت أنا سيرغييفنا تخشى أن يغدو منظر سعادتهما أمراً ثقيلاً

عليها بعض الشيء، ولكن اتضح العكس تماماً: فهذا المنظر لم يشغل عليها،

بل شغلها وجعلها، في الأخير، أكثر حناناً. فرحت أنا سيرغييفنا لذلك

واغتمت له في الوقت ذاته. وفكرت في نفسها: «يبدو أن بازاروف على

حق. فليس هناك غير حب الاستطلاع، والفضول، والرغبة في الاستقرار،

والانانية...». ثم قالت بصوت عال:

- اطفال! فهل الحب شعور متكلف؟

بيد أن كاتيا واركا دي لم يفهماها. فقد غدت غريبة عليهما وظل عالقاً في بالهما الحوار الذي استمعا إليه دون قصد. وبالمناسبة فقد هدأتها أنا سيرغييفنا في القريب العاجل. ولم يكن ذلك عسيراً عليها: إذ هدأت هي نفسها.

٢٧

سر العجوزان بازاروف لوصول ابنهما سرورراً لا حدود له، فلم يكونا يتوقعان وصوله. واضطربت آرينا فلا سيفنا وصارت تحوم في الدار إلى درجة جعلت فاسيلي ايفانوفيتش يشبهها «بالكروان». وبالفعل كان الذيل الابتر في بلوزتها القصيرة يضيء عليها مسحة الطيور. أما هو فكان يتمتم ويعض على الطرف الكهرماني لجليونه الطويل ويدير رأسه ذات اليمين وذات الشمال ممسكاً عنقه بأصابعه وكأنما يجرب ما إذا كان رأسه مركباً عليه بالشكل اللازم أم لا. وكان يفتح فمه الواسع على حين غرة ويقهقه دون ضجيج.

وقال بازاروف الابن لأبيه:

- جئت، يا شيخ، لابقى عندك ستة أسابيع كاملة. اريد أن اعمل، فلا تشوش علي من فضلك.

فأجاب فاسيلي ايفانوفيتش:

- سوف لن ترى وجهي. لن اشوش عليك مطلقاً!

وقد وفي بوعدته. فبعد أن اسكن ابنه في مكتبه كالسابق، كاد يختفي عنه وصار يمنع زوجته من التماذي في ابداء حنانها. وقال لها: «كنا، ايتها الام، قد اضجرنا نينوشا بعض الشيء في مجيئه الأول. أما الآن فينبغي أن

نكون أكثر دهاء)). وافقت آرينا فلاسيفنا زوجها في الرأي، ولكنها لم تريح الكثير من ذلك. إذ لم تعد ترى ابنها إلا أثناء الطعام، وصارت تخشى نهائياً التحدث معه. فما تكاد تقول «ينوشا!»، وما يكاد ابنها يلتفت إليها، حتى تنهمك في ملامسة شراريب حقيبتها وتمتم: «لا شيء، لا أقصد شيئاً». ثم توجه إلى فاسيلي ايفانوفيتش وتقول له بعد أن تسند خدها إلى يدها: «كيف لي، يا عزيزي، أن اعرف ما يشتهي ينيوشا في الغداء اليوم، هل يريد شوربة الكرنب أم حساء البنجر مع الكرنب؟». - «لماذا لا تسألينه بنفسك؟» - «أخشى أن اضجره!». إلا أن بازاروف سرعان ما كف من تلقاء نفسه عن الاعتكاف: فقد زايته حمى العمل وحل محلها ضجر كثيب وقلق مكثوم. ولو حظ ارهاق غريب في حركاته وسكناته، وحتى مشيته الصلبة الجسورة السريعة قد تبدلت. لم يعد يتمشى على انفراد وصار ينشد المعاشرة. أخذ يحتسي الشاي في غرفة الاستقبال ويتجول في البستان مع فاسيلي ايفانوفيتش ويدخن معه بصمت. واستفسر ذات مرة عن صحة الخوري الكسي. في بادئ الأمر سرفاسيلي ايفانوفيتش لهذا التحول، ولكن فرحته لم تطل. وصار يتشكى لزوجته هامساً: «ينوشا يعذبني. لا اعتقد بأنه مستاء أو غير قانع. فذلك شيء هين. ولكن المصيبة هي أنه متألم حزين. وصامت دوماً. فياليت يلومني ويلومك على الاقل. لقد اصابه الهزال وشحب لونه». فهمست العجوز: «يا الهي! يا الهي! حبذا لو البست الطلسم على عنقه. ولكنه لن يسمح لي بذلك». وحاول فاسيلي ايفانوفيتش عدة مرات أن يسأل ابنه بكل حذر عن عمله وعن صحته وعن اركادي... لكن بازاروف كان يجيبه باستهانة وعلى مضض. ذات مرة لاحظ بازاروف أن أباه يحاول أن يوجه الحديث معه بلطف إلى وجهة معينة، فقال له بكآبة: «لماذا تدور حولي وكأنك تسير على اطراف الاصابع؟ هذه العادة أسوأ من سابقتها». فأجاب فاسيلي ايفانوفيتش المسكين على عجل: «كيف؟ أنا لا أقصد شيئاً!». وظلت

عقيمة أيضاً تلميحاته السياسية. فعندما تحدث ذات مرة عن قرب اعتناق الفلاحين وعن التقدم كان يأمل بإثارة عطف ابنه، ولكن هذا قال بلا اكتراث: «سمعت أبناء الفلاحين وأنا أسير قرب السياج أمس ينشدون بدلاً من الأغاني القديمة: حان زمان الوداد، والقلب ينضب بالهوى... ذلك هو التقدم الذي تريده».

كان بازاروف يتوجه أحياناً إلى القرية فيتحدث مع فلاح ما مازحاً كعادته. وكان يقول له: «اعرض علي، أيها الاخ، آراءك بشأن الحياة. ففيكم، كما يقال، كل قوة روسيا ومستقبلها، وبكم سيبدأ عصر جديد في التاريخ. سوف تمنحونا اللغة الحقيقية والقوانين». فيلزم الفلاح الصمت أو يجيب بكلمات من نوع: «نحن نستطيع... كذلك، لأننا، يعني... بقدر استطاعتنا». وكان بازاروف يقاطعه: «ولكن حدثني عن عالمكم، ما هو؟ هل هو ذلك العالم المستقر على قرن الثور؟».

- الأرض، يا سيدي، هي المستقرة على قرن الثور. - أوضح له الفلاح على نحو مسكن وبلهجة ترتيلية خانعة ساذجة. - ومعروف أن ارادة الاسباد تواجهنا، أي تواجه عالمنا. ولذا فأنتم أبأوتنا وأسيادنا. وكلما كان السيد متشدداً، كان الفلاح مرتاحاً.

وبعد أن استمع بازاروف إلى مثل هذا الحديث ذات مرة هز كتفيه احتقاراً وأشاح بوجهه، بينما عاد الفلاح ادراجه. فسأله فلاح آخر متوسط العمر متجهم الوجه كان قد استمع من بعيد، من عتبة كوخه، إلى الحديث مع بازاروف:

- عم تحدثتما؟ عن الضريبة المستحقة؟

- أية ضريبة يا أخي العزيز؟! - اجابه الفلاح الأول ولم يعد في صوته أثر للبهجة الترتيلية الخانعة، بل ترامت منه لهجة مستهينة قاسية - ثرثر شيئاً ما، اراد أن يحك لسانه. أمر معروف. فهو سيد، وهل يفهم السيد شيئاً؟

- من أين له أن يفهم!؟ - أجاب الفلاح الثاني. ورفض كلاهما قبعتيهما وأرخيا زناريهما وراح يتحدثان عن شوؤونهما وحاجتاهما. أما بازاروف المتكابر هذا الذي هز كتفيه احتقاراً والذي يجيد الكلام مع الفلاحين (كما تفاخر في جداله مع بافل بتروفيتش) فلم يكن حتى ليتصور بأنه بدا في انظارهما مجرد بهلول لا أكثر...

بيد أنه عثر في آخر المطاف على ما يشغل به نفسه. ذات مرة ضمّد فاسيلي ايفانوفيتش بحضوره رجل فلاح جريح، ولكن يدي العجوز كانتا ترتعشان فلم يفلح في شد الضماد، لذا ساعده ابنه، ومنذ ذلك الحين أخذ يساهم في عمل ابيه دون أن يكف في الوقت ذاته عن التهكم على الوسائل التي ينصح بها هو وعلى ابيه الذي يستخدمها في الحال. إلا أن تهكم بازاروف لم يكن يربك فاسيلي ايفانوفيتش قيد شعرة، فقد وجد فيه مسرة. كان يمسك رداءه المنزلي الملوّث باصبعين على بطنه ويأخذ أنفاساً من غليونه وهو يستمع بمتعة إلى بازاروف. وكلما كانت تهجماته أشد كان أبوه السعيد يقهقه بطيبة قلب أكبر فيكشف عن جميع اسنانه السوداء بلا استثناء. وكان يستعيد هذه التهجمات البليدة أحياناً أو الخالية من المعنى، ويظل طوال عدة أيام يكرر، مثلاً، بمناسبة وبغير مناسبة: «تلك قضية لا جدوى فيها!»، وذلك لمجرد أن ابنه استخدم هذا التعبير عندما علم بأن اباه كان يتوجه لأداء صلاة الصبح. وهمس فاسيلي ايفانوفيتش لزوجته: «الحمد لله! لم يعد كثيراً! لو تعلمين كيف لامني اليوم. أنه معجزة!». وكانت مشاعر الافتخار والاعتزاز تستحوذ عليه عندما يتذكر أن له معاوناً كهذا. وكان يقول لفلاحة ما ترتدي قفطاناً رجالياً وقبعة ذات تنوءات، وهو يسلمها قنينة ماء هوليارد أو علبة مروخ البنج: «أجل، أجل، عليك يا عزيزتي أن تحمدي الله كل لحظة لأن ابني قد حل ضيفاً علي: فنحن نعالجك الآن بأحدث طريقة علمية، هل أنت فاهمة؟ وحتى امبراطور الفرنسيين نابليون لا يملك طبيياً أفضل». أما الفلاحة التي جاءت

تشكى من «مغص في البطن» (وهي نفسها لا تفهم معنى هذه الكلمات) فكانت تنحني احتراماً وتدس يدها في عبها كي تستخرج أربع بيضات ملفوفة بطرف منشفة.

ذات مرة اقتلع بازاروف سنأ لبائع متجول، ومع أن هذه السن هي من الاسنان العادية، فان فاسيلي ايفانوفيتش احتفظ بها كتحفة نادرة، وعرضها على الاب الكسي وراح يكرر بلا كلل:

- انظر إلى جذورها، ما اقواها! وما اقوى يفغيني! لقد تطاير البائع في الجو... ويخيل الي أنه لو كان شجرة بلوط لتطاير أيضاً!...

- شيء، يستحق المديح! - قال الاب الكسي أخيراً دون أن يعلم كيف يجيب وكيف يتخلص من العجوز وهو في اوج حماسه.

ذات مرة أحضر فلاح من القرية المجاورة اخاه المصاب بالتيفوئيد إلى فاسيلي ايفانوفيتش. كان المريض التعيس يحتضر وهو منبطح على حزمة قش، وقد اغمي عليه من زمان، وغطت بقع قائمة جسده. اعرب فاسيلي ايفانوفيتش عن اسفه لأن أحداً لم يفكر بالاستفادة من الاسعاف الطبي قبل الآن وأعلن عن استحالة انقاذ المريض. وبالفعل فقد قضى نحبه في عربة النقل قبل أن يصل به اخوه إلى داره.

وبعد ثلاثة أيام دخل بازاروف على ابيه في غرفته وسأله عما إذا كان عنده حجر جهنم.

- نعم. ما حاجتك إليه؟

- يلزمني... في كي جرح.

- جرح من؟

- جرحي.

- جرحك؟! كيف؟ اي جرح؟ أين هو؟

- هنا. على الاصبع. توجهت اليوم إلى القرية التي احضروا منها
الفلاح المصاب بالتيفويد. ولسبب ما قرروا هناك أن يشرحوه. أما أنا فلم
اتمرن على التشريح من زمان.

- ثم ماذا؟

- لذا طلبت من طبيب القضاء أن يسمح لي بالتشريح، فجرت
اصبعي.

شحب لون فاسيلي ايفانوفيتش على الفور، ولم ينبس ببنت شفة.
هرع إلى مكتبه وعاد في الحال يحمل قطعة صغيرة من حجر جهنم. هم
بازاروف بان يأخذ الحجر ويخرج، ولكن فاسيلي ايفانوفيتش قال:

- بالله عليك، اسمح لي أن افعل ذلك بنفسي.

ضحك بازاروف ساخراً:

- ما أشد رغبتك في الممارسة!

- لا تمزح، رجاء. أرني اصبعك. الجرح طفيف. إلا يؤلمك؟

- اضغط بشدة، لا تخش شيئاً.

توقف فاسيلي ايفانوفيتش:

- ماذا تعتقد يا يفغيني، أليس الأفضل كيه بالحديد؟

- كان ينبغي القيام بذلك في حينه. أما الآن فحتى حجر جهنم لا يفيد
في الواقع. فإذا كنت قد اصبت بالعدوى فقد فات الاوان.

- كيف... فات الاوان... - نطق فاسيلي ايفانوفيتش بالكاد.

- كيف لا؟! مر على ذلك أكثر من اربع ساعات.

كوى فاسيلي ايفانوفيتش الجرح بقدر أكبر وقال:

- ألم يكن لدى طبيب القضاء حجر جهنم؟

- كلا.

- كيف، يا إلهي؟! طيب ولا يمتلك هذا الشيء الضروري.

- يا ليتك رأيت مباحه! - قال بازاروف وانصرف.

ظل فاسيلي ايفانوفيتش حتى ساعة متأخرة من المساء وطوال النهار التالي يتحجج بأية وسيلة ممكنة لدخول غرفة ابنه، ومع أنه لم يكن يلتمح إلى الجرح، بل يحاول التحدث عن أمور ثانوية تماماً، فإنه كان يحدق في عيني ابنه باصرار ويراقبه بقلق حتى نفذ صبر بازاروف وهدده بالسفر. قطع فاسيلي ايفانوفيتش عهداً بأنه لن يقلق، لا سيما وأن آرينا فلاسيفنا التي اخفى عنها هو كل شيء طبعاً، أخذت تلاحقه متسائلة عما حدث له وعن السبب في عدم نومه. في غضون يومين كاملين كان يتشجع بالرغم من أن مظهر ابنه الذي تفحصه خلسة طوال الوقت لم يكن يرضيه تماماً... ولكن صبره نفذ في اليوم الثالث أثناء الغداء. فقد جلس بازاروف مطأطأ الرأس ولم يمض شيئاً من طعام.

- لم لا تأكل يا يفغيني؟ - سأله أبوه متظاهراً بعدم القلق - الطعام، على ما اعتقد، قد اعد جيداً.

- لا اشتهي، فلن آكل.

- هل انعدمت شهيتك؟ ورأسك؟ هل يوجعك؟ - اضاف الاب بوجل.

- يوجعني. فما الذي يجعله لا يوجعني؟

عدلت آرينا فلاسيفنا قامتها وتأهبت. وواصل فاسيلي ايفانوفيتش كلامه:

- ارجوك، يا يفغيني، لا ترعل. هلا سمحت بأن اجس نبضك؟

نهض بازاروف:

- أقول لك أن حرارتي مرتفعة حتى بدون جس النبض.

- وهل شعرت بقشعريرة؟

- أجل. أنا ذاهب لارقد، فارسوا لي قدحاً من نقيع الزيزفون. أصبت بزكام ولا بد.

- لذا سمعتك البارحة تسعل - قالت آرينا فلاسيفنا.

- أصبت بزكام - كرر بازاروف وانصرف.

انشغلت آرينا فلاسيفنا باعداد نقيع زهر الزيزفون، بينما دخل فاسيلي ايفانوفيتش الغرفة المجاورة وتشبث بشعر رأسه صامتاً.

لم ينهض بازاروف في ذلك اليوم وقضى ليلته كلها في وسن ثقيل يشبه الاغماء. بعيد منتصف الليل فتح عينيه بمشقة فرأى في ضوء القنديل وجه ابيه الشاحب محنياً عليه وأمره بالانصراف، فلبى هذا أمره ولكنه عاد في الحال على اطراف اصابعه واطل من وراء باب الخزانة وظل يتطلع إلى ابنه طوال الوقت. لم تنم آرينا فلاسيفنا هي الأخرى، فقد فتحت باب المكتب بعض الشيء وصارت تتردد بين الفينة والأخرى لتسمع «كيف يتنفس نيوشا» وتلقى نظرة على فاسيلي ايفانوفيتش. كانت ترى فقط ظهره المحدودب الجامد، ولكن ذلك بحد ذاته كان يخفف عليها احزانها لدرجة ما. في الصباح حاول بازاروف أن ينهض، لكن الدوار ألم به ونزف الدم من انفه فرقد من جديد. وكان فاسيلي ايفانوفيتش يرعاه بصمت. دخلت عليه آرينا فلاسيفنا فسألته عن حاله، فأجاب: «احسن»، واستدار نحو الجدار. وأما فاسيلي ايفانوفيتش لزوجته إماءة غاضبة بكلتا يديه، فعضت هي على شفتها كيلا تنتحب وانصرفت، احلوك كل ما في الدار فجأة، وأعتمت كل الوجوه وخيم سكون غريب. ونقل من الباحة إلى القرية ديك مصباح لم يفهم لامد طويل لماذا تصرفوا معه على هذا النحو. ظل بازاروف راقداً ووجهه إلى الجدار. حاول فاسيلي ايفانوفيتش

أن يوجه إليه أسئلة مختلفة ولكنها كانت ترهقه، فتسمر العجوز في مقعده، واكتفى بقطعة اصابعه أحياناً. كان يتوجه للحظات إلى البستان فيقف هناك متجمداً كما لو أن حدثاً لا مثيل له اثار دهشته (وكانت الدهشة الشديدة لا تفارق وجهه) ثم يعود إلى ابنه من جديد متحاشياً تساؤلات زوجته. وأخيراً أمسكت بيده وسألته بارتعاشة وبشيء من التهديد: «ماذا به؟». تنبه الاب في الحال وحمل نفسه على الابتسام رداً على سؤالها. بيد أنه، ويا للفظاعة، اطلق ضحكة عفوية بدلاً من الابتسامة. كان قد بعث في طلب الطبيب منذ الصباح. ورأى أن من الضروري اخبار ابنه بذلك كيلا يزعل.

استدار بازاروف على الارىكة فجأة وأخذ يحدق في ابيه ببلادة وطلب ماء.

قدم له فاسيلي ايفانوفيتش قذح الماء ولمس جبهته عرضاً. كانت ملتتهبة للغاية.

فقال بازاروف بصوت بطيء ابح:

- يا شيخ، حالتي سيئة جداً. اصببت بالعدوى. وسوف تدفنتني بعد بضعة أيام.

ترنح فاسيلي ايفانوفيتش كما لو أن أحداً ضربه على رجليه. ثم تمتم:

- يفغيني! ما هذا الكلام!... ساعحك الله! لقد اصببت بالبرد لا أكثر...

- كفاك - قاطعه بازاروف على مهل - لا يجوز للطبيب أن يتكلم هكذا. كل اعراض العدوى موجودة، وأنت تعرف ذلك بنفسك.

- أين هي اعراض ال... عدوى؟ عفوك يا يفغيني!

- فما هذا اذن؟ - قال بازاروف ورفع رदन قميصه وعرض على ابيه

البقع الحمراء الفظيعة التي ظهرت واضحة.

ارتعد فاسيلي ايفانوفيتش واقشعر من الرعب. ثم قال في الاخير:
- لنفرض، لنفرض... حتى... ولو كان هناك شيء من قبيل...
العدوى...

- تقيح الدم - قال الابن مصححاً.

- نعم... من قبيل... العدوى...

- تقيح الدم - كرر بازاروف بوضوح وصرامة - أم أنك نسيت
دفاترك الطيبة؟

- أجل، أجل، كما تشاء... ومع ذلك فسوف نعالجك!

- هيهات! ولكن القضية ليست في ذلك. فأننا لم أكن اتوقع بأني
ساموت بهذه العجالة. تلك صدفة، وصدفة، إذا قلنا الحق، غير سارة
ابداً. عليك الآن مع أمي أن تستفيدا من قوة الدين فيكما، وهذه فرصة
سانحة لكي تجرباه. - ارتشف قليلاً من الماء وواصل كلامه: - لدي اليك
رجاء... ما دمت لا زال مسيطراً على افكاري. فغداً أو بعد غد سيحيل
دماغي نفسه على التقاعد كما تعلم. وأنا الآن أيضاً لست واثقاً تماماً مما
إذا كنت اتكلم بوضوح أم لا. فطوال رقادي خيل الي أن كلاباً حمراء
تتراكض حولي وأنت خيمت علي كما لو أنني دجاجة بريّة سوداء، وأنا
الآن كالمخمور. هل تفهمني جيداً؟

- بالطبع يا يفغيني، أنك تتكلم على ما يرام تماماً.

- ذلك افضل. قلت لي أنك بعثت في طلب الطبيب... لقد هدأت
نفسك بذلك... أما الآن فهدئي أنا: ابعث رسولاً...

- في طلب اركادي نيكولايفيتش - عاجله العجوز.

- من هو اركادي نيكولايفيتش هذا؟ - قال بازاروف كما لو كان
يتأمل - آ، أجل! ذلك الفرخ! كلا، لا تمسه، اصبح زاغاً. ولا تستغرب،

فليس ما اقوله هدياناً. ابعث رسولاً إلى اودينتسوف، إلى أنا سيرغييفنا... تلك الاقطاعية، هل تعرفها؟ (هز فاسيلي ايفانوفيتش رأسه بالايجاب). وليقل لها أن يفغيني بازاروف يعث إليها بالتحية وأنه يحتضر. هل ستنفذ طلبي؟

- سأنفذه... ولكن هل يجوز أن تموت أنت، أنت يا يفغيني... حكم عقلك! فأين هي العدالة اذن؟

- ذلك أمر لا علم لي به. ولكن ابعث الرسول.

- سأبعثه في الحال، وسأكتب لها رسالة.

- كلا. لا داعي للرسالة. فليقل بأني ابعث إليها بالتحية ولا شيء آخر. أما أنا فسأعود من جديد إلى كلابي. ما اغرب الأمر! اريد أن اوقف التفكير بالموت، ولكنني لا أستطيع. لا ارى غير بقعة ما...

استدار بعسر إلى الجدار من جديد، فخرج فاسيلي ايفانوفيتش من المكتب، وحالما وصل إلى غرفة زوجته انهار على ركبتيه أمام الايقونات. ودمدم بانين:

- ابتهلي، يا آرينا، ابتهلي! ابنا يحتضر.

وصل الطبيب، طبيب القضاء الذي لا يملك حجر جهنم. فحص المريض ونصح بالانتظار وقال في الحال بضع كلمات عن احتمال الشفاء. فسأل بازاروف:

- هل صادف وأن رأيت اناساً في مثل حالتني لم يتوجهوا إلى «دار الخلود»؟

ثم امسك فجأة بقائمة الطاولة الثقيلة الموجودة قرب الاريكة وهز الطاولة وزحزحها من مكانها. وقال:

- لا ازال قوياً، بينما يتعين علي أن اموت!... ذلك الفلاح العجوز

استطاع على الاقل أن يعمل من الحياة، أما أنا... ولكن من يتجرأ على رفض الموت؟! فهو يرفضنا وكفى! - واطاف بعد لحظة: - من ينتحب هناك؟ أمي؟ يا للمسكينة! فمن الذي ستطعمه بعد الآن حساء الكرنب المدهش؟ وأنت، يا فاسيلي ايفانوفيتش، تبكي أيضاً كما يخيل الي؟ فما دامت المسيحية لا تعينك حاول أن تكون فيلسوفاً، رواقياً على الأقل! ألم تكن تتباهى بأنك فيلسوف؟

- أي فيلسوف أنا؟! - جاز فاسيلي ايفانوفيتش وانهمرت الدموع على خديه.

اخذت حالة بازاروف تتدهور ساعة بعد ساعة، واستفحل المرض على نحو سريع، مما يجري عادة في حالات التسمم الجراحي. لم يكن قد فقد وعيه بعد. وكان يفهم ما يقال له، ولا يزال يصارع الموت. همس شاداً على قبضته: «لا اريد أن اهذي، فما اسخف ذلك!»، ولكنه قال في الحال: «إذا خصمنا عشرة من ثمانية فكم يبقى؟». كان فاسيلي ايفانوفيتش يجول كالمجنون وهو يعرض هذه الوسيلة أو تلك ويغطي رجلي ابنه طوال الوقت. وكان يقول بانفعال: «ينبغي لفه بشراشف باردة... واستخدام المقيئات... واللصقات على البطن... وفصد الدم». وكان الطبيب الذي استعطفه كي يبقى يردد عليه بالايجاب ويسقى المريض شراب الليمون، ويطلب تارة غليوناً وتارة ما «يقويه ويدفته» هو، اي الفودكا. وجلس آرينا فلاسيفنا على مصطبة واطئة قرب الباب، ولم تغادر مكانها إلا لتصلي بين حين وآخر. فقبل بضعة أيام انزلقت من يديها مرآة الزينة وتحطمت، بينما اعتادت هي على اعتبار ذلك فألا سيئاً. ولم تستطع حتى انفيسوشكا أن تقول لها شيئاً. أما تيموفيتش فقد توجه إلى اوديتسوفافا.

قضى بازاروف ليلة سيئة... فقد عذبتة حمى قاسية، وعند الفجر تحسنت حاله شيئاً فطلب من آرينا فلاسيفنا أن تمشط له شعره وقبل يدها

واحتسى جرعتين من الشاي. وانتعش فاسيلي ايفانوفيتش بعض الشيء
فقال:

– الحمد لله؟ حل البهران... وانتهى.

فقال بازاروف:

– ما أشد تأثير الكلمة! عثر عليها فقال: «البهران» وهذا باله. لا يزال
الإنسان يؤمن بالكلمات. شيء مدهش. فإذا نعتوه، مثلاً، بالاحمق ولم
يضر بوه اكتأب، وإذا امتدحوا ذكاه ولم يعطوه مالأً شعر بالارتياح.

تأثر فاسيلي ايفانوفيتش لخطبة بازاروف المقتضبة هذه والتي تشبه
«تهجماته» السابقة، فهتف متظاهراً بالتصفيق:

– عظيم!

ابتسم بازاروف بحزن، ثم قال:

– ماذا تعتقد؟ هل انتهى البهران أم حل؟

– حالك أفضل. هذا ما اراه وهذا ما يفرحني – اجاب فاسيلي
ايفانوفيتش.

– حسناً. الفرحة لا تضر مطلقاً. ولكن هل بعثت في طلب تلك؟
أذكر؟

– بعثت بالطبع.

لم يستمر التغير نحو الافضل أمداً طويلاً. فقد تكررت نوبات المرض.
وجلس فاسيلي ايفانوفيتش ازاء بازاروف. وبدأ العجوز وكان الما شديداً
ينهشه. هم بالكلام مراراً ولكنه كان عاجزاً عن النطق، ثم قال أخيراً:

– يفغيني! يا ولدي، يا عزيزي، يا حبيبي!

أثرت هذه المناجاة غير المعتادة على بازاروف... فرفع رأسه قليلا كي يتخلص على ما يبدو من الغيبوبة التي ارهقته وقال:
- ماذا يا ابتي؟

واصل فاسيلي ايفانوفيتش كلامه وركع أمام بازاروف بالرغم من أن هذا لم يفتح عينيه ولم يكن بوسعه أن يراه:

- يفغيني، يا يفغيني! حالك الآن أفضل، وسوف تشفى بعون الله. ولكن انتهز هذه الفرصة وابعث السلوى في نفس أمك ونفسي وأد واجب المسيحي! ما أصعب علي أن أقول لك ذلك، أنه أمر فظيع... والافضع منه... أنه إلى الأبد، يا يفغيني... فكر في الأمر، ما افظعه...

تقطع صوت العجوز بينما انسحبت مسحة غريبة على وجه ابنه بالرغم من أن عينيه ظلتا مغمضتين. وقال أخيراً:

- لا ارفض إذا كان ذلك يبعث السلوى فيكما. ولكن يخيل الي أنه لا داعي للاستعجال. فأنت نفسك تقول أن حالتني غدت أفضل.

- أفضل، يا يفغيني، أفضل، ولكن من يدري؟ كل شيء بيد الله. أما الذي يؤدي واجبه...

- كلا. سأنتظر قليلاً - قاطعه بازاروف - أنا متفق معك بأن البحران قد حل. وإذا كنا على خطأ، فما العمل؟ فالقرايين تستلم حتى ممن هم في غيبوبة.

- ماذا تقول يا يفغيني؟..

- سأنتظر. أما الآن فأريد أن أنام. لا ترعجنني.

وهبط رأسه على الوسادة.

نهض العجوز فجلس على المقعد وامسك بذقنه وراح يعض على اصابعه...

طرقت سمعه فجأة قطعة مركبة ذات نوابض، وهي قطعة مسموعة خصوصاً في سكون الأرياف. كانت العجلات الخفيفة تقترب أكثر فأكثر، وها قد ترمى إليه نخير الخيول، نهض فاسيلي ايفانوفيتش على عجل واندفع إلى النافذة. دخلت باحة داره مركبة ذات مقعدين تجرها أربعة خيول. فهرع الي الباحة في غمرة فرحة خرقاء دون أن يميز من هو القادم. فتح خادم بيزة رسمية باب المركبة فظهرت منها سيدة بوشاح أسود وبدلة سوداء...

- أنا اوديتسوفنا. يفغيني فاسيليفيتش على قيد الحياة؟ أنت أبوه؟ احضرت معي طبيباً.

- سيدتي الكريمة! - هتف فاسيلي ايفانوفيتش وتلقف يدها وضغطها بارتعاش إلى شفتيه، في حين نزل من المركبة على مهل طبيب قميء. علامح المانية يرتدي نظارات، - لا يزال حياً، ولدي يفغيني حي، وسوف يحيا! يا زوجتي! هبط علينا ملاك من السماء...

- ماذا؟ يا إلهي! - تمتت العجوز راكضة من غرفة الاستقبال وسقطت في الحال عند قدمي آنا سيرغييفنا دون أن تفهم شيئاً وراحت تقبل اذيال بدلتها كالمجنونة.

- لا داعي لذلك! لا داعي! - قالت آنا سيرغييفنا، بيد أن آرينا فلاسيفنا لم تكن تسمعها، في حين راح فاسيلي ايفانوفيتش يكرر: «ملاك! ملاك!».

- أين المريض؟ (٧٢) أين هو؟ - سأل الطبيب أخيراً بشيء من الغضب.

فعاد فاسيلي ايفانوفيتش إلى رشده وقال:

(٧٢) في الأصل بالالمانية? Wo ist der kranke.

– هنا، هنا، تفضل واتبعني – واطاف مما يتذكره بالالمانية: (أيها الزميل المحترم)(٧٣).

– آ – قال الالماني وابتسم بتكشيرة زاوية.

اقتاده فاسيلي ايفانوفيتش إلى المكتب. وانحنى على اذن ابنه حتى لامسها وقال:

– طيب من آنا سيرغييفنا اودينتسوفنا. وهي هنا أيضاً.

فتح بازاروف عينيه فوراً:

– ماذا قلت؟

– قلت آنا سيرغييفنا اودينتسوفنا وقد احضرت إليك هذا السيد الطيب.

نظر بازاروف إلى ما حواليه:

– أنها هنا... اريد أن اراها.

– سترها، يا يفغيني، ولكن يتعين في البداية التكلم مع السيد الطيب. سأحدثه عن سير المرض لأن طيب القضاء ارتحل، وسوف نتشاور بعض الشيء.

– لا بأس، تحدثنا على عجل، ولكن ليس باللاتينية، فأنا أفهم ما تعنيه (jam moritur)(٧٤).

وبدأ الطيب الجديد كلامه مخاطباً فاسيلي ايفانوفيتش:

– (يبدو أنك تجيد الالمانية يا سيدي)(٧٥).

(٧٣) Wertester Herr Collega.

(٧٤) يحاضر.

(٧٥) في الأصل بالالمانية Der Herr scheint des Deutschen Mächtig zu sein.

- (عندي... لدي...) (٧٦)، ولكن حبذا لو تكلمت بالروسية.

فقال الطبيب بروسية ركيكة:

- آ! هكذا اذن... لعل...

وبدأ التشاور.

بعد نصف ساعة دخلت أنا سيرغييفنا المكتب بصحبة فاسيلي ايفانوفيتش. وتسنى للطبيب أن يخبرهما همساً بأنه لا أمل مطلقاً في شفاء المريض.

نظرت إلى بازاروف... فتوقفت عند الباب لشد ما ادهشها وجهه الملتهب والمحتضر في الوقت ذاته بعينه الغائمتين المتجهتين صوبها. لقد اربعها خوف بارد مرهق. ولاحت في ذهنها للحظة فكرة: ربما شعرت بشيء آخر لو كانت تحبه حقاً.

فقال هو بجهد:

- شكراً، لم أكن أتوقع ذلك. فعلت خيراً. ها قد التقينا من جديد كما وعدت أنت.

- ما أطيب أنا سيرغييفنا.

- أتركنا يا ابتي. هل تسمحين يا أنا سيرغييفنا؟ يخيل الي الآن...

وأوما برأسه إلى بدنه المسجي العاجز.

انصرف فاسيلي ايفانوفيتش. فكرر بازاروف:

- شكراً. لقد فعلت كما يفعل القياصرة. يقال أن القياصرة أيضاً

يعودون المحتضرين.

(٧٦) في الأصل بالالمانية ich habe.

- يفغيني فاسيليفيتش، أمل...

- آه، يا أنا سيرغييفنا. فلنقل الحقيقة. لقد انتهيت. وقعت تحت العجلة. ولذا ما كان هناك داع للتفكير في المستقبل. الموت شيء قديم، إلا أنه يدهم كل شخص بشكل جديد. لم اجبن حتى الآن... وستحل الغيوبة، ثم النهاية! (لوح بيده تلوحة يائسة واهنة). فما الذي ينبغي أن ا قوله لك... كنت أحبك! وما كان لهذا الأمر أي معنى في السابق، وليس له أي معنى الآن بالطبع. فالحب مجرد شكل، أما شكلي أنا فقد أخذ يتفسخ. الافضل أن اقول: ما اروعك! أنك الآن أيضاً جميلة... ما احلاك...

ارتعشت أنا سيرغييفنا عفويًا.

- لا تقلقي... اجلسي هناك. ولا تقتربي مني، فإن مرضي معد.

اجتازت أنا سيرغييفنا الغرفة بسرعة وجلست على المقعد قرب الاريكة التي يرقد عليها بازاروف. فهمس هو:

- ما انبلها! آه، ما أقرب ذلك! وما أشد فتوتها ونضارتها وصفاءها... في هذه الغرفة الكريهة!... وداعاً! عيشي طويلاً، فذلك أفضل شيء، وممتعني ما دام في الوقت متسع. انظري ما افطع هذا المشهد: دودة تكاد تكون مسحوقة ولكنها لا تزال مغرورة. ألم أكن أفكر بأنني سأنجز أعمالاً كثيرة ولن أموت؟ فأين مني الموت؟ لذي مهمة، وأنا جبار! أما الآن فأنا كل مهمة هذا الكائن الجبار تلخص في أن يقضي نحبه بشكل لائق، مع أن ذلك لا يشغل بال أحد... غير أنني، رغم كل شيء، لا اخاف...

صمت بازاروف وأخذ يتلمس قدحه بيده. فناولته أنا سيرغييفنا أياه دون أن تخلع قفازا وهي تتنفس بخوف. وتكلم هو من جديد:

- سوف تنسينني. فلا رفقة بين الميت والحي. وسوف يقول لك أبي، مثلاً، ما أعظم خسارة روسيا بفقداني... ذلك هراء، ولكن لا تشنيه

عن اعتقاده. فليكن ذلك على الأقل مبعثاً للسلوى في نفسه... حاولي أن تداري أمي أيضاً. ففي مجتمعك الراقى الكبير لن تجدي أناساً مثلهما أبداً... هل أن روسيا بحاجة الي، يا ترى؟.. كلا، ليست بحاجة الي، على ما يبدو. فمن هي بحاجة إليه؟ أنها بحاجة إلى الاسكافي والخياط والقصاب... يبيع اللحوم... والقصاب... عفواً، بدأت افكاري تشوش... هناك غابة...

وضع بازروف يده على جبينه.

وانحنت عليه أنا سيرغيينا:

- يفغيني فاسيليفيتش، أنا هنا...

سحب يده فوراً ونهض قليلاً، فقال بقوة مفاجئة ولمعت عيناه بآخر

بريق:

- وداع، وداعاً... اسمعي... أنني لم اقبلك آنذاك... فانفخي على

القنديل المحتضر كي ينطفئ...

لامست أنا سيرغيينا جبينه بشفتيها فقال:

- كفاية!

وهبط على الوسادة:

- الآن... حل الظلام...

انصرفت أنا سيرغيينا بهدوء. فسألها فاسيلي ايفانوفيتش همساً: -

ماذا؟

- غفا - اجابت بصوت يكاد لا يسمع.

ما كان مقدرأ لبازروف أن يستيقظ. فعند المساء غط في غيبوبة

مطبقة، وفي اليوم التالي قضى نحبه. أدى الأب الكسي الطقوس الدينية

اللازمة. وعندما جرى تطهيره ولامس الزيت المقدس صدره تفتحت احدى عينيه وخيل للحاضرين أن شيئاً ما يشبه ارتعاشة الرعب انعكس، للحظة، على وجهه الجامد، من رؤية القس بغفارتة الكهنوتية والمبخرة المدخنة والشموع أمام الايقونة. وعندما لفظ النفس الأخير وعم الدار العويل استولى على فاسيلي ايفانوفيتش هياج مباغت فراح يصرخ بصوت مبحوح وبوجه ملتهب معوج، ويهز قبضته في الهواء كأنه يهدد أحداً: «قلت بأني سأثور، وسأثور، وسأثور!». إلا أن آرينا فلاسيفنا تعلقت بعنقه والدموع تهمر من عينيها، وانكب كلاهما على وجهه. وفيما بعد تحدثت انفيسكوشكا في غرفة الخدم فقالت: «نكسا رأسيهما جنباً إلى جنب كنعجتين في الظهيرة...».

غير أن قيظ الظهيرة يتبدد ويحل المساء ثم الليل، وعندها تحين العودة إلى المأوى الهادئ حيث يحلو المنام للمتعبين والمرهقين...

٢٨

مضت ستة شهور. خيم الشتاء بصقيعه الصامت القارس الصافي وتلجه الصرار ونداه الوردى المتجمد على الاشجار وسمائه الزمردية الشاحبة، واكليل الدخان فوق المداخن واعمدة البخار المتصاعدة من الابواب التي لا تفتح إلا المأمأ، ووجوه الناس الغضة وعناء الجياد المقشعرة من البرد. اشرف ذلك اليوم من شهر يناير على الافول، وعصر برد المساء الهواء الساكن وضغطه بمزيد من الشدة. وانطلقاً الغسق الدامي بلمح البصر. واشتعلت الانوار في نوافذ الدار في مارينو. انشغل بروكوفيتش، ببدلته الرسمية السوداء وقفازيه الابيضين ومسحته المهيبه أكثر من المعتاد، في اعداد المائدة لسبعة أشخاص. قبل أسبوع جرت في كنيسة الابرشية الصغيرة، بهدوء وبدون شهود تقريباً، مراسم زفاف اركادي وكاتيا

وزفاف نيكولاى بتروفيتش وفينيتشكا. وفي ذلك اليوم اقام نيكولاى بتروفيتش مأدبة توديعية لآخيه الذي ينوي السفر إلى موسكو لتصريف بعض الشؤون. أما أنا سيرغييفنا فقد سافرت إلى موسكو أيضاً على أثر الزفاف بعد أن انعمت على الزوجين الشابين بسخاء.

في تمام الساعة الثالثة التأم الجمع حول المائدة. اجلسوا ميتيا إلى المائدة أيضاً. وقد ظهرت لديه مربية ترتدي قبة من الديباج المخرم. جلس بافل بتروفيتش بين كاتيا وفينيتشكا واستقر «الزوجان» قرب عروسيهما. لقد تغير اصحابنا هؤلاء في الآونة الأخيرة: فقد بدوا وكأنما أصبحوا أكثر رواء ونضجاً. أما بافل بتروفيتش فهو الوحيد الذي أصيب بهزال، مما اضفى، بالمناسبة، المزيد من الرشاقة والرصانة على ملامحه المعبرة... ثم أن فنيتشكا لم تعد على ما كانت عليه. ارتدت بدلة حريرية جديدة وشدت شريطاً مخملياً عريضاً على شعرها مع سلسلة ذهبية تطوق جيدها. جلست بسكون ووقار ورزاة. فهي رزينة أزاء نفسها وازاء كل ما يحيط بها. كانت تبتسم وكأنما تريد أن تقول: «اعذروني، فليس الذنب ذنبي». ولم تكن تبتسم وحدها على هذه الشاكلة. فالآخرون أيضاً كانوا يتسمون وكأنما هم يعتذرون. لقد كانوا جميعاً يشعرون بشيء من الحرج وبشيء من الحزن، ولكنهم في الواقع كانوا على أحسن حال. كان كل منهم يداري الآخر بحذر مدهش وكأنما اتفقوا جميعاً على تمثيل ملهاة ساذجة. بينما كانت كاتيا اهدأ الجميع: فهي تتطلع إلى ما حواليتها وادعة اليفة. وكان بإمكان المرء أن يلاحظ أن نيكولاى بتروفيتش قد أحبها بجنون. وقبيل انتهاء الغداء نهض يحمل قدحاً وتوجه إلى بافل بتروفيتش قائلاً:

- أنك تتركنا... تتركنا، يا أخي العزيز، لآمد غير طويل طبعاً. ومع ذلك لا يسعني إلا أن أقول لك بأنني... بأننا... وأنني بقدر ما أننا... الطامة الكبرى في أننا لا نجيد القاء الخطب! يا اركادي، هلا تكلمت أنت!

- كلا، يا ابتي، فأنا لم استعد لذلك.

- وهل تعتقد بأني قد تهيأت جيداً؟ اسمح لي، يا أخي، أن اعانقك
وإمّني لك التوفيق، وعد إلينا بأسرع ما يمكن!

تبادل بافل بتروفيتش القبلات مع الجميع دون أن يستثني ميتيا بالطبع.
وبالإضافة إلى ذلك قبل يد فينيتشكا التي لم تعود بعد على مديدها
بالشكل اللازم. وارتشف القدح الذي ملأوه له من جديد وقال بتنهد
عميقة: «فلتكونوا سعداء يا اصدقائي!» وأضاف بالانجليزية^(٧٧) Farewell
. لم ينتبه أحد إلى هذه الكلمة ولكن الجميع تأثروا تأثراً شديداً.

- تكريماً للذكرى بازاروف - همست كاتيا في اذن زوجها وقرعت
كأسها بكأسه. وورد عليها اركادي بأن شد على يدها بقوة، ولكنه لم
يتجرأ على رفع هذا النخب بصوت عال.

تلك هي الخاتمة، أليس كذلك؟ ولكن ربما يرغب أحد من القراء في
معرفة ما يفعله الآن، الآن بالذات، كل من شخوص روايتنا. فنحن على
استعداد لتلبية رغبته.

تزوجت أنا سيرغييفنا مؤخراً ليس بدافع من الحب، بل بدافع من
الاعتقد. وزوجها إنسان لبيب للغاية، قانوني شديد البأس في بلوغ مقاصده
العملية، وهو يتحلى بإرادة صلبة وموهبة كلامية رائعة، وهو إنسان
طيب وبارد كالثلج، لا يزال في مقتبل العمر ولكنه سيغدو فيما بعد من
الشخصيات الروسية المرموقة. وهما يعيشان في ونام تام، ومن المحتمل
أنهما سيتمتعان بالسعادة... بل ومن المحتمل أنهما سيبلغان الحب. أما
الأميرة خ... فقد توفيت وطواها النسيان منذ يوم وفاتها. وسكن الاب
كيرسانوف مع ابنه في مارينو واخذت احوالهما تحسن. فصار اركادي

(٧٧) وداعاً.

اقتصادياً غيراً وغدت «الزرعة» تعود بدخل غير ضئيل وأصبح نيكولاي بتروفيتش وسيطاً عقارياً، وهو يعمل بكل ما اوتى من قوة، فيتجول بلا كلل في منطقة عمله ويلقي الخطب المسهبة (كان متمسكاً بالرأي القائل بضرورة «افهام» الفلاحين، اي تكرار كلمات بعينها طوال الوقت حتى يستولى عليهم الارهاق)، ومع ذلك، إذا قلنا الحق، فهو لم يكن يرضي تماماً لا النبلاء المثقفين الذين يتكلمون عن «الانعتاق» تارة بلهجة حماسية وتارة بلهجة سوداوية ولا النبلاء غير المتعلمين الذين يتهمجون بوقاحة على «هكذا الانعتاق». فأن نيكولاي بتروفيتش بالنسبة لأولئك وهؤلاء متساهل أكثر من اللازم. أما كاتيا فقد رزقت ولداً اسمته نيكولاي. وصار ميتيا يمشي على نحو ممتاز ويتكلم بطلاقة. ولا تعجب فينيتشكا بأحد، بعد زوجها وميتيا، اعجابها بكتتها. وعندما تجلس هذه إلى البيانو تستطيع فينيتشكا أن تظل قربها مسرورة طوال النهار. ونذكر بالمناسبة شيئاً عن بيوتر. فقد تحجر نهائياً بسبب الغباوة والغطرسة وصار يتلفظ الكلمات بغير الصيغة المعتادة. ولكنه تزوج هو الآخر وتسلم صداقاً كبيراً من أهل العروس. وهي ابنة بستاني من سكان المدينة رفضت خطيبين صالحين لمجرد أنهما لا يمتلكان ساعة يد. أما بيوتر فكانت لديه جزمة قصيرة لماعة عن الساعة.

على مدرج برول في درزدن بوسعكم أن تروا، في أفضل أوقات الزهرة ما بين الثانية والرابعة، رجلاً في حوالي الخمسين اشيب الشعر كلياً وكأنا يعاني من النقرس ولكنه لا يزال وسيماً أنيق الملبس، يتحلى بتلك السمة الخاصة التي لا تنهياً إلا لشخص يتواجد أمداً طويلاً في ارقى فئات المجتمع. أنه بافل بتروفيتش. غادر موسكو إلى الخارج من أجل استعادة صحته وصمم على الاقامة في درزدن حيث يتلاقى أكثر ما يتلاقى مع الانجليز والسياح الروس. كان يسلك مع الانجليز سلوكاً بسيطاً أقرب إلى التواضع، ولكنه يحافظ على كرامته. وكانوا هم يعتبرونه شخصاً مملأً بعض

الشيء إلا أنهم يحترمون فيه رجلاً نبيلاً حقاً «a perfect gentleman». وكان هو أقل تكلفاً مع الروس، حيث يطلق العنان لحدة طباعه ويسخر مازحاً من نفسه ومنهم، إلا أن ذلك كله يصدر عنه بشكل مقبول تماماً لا يتعارض وأصول اللياقة. وهو يتمسك بالنزعة السلافية، الأمر الذي يحظى، كما هو معروف (بالاحترام والتقدير)^(٧٨) في المجتمع الراقي. أنه لا يقرأ شيئاً بالروسية، ولكن لديه على مكتبه منفضة فضية بشكل خف فلاحى روسي. ثم أن سياحنا يتقاطرون عليه بكل رغبة. وقد تفضل ماتفي ايليتشس كوليازين، الذي أصبح في المعارضة الموقته، بزيارته وهو في طريقه إلى مياه بوهيميا المعدنية. أما السكان المحليون الذين نادراً ما يتقابل معهم، والحق يقال، فيكادون يبجلونه بتجيلاً. وما كان بوسع أحد أن يحصل على تذكرة إلى جوقة البلاط أو المسرح والخ. بنفس السهولة والسرعة اللتين يحصل بهما عليها (البارون كيرسانوف)^(٧٩). ولا يزال يعمل المعروف على قدر المستطاع، ولا يزال يخلق ضجة بعض الشيء: فليس عبثاً أن كان في وقت ما كالليث. ولكن حياته غدت عسيرة... أكثر عسراً مما يتوقع هو... فيكفي لمعرفة ذلك القاء نظرة عليه في الكنيسة الروسية، حيث يغرق في تأملاته مائلاً إلى الجدار في ركن ما دون حراك، ويعض على شفتيه بمرارة، ثم يعود إلى رشده فجأة ويرسم شارة الصليب على نحو لا يكاد يلحظ...

ولقد سافرت كوكشينا هي الأخرى إلى الخارج. فهي حالياً في هيديلبرغ تدرس المعمار الذي اكتشفت فيه، على حد تعبيرها، قوانين جديدة، ولم تعد تدرس العلوم الطبيعية. ولا تزال كالسابق تعاشر الطلبة وخصوصاً طلبة الفيزياء والكيمياء الروس الذين تعج بهم هيديلبرغ

(٧٨) - في الأصل بالفرنسية très distingué.

(٧٩) - في الاصل بالالمانية der Herr Baron von Kirsanoff.

والذين يدهشون للوهلة الأولى الاساتذة الالمان السذج بنظرتهم الواقعية إلى الأمور، كما يدهشون نفس أولئك الاساتذة فيما بعد بتبطرهم التام وكسلهم المطبق. ومع اثنين أو ثلاثة من أمثال هؤلاء الكيماويين الذين لا يميزون بين الاوكسجين والآزوت، ولكنهم مفعمون بالرفض والاعتزاز بالنفس، ومع يليسيفيتش العظيم في بطرسبورغ، يتسكع سيتنيكوف الذي يستعد هو الآخر لكي يكون عظيماً، ويواصل، على حد قوله، «قضية» بازاروف. ويقال أن شخصاً ما ضربه مؤخراً، ولكنه ثار منه، حيث لمح في مقالة تافهة مشبوهة دست في مجلة تافهة مشبوهة إلى أن ذاك الذي ضربه جبان. وهو يسمي ذلك تهكماً. ولا يزال ابوه متعسفاً آزاءه، أما زوجته فتعتبره مغفلاًو ... اديباً.

هناك مقبرة ريفية صغيرة في أحد ارجاء روسيا النائبة. وهي، شأنها شأن جميع مقابرنا تقريباً، ذات منظر كئيب: فقد اعشوشبت من زمان الخنادق المحيطة بها، وتدلّت الصلبان الخشبية الرمادية اللون وصارت تتعفن تحت سقوفها التي كانت مطلية بالاصباغ في غابر الزمان، وازيحت الالواح الحجرية عن أماكنها جميعاً كما لو أن أحداً قد دفعها من الاسفل، وبالكاد تعطي شجرتان متنوفتان أو ثلاث ظلالاً شحيحة، وتجمول الاغنام بين القبور دون عائق... ولكن بين تلك القبور قبراً لا يمسه إنسان ولا يدوسه حيوان. الطيور فقط تحط عليه وتصيح عند الفجر. يحيط به سياج من حديد وقد غرست شوحتان فتيان عند جانبيه. في هذا القبر يرقد يفغيني بازاروف. ومن قرية غير بعيدة غالباً ما يتردد عليه عجوزان بلغا من العمر عتياً. يسيران بمشيتهما المتثاقلة وهما يسندان بعضهما البعض، وعندما يقتربان من السياج يهبطان فيركعان على ركبهما ويكيان بممرارة لأمد طويل، ولأمد طويل أيضاً يتطلعان بانتباه إلى الحجر الصامت الذي يرقد ابنيهما تحته. ويتبادلان بضع كلمات، وينفضان الغبار عن الحجر ويعدلان وضعية بعض أغصان الشوحتين، ويصليان من جديد ولا يقويان

على مغادرة هذا المكان الذي يبدو وكأنه أقرب الاماكن الموصلة إلى ابنهما،
وإلى الذكريات المرتبطة به... فهل يعقل أن صلواتهما ودموعهما عقيمة يا
ترى؟ وهل يعقل أن الحب المقدس، الحب المخلص، عاجز يا ترى؟ كلا!
فهما كان القلب الذي اطبقت عليه ظلمة القبر متحمساً متمرداً خاطئاً،
فأن الزهور التي تنمو على ترابه تتطلع إلينا مطمئنة بعيونها البريئة: فهي لا
تحدثنا فقط عن السكون الابدي، عن لجة سكون الطبيعة «اللابالية»، بل
تحدثنا أيضاً عن الرضوان الابدي وعن الحياة اللانهائية...

١٨٦٢

بهدد «الآباء والبنون»

كنت استحم على ساحل البحر في مدينة فينتنور الصغيرة بجزيرة وايت في اغسطس ١٨٦٠، وعندها تبادرت إلى ذهني لأول مرة فكرة «الآباء والبنون»، هذه القصة التي انتهى بسببها - وإلى الأبد كما يبدو - ميل جيل الشباب الروسي إليّ وحسن موقفهم مني. وقد سمعت وقرأت مراراً في المقالات النقدية بأنني، في مؤلفاتي، «انطلق من الأفكار» أو «امرر الأفكار». امتدحني البعض على ذلك، ولامني البعض الآخر. أما أنا فأريد، بدوري، أن أوكد بأنني لم أحاول مطلقاً أن ارسوم أية شخصية إلا إذا توفر لدي منطلق استند إليه، ومنطقي هذا ليس فكرة بل هو شخص حي تضاف إليه العناصر المناسبة وتختلط به تدريجياً. وبما أنني لا امتلك قدراً كبيراً من حرية الابتكار، فأنا أشعر دوماً بحاجة إلى هذه التربة التي اتمكن من السير عليها بثبات. وهذا بالذات ما حدث لقصة «الآباء والبنون»، فقد استندت في تصوير بطلها الرئيسي بازاروف إلى شخصية فعلية لطبيب من الاقاليم أثار دهشتي واعجابي (توفي قبيل عام ١٨٦٠ بقليل). وقد تجسدت في هذا الإنسان الرائع، في رأيي، تلك البداية التي ولدت للتو وكانت في دور الاختمار والتي سميت فيما بعد بالنهلستية أو الرافض. كان تأثير هذه الشخصية عليّ شديداً للغاية، ولكنه غير واضح تماماً في الوقت ذاته. فأنا نفسي، في بادئ الأمر، لم أتمكن من فهمه بشكل عميق. فصرت انصت واطلع باهتمام كبير إلى كل ما يحيط بي وكأنني أريد التثبت من صحة أحاسيسي. وبما كان يحيرني أنني لم أجد في أي نتاج من نتاجاتنا الادبية ولا تلميحا لما كان يلوح أمام انظاري ويخيل الي في

كل مكان، فأخذ الشك يدب في ذهني: الست اركض وراء شبح لا غير؟
واتذكر أن روسياً كان يعيش معي في جزيرة وايت، وهو يتحلى بدوق
رهيف جداً وتقبل رائع لما نعته المرحوم ابولون غريغوريف^(٨٠) «بنفحات
العصر». اطلعته على الأفكار التي تشغل بالي، فعقدت الدهشة لساني
عندما سمعته يقول: «اعتقد أنك سبق وقدمت نموذجاً من هذا النوع...
في شخصية رودين، أليس كذلك؟». لم أحر جواباً، فماذا أجيب؟ رودين
وبازاروف نموذج بشري واحد!

تأثرت بهذه الكلمات درجة كبيرة حتى بقيت عدة أسابيع اتحاشي
التفكير بما عزمت عليه. ولكنني عندما عدت إلى باريس شرعت بالعمل
من جديد: فالحبكة قد اختمرت في ذهني شيئاً فشيئاً. وفي الشتاء كتبت
الفصول الأولى، إلا أنني اكملت القصة في روسيا، في الريف، خلال
تموز. وفي الخريف قرأتها على بعض معارفي واجريت بعض التنقيحات
والاضافات عليها. وفي آذار ١٨٦٢ نشرت «الآباء والبنون» في مجلة
«روسكي فيستنك» «البشير الروسي».

وأقول هنا، دون الدخول في تفاصيل الاثار التي تركتها هذه القصة،
أنني عندما عدت إلى بطرسبورغ... سمعت آلاف الاصوات تكرر
كلمة «نهلستي»... وشعرت آنذاك بأحاسيس متنوعة ولكنها مرهقة
ممضة بقدر واحد. شعرت بالبرود الذي بلغ حد الغضب عند الكثيرين
من الذين اعزهم و اتعاطف معهم، وتلقيت التهاني التي تقرب من التقبيل
من أناس أكرههم، من معسكر الاعداء. اربكني ذلك وحيرني... وآلني.
لكن ضميري لم يؤنبني: فكنت أعرف جيداً أن موقفي من النموذج
الذي ابتدعته موقف نزيه خال من التحيز ضده، بل هو موقف متعاطف

(٨٠) شاعر وناقد أدبي روسي (١٨٢٢-١٨٦٤).

معه^(٨١)، فأنا احترم رسالة الفنان والاديب لدرجة لا تسمح لي بالافتراء في هذا المجال. ولعل كلمة «احترم» في غير محلها تماما هنا. فأنا، ببساطة، لا أستطيع، ولا أجد العمل على نحو آخر. كما لم يكن هناك ما يدفعني إلى ذلك...

أن السادة النقاد لا يتصورون بشكل صائب تماماً ما يعتمل في نفس الكاتب ولا يعرفون م تتكون على وجه التحديد افرحه و اتراحه، أمانيه وطموحاته، نجاحاته و اخفاقاته. فلا علم لهم، مثلاً، بتلك المتعة التي يشير إليها غوغول وتتلخص في تعذيب النفس وسوط عيوبها من خلال الشخوص الوهميين الذين يصورهم الكاتب. والنقاد واثقون تماماً من أن الكاتب لا يفعل شيئاً غير «تمرير أفكاره» من كل بد، ولا يريدون أن يصدقوا بأن تجسيد الحقيقة، وتصوير واقع الحياة بقوة ودقة، اعظم سعادة للاديب حتى إذا كانت هذه الحقيقة تتعارض مع ميوله... عندما صورت شخصية بازاروف استبعدت من مجال اهتماماته كل ما له علاقة بالفن و اضيفت عليه حدة و خشونة في أسلوب الكلام، ولم يكن ذلك بسبب رغبة هوجاء في أهانة جيل الشباب (!!!)، بل بفعل مراقبتي لصاحبي الدكتور د. وأمثاله. «تلك هي الصورة التي نشأت عليها الحياة»، وهذا ما اوحتة لي التجربة التي ربما كانت خاطئة، ولكنها، وأنا، أكرر ذلك، تجربة نزيهة. ما كان يلزمني أن افعل وانتحل، ولذا توجب علي أن اصور شخصية بازاروف على هذا النحو بالذات. ولم تلعب ميولي الشخصية

(٨١) اسمح لنفسي هنا بايراد المقطع التالي من يومياتي: «الأحد، ٣٠ يوليو، قبل ساعة ونصف تقريبا فرغت، أخيراً، من كتابة روايتي... ولا ادري هل ستلقى نجاحاً. ربما ستنهال علي «سوفريمسك» («المعاصر») بسبيل من الاهانات بسبب بازاروف، ولن تصدق بأنني كنت، طوال كتابتي للرواية، اشعر بميل عفوي نحوه...» (ملاحظة تورغينيف).

أي دور بهذا الخصوص. وربما سيدهش الكثيرون من قرائي إذا قلت لهم بأني أويد بازاروف في كل معتقداته تقريباً، ما عدا آراءه في الفن. كل ذلك والبعض يقول بأني التزم جانب «الآباء»... مع أنني جانب الحقيقة في تصوير شخصية بافل كيرسانوف وبالغت في عرض نواقصه بصورة كاريكاتورية تقريباً وجعلت منه اضحوكة!

ويكمن سبب سوء الفهم كله، و«الطامة الكبرى»، كما يقال، في أن النموذج الذي عرضته بشخصية بازاروف لم يمر بعد بالاطوار التدريجية التي تمر بها النماذج الأدبية عادة. ولم يكن من نصيبه - كما كان من نصيب اونيغين^(٨٢) وبيتشورين^(٨٣) - عصر كامل من التمجيد والمديح والرضا. فمنذ لحظة ظهور هذا الإنسان الجديد - بازاروف - كان موقف المؤلف منه انتقادياً... موضوعياً. وهذا ما شوش على الكثيرين. من يدري؟ ربما كان في ذلك ظلم أن لم نقل خطأ. فإن لنموذج بازاروف، على الأقل، حقوقاً في المديح والرضا بقدر حقوق النماذج التي سبقتة. وقد ذكرت توأ أن موقف المؤلف من بطل الرواية قد شوش على القارئ. فالقارئ يشعر بالخرج دوماً وسرعان ما تستولي عليه الحيرة، وحتى الكتابة، عندما يرى المؤلف يعامل الشخصية التي يصورها معاملته لكائن حي، فيلاحظ ويعرض على الملاء جوانبها الرديئة والجيدة، والأهم إذا كان المؤلف لا يبدي تعاطفاً جلياً أو نفوراً واضحاً أزاء بطله. والقارئ على استعداد للنسيان وراء الغضب، إذ يجد نفسه مضطراً إلى أن يشق الطريق بنفسه بعد أن اعتاد السير على درب مطروق. وتبادر إلى ذهنه أفكار من قبيل: «هذه قضية شاقة! الكتب موجودة لأجل التسلية وليس لاجهاد الفكر. ثم هل كان من الصعب على المؤلف أن يخبرني كيف أفكر بهذه الشخصية

(٨٢) بطل ملحمة بوشكين «يفغيني اونيغين».

(٨٣) الشخصية الروسية في رواية ليرمونتوف «بطل زماننا».

كما يفكر فيها هو؟» أما إذا كان موقف المؤلف من تلك الشخصية أقل تحديداً ووضوحاً، وإذا كان المؤلف نفسه لا يدري هل يحب بطله أم لا (كما حدث لي بخصوص بازاروف، «فالميل العفوي» الذي أشرت إليه في يومياتي لا يعني الحب) فالحال تغدو على أسوأ ما يكون! والقارئ مستعد، عندئذ، أن ينسب إلى مؤلف أو يفرض عليه تعاطفاً لا وجود له أو نفوراً لا أساس له، وذلك لمجرد أن يخرج من حالة «اللاتحديد» المزعجة.

قالت لي سيدة ظريفة بعد أن فرغت من مطالعة كتابي: «العنوان الحقيقي لقصتك هو «لا الآباء ولا البنون». وأنت نفسك نهلستي». واعرِب البعض عن مثل هذا الرأي بشدة أكبر عندما صدرت «الدخان»^(٨٤). وأنا هنا لا اجروء على الاعتراض. فلربما كانت هذه السيدة على حق. في مجال التأليف (وأنا احكم على ذلك من تجربتي) يفعل المرء ليس ما يريد بل ما يستطيع فعله وبالقدر الذي يوفق فيه. اتصور أن الحكم على النتاجات الادبية ينبغي أن يصدر ^(٨٥) en gros ، وعندما نطالب المؤلف بالنزاهة الكاملة ينبغي أن ننظر إلى سائر جوانب نشاطه بهدوء، أن لم أقل بلا ابالية. ورغم رغبتني الشديدة في ارضاء نقادي فأنني لا استطيع القول بأني مذنب في تجنب النزاهة.

تجمعت لدي بخصوص «الآباء والبنون» طائفة من الرسائل والوثائق الأخرى التي تستحق الاهتمام. وقد لا تخلو المقارنة بينها من فائدة. ففي الوقت الذي يتهمني فيه البعض باهانة جيل الشباب وبالتخلف والظلامية ويقولون لي انهم «يحرقون صوري الفوتوغرافية وسط قهقهة الاحتقار»، يلومني البعض الآخر غاضبين، على العكس، بالتزلف إلى نفس جيل الشباب هذا. وكتب لي أحدهم قائلاً: «أنك تزحف عند قدمي بازاروف!

(٨٤) صدرت رواية إيفان تورغينيف «الدخان» عام ١٨٦٧.

(٨٥) عموماً (بالفرنسية).

فأنت تتظاهر فقط بأنك تشجبه، ولكنك في الواقع تتزلف إليه وتنتظر منه، كالصدقة، ابتسامة تافهة!...»

وهكذا يا اخواني الشباب، أوجه كلامي إليكم. أريد أن أقول لكم على لسان غوته معلمنا جميعاً:

Greift nur hinein ins volle Menschenleben!

Ein jeder lebt's – nicht vielen it's bekannt,

Und wo ihr's packt – da ist's interessant! ^(٨٦)

أن قوة هذا «التشبث»، قوة «تصيد» الحياة هذا، لا تمنحها إلا الموهبة، ولكن الموهبة لا تكتسب، ثم أن الموهبة وحدها غير كافية. فلا بد من التفاعل المتواصل مع البيئة التي ينوي الكاتب تجسيدها: لا بد من الصدق، الصدق الذي لا يرحم، فيما يخص أحاسيس الكاتب الشخصية، ولا بد من الحرية، الحرية الكاملة في الآراء والمعتقدات، ولا بد، أخيراً، من التعلم والمعرفة!.. فالعلم نور، كما يقول المثل الشعبي، ولكنه ليس نورا فقط، أنه الحرية أيضاً. ليس هناك ما يحرر الإنسان أكثر من المعرفة، وليس هناك ميدان يحتاج إلى الحرية أكثر من ميدان الفن والشعر، وليس من قبيل الصدفة أن يقال عن الفن حتى في اللغة الرسمية بأنه حر «طليق». فهل يستطيع الإنسان أن «يتشبث» بما يحيطه و«يتصيد» إذا كان مقيداً من الداخل؟ كان بوشكين قد تحسس هذه الحقيقة بعمق. فليس عبثاً أن قال في السوناتا الخالدة التي يتعين على كل كاتب مبتدئ أن يحفظها عن ظهر قلب ويتذكرها كالوصية:

(٨٦) اغرز يدك (لا استطيع أن اترجم هذا التعبير بشكل أفضل) في الداخل، في أعماق الحياة البشرية! الجميع يعيشون تلك الحياة، ولكن ما اقل الذين يعرفونها. وعندما تتشبث بركن منها ستجد المتعة هناك! (ملاحظة تورغينيف).

سر على طريق الحرية

بهدى العقل الحر... (٨٧)

... كلا، لا يمكن للفنان الحقيقي أن يعيش بدون الصدق، بدون المعرفة بأوسع معاني الكلمة، في الموقف من نفسه ومن الأفكار والانظمة التي يتبناها، بل وحتى في الموقف من شعبه ومن تاريخ بلاده. لا يمكن العيش بدون هذا الهواء...

ايفان تورغينيف

١٨٦٨ - ١٨٦٩

بادن - بادن

(٨٧) من قصيدة الكسندر بوشكين «ايها الشاعر»، ١٨٣٠.

طلب أحد الصحفيين الروس مرّة من الشاعر الداغستاني الكبير رسول حمزاتوف أن يعطيه تعريفاً للأدب الروسي، فأجاب حمزاتوف قائلاً - إنه أدب (الآباء والبنون) و(الجريمة والعقاب) و(الحرب والسلام).

وهكذا تقف رواية تورغينيف (الآباء والبنون) التي أهداها إلى ذكرى بيلنسكي والتي حققت له شهرة عالمية، في طليعة هذا الأدب، إذ أنه في الواقع كتب رواية فكرية بحثة في إطار ممتع وفتني جميل. وتعتبر اليوم أقوى آثاره وأروعها. وقد ترجمت إلى عدة لغات. "الآباء والبنون" تصوّر الصراع الأبدي والدائم بين الأجيال في المجتمعات الإنسانية كافة، وهي رواية الحب والثورة. وقد قال عنها تشيخوف: "أي رواية عظيمة هذه". روايته في العشية اسمها موسوم في عشية إلغاء نظام القنانة في روسيا، مصوراً فيها إدراك بطلي الرواية بضرورة النضال على الصعيد العملي لتحرير الوطن والشعب.

إيخان تورغينيف، روائي روسي (ولد في ٩ نوفمبر ١٨١٨ وتوفي في ٢٢ أغسطس ١٨٨٣) وهو يعتبر واحداً من أهم كتاب الواقعية في الأدب العالمي. ولد في عائلة أرستقراطية، لأب ضابط متقاعد في سلاح الخيالة، أمضى طفولته في قرية «أوريل» في مقاطعة «سياسكوي لوتوفينو» ثم انتقل مع عائلته إلى موسكو عام ١٨٢٣، وانتسب إلى جامعة موسكو، وبعد عام انتقل إلى جامعة بطرسبرغ فدرس الفلسفة في كلية الآداب وتخرج منها عام ١٨٢٧.

بدأ الكتابة منذ أن كان طالباً، ثم نشر قصص في مجلة تحت عنوان «مذكرات صياد» وقد حقق بذلك شهرة واسعة في روسيا. ومنذ أن نشر قصصه الأولى قال عنه الناقد الروسي الكبير بيلنسكي: "إن تورغينيف سيصبح كاتب روسيا المبدع في المستقبل".

لم يتزوج تورغينيف أبداً، لكنه أنجب بنتاً غير شرعية.

خلال السنوات الأخيرة اختار فرنسا للاقامة فيها نهائياً، واستقبل فيها بحفاوة من جانب اديباء من طبقة جورج صاند وغوستاف فلوبير والأخوين غونكور، هو الذي لم يتمكن من التفاعل حقاً مع الحياة الأدبية الروسية، واشتهرت سجلاته مع تولستوي ودوستويفسكي فيها. ولكن لئن كانت الحياة الأدبية الروسية لم تستسغ تورغينيف وأسلوبه الثوري الساخر في التعامل مع الأمور الجادة، فإن القراء الروس تابعوه جيداً.

ISBN 284306226-8



9 782843 062261

